الضعيف والمسكوت عنه

تاريخ الطبري

الخلافة في عهد العباسيين

١٤٧ هـ - ١٩٣ هـ

للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري

(٢٢٤ - ٣١٠ هـ)

حققه وخرج رواياته وعلق عليه

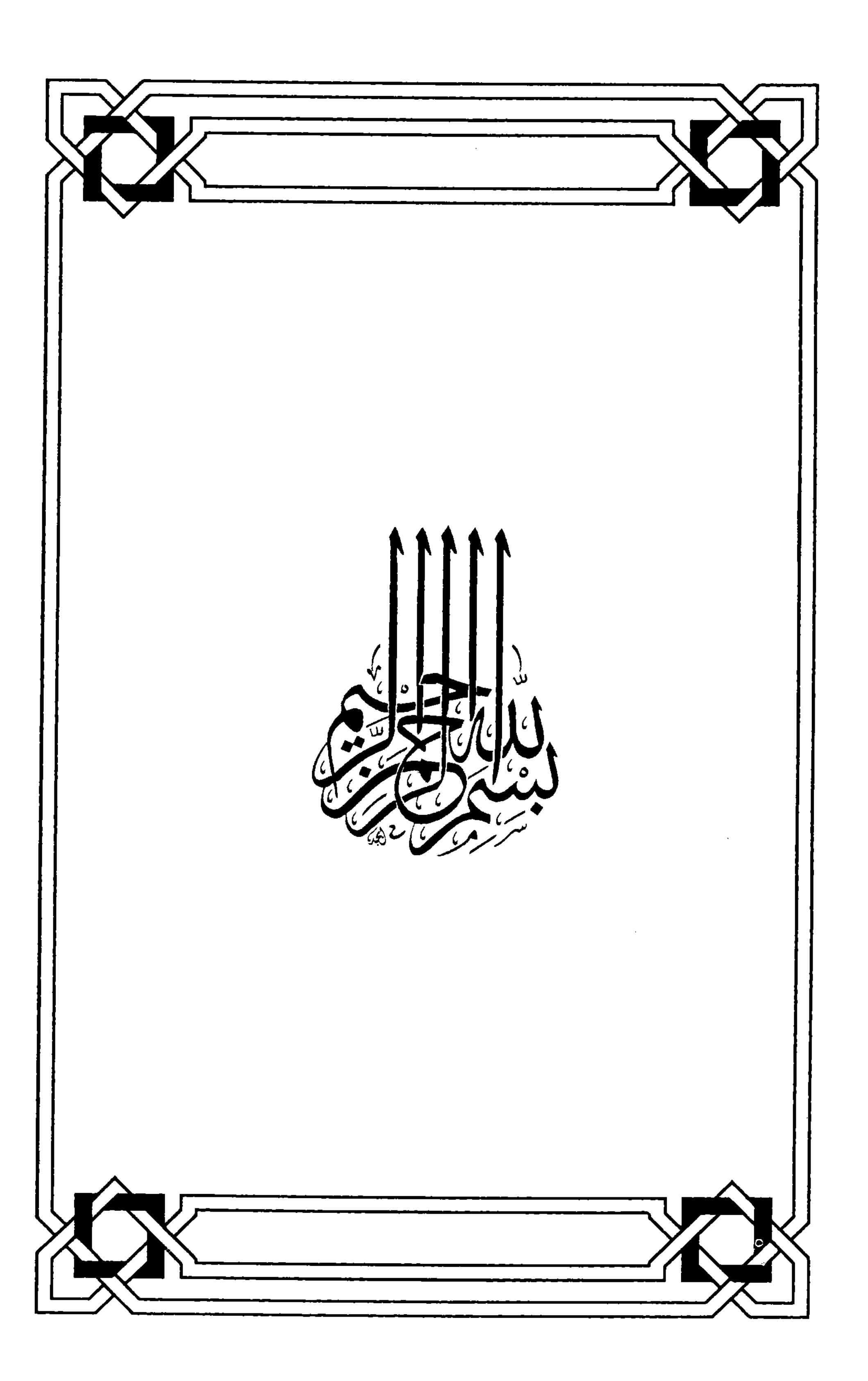
محمد بن طاهر البرزنجي

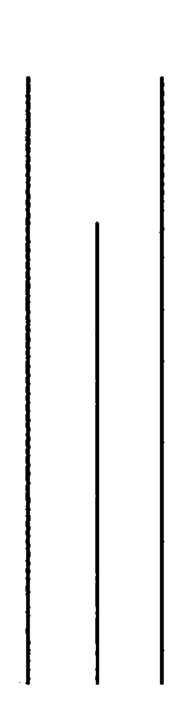
بإشراف ومراجعة المحقق

محمد صبحي حسن حلاق

المجلد الحادي عشر

دار ابن كثير


بسم الله الرحمن الرحيم



الضَّعِيفُ وَالمَسْكُوتُ عَنْهُ

تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ

الخِلَافَةُ فِي عَهْدِ العَبَّاسِيِّينَ



الطبعة الأولى

1428 هـ ــ 2007 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ــ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : تاريخ

العنوان : صحيح و ضعيف تاريخ الطبري 13/1

التأليف : الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 6299

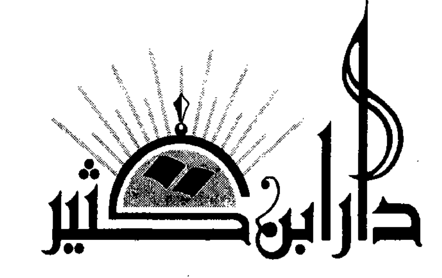
القياس : 17×24

نوع التجليد : فني – كعب لوحة

الوزن : 13 كغ

التنفيذ الطباعي : مطابع المستقبل

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد



دمشق ــ حلبوني ــ جادة ابن سينا ــ بناء الجابي

ص.ب : 311 ــ هاتف : 2225877 ــ 2228450 ــ فاكس : 2243502

بيروت ــ برج أبي حيدر ــ خلف دبوس الأصلي ــ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ــ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

تتمة تأريخ الخلافة في عهد العباسيين

[١٤٧ هـ ـ ١٩٣ هـ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن عليّ بن عباس. واختلفوا في سبب هلاكه، فقال بعضهم ما ذكره عليّ بن محمد النَّوفليّ عن أبيه أنّ أبا جعفر حجّ سنة سبع وأربعين ومائة بعد تقدمته المهديّ على عيسى بن موسى بأشهر، وقد كان عزل عيسى بن موسى عن الكوفة وأرضها، وولّى مكانه محمد بن سليمان بن عليّ، وأوفده إلى مدينة السلام، فدعا به، فدفع إليه عبد الله بن عليّ سرّاً في جوف الليل. ثم قال له: يا عيسى؛ إن هذا أراد أن يزيل النعمة عني وعنك، وأنت وليّ عهدي بعد المهديّ، والخلافة صائرة إليك، فخذه إليك فاضرب عنقه، وإياك أن تخور أو تضعف، فتنقض عليّ أمري الذي دَبّرتُ[1].

ثم مضى لوجهه، وكتب إليه من طريقه ثلاثَ مرات يسأله: ما فعل في الأمر الذي أوعز إليه فيه؟ فكتب إليه: قد أنفذتُ ما أمرت به؛ فلم يشكّ أبو جعفر في أنه قد فعل ما أمره به، وأنه قد قتل عبد الله بن عليّ؛ وكان عيسى حين دفعه إليه ستره؛ ودعا كاتبه يونس بن فَرْوَة، فقال له: إنّ هذا الرجل دفع إليّ عمَّه، وأمرني فيه بكذا وكذا. فقال له: أراد أن يقتلك ويقتله، أمرك بقتله سرّاً، ثم

(١) أما أصل الخبر ـ وفاة عبد الله بن علي بن عباس ـ فقد ذكرناه في الصحيح وأما ما سيذكر الطبري وما ذكره من تفاصيل فلم نجد لها تأييداً من مصدر متقدم ثقة، والله أعلم. انظر البداية والنهاية [٨/ ٦٠].

يدّعيه عليك علانية ثم يُقيدك به. قال: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تستره في منزلك، فلا تطلِعْ على أمره أحداً، فإن طلبه منك علانيةً دفعتَه إليه علانية، ولا تدفعه إليه سرّاً أبداً؛ فإنه وإن كان أسرّه إليك؛ فإن أمره سيظهر. ففعل ذلك عيسى.

وقدم المنصور ودسّ إلى عُمومته مَنْ يحرّكهم على مسألته هبةَ عبد الله بن عليّ لهم، ويطمعهم في أنه سيفعل. فجاءوا إليه وكلموه ورقّقوه، وذكروا له الرّحِم، وأظهروا له رِقة، فقال: نعم، عليّ بعيسى بن موسى؛ فأتاه فقال له: يا عيسى؛ قد علمتَ أني دفعت إليك عمّي وعمك عبد الله بن عليّ قبل خروجي إلى الحجّ، وأمرتك أن يكون في منزلك، قال: قد فعلتُ ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فقد كلمني عمومتك فيه، فرأيتُ الصّفح عنه وتخليةَ سبيله؛ فأتنا به. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ألم تأمرني بقتله فقتلته! قال: ما أمرتُك بقتله، إنما أمرتك بحبسه في منزلك. قال: قد أمرتني بقتله، قال له المنصور: كذبت، ما أمرتك بقتله. ثم قال لعمومته: إنّ هذا قد أقرّ لكم بقتْل أخيكم، وادّعى أني أمرته بذلك، وقد كذَب، قالوا: فادفعه إلينا نقتله به، قال: شأنكم به، فأخرجوه إلى الرَّحَبَة، واجتمع الناس، وشُهر الأمر، فقام أحدهم فشهر سيفه، وتقدّم إلى عيسى ليضربَه، فقال له عيسى: أفاعل أنت؟ قال: إي والله، قال: لا تعجلوا، ردّوني إلى أمير المؤمنين، فردّوه إليه، فقال: إنما أردْتَ بقتله أن تقتلني؛ هذا عمُّك حيٌّ سوِيٌّ، إن أمرتَني بدفعه إليك دفعتُه. قال: ائتنا به، فأتاه به، فقال له عيسى: دبَّرتَ عليّ أمراً فخشيتُه؛ فكان كما خشيت؛ شأنَك وعمَّك. قال: يدخل حتى أرى رأيي. ثم انصرفوا، ثم أمر به فجُعل في بيت أساسه مِلْح، وأجري في أساسه الماء، فسقط عليه فمات؛ فكان من أمره ما كان. وتوفِّيَ عبد الله بن عليّ في هذه السنة ودفن في مقابر باب الشام؛ فكان أول من دفن فيها.

وذُكر عن إبراهيم بن عيسى بن المنصور بن بُرَيْه أنه قال: كانت وفاة عبد الله بن عليّ في الحبس سنة سبع وأربعين ومائة، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة[1].

---

(١) (٨/ ٧ ـ ٨ ـ ٩) هذا الخبر الطويل ذكره الطبري من طريق النوفلي عن أبيه (لم نجد له ترجمة) ولم يذكر الواسطة بينه وبين النوفلي، ولم نجد من يؤيد هذه التفاصيل، وقد ذكره ابن كثير =

قال إبراهيم بن عيسى: لما توفّيَ عبد الله بن عليّ ركب المنصور يوماً ومعه عبد الله بن عيّاش، فقال له وهو يجاريه: أتعرف ثلاثة خلفاء، أسماؤهم على العين مبدؤها، قتلوا ثلاثة خوارجَ مبدأ أسمائهم العين؟ قال: لا أعرف إلا ما تقول العامّة؛ إنّ عليّاً قتل عثمان ـ وكذبوا ـ وعبد الملك بن مروان قتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وعبد الله بن الزبير وعمرو بن سعيد وعبد الله بن عليّ سقط عليه البيت، فقال له المنصور: فسقط على عبد الله بن عليّ البيت، فأنا ما ذنبي؟ قال: ما قلت إنّ لك ذنباً.

ذكر الخبر عن سبب خلعه إياه وكيف كان الأمر في ذلك

اختُلف في الذي وصل به أبو جعفر إلى خلعه، فقال بعضهم: السبب الذي وصل به أبو جعفر إلى ذلك هو أن أبا جعفر أقرّ عيسى بن موسى بعد وفاة أبي العباس على ما كان أبو العباس ولاّه من ولاية الكوفة وسوادِها، وكان له مكرماً مجلاًّ، وكان إذا دخل عليه أجلسه عن يمينه، وأجلس المهديّ عن يساره؛ فكان ذلك فعله به؛ حتى عزم المنصور على تقديم المهديّ في الخلافة عليه. وكان أبو العباس جعل الأمر من بعده لأبي جعفر، ثم من بعد أبي جعفر لعيسى بن موسى؛ فلما عزم المنصور على ذلك كلّم عيسى بن موسى في تقديم ابنه عليه برفيق من الكلام، فقال عيسى: يا أمير المؤمنين؛ فكيف بالأيمان والمواثيق التي عليّ وعلى المسلمين لي من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الأيمان! ليس إلى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين. فلما رأى أبو جعفر امتناعَه، تغيّر لونُه وباعده بعض المباعدة، وأمر بالإذن للمهديّ قبله؛ فكان يدخل فيجلس عن يمين المنصور أيضاً، في مجلس عيسى، ثم يؤذَن لعيسى فيدخل فيجلس دون مجلس المهدي عن يمين المنصور ولا يجلس عن يساره في المجلس الذي كان يجلس فيه المهديّ، فيغتاظ من ذلك المنصور، ويبلغ منه، فيأمر بالإذن للمهديّ ثم يأمر بعده بالإذن لعيسى بن عليّ، فيلبث هنيهة، ثم عبد الصمد بن عليّ، ثم يلبث هنيهة، ثم عيسى بن موسى. فإذا كان بعد ذلك قدّم في الإذن للمهديّ على كل

= [البداية والنهاية (٨/ ٦١)]، وانظر تأريخ بغداد [١٠/ ٨]، و[المنتظم ٨/ ١٠٧].

حال ، ثم يخلط في الآخرين ، فيقدِّم بعض مَنْ أخّر ويؤخر بعض مَنْ قَدّم ويُوهم عيسى بن موسى أنه إنما يبدأ بهم لحاجة تعرض ولمذاكرتهم بالشيء من أمره؛ ثم يؤذن لعيسى بن موسى من بعدهم ، وهو في ذلك كله صامت لا يشكو منه شيئاً ، ولا يستعتب. ثم صار إلى أغلظ من ذلك؛ فكان يكون في المجلس معه بعض ولده ، فيسمع الحفْر في أصل الحائط فيخاف أن يخرّ عليه الحائط ، وينتثر عليه التراب ، وينظر إلى الخشبة من سقف المجلس قد حُفر عن أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب على قلنسوته وثيابه ، فيأمر مَنْ معه من ولده بالتحويل. ويقوم هو فيصلِّي ، ثم يأتيه الإذن فيقوم فيدخل بهيئته والتراب عليه لا ينفضه؛ فإذا رآه المنصور قال له: يا عيسى ، ما يدخل عليّ أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب! أفكلّ هذا من الشارع؟ فيقول: أحسب ذلك يا أمير المؤمنين؛ وإنما يكلمه المنصور بذلك ليستطعمه أن يشكوَ إليه شيئاً فلا يشكو؛ وكان المنصور قد أرسل إليه في الأمر الذي أراد منه عيسى بن عليّ ، فكان عيسى بن موسى لا يحمَد منه مدخلَه فيه؛ كأنه كان يغري به. فقيل: إنه دسّ لعيسى بن موسى بعض ما يتلفه؛ فنهض من المجلس ، فقال له المنصور: إلى أين يا أبا موسى؟ قال: أجد غمزاً يا أمير المؤمنين ، قال: ففي الدار إذاً! قال: الذي أجده أشدّ مما أقيم معه في الدار ، قال: فإلى أين؟ قال: إلى المنزل؛ ونهض فصار إلى حَرَّاقته ، ونهض المنصور في أثره إلى الحرّاقة متفزّعاً له ، فاستأذنه عيسى في المسير إلى الكوفة ، فقال: بل تقيم فتعالج ها هنا ، فأبى وألحّ عليه ، فأذن له. وكان الذي جرّأه على ذلك طبيبه بختيشوع أبو جبرئيل ، قال: إني والله ما أجترىء على معالجتك بالحضْرة ، وما آمن على نفسي. فأذن له المنصور ، وقال له: أنا على الحجّ في سنتي هذه ، فأنا مقيم عليك بالكوفة حتى تفيق إن شاء الله.

وتقارب وقتُ الحجّ ، فشخص المنصور حتى صار بظهر الكوفة في موضع يدعَى الرّصافة ، فأقام بها أياماً ، فأجرى هناك الخيل ، وعاد عيسى غير مرّة ، ثم رجع إلى مدينة السلام ولم يحجّ ، واعتلَّ بقلة الماء في الطريق. وبلغت العلّة من عيسى بن موسى كلَّ مبلغ؛ حت تمعّط شعرُه ، ثم أفاق من علّته تلك ، فقال فيه يحيى بن زياد بن أبي حزابة البُرْجُميّ أبو زياد:

أَفلَتَ من شَرْبَة الطبيب كما أَفلَت ظَبْيُ الصَّريم من قُتَرِهْ

مـن قـانـصٍ يُنْفِـذُ الفَـرِيـصَ إذا رَكَّـبَ سَهْـمَ الحُتُـوف فـي وتَـرِهْ
دافَـعَ عنـك المَليـك صَـوْلَـةَ لَيـ ـثٍ يُـرِيـدُ الأَسْـدَ فـي ذرَى خَمَـرِهْ
حتـى أَتَـانـا وفيـه داخِلَـةٌ تُعـرفُ فـي سمعِـهِ وفـي بَصَـرِهْ
أَزْعَـر قـد طـار عـن مفـارِقِـه وحْـفُ أَثِيـثِ النَّبـاتِ مـن شَعَـرِهْ

وذُكر أنّ عيسى بن عليّ كان يقول للمنصور: إنّ عيسى بن موسى إنما يمتنع من البيعة للمهديّ لأنه يربّص هذا الأمر لابنه موسى، فموسى الذي يمنعه. فقال المنصور لعيسى بن عليّ: كلم موسى بن عيسى وخوّفه على أبيه وعلى ابنه؛ فكلّم عيسى بن عليّ موسى في ذلك، فأيأسه، فتهدده وحذّره غضب المنصور. فلما وجل موسى وأشفق وخاف أن يقع به المكروه، أتى العباس بن محمد، فقال: أيْ عم، إني مكلمك بكلام، لا والله ما سمعه مني أحدٌ قطّ، ولا يسمعه أحد أبداً؛ وإنما أخرجه مني إليك موضعُ الثقة بك والطمأنينة إليك؛ وهو أمانة عندك؛ فإنما هي نفسي أنثلها في يدك. قال: قل يا بنَ أخي؛ فلك عندي ما تحبّه، قال: أرى ما يُسام أبي من إخراج هذا الأمر منِ عنقه وتصييره للمهديّ؛ فهو يؤذَىٰ بصنوف الأذى والمكروه، فيُتهدّد مرة ويؤخّر إذنه مرّة، وتُهدّم عليه الحيطان مرّة، وتدسّ إليه الحتوف مرّة، فأبي لا يعطي على هذا شيئاً؛ لا يكون ذلك أبداً، ولكنّ ها هنا وجهاً، فلعله يعطي عليه إن أعطىٰ وإلاّ فلا، قال: فما هو يا بن أخي؟ فإنك قد أصبت ووفّقت، قال: يقبل عليه أمير المؤمنين وأنا شاهد فيقول له: يا عيسى، إني أعلم أنك لستَ تضنّ بهذا الأمر على المهديّ لنفسك؛ لتعالي سنّك وقرب أجلِك؛ فإنك تعلم أنه لا مدّة لك تطول فيه؛ وإنما تضنّ به لمكان ابنك موسى؛ أفتراني أدَعُ ابنَك يبقى بعدك ويبقى ابني معه فيلي عليه! كلاّ والله لا يكون ذلك أبداً؛ ولأثبنّ على ابنك وأنت تنظر حتى تيأس منه، وآمن أن يلِيَ على ابني، أترى ابنك آثر عندي من ابني! ثم يأمر بي؛ فإما خنِقت وإما شُهر علي سيف، فإن أجاب إلى شيء فعسى أن يفعل بهذا السبب؛ فأما بغيره فلا. فقال العباس: جزَاك الله يا بن أخي خيراً، فقد فديت أباك بنفسك، وآثرت بقاءه على حظك، نعم الرأي رأيت، ونعم المسلك سلكت!

ثم أتى جعفر فأخبره الخبر، فجزَى المنصور موسى خيراً، وقال: قد أحسن وأجمل، وسأفعل ما أشار به إن شاء الله، فلما اجتمعوا وعيسى بن عليّ حاضر،

أقبل المنصور على عيسى بن موسى ، فقال: يا عيسى؛ إني لا أجهل مذهبك الذي تضمره ، ولا مداك الذي تجرِي إليه في الأمر الذي سألتك؛ إنما تريد هذا الأمر لابنك هذا المشؤوم عليك وعلى نفسه؛ فقال عيسى بن عليّ: يا أميرَ المؤمنين ، غمزني البوْل ، قال: فندعو لك بإناء تبول فيه ، قال: أفي مجلسك يا أمير المؤمنين! ذاك ما لا يكون ، ولكن أقرب البلاليع مني أدَلّ عليها فآتيها. فأمر من يدلّه ، فانطلق ، فقال عيسى بن موسى لابنه موسى: قمْ مع عمك ، فاجمع عليه ثيابه من ورائه ، وأعطه منديلاً إن كان معك ينشّف به ، فلما جلس عيسى يبولُ جمع موسى عليه ثيابَه من ورائه وهو لا يراه ، فقال: مَنْ هذا؟ فقال: موسى بن عيسى ، فقال: بأبي أنت وبأبي أبٌ ولدك! والله إني لأعلم أنه لا خير في هذا الأمر بعدكما ، وإنكما لأحقّ به؛ ولكن المرء مغرًى بما تعجّل ، فقال موسى في نفسه: أمكنني والله هذا من مقاتله؛ وهو الذي يغري بأبي ، والله لأقتلنّه بما قال لي ، ثم لا أبالي أن يقتلني أمير المؤمنين بعده ، بل يكون في قتله عزاء لأبي وسلوّ عني إن قتلت. فلما رجعا إلى موضعهما قال موسى: يا أميرَ المؤمنين ، أذكر لأبي أمراً؟ فسرّه ذلك ، وظنّ أنه يريد أن يذاكره بعض أمرهم ، فقال: قم ، فقام إليه ، فقال: يا أبتِ؛ إن عيسى بن عليّ قد قتلك وإيايّ قتلات بما يُبلغ عنا ، وقد أمكنني من مقاتله ، قال: وكيف؟ قال: قال لي كيت وكيت ، فأخبرُ أمير المؤمنين فيقتله؛ فتكون قد شفيت نفسك وقتلته قبل أن يقتلك وإياي ثم لا نبالي ما كان بعدُ. فقال: أفٍّ لهذا رأياً ومذهباً! ائتمنك عمُّك على مقالة أراد أن يسرَّك بها ، فجعلتها سبباً لمكروهه وتلفِه! لا يسمعنّ هذا منك أحد ، وعُدْ إلى مجلسك. فقام فعاد ، وانتظر أبو جعفر أن يرى لقيامه إلى أبيه وكلامه أثراً فلم يره ، فعاد إلى وعيد الأوّل وتهدده ، فقال: أما والله لأعجلنّ لك فيه ما يسوءُك ويُؤئسك من بقائه بعدك ، أيا ربيع ، قم إلى موسى فاخنقه بحمائله ، فقام الرّبيع فضمّ حمائله عليه ، فجعل يخنقه بها خنْقاً رُويداً ، وموسى يصيح: اللهَ اللهَ يا أمير المؤمنين فيّ وفي دمي! فإني لبعيد مما تظنّ بي ، وما يبالي عيسى أن تقتلني وله بضعة عشر نفراً ذكراً ـ كلهم عنده مثلي ـ أو يتقدمني؛ وهو يقول: اشدُد يا ربيع ، ائت على نفسه ، والرّبيع يوهم أنه يريد تلفَه ، وهو يراخِي خناقه ، وموسى يصيح ، فلما رأى ذاك عيسى قال: والله يا أمير المؤمنين ما ظننتُ أنّ الأمر يبلغ منك هذا كله فمر بالكفّ عنه؛ فإني لم أكن لأرجع إلى أهلي؛ وقد قتل بسبب هذا

الأمر عبدٌ من عبيدي ، فكيف بابني! فها أنا أشهدك أنّ نسائي طوالق ومماليكي أحرار ، وما أملك في سبيل الله ، تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين؛ وهذه يدي بالبيعة للمهديّ. فأخذ بيعته له على ما أحبّ ثم قال: يا أبا موسى؛ إنك قد قضيتَ حاجتي هذه كارهاً ، ولي حاجة أحبّ أن تقضيها طائعاً فتغسل بها ما في نفسي من الحاجة الأولى ، قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: تجعل هذا الأمر من بعد المهديّ لك ، قال: ما كنتُ لأدخل فيها بعد إذ خرجت منها. فلم يدَعْه هو ومَنْ حضره من أهل بيته حتى قال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنت أعلم. فقال بعض أهل الكوفة ـ ومرّ عليه عيسى في موكبه: هذا الذي كان غداً ، فصار بعد غدٍ.

وهذه القصة ـ فيما قيل ـ منسوبة إلى آل عيسى أنهم يقولونها(١).

وأما الذي يحكى عن غيرهم في ذلك؛ فهو أنّ المنصور أراد البَيْعة للمهديّ ، فكلّم الجُنْد في ذلك ، فكانوا إذا رأوْا عيسى راكباً أسمعوه ما كرِه ، فشكا ذلك إلى المنصور ، فقال للجند: لا تؤذوا ابن أخي؛ فإنه جِلْدة بين عينيّ ، ولو كنتُ تقدّمت إليكم لضربت أعناقكم؛ فكانوا يكفّون ثم يعودون؛ فمكث بذلك زماناً ، ثم كتب إلى عيسى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . من عبد الله عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى عيسى بن موسى. سلامٌ عليك؛ فإنّي أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فالحمد لله ذي المنّ القديم ، والفضل العظيم ، والبلاء الحَسن الجميل ، الذي ابتدأ الخلق بعلْمه ، وأنفذ القضاء بأمره؛ فلا يبلغ مخلوقٌ كنهَ حقّه ، ولا ينال في عظمته كُنْهَ ذكره ، يدبِّر ما أراد من الأمور بقدْرته ، ويصدرها عن مشيئته؛ لا قاضي فيها غيره ، ولا نفاذ لها إلا به ، يجريها على أذلالها؛ لا يستأمر فيها وزيراً ، ولا يشاور فيها معيناً ، ولا يلتبس عليه شيء أراده ، يمضي قضاؤه فيما أحبّ العباد وكرهوا؛ لا يستطيعون منه امتناعاً ، ولا عن أنفسهم دفاعاً ، ربّ الأرض ومَنْ عليها ، له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين.

---

(١) هكذا ذكر الطبري هذا الخبر الطويل دون إسناد سوىٰ أنه منسوب إلى آل عيسى؛ فالله أعلم.

ثم إنك قد علمتَ الحال التي كنا عليها في ولاية الظلَمة ، كيف كانت قوّتنا وحيلتُنا ، لما اجترأ عليه أهل بيت اللعنة فيما أحببنا وكرهنا ، فصبرنا أنفسنا على ما دعونا إليه من تسليم الأمور إلى من أسندوها إليه ، واجتمع رأيُهم عليه ، نُسام الخسف ، ونوطأ بالعسْف ، لا ندفعُ ظلماً ، ولا نمنع ضيماً ، ولا نعطي حقاً ، ولا ننكر منكراً ، ولا نستطيع لها ولا لأنفسنا نفعاً ، حتى إذا بلغ الكتابُ أجلَه ، وانتهى الأمر إلى مدّته ، وأذن الله في هلاك عدوه ، وارتاح بالرّحمة لأهل بيت نبيه ﷺ ؛ فابتعث الله لهم أنصاراً يطلبون بثأرهم ، ويجاهدون عَدُوّهم ، ويدعون إلى حبّهم ، وينصرون دولَتهم ، من أرضين متفرّقة ، وأسباب مختلفة ، وأهواء مؤتلفة ، فجمعهم الله على طاعتنا ، وألّف بين قلوبهم بمودّتنا على نصرتنا ، وأعزّهم بنصرنا ، لم نلق منهم رجلاً ، ولم نشهر معهم إلا ما قذف الله في قلوبهم؛ حتى ابتعثهم لنا من بلادهم ، ببصائر نافذة ، وطاعة خالصة ، يلقوْن الظّفَر ، ويعودون بالنصر ، ويُنصَرون بالرّعب ، لا يلقون أحداً إلا هَزَمُوه ، ولا واتراً إلا قتلوه؛ حتى بلغ الله بنا بذلك أقصى مدانا وغاية منانا ومنتهى آمالنا وإظهار حقنا ، وإهلاك عدوّنا؛ كرامةً من الله جلّ وعزّ لنا ، وفضلاً منه علينا ، بغير حوْل منا ولا قوّة ، ثم لم نَزلْ من ذلك في نعمة الله وفضله علينا ، حتى نشأ هذا الغلام ، فقذف الله له في قلوب أنصار الدّين الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا أوّل أمرنا ، وأشرب قلوبهم مودّتَه ، وقسم في صدورهم محبّته ، فصاروا لا يذكرون إلاّ فضله ، ولا ينوّهون إلا باسمه ، ولا يعرفون إلاّ حقه ، فلمّا رأى أمير المؤمنين ما قذف الله في قلوبهم من مودته ، وأجرى على ألسنتهم من ذكره ، ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه ، ودعاء العامة إلى طاعته ، أيقنتْ نفس أمير المؤمنين أنّ ذلك أمر تولاّه الله وصنَعه؛ لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ، ولا مؤامرة ولا مذاكرة؛ للّذي رأى أمير المؤمنين مِن اجتماع الكلمة ، وتتابع العامّة؛ حتى ظن أمير المؤمنين أنه لولا معرفة المهديّ بحق الأبوّة ، لأفضت الأمور إليه. وكان أمير المؤمنين لا يمنع مما اجتمعت عليه العامّة ، ولا يجد مناصاً عن خلاص ما دعوا إليه ، وكان أشدّ الناس على أمير المؤمنين في ذلك الأقرب فالأقرب من خاصّته وثقاته من حرسه وشرطه؛ فلم يجد أمير المؤمنين بدّاً من استصلاحهم ومتابعتهم؛ وكان أمير المؤمنين وأهل بيته أحقّ مَنْ سارع إلى ذلك

وحرصَ عليه ، ورغب فيه وعرَف فضله ، ورجَا بركتَه ، وصدق الرّواية فيه ، وحمد الله إذ جعل في ذريّته مثل ما سألت الأنبياء قبله؛ إذ قال العبد الصالح: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[1] فوهب الله لأمير المؤمنين وليّاً ، ثم جعله تقيّاً مباركاً مهديّاً ، وللنبيّ ﷺ سميّاً ، وسلب مَن انتحل هذا الاسم ، ودعا إلى تلك الشبهة التي تحيّر فيها أهلُ تلك النية ، وافتتن بها أهلُ تلك الشقوة ، فانتزع ذلك منهم ، وجعل دائرة السوْء عليهم ، وأقرّ الحق قراره ، وأعلن للمهديّ مناره ، وللدين أنصارَه ، فأحبّ أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيّتِه؛ وكنتَ في نفسه بمنزلة ولدِه ، يحبّ مَنْ سترك ورشدك وزيّنَك ما يحبّ لنفسه وولده ، ويرى لك إذا بلغك مِنْ حال ابن عمّك ما تَرى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداءُ ذلك من قِبَلك ، ليعلم أنصارنا من أهل خُراسان وغيرهم أنك أسرع إلى ما أحبّوا ممّا عليه رأيُهم في صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم ، وإنّ ما كان عليه من فضل عرفوه للمهديّ ، أو أملوه فيه ، كنتَ أحظَى الناس بذلك ، وأسرَّهم به لمكانه وقرابَته؛ فاقبل نُصح أمير المؤمنين لك ، تصلُح وترشد. والسلام عليك ورحمة الله.

فكتب إليه عيسى بن موسى جوابها:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى. سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله؛ فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد فقد بلغني كتابُك تذكر فيه ما أجمعتَ عليه من خلاف الحقّ وركوب الإثم في قطيعة الرّحِم ، ونقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة والعهد لي من بعدك ، لتقطع بذلك ما وصل الله من حَبْله ، وتفرّق بين ما ألّف الله جمعَه ، وتجمع بين ما فرّق الله أمره ، مكابرةً لله في سمائه ، وحوْلاً على الله في قضائه ، ومتابعة للشيطان في هواه؛ ومَنْ كابر الله صَرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكَرَه عن شيء خدعه ، ومَنْ توكل على الله منعه ، ومَنْ تواضع لله رفعه. إنّ الذي أسِّس عليه البناء ، وخُطّ عليه الحِذاء من الخليفة الماضي عهدٌ لي من الله ، وأمرٌ نحن فيه سواء؛ ليس لأحد من المسلمين

(١) سورة مريم: ٥ ، ٦.

فيه رُخصة دون أحدٍ؛ فإن وجب وفاء فيه فما الأول بأحق به من الآخر ، وإن حلّ من الآخر شيء فما حرّم ذلك من الأوّل؛ بل الأوّل الذي تلا خبره وعرف أثره ، وكشف عما ظن به وأمّل فيه أسرع؛ وكان الحقّ أولَى بالذي أراد أن يصنع أوّلاً ، فلا يدعوك إلى الأمْن من البلاء اغترارٌ بالله ، وترخيص للناس في ترك الوفاء؛ فإن مَنْ أجابك إلى ترك شيء وجب لي واستحلّ ذلك مني ، لم يحْرج إذا أمكنته الفرصة وأفتنتْه الرّخصة أن يكون إلى مثل ذاك منك أسرع ، ويكون بالذي أسّست من ذلك أبخع. فاقبل العاقبة وارض من الله بما صنع ، وخذ ما أوتيتَ بقوّة ، وكن من الشاكرين. فإن الله جلّ وعزّ زائدٌ مَنْ شكره ، وعْداً منه حقّاً لا خُلفَ فيه؛ فمن راقب الله حفظَه ، ومن أضمر خِلافه خَذله ، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولسنا مع ذلك نأمن مِنْ حوادث الأمور وبَغتَات الموت قبل ما ابتدأت به من قطيعتي؛ فإن تعجّل بي أمرٌ كنت قد كُفيت مؤونة ما اغتممت له ، وسترتَ قُبْح ما أردتَ إظهاره؛ وإن بقيتُ بعدك لم تكن أوغرت صدري ، وقطعت رحِمي؛ ولا أظهرت أعدائي في اتّباع أثرِك ، وقبول أدبك ، وعملٍ بمثالك.

وذكرتَ أن الأمور كلها بيد الله؛ هو مدبّرها ومقدّرها ومصدّرها عن مشيئته؛ فقد صدقْتَ؛ إن الأمور بيد الله ، وقد حقّ على من عَرَف ذلك ووصفه العملُ به والانتهاءُ إليه. واعلم أنّا لسنا جررنا إلى أنفسنا نفعاً ، ولا دفعنا عنها ضرّاً ، ولا نلنا الذي عرفتَه بحولنا ولا قوّتنا؛ ولو وُكِلْنا في ذلك إلى أنفسنا وأهوائنا لضعُفت قوّتنا، وعجزت قدرتنا في طلب ما بلغ الله بنا؛ ولكن الله إذا أراد عزماً لإنفاذ أمره ، وإنجاز وعده ، وإتمام عهده ، وتأكيد عَقْده؛ أحكم إبرامَه ، وأبرم إحكامه ، ونوّر إعلانه ، وثبّت أركانه؛ حين أسس بُنيانه؛ فلا يستطيع العباد تأخيرَ ما عجّل ، ولا تعجيل ما أخّر؛ غير أن الشيطان عدوٌّ مُضلٌّ مُبين؛ قد حذّر الله طاعتَه ، وبيّن عداوته، ينزع بين ولاة الحقّ وأهل طاعته ، ليفرّق جمعهم ، ويشتّت شملهم، ويوقع العداوة والبغضاء بينهم ، ويتبرّأ منهم عند حقائق الأمور ، ومضايق البلايا؛ وقد قال الله عز وجل في كتابه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾(١). ووصف الذين اتقوا فقال: ﴿ إِذَا مَسَّهُمۡ

---

(١) سورة الحج: ٥٢.

طَآئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[١] فأعيذ أمير المؤمنين بالله من أن يكون نيّته وضمير سريرته خلاف ما زيّن الله به جلّ وعزّ مَنْ كان قبله؛ فإنه قد سألتْهم أبناؤهم، ونازعتهم أهواؤهم، إلى مثل الذي همَّ به أمير المؤمنين؛ فآثروا الحقَّ على ما سواه، وعرفوا أن الله لا غالب لقضائه، ولا مانع لعطائه، ولم يأمنوا مع ذلك تغيير النِّعم وتعجيلَ النّقم؛ فآثروا الآجلة، وقبلوا العاقبة، وكرهوا التغيير، وخافوا التبديل؛ فأظهروا الجميل؛ فتمَّم الله لهم أمورَهم، وكفاهم ما أهمَّهم، ومنع سلطانهم، وأعزّ أنصارهم، وكرّم أعوانهم، وشرَّف بنيانهم؛ فتمّت النعم، وتظاهرت المنن، فاستوجبوا الشكر، فتمّ أمر الله وهم كارهون. والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله.

فلما بلغ أبا جعفر المنصور كتابُه أمسك عنه، وغضب غضباً شديداً، وعاد الجند لأشدّ ما كانوا يصنعون؛ منهم أسد بن المرزبان وعُقْبة بن سلْم ونصر بن حرب بن عبد الله؛ في جماعة؛ فكانوا يأتون باب عيسى، فيمنعون مَنْ يدخل إليه؛ فإذا ركب مشوْا خلْفه وقالوا: أنت البقرة التي قال الله ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[٢]، فعاد فشكاهم، فقال له المنصور: يا بن أخي، أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسي؛ قد أشرِبوا حبَّ هذا الفتى؛ فلو قدّمتَه بين يديك فيكون بيني وبينك لكفُّوا. فأجاب عيسى إلى أن يفعل.

وذُكر عن إسحاق الموصلّي، عن الربيع، أن المنصور لما رجع إليه من عند عيسى جواب كتابه الذي ذكرنا، وقّع في كتابه: «اسْلُ عنها تنلْ منها عِوَضاً في الدنيا، وتأمن تبعتَها في الآخرة».

وقد ذكر في وجه خلع المنصور عيسى بن موسى قولٌ غير هذين القولين؛ وذلك ما ذكره أبو محمد المعروف بالأسواريّ بن عيسى الكاتب، قال: أراد أبو جعفر أن يخلع عيسى بن موسى مِنْ ولاية العهد، ويقدّم المهديّ عليه، فأبى أن يجيبَه إلى ذلك، وأعيا الأمرُ أبا جعفر فيه؛ فبعث إلى خالد بن بَرْمك، فقال له: كلِّمه يا خالد؛ فقد ترى امتناعه من البيعة للمهديّ؛ وما قد تقدّمنا به في أمره؛

(١) سورة الأعراف: ٢٠١.
(٢) سورة البقرة: ٧١.

فهل عندك حيلة فيه ، فقد أعيتنا وجوه الحيَل ، وضلّ عنا الرأيُ! فقال: نعم يا أمير المؤمنين؛ تضم إليّ ثلاثين رجلاً من كبار الشّيعة ، ممن تختاره. قال: فركب خالد بن برمك ، وركبوا معه ، فساروا إلى عيسى بن موسى ، فأبلغوه رسالة أبي جعفر المنصور ، فقال: ما كنتُ لأخلع نفسي وقد جعل الله عز وجل الأمر لي؛ فأداره خالد بكلّ وجه من وجوه الحذَر والطمع ، فأبى عليه؛ فخرج خالد عنه وخرجت الشّيعة بعده ، فقال لهم خالد: ما عندكم في أمره؟ قالوا: نبلّغ أمير المؤمنين رسالته ونخبره بما كان منّا ومنه؛ قال: لا ، ولكنا نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب ، ونشهد عليه إن أنكره ، قالوا له: افعل ، فإنا نفعل ، فقال لهم: هذا هو الصّواب. وأبلِغُ أميرَ المؤمنين فيما حاول وأراد.

قال: فساروا إلى أبي جعفر وخالد معهم ، فأعلموه أنه قد أجاب ، فأخرج التوقيع بالبيعة للمهديّ ، وكتب بذلك إلى الآفاق؛ قال: وأتى عيسى بن موسى لما بلغه الخبرُ أبا جعفر منكراً لِما ادُّعِيَ عليه من الإجابة إلى تقديم المهديّ على نفسه ، وذكّره الله فيما قد همّ به. فدعاهم أبو جعفر ، فسألهم فقالوا: نشهد عليه أنه قد أجاب؛ وليس له أن يرجع؛ فأمضى أبو جعفر الأمرَ ، وشكر لخالد ما كان منه؛ وكان المهديّ يعرف ذلك له ، ويصف جزالة الرأي منه فيه.

وذُكِر عن عليّ بن محمد بن سليمان ، قال: حدّثني أبي ، عن عبد الله بن أبي سليم مولَى عبد الله بن الحارث بن نوفل ، قال: إني لأسير مع سليمان بن عبد الله بن الحارث بن نوفل وقد عزم أبو جعفر على أن يقدّم المهديّ على عيسى بن موسى في البيعة ، فإذا نحن بأبي نُخَيلة الشاعر ، ومعه ابناه وعبداه؛ وكلّ واحد منهما يحمل شيئاً من متاع ، فوقف عليهم سليمان بن عبد الله ، فقال: أبا نُخَيلة ، ما هذا الذي أرى؟ وما هذه الحال التي أنت فيها؟ قال: كنتُ نازلاً على القعقاع ـ وهو رجل من آل زرارة ، وكان يتولى لعيسى بن موسى الشُّرْطة ـ فقال لي: اخرج عنّي؛ فإن هذا الرجل قد اصطنعني؛ وقد بلغني أنك قلت شعراً في هذه البَيْعة للمهديّ ، فأخاف إن يبلغه ذلك أن يُلزمني لائمة لنزولك عليّ ، فأزعجني حتى خرجتُ. قال: فقال لي: يا عبد الله؛ انطلق بأبي نُخيلة فبوّئه في منزلي موضعاً صالحاً ، واستوصِ به وبمَنْ معه خيراً. ثمّ خبّر سليمان بن عبد الله أبا جعفر بشعر أبي نُخيلة الذي يقول فيه:

عيسى فَزَحْلَفَها إلى محمدِ   حتى تُؤَدَّى من يد إلى يَدِ
فيكم وتَغْنَى وهي في تزيُّدِ   فقد رَضِينا بالغلام الأمْرَدِ

قال: فلما كان في اليوم الذي بايع فيه أبو جعفر لابنه المهديّ وقدّمه على عيسى، ودعا بأبي نُخيلة، فأمره فأنشد الشِّعر؛ فكلمه سليمان بن عبد الله، وأشار عليه في كلامه أن يُجزل له العطية، وقال: إنه شيء يبقى لك في الكتب، ويتحدّث الناس به على الدّهر، ويخلُد على الأيام؛ ولم يزل به حتى أمر له بعشرة آلاف درهم.

وذكر عن حيّان بن عبد الله بن حِبْران الحِمَانيّ، قال: حدثني أبو نُخيلة، قال: قدمتُ على أبي جعفر، فأقمت ببابه شهراً لا أصلُ إليه، حتى قال لي ذات يوم عبد الله بن الربيع الحارثيّ: يا أبا نُخيلة، إنّ أمير المؤمنين يرشِّح ابنه للخلافة والعَهد، وهو على تقدِمَته بين يدي عيسى بن موسى، فلو قلتَ شيئاً تحثُّه على ذلك، وتذكُر فضلَ المهديّ، كنت بالحَري أن تصيب منه خيراً ومن ابنه، فقلتُ:

دُونكَ عبدَ الله أهلَ ذاكا   خلافةَ الله الَّتي أَعطاكا
أَصفَاك أَصفَاك بها أَصْفَاكا   فقد نَظَرنا زَمناً أَباكا
ثمّ نظرناكَ لها إيّاكَا   ونَحْنُ فيهمْ والهَوى هَوَاكَا
نعم، فَنَسْتذْرِي إلى ذَرَاكا   أَسندْ إلى محمّدٍ عَصاكا
فابنُك ما اسْتَرْعَيْتَه كَفَاكا   فأَحفَظُ النَّاسِ لها أَدْنَاكَا
فقد جَفَلتُ الرجْلَ والأَوْرَاكا   وحِكْتُ حتى لم أَجِدْ مَحاكا
ودُرْتُ في هذا وذا وذاكا   وكلُّ قولٍ قلتُ في سواكا

* زُورٌ وقد كفَّر هذا ذاكا *

وقلتُ أيضاً كلمتي التي أقول فيها:

إلى أَمير المؤمنينَ فاعْمِدِي   سِيري إلى بحرِ البحور المُزْبِدِ
أَنت الذي يا بن سَمِيِّ أحمدِ   ويا بنَ بيتِ العربِ المُشَيَّدِ
بل يا أَمِينَ الواحد المؤَبَّدِ   إن الذي ولاّك ربُّ المسجد
أَمسَى وليُّ عهدِها بالأَسعَدِ   عيسَى فَزَحْلَفَهَا إلى محمد
من قبلِ عيسى مَعْهَداً عن معهدِ   حتى تؤَدّى من يدٍ إلى يدِ

فيكم وتغنَى وهي في تَزَيّدِ فقد رضينَا بالغلام الأَمردِ
بل قد فرغنا غيرَ أَن لم نَشْهَدِ وغير أَنَّ العقدَ لم يُؤَكَّدِ
فلو سمِعنا قَوْلَكَ امْدُدِ امددِ كانت لنا كَدَعْقَةِ الوردِ الصَّدِي
فبادر الْبَيْعَةَ ورْدَ الحُشَّدِ تَبينُ من يومك هذا أَو غَدِ
فهو الذي تمَّ فما من عُنَّدِ وزاد ما شئتَ فَزِدْهُ يَزْددِ
ورَدِّهِ منك رِداءً يَرْتَدِ فهو رداءُ السابِقِ المُقلَّدِ
قد كان يُرْوَى أَنها كَأَنْ قدِ عادت ولو قد فَعَلَتْ لم تَرْدُدِ
فَهْيَ تَرَامَى فَدْفَداً عن فَدْفَدِ حيناً ، فلو قد حان وردُ الوُرَّدِ
وحان تحويلُ الغَوِيّ المُفْسِدِ قال لها اللهُ هَلُمِّي وارشُدي
فأَصْبَحَتْ نازلةً بالمعهدِ والمحْتِدِ المحتدِ خيْرِ المحتد
لم يرْمِ تَذْمارَ النفوس الحُسَّدِ بمثل قَرمٍ ثابتٍ مُؤَيّد
لما انْتَحَوْا قَدْحاً بِزَنْدٍ مُصْلِدِ بُلُوا بِمَشْزُورِ القُوى المُسْتحصِد
يَزْدَادُ إِيقَاظاً على التَّهَدُّدِ فَدَاوِلُوا باللينِ والتَّعَبُّدِ

* صَمْصَامَةً تأْكلُ كلَّ مِبْرَدِ *

قال : فرويت وصارت في أفواه الخدم ، وبلغتْ أبا جعفر ، فسأل عن قائلها ، فأخبِرَ أنها لرجل من بني سَعْد بن زيد مناة ، فأعجبه ، فدعاني فأدخِلت عليه؛ وإن عيسى بن موسى لعَنْ يمينه ، والناس عنده ، ورؤوس القوّاد والجند ، فلما كنتُ بحيث يراني ، ناديت : يا أمير المؤمنين ، أدنني منك حتى أفهِمك وتسمع مقالتي فأومأ بيده ، فأدنِيتُ حتى كنتُ قريباً منه ، فلما صرتُ بين يديه قلتُ ـ ورفعتُ صوتي ـ أنشده مِنْ هذا الموضع ، ثم رجعتُ إلى أوّل الأرجوزة؛ فأنشدتها من أوّلها إلى هذا الموضع أيضاً ، فأعدتُ عليه حتى أتيتُ على آخرها ، والناس منصتون ، وهو يتسارّ بما أنشده ، مستمعاً له؛ فلمّا خرجنا من عنده إذا رجلٌ واضعٌ يده على منكبي ، فالتفتّ فإذا عقال بن شبّة يقول : أمّا أنت فقد سررْتَ أمير المؤمنين؛ فإن التأم الأمر على ما تحبّ وقلتَ ، فلعمري لتصيبنّ منه خيراً . وإن يك غير ذلك ، فابتغ نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء . قال : فكتب له المنصور بصِلة إلى الرّيّ ، فوجّه عيسى في طلبه ، فلُحق في طريقه ، فذُبح وسُلخ وجهه .

وقيل: قتِل بعد ما انصرف من الريّ؛ وقد أخذ الجائزة.

وذكر عن الوليد بن محمد العنبريّ أنّ سبب إجابة عيسى أبا جعفر إلى تقديم المهديّ عليه كان أن سلْم بن قتيبة قال له: أيّها الرجل بايع، وقدّمه على نفسك، فإنك لن تخرج من الأمر؛ قد جعل لك الأمر من بعدِه وتُرضِي أمير المؤمنين. قال: أوَ تَرَى ذلك؟ قال: نعم، قال: فإنّي أفعل؛ فأتى سلْم المنصورَ فأعلمه إجابة عيسى، فسُرّ بذلك وعظُم قدْر سَلْم عنده. وبايع الناس للمهديّ ولعيسى بن موسى مِن بعده. وخطب المنصور خطبته التي كان فيها تقديم المهديّ على عيسى، وخطب عيسى بعد ذلك فقدّم المهديَّ على نفسه، ووفى له المنصور بما كان ضمن له.

وقد ذكر عن بعضِ صحابة أبي جعفر أنه قال: تذاكرْنا أمرَ أبي جعفر المنصور وأمْرَ عيسى بن موسى في البَيْعة وخلْعه إياها من عنقه وتقديمَه المهديّ، فقال لي رجل من القوّاد سماه: والله الذي لا إله غيره؛ ما كان خَلْعهُ إياها منه إلا برضاً من عيسى وركونٍ منه إلى الدّراهم، وقلة علمه بقَدْر الخلافة، وطلباً للخروج منها؛ أتى يومَ خرج للخلع فخلع نفسه؛ وإني لفي مقصورة مدينة السَّلَام؛ إذ خرج علينا أبو عُبيد الله كاتب المهديّ، في جماعة من أهل خُراسان، فتكلم عيسى، فقال: إني قد سلّمت ولايةَ العهد لمحمد بن أمير المؤمنين، وقدّمتُه على نفسي، فقال أبو عبيد الله: ليس هكذا أعزّ الله الأمير؛ ولكن قُلْ ذلك بحقّه وصدقِه؛ وأخبرْ بما رغبتَ فيه؛ فأعطِيت، قال: نعم، قد بعتُ نصيبي من تقدمة ولاية العهد مِنْ عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهديّ بعشرة آلاف ألف درهم وثلاثمائة ألف بين ولدي فلان وفلان وفلان ـ سمّاهم ـ وسبعمائة ألف لفلانة امرأة من نِسائه ـ سمّاها ـ بطيب نفسٍ مني وحبّ، لتصييرها إليه، لأنه أولى بها وأحقّ، وأقوى عليها وعلى القيام بها؛ وليس لي فيها حقٌّ لتقدمته، قليل ولا كثير؛ فما ادّعيتُه بعد يومي هذا فأنا فيه مُبطِلٌ لا حقّ لي فيه ولا دعوى ولا طلبة. قال: والله وهو في ذلك؛ ربما نسي الشيء بعد الشيء فيوقفه عليه أبو عُبيد الله؛ حتى فرغ، حبّاً للاستيثاق منه. وختم الكتاب وشهد عليه الشهود وأنا حاضر؛ حتى وضع عليه عيسى خطَّه وخاتَمه، والقوم جميعاً؛ ثم دخلوا من باب المقصورة إلى القَصْر.

قال: وكسا أميرُ المؤمنين عيسى وابنه موسى وغيره من ولدِه كُسوة بقيمة ألف ألف درهم ونيّف ومائتي ألف درهم.

ثم دخلت سنة خمسين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فذُكِر أن معاوية بن عبيد الله وزير المهديّ كان يوهن أمر خازم، والمهديّ يومئذ بنيسابور، وكان معاوية يخرج الكتب إلى خازم بن خزيمة وإلى غيره من القوّاد بالأمر والنهي، فاعتلّ خازم وهو في عسكره، فشرب الدواء ثم ركب البريد، حتى قدِم على المهديّ بنيسابور، فسلّم عليه واستخلاه ـ وبحضرته أبو عبيد الله ـ فقال المهديّ: لا عَيْقَ عليك من أبي عبيد الله، فقلْ ما بدا لك؛ فأبى خازم أن يخبرَه أو يكلّمه، حتى قام أبو عبيد الله، فلمّا خلا به شكا إليه أمرَ معاوية بن عبيد الله، وأخبره بعصبيّته وتحامُلِه؛ وما كان يرد من كُتبه عليه وعلى مَنْ قبلَه من القواد، وما صاروا إليه بذَلك من الفساد والتأمّر في أنفسهم، والاستبداد بآرائهم، وقلّة السمع والطاعة. وأنّ أمر الحرب لا يستقيم إلاّ برأس؛ وألاّ يكون في عسكره لواء يخفِق على رأس أحد إلاّ لواؤه أو لواء هو عقدَه، وأعلمه أنه غير راجع إلى قتال أستاذسيس ومَنْ معه إلا بتفويض الأمر إليه وإعفائه من معاوية بن عبيد الله؛ وأن يأذن له في حَلّ ألوية القوّاد الذين معه، وأن يكتب إليهم بالسمع له والطاعة. فأجابه المهديّ إلى كلّ ما سأل.

فانصرف خازم إلى عسكره، فعمل برأيه، وحلّ لواء مَنْ رأى حلّ لوائه من القوّاد، وعقد لواء لمن أراد، وضمّ إليه مَنْ كان انهزم من الجنود، فجعلهم حشواً يكثر بهم مَنْ معه في أخرَيات الناس، ولم يقدّمهم لما في قلوب المغلوبين من رَوْعة الهزيمة؛ وكان من ضُمّ إليه من هذه الطبقة اثنين وعشرين ألفاً، ثم انتخب ستة آلاف رجل من الجند، فضمهم إلى اثني عشر ألفاً كانوا معه متخيّرين؛ وكان بكّارُ بن مسلم العُقَيلي فيمن انتخب، ثم تعبّأ للقتال وخندق. واستعمل الهيثم بن شعبة بن ظهير على ميمنته، ونهار بن حصين السعديّ على ميسرته؛ وكان بكّار بن مسلم العقيليّ على مقدّمته وتُرارخُدا على ساقته؛ وكان من أبناء ملوك أعاجم خُراسان؛ وكان لواؤه مع الزِّبْرقان وَعلمه مع مولاه بسَّام،

فمكر بهم وراوغهم في تنقّله من موضع إلى موضع وخندق إلى خندق حتى قطعهم؛ وكان أكثرهم رجّالة ، ثم سار خازم إلى موضع فنزله ، وخندق عليه ، وأدخل خندقه جميع ما أراد ، وأدخل فيها جميع أصحابه ، وجعل له أربعة آلاف ، وجعل على كل باب منها من أصحابه الذين انتخب ، وهم أربعة آلاف ، وجعل مع بكار صاحب مقدّمته ألفين؛ تكملة الثمانية عشر ألفاً. وأقبل الآخرون ومعهم المرور والفؤوس والزّبُل ، يريدون دفْن الخندق ودخولَه ، فأتوا الخندق مِن الباب الذي كان عليه بكار بن مسلم ، فشدّوا عليه شدّة لم يكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق.

فلما رأى ذلك بكّار رمى بنفسه ، فترجّل على باب الخندق ثم نادى أصحابه: يا بني الفواجر ، مِن قبَلي يؤتى المسلمون! فترجّل مَنْ معه من عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلاً ، فمنعوا بابَهم حتى أجلوا القوم عنه ، وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجلٌ كان مع أستاذسيس من أهل سجستان ، يقال له الحريش؛ وهو الذي كان يدبّر أمرهم؛ فلما رآه خازم مقبلاً بعث إلى الهيثم بن شعبة ـ وكان في الميمنة ـ أن اخرج من بابك الّذي أنت عليه؛ فخذ غيرَ الطريق الذي يُوصلك إلى الباب الذي عليه بكار ، فإنّ القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال إلينا ، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم. وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن سلم بن قتيبة من طَخارستان. وبعث خازم إلى بكار بن مسلم: إذا رأيت رايات الهيْثم بن شعبة قد جاءتْك من خلفك ، فكبِّروا وقولوا: قد جاء أهل طَخارستان. ففعل ذلك أهلُ الهيثم ، وخرج خازم في القلْب على الحريش السجستاني ، فاجتلدوا بالسيوف جلاداً شديداً ، وصبر بعضُهم لبعض ، فبيناهم على تلك الحال إذ نظروا إلى أعلام الهيْثم وأصحابه ، فتنادوا فيما بينهم ، وجاء أهل طخارستان ، فلما نظر أصحاب الحريش إلى تلك الأعلام ، ونظر مَنْ كان بإزاء بكار بن مسلم إليها ، شدّ عليهم أصحاب خازم فكشفوهم ، ولقيَهم أصحابُ الهيثم ، فطعنوهم بالرماح ، ورموْهم بالنُّشاب ، وخرج عليهم نهار بن حصين وأصحابُه من ناحية الميسرة ، وبكارُ بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم ، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف ، فقتلهم المسلمون وأكثروا؛ فكان مَنْ قتل منهم في تلك المعركة نحواً من سبعين ألفاً ، وأسروا أربعة عشر ألفاً ،

ولجأ أستاذسيس إلى جبل في عِدّة من أصحابه يسيرة ، فقدّم خازم الأربعة عشر ألف أسير؛ فضرب أعناقَهم ، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الجَبَل الذي كان لجأ إليه ، ووافى خازماً بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة في أصحابهما؛ فأنزلهم خازم ناحيةً ، وقال: كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم. فحصر خازِم أستاذسيس وأصحابَه حتى نزلوا على حكم أبي عَوْن ، ولم يرضوْا إلا بذلك ، فرضي بذلك خازم ، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه ، ففعل؛ فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يُوثَق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد ، وأن يُعتق الباقون وهم ثلاثون ألفاً ، فأنفذ ذلك خازم من حُكْم أبي عون ، وكسا كلّ رجل منهم ثوبين(١).

* * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة
ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

ذكر الخبر عن سبب عزل المنصور عمر بن حفص عن السِّنْد وتوليته إياه إفريقيّة واستعماله على السِّنْد هشام بن عمرو(٢)

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر عليّ بن محمد بن سليمان بن عليّ العباسيّ عن أبيه ـ أنّ المنصور ولّى عمر بن حفص الصُّفْرِيّ الذي يقال له هزارمَرْد السِّند ـ فأقام بها حتى خرج محمد بن عبد الله بالمدينة وإبراهيم بالبصرة ، فوجّه محمد بن عبد الله [إليه] ابنَه عبد الله بن محمد الذي يقال له الأشتر. في نفر من الزيديّة إلى البصرة ، وأمرهم أن يشتروا مهارة ـ خيل عِتاق بها ـ ويمضوا بها معهم إلى السِّند ، ليكون سبباً له إلى الوصول إلى عمر بن حفص؛ وإنما فعل ذلك به لأنَّه كان فيمن بايعه من قوّاد أبي جعفر ، وكان له ميْل إلى آل أبي طالب ، فقدموا البصرة على إبراهيم بن عبد الله ، فاشتروا منها مهارةً ـ وليس في بلاد السِّند

(١) الكامل (٥/ ٥٩١) لابن الأثير.
(٢) انظر: الكامل (٥/ ٥٩٥).

والهند شيء أنفق من الخيل العتاق ـ ومضوا في البحر حتى صاروا إلى السند ، ثم صاروا إلى عمر بن حفص ، فقالوا: نحن قوم نخَّاسون ، ومعنا خيل عتاق ، فأمرهم أن يعرضوا خيلَهم ، فعرضوها عليه؛ فلما صاروا إليه ، قال له بعضهم: أدنني منك أذكر لك شيئاً ، فأدناه منه ، وقال له: إنَّا جئناك بما هو خير لك من الخيل ، وما لك فيه خير الدنيا والآخرة ، فأعطِنا الأمان على خَلَّتينْ: إما أنك قبلت ما أتيناك به ، وإما سترت وأمسكت عن أذانا حتى نخرج من بلادك راجعين. فأعطاهم الأمان ، فقالوا: ما للخيل أتيناك؛ ولكن هذا ابنُ رسول الله ﷺ عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ، أرسله أبوه إليك ، وقد خرج بالمدينة ، ودعا لنفسه بالخِلافة ، وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة وغلب عليها ، فقال: بالرَّحب والسعة ، ثم بايعهم له ، وأمر به فتوارى عنده ، ودعا أهل بيته وقوادَه وكبراء أهل البلد للبيْعة ، فأجابوه ، فقطع الأعلام البيض والأقبِيَة البِيض والقلانس البيض ، وهيّأ لبسته من البياض يصعد فيها إلى المنبر ، وتهيأ لذلك يوم خميس؛ فلما كان يوم الأربعاء إذا حَرّاقة قد وافت من البصرة ، فيها رسول لخُلَيْدة بنت المُعارِك ـ امرأة عمر بن حفص ـ بكتاب إليه تخبره بقتل محمد بن عبد الله ، فدخل على عبد الله فأخبره الخبر ، وعزّاه ، ثم قال له: إنّي كنت بايعت لأبيك ، وقد جاء من الأمر ما ترى. فقال له: إن أمري قد شُهِر ، ومكاني قد عُرف ، ودمي في عنقك ، فانظر لنفسك أو دعْ. قال: قد رأيت رأياً؛ ها هنا مِلِك من ملوكِ السند ، عظيم المملكة ، كثير التَّبَع؛ وهو على شركه أشدّ الناس تعظيماً لرسول الله ﷺ ؛ وهو رجلٌ وفيٌّ ، فأرسِل إليه ، فاعقِدْ بينك وبينه عقداً ، وأوجّهك إليه تكون عنده ، فلستَ ترام معه. قال: افعل ما شئت؛ ففعل ذلك؛ فصار إليه ، فأظهر إكرامه وبَرّه برّاً كثيراً ، وتسللت إليه الزيدية حتى صار إليه منهم أربعمائة إنسان من أهل البصائر؛ فكان يركب فيهم فيصيد ويتنزّه في هيئة الملوك وآلاتهم ، فلما قتِل محمد وإبراهيم انتهى خبرُ عبد الله الأشتر إلى المنصور؛ فبلغ ذلك منه ، فكتب إلى عمر بن حفص يخبره بما بلغَه ، فجمع عمر بن حفص قرابته ، فقرأ عليهم كتاب المنصور يخبرهم أنه إن أقرّ بالقصّة لم يُنظره المنصور أن يعزله ، وإن صار إليه قتله ، وإن امتنع حاربه. فقال له رجل من أهل بيته: ألقِ الذَّنْب عليَّ ، واكتب إليه بخبري ، وخذني الساعة فقيِّدني واحبسني؛ فإنه سيكتب: احمله إليّ؛ فاحملني إليه ، فلم يكن ليقدمَ عليَّ

لموضعك في السند ، وحال أهل بيتك بالبصرة. قال: إني أخاف عليك خلاف ما تظنّ ، قال: إن قُتلت أنا فنفسي فداؤك فإني سخيٌّ بها فداء لنفسك؛ فإن حييت فمن الله. فأمر به فقُيِّد وحبِس ، وكتب إلى المنصور يخبره بذلك؛ فكتب إليه المنصور يأمره بحمله إليه؛ فلما صار إليه قدّمه فضرب عنقه ، ثم مكث يروي مَنْ يولِّي السِّند! فأقبل يقول: فلان فلان؛ ثم يعرض عنه؛ فبينا هو يوماً يسير ومعه هشام بن عمرو التغلبيّ ، والمنصور ينظر إليه في موكبه ، إذ انصرف إلى منزله ، فلما ألقى ثوبه دخل الرّبيع فآذنه بهشام. فقال: أوَلم يكن معي آنفاً! قال: ذكر أن له حاجةً عرضت مهمة. فدعا بكرسيّ فقعد عليه ، ثم أذِن له ، فلما مَثَل بين يديه قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إني انصرفت إلى منزِلي من الموكب ، فلَقيتْني أختي فلانة بنت عمرو ، فرأيت من جمالها وعَقْلها ودينها ما رضيتها لأمير المؤمنين ، فجئت لأعرِضها عليه؛ فأطرق المنصور ، وجعل ينكُت الأرضَ بخيزُرانة في يده ، وقال: اخرج يأتك أمري؛ فلما ولَّى قال: يا ربيع؛ لولا بيت قاله جرير في بني تغلِب لتزوّجت أختَه وهو قوله:

لا تَطْلُبَنَّ خؤولةً في تَغْلِبٍ فالزَّنجُ أكرمُ منهُمُ أَخوالا

فأخاف أن تلد لي ولداً ، فيعيَّر بهذا البيت؛ ولكن اخرج إليه ، فقل له: يقول لك أمير المؤمنين: لو كانت لك لله حاجة إليّ لم أعدل عنها غير التزويج؛ ولو كانت لي حاجةٌ إلى التزويج لقبلْت ما أتيتني به ، فجزاك الله عمّا عَمَدت له خيراً ، وقد عوّضتك من ذلك ولاية السِّند. وأمره أن يكاتب ذلك الملك؛ فإن أطاعه وسلَّم إليه عبد الله بن محمد ، وإلاّ حاربه. وكتب إلى عمر بن حفص بولايته إفريقيّة. فخرج هشام بن عمرو التغلبيّ إلى السّند فوليها ، وأقبل عمر بن حفص يخوضُ البلاد حتى صار إلى إفريقيّة ، فلما صار هشام بن عمرو إلى السِّند كره أخذ عبد الله ، وأقبل يُري الناس أنه يكاتب الملك ويرفق به ، فاتصلت الأخبار بأبي جعفر بذلك؛ فجعل يكتب إليه يستحثُّه ، فبينا هو كذلك إذ خرجت خارجة ببعض بلاد السِّند ، فوجّه إليهم أخاه سَفَنَّجا ، فخرج يجرّ الجيش وطريقه بجنَبات ذلك الملك؛ فبينا هو يسير إذا هو برهج قد ارتفع من موكب ، فظنّ أنه مقدّمة للعدوّ الذي يقصد ، فوجَّه طلائعَه فرجعت ، فقالت: ليس هذا عدوّك الذي تريد؛ ولكن هذا عبد الله بن محمد الأشتر العلويّ ركب متنزهاً ، يسير على

شاطىء مهران ، فمضى يريده ، فقال له نُصّاحه: هذا ابنُ رسول الله ﷺ ، وقد علمتَ أن أخاك تركه متعمداً ، مخافة أن يبوء بدمه ، ولم يقصدك ، إنما خرج متنزِّهاً ، وخرجتَ تريد غيره. فأعرض عنه ، وقال: ما كنتُ لأدَعَ أحداً يحوزُه ، ولا أدع أحداً يحظَى بالتقرّب إلى المنصور بأخذه وقتله. وكان في عشرة ، فقصد قصدَه ، وذمَرَ أصحابه ، فحمل عليه ، فقاتله عبدُ الله وقاتل أصحابُه بين يديه حتى قُتِل وقُتلوا جميعاً ، فلم يُفلِتْ منهم مخبّر ، وسقط بين القتلى ، فلم يشعر به. وقيل: إن أصحابه قذفوه في مهران لمّا قتِل ، لئلا يؤخذ رأسه؛ فكتب هشام بن عمرو بذلك كتاب فَتْح إلى المنصور ، يخبره أنه قصده قصداً. فكتب إليه المنصور يحمَد أمره ، ويأمره بمحاربة الملك الذي آواه؛ وذلك أن عبد الله كان اتّخذ جواري ، وهو بحضرة ذلك الملك ، فأولد منهنَّ واحدة محمد بن عبد الله ـ وهو أبو الحسن محمد العلويّ الذي يقال له ابن الأشتر ـ فحاربه حتى ظفر به ، وغلب على مملكته وقتله ، ووجّه بأمّ ولد عبد الله وابنه إلى المنصور ، فكتب المنصور إلى واليه بالمدينة ، يخبره بصحَّة نسب الغلام ، وبعث به إليه ، وأمره أن يجمع آل أبي طالب ، وأن يقرأ عليهم كتابَه بصحة نسب الغلام ، ويسلمه إلى أقربائه.

وفي هذه السنة قدم على المنصور ابنه المهدي من خراسان وذلك في شوال منها فوفد إليه للقائه وتهنئة المنصور بمقدَمه عامّة أهل بيته ، مَنْ كان منهم بالشـأم والكوفة والبصرة وغيرها ، فأجازهم وكساهم وحملهم ، وفعل مثل ذلك بهم المنصور ، وجعل لابنه المهديّ صحابةً منهم ، وأجرى لكل رجل منهم خمسمائة درهم[١].

[ذكر خبر بناء المنصور الرّصافة]

وفي هذه السنة ابتدأ المنصور ببناء الرُّصافة في الجانب الشرقيّ من مدينة السلام لابنه محمد المهدي[٢].

---

(١) لم نجد ما يؤيد هذه المبالغة عن توزيع الجوائز لا عند البسوي ولا خليفة ولا غيرهما من الثقات المتقدمين وهذا المتن مخالف لما عرف عن المنصور من حرص على المال العام.

(٢) [البداية والنهاية ٨/ ٦٤].

ذكر الخبر عن سبب بنائه ذلك له

ذكر عن أحمد بن محمد الشَروِيّ ، عن أبيه ، أنّ المهديّ لما قدم من خُراسان أمره المنصور بالمُقـام بالجانب الشـرقيّ ، وبنَى له الرُّصافة ، وعمِل لها سوراً وخندقاً وميْداناً وبستاناً ، وأجرى له الماء؛ فكان يجري الماء من نهر المهديّ إلى الرُّصافة.

وأما خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن خازم ، فإنه ذكر أنّ محمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس حدّثه ، أن أباه حدّثه ، أنّ الرّاوندية لما شَغَبوا على أبي جعفر وحاربوه على باب الذّهب ، دخل عليه قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ـ وهو يومئذ شيخ كبير مُقدّم عند القوم ـ فقال له أبو جعفر: أما ترى ما نحن فيه من الْتِياث الجُند علينا! قد خفتُ أن تجتمع كلمتهُم فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فما ترى؟ قال: يا أميرَ المؤمنين ، عندي في هذا رأيٌ إن أنا أظهرته لك فسَد ، وإن تركتَني أمضيته ، صلَحت لك خلافتك ، وهابك جندك. فقال له: أفتُمضِي في خلافتي أمراً لا تعلمني ما هو! فقال له: إن كنتُ عندك متَّهماً على دولتك فلا تشاورْنِي ، وإن كنتُ مأموناً عليها فدعني أُمضِي رأيي. فقال له: فأمضِه. قال: فانصرف قُثَم إلى منزله ، فدعا غلاماً له فقال له:

إذا كان غداً فتقدّمني ، فاجلس في دار أمير المؤمنين؛ فإذا رأيتَني قد دخلتُ وتوسطتُ أصحابَ المراتب ، فخذ بعنان بغلتي ، فاستوقِفْني واستحلفْني بحقّ رسول الله ، وحقّ العباس وحقّ أمير المؤمنين لما وقفتُ لك ، وسمعتُ مسألتك وأجبتك عنها؛ فإني سأنتهرُك ، وأغلِظ لك القول ، فلا يهولنَّك ذلك مني ، وعاوِدْني بالمسألة فإنيّ سأشتمك ، فلا يروعنّك ذلك ، وعاودْني بالقول والمسألة ، فإني سأضربك بسوطي ، فلا يشقُّ ذلك عليك ، فقل لي: أيُّ الحيَّيْن أشرف؟ اليمن أم مضر؟ فإذا أجبتك فخلّ عنان بغلتي وأنت حُرّ.

قال: فغدَا الغلامُ ، فجلس حيث أمره من دار الخليفة ، فلماء جاء الشيخ فعل الغلام ما أمره به مولاه ، وفعل المولى ما كان قاله له ، ثم قال له: قل ، فقال: أيُّ الحيَّين أشرف؟ اليمن أم مضر؟ قال: فقال قُثَم: مضر كان منها رسول الله

ﷺ ، وفيها كتاب الله عزّ وجلّ ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله. قال: فامتعضت اليمن إذْ لم يُذكر لها شيء من شَرَفها؛ فقال له قائد من قوّاد اليمن: ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير شرفة ولا فضيلة لليمن ، ثم قال لغلامه: قمْ فخذ بعِنان بغلة الشيخ ، فاكبحْها كبحاً عنيفاً تَطَأْمَنُ به منه ، قال: ففعل الغلام ما أمره به مولاه حتى كاد أن يُقعيَها على عراقِيبها ، فامتعضتْ من ذلك مُضر ، فقالت: أيفعل هذا بشيخنا! فأمر رجل منهم غلامه ، فقال: اقطعْ يد العبد ، فقام إلى غلام اليمانيّ فقطع يدَه ، فنفر الحيَّان ، وصرف قُثَم بغلته ، فدخل على أبي جعفر ، وافترق الجند ، فصارت مُضر فرقة ، واليمن فرقة ، والخُراسانيّة فرقة ، وربيعة فرقة ، فقال قثم لأبي جعفر: قد فرّقتُ بين جندك ، وجعلتهم أحزاباً كلّ حزب منهم يخاف أن يُحدث عليك حدثاً ، فتضربه بالحزب الآخر ، وقد بقي عليك في التدبير بقيّة ، قال: ما هي؟ قال: اعْبُرْ بابنك فأنزله في ذلك الجانب قصراً ، وحوله وحوّل [معك] من جيشك معه قوماً فيصير ذلك بلداً؛ وهذا بلداً ، فإن فسد عليك أهلُ هذا الجانب ضربتَهم بأهل ذلك الجانب ، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربْتَهم بأهل هذا الجانب ، وإن فسدت عليك مُضر ضربتَها باليمن وربيعة والخراسانيّة ، وإن فسدت عليك اليمن ضربتَها بمن أطاعك من مُضر وغيرها.

قال: فقبل أمرَه ورأيه ، فاستوى له مُلْكه؛ وكان ذلك سببَ البناء في الجانب الشرقيّ وفي الرصافة وأقطاع القوّاد هناك.

قال: وتولّى صالح صاحب المصلّى القطائع في الجانب الشرقيّ ، ففعل كفعل أبي العباس الطوسيّ في فضُول القطائع في الجانب الغربيّ ، فله بباب الجسر وسوق يحيى ومسجد خُضَير وفي الرّصافة وطريق الزواريق على دجلة مواضع بناء ، بما استوهب من فضل الإقطاع عن أهله ، وصالح رجل من أهل خراسان.

[أمر عقبة بن سلم]

وفيها شخص عُقْبة بن سلْم من البصرة واستخلف عليها ابنَه نافع بن عقبة إلى البَحْرين ، فقتل سليمان بن حكيم العبديّ وسبى أهلَ البحرين ، وبعث ببعض مَنْ

سبي منهم وأسارى منهم إلى أبي جعفر ، فقتل منهم عِدّة ووهب بقيَّتهم للمهديّ ، فمنّ عليهم وأعتقهم ؛ وكسا كلّ إنسان منهم ثوبين من ثياب مرْو.

ثم عزل عُقْبة بن سلْم عن البصرة؛ فذُكِر عن إفريك ـ جارية أسد بن المرزبان ـ أنها قالت: بعث المنصور أسد بن المرزبان إلى عُقبة بن سلم إلى البَحْرين حين قتل منهم مَنْ قتل ، ينظر في أمره ، فمايله ولم يستقص عليه ، وورّى عنه؛ فبلغ ذلك أبا جعفر ، وبلغه أنه أخذ منه مالاً ، فبعث إليه أبا سويد الخُراساني ـ وكان صديق أسد ـ وأخاه ، فلما رآه مقبلاً على البريد فرِح ، وكان ناحية من عسكر عُقبة ، فتطاول له ، وقال: صديقي. فوقف عليه فوثب ليقوم إليه ، فقال له أبو سويد «بنشين بنشين» ، فجلس فقال له: أنت سامع مطيع؟ قال: نعم ، قال: مُدّ يدَك ، فمدّ يده فضربها فأطنّها ، ثم مدّ رجله ، ثم مدّ يده ثم رجله حتى قطع الأربع ، ثم قال: مُدّ عنقك فمدّ فضرب عنقه. قالت إفرِيك: فأخذتُ رأسه فوضعته في حِجْري ، فأخذه مني فحمله إلى المنصور ، فما أكلتْ إفريك لحماً حتى ماتت.

* * *

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها غضب المنصور على أبي أيّوب الموريانيّ ، فحبسه وأخاه وبني أخيه: سعيداً ومسعوداً ومُخلَّداً ومحمداً ، وطالبهم. وكانت منازلهم المناذر ، وكان سبب غضبه عليه ـ فيما قيل ـ سَعْيُ أبان بن صدقة كاتب أبي أيوب إليه[1].

---

(١) لم يذكر البسوي وخليفة هذا الخبر. وانظر: تأريخ دمشق مجلد (٣) ترجمة أبي جعفر المنصور.

وفي هذه السنة قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقيّة ، قتله أبو حاتم الإباضيّ وأبو عاد ومن كان معهما من البربر ، وكانوا ـ فيما ذُكر ـ ثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً ، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفاً ، ومعهم أبو قُرّة الصُّفريّ في أربعين ألفاً ، وكان يسلَّم عليه قبل ذلك بالخلافة أربعين يوماً[١] .

وفيها حُمِل عبّاد مولى المنصور وهرثمة بن أعين ويوسف بن علوان من خُراسان في سلاسل ، لتعصّبهم لعيسى بن موسى .

وفيها أخذ المنصور الناس بلبس القَلانس الطِّوال المفرطة الطول ، وكانوا ـ فيما ذكر ـ يحتالون لها بالقصب من داخل ، فقال أبو دلامة :

وكنا نُرَجِّي من إمامٍ زيادةً فزاد الإمامُ المصطفى في القلانِسِ
ترَاها على هامِ الرِّجال كأنها دِنان يهودٍ جُلِّلَتْ بالبرانسِ[٢]

* * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفي هذه السنة عزم المنصور ـ فيما ذكر ـ على بناء مدينة الرافقة ، فذُكر عن محمد بن جابر ، عن أبيه أنّ أبا جعفر لما أراد بناءها ، امتنع أهل الرّقة ، وأرادوا محاربته ، وقالوا : تعطّل علينا أسواقنا وتذهب بمعايشنا ، وتضيق منازلنا؛ فهمّ بمحاربتهم ، وبعث إلى راهب في الصومعة هنالك ، فقال له : هل لك علم بأنّ إنساناً يبني ها هنا مدينة؟ فقال : بلغني أنّ رجلاً يقال له مقلاص يبنيها ، فقال : أنا والله مقلاص[٣] .

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ٦٤].
(٢) انظر البداية والنهاية [٨/ ٦٥].
(٣) هذا خبر فيه نكارة . ومحمد بن جابر لم نتبين من هو؟ والمنصور كان يوصي ابنه المهدي بمصاحبة أهل الحديث ، وهو الخليفة العالم ، فكيف يستعين بالرهبان وتنبؤاتهم .

وذكر محمد بن عمر أن صاعقة سقطت في هذه السنة في المسجد الحرام فقتلت خمسة نفر.

وفيها هلك أبو أيوب المورياني وأخوه خالد، وأمر المنصور موسى بن دينار حاجب أبي العباس الطوسيّ بقطع أيدي بني أخي أبي أيوب وأرجلهم وضرب أعناقهم؛ وكتب بذلك إلى المهديّ، ففعل ذلك موسى وأنفذ فيهم ما أمره به[١].

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

وفيها ـ فيما ذكر محمد بن عمر ـ خندَق أبو جعفر على الكوفة والبصرة، وضرب عليهما سوراً، وجعل ما أنفق على سور ذلك وخندقه من أموال أهله.

وعزل فيها المنصور عبدَ الملك بن أيّوب بن ظَبْيان عن البصرة، واستعمل عليها الهيْثم بن معاوية العتكيّ، وضم إليه سعيد بن دَعْلَج، وأمره ببناء سور لها يُطيف بها، وخندق عليها من دون السّور من أموال أهلها، ففعل ذلك.

وذكِر أن المنصور لما أراد الأمر ببناء سُور الكوفة وبحفر خندق لها، أمر بقسمة خمسة دراهم، على أهل الكوفة، وأراد بذلك علم عددهم؛ فلما عرف عددهم أمر بجبايتهم أربعين درهماً من كل إنسان، فجبُوا، ثم أمر بإنفاق ذلك على سُور الكوفة وحفر الخنادق لها، فقال شاعرهم:

يَا لَقَوْمِي مَا لَقِينَا ... مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَا
قَسَمَ الخمسة فينَا ... وجَبَانا الأَرْبَعِينَا[٢]

وفيها طلب صاحب الروم الصُّلح إلى المنصور؛ على أن يؤدّي إليه الجزية[٣].

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ٦٥].

(٢) انظر البداية والنهاية [٨/ ٦٧].

(٣) البداية والنهاية [٨/ ٦٧].

وغزا الصائفة في هذه السنة يزيد بن أسيد السُّلمِيّ[1].

وفيها عزل المنصور أخاه العبَّاس بن محمد عن الجزيرة، وغرَّمه مالاً، وغضِب عليه وحبسه، فذكر عن بعض بني هاشم، أنه قال: كان المنصور ولّى العباس بن محمد الجزيرة بعد يزيد بن أُسَيد، ثم غضب عليه فلم يزل ساخطاً عليه حتى غضب على بعض عمومته من ولد عليّ بن عبد الله بن عباس أما إسماعيل بن عليّ أو غيره فاعتورَه أهلُه وعمومته ونساؤهم يكلِّمونه فيه، وضيَّقوا عليه فرضِيَ عنه، فقال عيسى بن موسى: يا أميرَ المؤمنين؛ إن آل عليّ بن عبد الله ـ وإن كانت نعمُك عليهم سابغةً ـ فإنهم يرجعون إلى الحسد لنا؛ فمن ذلك أنك غضبت على إسماعيل بن عليّ منذ أيام، فضيّقوا عليك. وأنت غضبان على العباس بن محمد، منذ كذا وكذا، فما رأيت أحداً منهم كلّمك فيه. قال: فدعا العباس فرضِيَ عنه.

قال: وقد كان يزيد بن أسَيْد عند عزل العباس إياه عن الجزيرة، شكا إلى أبي جعفر العبّاس، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إن أخاك أساء عزلِي، وشتم عِرْضي، فقال له المنصور: اجمع بين إحساني إليك وإساءة أخي يعتدلا، فقال يزيد بن أسيَد: يا أميرَ المؤمنين؛ إذا كان إحسانُكم جزاء بإساءتكم، كانت طاعتنا تفضُّلاً منا عليكم.

* * *

ذكر الخبر عن سبب عزل المنصور محمد بن سليمان بن عليّ

ذكر أن محمد بن سليمان أتِيَ في عمله على الكوفة بعبد الكريم بن أبي العوْجاء وكان خال معن بن زائدة. فأمر بحبسه قال أبو زيد: فحدثني قثم بن جعفر، والحسين بن أيوب، وغيرهما أن شفعاءه كثروا بمدينة السلام ثم ألحوا على أبي جعفر فلم يتكلم فيه إلاَّ ظنين، فأمر بالكتاب إلى محمد بالكف عنه إلى

(١) البداية والنهاية [٨/ ٦٧].

أن يأتيه رأيه فكلم ابن أبي العوجاء. أبا الجبَّار ـ وكان منقطعاً إلى أبي جعفر ومحمد ثم إلى أبنائهما بعدهما ـ فقال له: إنْ أخرني الأمير ثلاثة أيام فله مائة ألف، ولك أنت كذا وكذا، فأعلم أبو الجبار محمداً، فقال: أذكرتنيه والله وقد كنت نسيته؛ فإذا انصرفت من الجمعة فأذكِرْنيه. فلما انصرف أذكره، فدعا به وأمر بضرب عنُقه، فلما أيقن أنه مقتول، قال: أما والله لئن قتلتموني لقد وضعتُ أربعة آلاف حديث أحرِّم فيها الحلال، وأحِلّ فيها الحرام؛ والله لقد فطّرتكم في يوم صومكم، وصوّمتكم في يوم فطركم، فضُربت عنقه.

وورد على محمد رسول أبي جعفر بكتابه: إياك أن تحدث في أمر ابن أبي العوجاء شيئاً، فإنك إن فعلتَ فعلتُ بك وفعلتُ... يتهدّده، فقال محمد للرسول: هذا رأس ابن أبي العوجاء وهذا بدنُه مصلوباً بالكُناسة، فأخبِرْ أمير المؤمنين بما أعلمتك؛ فلما بلَّغ الرسول أبا جعفر رسالتَه، تغيّظ عليه وأمر بالكتاب بعزله وقال: والله لهممتُ أن أقيده به، ثم أرسل إلى عيسى بن عليّ فأتاه، فقال: هذا عملك أنت! أشرت بتولية هذا الغلام، فوليتُه غلاماً جاهلاً لا علمَ له بما يأتي؛ يُقدم على رجل يقتله من غير أن يطَّلع رأيي فيه، ولا ينتظر أمري! وقد كتبت بعزله؛ وبالله لأفعلنّ به ولأفعلنّ... يتهدّده، فسكت عنه عيسى حتى سكن غضبُه، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إن محمداً إنما قتل هذا الرجل على الزّندقة، فإن كان قتلُه صواباً فهو لك، وإن كان خطأً فهو على محمد، والله يا أمير المؤمنين لئن عزلتَه على تبعة ما صنع ليذهبنّ بالثناء والذكر، ولترجعنّ القالة من العامّة عليك. فأمر بالكتب فمُزِّقت وأقِرّ على عمله(١).

وقال بعضهم: إنما عزل المنصور محمد بن سليمان عن الكوفة لأمور قبيحة بلغتْه عنه، اتهمه فيها؛ وكان الذي أنهى ذلك إليه المساور بن سوّار الجَرْميّ صاحب شُرطه، وفي مساور يقول حمّاد:

لَحَسْبُك من عجيبِ الدّهرِ أنّي ... أَخاف وأَتّقي سلطانَ جَرْمِ(٢)

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ٦٦].

(٢) البيت لحماد بن عجرد. ولقد ذكر ابن كثير أسباب هذا العزل مختصراً [البداية والنهاية (٨/ ٦٦)].

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة
ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

* * *

[ذكر الخبر عن مقتل عمرو بن شداد]

فمن ذلك ما كان من ظَفَر الهيثم بن معاوية عامل أبي جعفر على البَصْرة بعمرو بن شدّاد عامل إبراهيم بن عبد الله على فارس ، فقتِل بالبصرة وصُلِب[١] .

* ذكر الخبر عن سبب الظّفَر به :

ذكر عمر أن محمَّد بن معروف حدّثه ، قال: أخبرني أبي ، قال: ضرب عمرو بن شدّاد خادماً له ، فأتى عاملَ البصرة - إما ابن دعْلج ، وإما الهيثم بن معاوية - فدله عليه ، فأخذه فقتله وصلبه في المربد في موضع دار إسحاق بن سليمان وكان عمرو مولىٰ لبني جمع فقال بعضهم: ظفر به الهيثم بن معاوية وخرج يريد مدينة السلام ، فنزل بقصر له على شاطىء نهر يعرف بنهر معقل ، فأقبل بريد من عند أبي جعفر ، ومعه كتاب إلى الهيثم بن معاوية بدفع عمرو بن شداد إليه ، فدفعه الهيثم إليه ، فأقدمه البصرة ، ثم أتى به ناحية الرّحبة ، فخلا به يسائله ، فلم يظفر منه بشيء يحبّ علمَه ، فقطع يديْه ورجليه ، وضرب عنقه وصلَبه في مِرْبد البصرة[٢] .

وفيها تُوُفِّيَ الهيثم بن معاوية بعد ما عزل عن البصرة فجأة بمدينة السلام ، وهو على بطن جارية له ، فصلَّى عليه المنصور ، ودفن في مقابر بني هاشم .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها عرض المنصور جندَه في السلاح والخيل على عينه في مجلس اتَّخذه

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي (٨/ ١٨٧).
(٢) أما عمر فهو ابن شبة ، وأما شيخه فلم نجد له ترجمة والله أعلم.

على شطّ دِجْلة دون قُطْرَبُّل ، وأمر أهلَ بيته وقرابته وصحابته يومئذ بلبس السلاح ، وخرج وهو لابس درعاً وقلنسُوة تحت البَيْضة سوداء لاطئة مضرّبة[١] .

وفيها توفي عامر بن إسماعيل المسليّ ، بمدينة السلام ، فصلّى عليه المنصور ، ودُفِن في مقابر بني هاشم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

[ذكر الخبر عن تولية خالد بن برمك الموصل][٢]

فمما كان فيها من ذلك توجيهُ المنصور ابنَه المهديّ إلى الرَّقة وأمرُه إياه بعزْل موسى بن كعب عن الموصِل وتولية يحيى بن خالد بن بَرْمك عليها. وكان سببُ ذلك ـ فيما ذكر الحسن بن وهب بن سعيد عن صالح بن عطية ـ قال: كان المنصور قد ألزم خالدَ بن برمك ثلاثة آلاف ألف ، ونذر دمَه فيها ، وأجّله ثلاثة أيام بها ، فقال خالد لابنه يحيى: يا بنيّ ، إني قد أوذيت وطُولبت بما ليس عندي ، وإنما يراد بذلك دمِي ؛ فانصرف إلى حرمتك وأهلِك ، فما كنت فاعلاً بهم بعد موتي فافعله. ثم قال له: يا بنيّ ، لا يمنعنّك ذلك من أن تلقى إخواننا ، وأن تمر بعُمارة بن حمزة وصالح صاحب المصلّى ومبارك التركيّ فتعلِمهم حالنا.

قال: فذكر صالح بن عطية أنّ يحيى حدّثه ، قال: أتيتهم فمنهم من تجهَّمني وبعث بالمال سرّاً إليّ ، ومنهم مَنْ لم يأذن لي ، وبعث بالمال في أثري. قال: واستأذنتُ على عمارة بن حمزة ، فدخلت عليه وهو في صَحْن داره ، مقابل بوجهه الحائط ؛ فما انصرف إليّ بوجهه ، فسلَّمت عليه ، فردّ عليّ رَدّاً ضعيفاً ، وقال: يا بُنيّ ؛ كيف أبوك؟ قلت: بخير ، يقرأ عليك السلام ويعلمك ما قد لزمه من هذا الغُرْم ، ويستسلفك مائة ألف درهم. قال: فما ردّ عليّ قليلاً ولا كثيراً ، قال: فضاق بي موضعي ، ومادتْ بي الأرضُ. قال: ثم كلَّمتُه فيما أتيته له. قال:

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ٦٧].

(٢) انظر البداية والنهاية [٨/ ٧٢].

فقال: إن أمكنني شيء فسيأتيك، قال يحيى: فانصرفتُ وأنا أقول في نفسي: لعن الله كلَّ شيء يأتي من تِيهك وعُجْبك وكبرك! وصرت إلى أبي، فأخبرته الخبر، ثم قلت له: وأراك تثق من عُمارة بن حمزة بما لا يوثق به! قال: فوالله إني لكذلك؛ إذ طلع رسولُ عُمارة بن حمزة بالمائة ألف. قال: فجمعنا في يومين ألفيْ ألف وسبعمائة ألف، وبقيت ثلثمائة ألف بوجودها يتمّ ما سعينا له، وبتعذّرها يبطل. قال: فوالله إني لعلى الجسر ببغداد مارّاً مهموماً مغموماً؛ إذ وثب إليّ زاجر، فقال: فرخ الطائر أخبرك! قال: فطويتُه مشغول القلب عنه، فلحقني وتعلّق بلجامي، وقال لي: أنت والله مهموم، ووالله ليُفرِجَنّ الله همّك، ولتمرّنّ غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك. قال: فأقبلتُ أعجب من قوله. قال: فقال لي: إن كان ذلك فلِي عليك خمسة آلاف درهم؟ قلت: نعم - ولو قال خمسون ألفاً لقلت نعم، لبعد ذلك عندي من أن يكون - قال: ومضيتُ. وورد على المنصور انتقاضُ الموصل وانتشارُ الأكراد بها، فقال مَنْ لها؟ فقال له المسيّب بن زهير - وكان صديقاً لخالد بن برمك: عندي يا أمير المؤمنين رأي، أرى أنك لا تنتصحه؛ وأنك ستلقاني بالردّ، ولكني لا أدَع نصحَك فيه والمشورة عليك به، قال: قل، فلا أستغشّك، قلت: يا أمير المؤمنين ما رميتَها بمثل خالد، قال: ويحك! فيصلح لنا بعد ما أتينا إليه! قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ إنما قوَّمتَه بذلك وأنا الضامن عليه، قال: فهو لها والله، فليحضرني غداً. فأحضِر، فصفح له عن الثلثمائة ألف الباقية، وعقد له.

قال يحيى: ثم مررتُ بالزاجر، فلما رآني قال: أنا هاهنا أنتظرك منذ غُدوة، قلت: امض معي، فمضي معي، فدفعتُ إليه الخمسة الآلاف.

قال: وقال لي أبي: أي بُنيّ؛ إنّ عُمارة تلزمه حقوق، وتنوبه نوائب فأتِه، فأقرئه السلام، وقل له: إن الله قد وهب لنا رأيَ أمير المؤمنين، وصفح لنا عما بقي علينا، وولاّني الموصل؛ وقد أمر بردّ ما استسلفت منك. قال: فأتيته فوجدته على مثل الحال التي لقيتُه عليه، فسلمت فما ردّ السلام عليّ، ولا زادني على أن قال: كيف أبوك؟ قلت: بخير، يقول كذا وكذا، قال: فاستوى جالساً، ثم قال لي: ما كنتُ إلا قسطاراً لأبيك؛ يأخذ مني إذا شاء ويردّ إذا شاء! قمْ عني

لا قمتَ! قال: فرجعتُ إلى أبي فأعلمته، فقال لي أبي: يا بنيّ، هو عُمارة ومَنْ لا يعترض عليه(١).

قال: فلم يزل خالد على الموصل إلى أن توفِّي المنصور ويحيى على أذرَبيجان، فذكر عن أحمد بن محمد بن سوار الموصليّ أنه قال: ما هِبْنا قطّ أميراً هيبتنَا خالد بن برمك من غير أن تشتدّ عقوبتُه، ولا نرى منه جَبَرِيّة؛ ولكن هيبة كانت له في صدورنا.

وذكر أحمد بن معاوية بن بكْر الباهليّ، عن أبيه، قال: كان أبو جعفر غضب على موسى بن كعب ـ وكان عامله على الجزيرة والموْصِل ـ فوجّه المهديّ إلى الرَّقة لبناء الرّافقة، وأظهر أنه يريد بيتَ المقدس، وأمره بالمرور والمضيّ على الموصل، فإذا صار بالبلَد أخذ موسى بن كعب فقيَّده، وولّى خالد بن بَرْمك الموصل مكانَه، ففعل المهديّ ذلك، وخلَّف خالداً على الموصِل، وشخص معه أَخَوا خالد: الحسن وسليمان ابنا برمك، وقد كان المنصور دعا قبل ذلك يحيى بن خالد، فقال له: قد أردتك لأمر مهمّ من الأمور، واخترتُك لثغر من الثغور؛ فكن على أهبة؛ ولا يعلم بذلك أحد حتى أدعُوَ بك، فكتم أباه الخبر؛ وحضر الباب فيمن حضر؛ فخرج الرّبيع، فقال: يحيى بن خالد! فقام فأخذ بيده، فأدخله على المنصور، فخرج على النَّاس وأبوه حاضر واللواء بين يديه على أذرَبيجان، فأمر الناسَ بالمضيّ معه، فمضوا في موكبه، وهنؤوه وهنؤوا أباه خالداً بولايته، فاتَّصل عملهما.

وقال أحمد بن معاوية: كان المنصور معجباً بيحيى، وكان يقول: ولد الناس ابناً وولد خالد أباً(٢).

* * *

وفيها سخِط المنصور على المسيَّب بن زهير وعزلَه عن الشُّرطة، وأمر بحبسه

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ٧٢].

(٢) أحمد بن معاوية: قال ابن عدي: حدث عن الثقات بالبواطيل وكان يسرق الحديث [الكامل (١/ ١٢)].

وتقييده ، وكان سبب ذلك أنه قتل أبان بن بشير الكاتي بالسِّياط ، لأمرٍ كان وجَد عليه فيما كان من شركته لأخيه عمرو بن زهير في ولاية الكوفة وخراجِها ، وولّى مكان المسيَّب الحكم بن يوسف صاحب الحرب ، ثم كلَّم المهْديّ أباه في المسيِّب ، فرضي عنه بعد حبسه إيَّاه أياماً ، وأعاد إليه ما كان يلي من شُرَطه.

وفيها وجَّه المنصور نصرَ بن حرب التيميّ والياً على ثغر فارس.

وفيها سقط المنصور عن دابَّته بجَرْجَرَايا ، فانشجَّ ما بين حاجبيه؛ وذلك أنه كان خرج لمّا وجّه ابنه المهدي إلى الرّقة مشيِّعاً له ، حتى بلغ موضعاً يقال له جُبّ سُمّاقا ، ثم عدل إلى حَوْلايا ، ثم أخذ على النَّهروانات فانتهى ـ فيما ذكر ـ إلى بَثق من النّهروانات يصبّ إلى نهر دَيَاليَ ، فأقام على سَكْره ثمانية عشر يوماً ، فأعياه ، فمضى إلى جَرْجَرايا ، فخرج منها للنظر إلى ضَيْعة كانت لعيسى بن عليّ هناك ، فصُرِع من يومه ذلك عن برذون له دَيْزج ، فشُجَّ في وجهه ، وقدم عليه وهو بجَرْجَرايا أسارى من ناحية عُمان من الهند ، بعث بهم إليه تسنيم بن الحواري مع ابنه محمد ، فهمّ بضرب أعناقهم ، فساءلهم فأخبروه بما التبس به أمرهم عليه؛ فأمسك عن قتلهم وقسَّمهم بين قوّاده ونُوّابه.

وفيها انصرف المهديّ إلى مدينة السلام من الرّقّة فدخلها في شهر رمضان.

وفيها أمر المنصور بمرَمَّة القصر الأبيض ، الذي كان كسرى بناه ، وأمر أن يغرَّم كلّ مَنْ وُجد في داره شيء من الآجرّ الخُسروانيّ ، مما نقضه من بناء الأكاسرة ، وقال: هذا فيء المسلمين ، فلم يتم ذلك ولا ما أمر به من مرمَّة القصر.

[ذكر الخبر عن حبس ابن جريج وعباد بن كثير والثوري]

وفي هذه السنة حبس محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ ، وهو أمير مكة ـ فيما ذكر ـ بأمر المنصور إياه بحبسهم: ابنَ جريج وعبّاد بن كثير والثوريّ ، ثمّ أطلقهم من الحبس بغير إذن أبي جعفر ، فغضب عليه أبو جعفر.

وذكر عمر بن شبَّة أن محمد بن عمران مولى محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس حدّثه عن أبيه ، قال: كتب المنصور إلى محمد بن

إبراهيم ـ وهو أمير على مكة ـ يأمره بحبس رجل من آل عليّ بن أبي طالب كان بمكة ، وبحبس ابن جُريج وعباد بن كثير والثوريّ ، قال: فحبسهم؛ فكان له سُمَّارة يسامرونه بالليل؛ فلما كان وقت سَمره جلس وأكبَّ على الأرض ينظر إليها ، ولم ينطق بحرف حتى تفرّقوا. قال: فدنوتُ منه فقلت له: قد رأيتُ ما بك ، فما لك؟ قال: عمَدتُ إلى ذي رحِم فحبستُه ، وإلى عيونٍ من عيون الناس فحبستُهم ، فيقدم أميرُ المؤمنين ولا أدري ما يكون؛ فلعلَّه أن يأمر بهم فيقتلوا ، فيشتدَّ سلطانه وأهْلِكَ ديني؛ قال: فقلت له: فتصنع ماذا؟ قال: أوثر الله ، وأطلِق القوم؛ اذْهَبْ إلى إبلي فخُذْ راحلةً منها ، وخذ خمسين ديناراً فأت بها الطالبيّ وأقرئه السلام ، وقل له: إن ابن عمك يسألك أن تحلله من ترويعه إياك وتركب هذه الراحلة وتأخذ هذه النفقة قال فلما أحسَّ بي جعل يتعوذ بالله من شري فلما أبلغته قال: هو في حل ولا حاجة لي إلى الراحلة ولا إلى النفقة ، قال: قلت: إنّ أطيب لنفسه أن تأخذ ، ففعل. قال: ثم جئتُ إلى ابن جُريج وإلى سفيان بن سعيد وعباد بن كثير فأبلغتهم ما قال ، قالوا: هو في حلّ ، قال: فقلت لهم: يقول لكم: لا يَظهرَنّ أحد منكم ما دام المنصور مقيماً. قال: فلما قرب المنصور وجَّهني محمد بن إبراهيم بألطاف ، فلما أخبِرَ المنصورُ أنّ رسول محمد بن إبراهيم قدم ، أمر بالإبل فضرِبت وجوهها.

قال: فلما صار إلى بئر ميمون لقيه محمد بن إبراهيم ، فلما أخبِر بذلك أمر بدوابّه فضرِبت وجوهها ، فعدل محمَّد ، فكان يسير في ناحية. قال: وعدل بأبي جعفر عن الطريق في الشقّ الأيسر فأنيخ به ، ومحمد واقف قُبالته ، ومعه طبيب له؛ فلما ركب أبو جعفر وسار ، وعديله الرَّبيع أمر محمد الطبيب فمضى إلى موضع مناخ أبي جعفر ، فرأى نجْوه ، فقال لمحمد: رأيتُ نجوَ رجل لا تطول به الحياة؛ فلما دخل مكة لم يلبث أن مات وسلِم محمد.

واختُلف في سبب الوجع الذي كانت منه وفاته؛ فذُكر عن عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ ، عن أبيه ، أنه كان يقول: كان المنصور لا يستمرىء طعامه؛ ويشكو من ذلك إلى المتطبِّبين ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنات؛ فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه أن يُقلّ من الطعام ، ويخبرونه أن الجَوارشنات تُهضم في الحال ، وتُحدِث من العلّة ما هو أشدّ منه عليه؛ حتى قدم عليه طبيب من أطبّاء

الهند ، فقال له كما قال له غيره؛ فكان يتَّخذ له سَفوفاً جَوارشناً يابساً ، فيه الأفاويه والأدوية الحارة ، فكان يأخذه فيهضم طعامه فأحمده. قال: فقال لي أبي: قال لي كثير من متطببي العراق: لا يموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبَطْن ، قال: قلت له: وما علمك؟ قال: هو يأخذ الجوارِشن فيهضم طعامه؛ ويخلق من زئير مَعِدَتِهِ في كلّ يوم شيئاً ، وشحم مصارينه ، فيموت ببطنه. وقال لي: اضْرب لذلك مثلاً ، أرأيت لو أنك وضعت جَرّاً على مَرْفع ، ووضعت تحتها آجرّة جديدة فقطرتْ ، أما كان قَطْرها يثقب الآجرّة على طول الدهر! أو ما علمت أن لكلّ قطرة خدّاً! قال: فمات والله أبو جعفر ـ كما قال ـ بالبطن.

وقال بعضهم: كان بدءُ وجعه الذي مات فيه من حرٍّ أصابه من ركوبه في الهواجر ، وكان رجلاً محروراً على سنّه ، يغلب عليه المرار الأحمر ، ثم هاض بطنه ، فلم يزل كذلك حتى نزل بستَانَ ابن عامر ، فاشتدّ به ، فرحل عنه فقصَّر عن مكة ، ونزل بئر ابن المرتَفِع ، فأقام بها يوماً وليلة ، ثم صار منها إلى بئر ميمون؛ وهو يسأل عن دخوله الحرَم ، ويوصي الرّبيع بما يريد أن يوصيَه ، وتُوُفِّيَ بها في السَّحَر أو مع طلوع الفجر ليلة السبت لستٍّ خلوْن من ذي الحجَّة ، ولم يحضره عند وفاته إلا خدَمه والربيع مولاه؛ فكتم الربيع موتَه ، ومنع النساء وغيرهنّ من البكاء عليه والصُّراخ ، ثم أصبح فحضر أهلُ بيته كما كانوا يحضرون ، وجلسوا مجالسهم؛ فكان أول من دُعي به عيسى بن عليّ ، فمكث ساعة ، ثم أذن لعيسى بن موسى ـ وقد كان فيما خلا يقدَّم في الإذن على عيسى بن عليّ ، فكان ذلك مما ارتيب به ـ ثم أذن للأكابر وذوي الأسنان من أهل البيت ، ثم لعامَّتهم؛ فأخذ الربيع بيعتَهم لأمير المؤمنين المهديّ ولعيسى بن موسى من بعده ، على يد موسى بن المهديّ حتى فرغ من بيعة بني هاشم؛ ثم دعا بالقوّاد فبايَعوا ولم ينكل منهم عن ذلك رجلٌ إلا عليّ بن عيسى بن ماهان؛ فإنه أبى عند ذكر عيسى بن موسى أن يبايع له ، فلطمه محمد بن سليمان ، وقال: ومن هذا العلج! وأمصَّه ، وهمّ بضرب عنقه ، فبايع ، وتتابع الناس بالبيعة. وكان المسيب بن زهير أوّلَ مَن استثنى في البيعة ، وقال: عيسى بن موسى: إن كان كذلك. فأمْضَوْه.

وخرج موسى بن المهديّ إلى مجلس العامة ، فبايع مَنْ بقي من القواد

والوجوه ، وتوجَّه العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة ليبايع أهلَها بها ؛ وكان العباس يومئذ المتكلّم ، فبايع الناس للمهديّ بين الركن والمقام ، وتفرّق عِدّة من أهل بيت المهديّ في نواحي مكة والعسكر فبايعه الناس ، وأخذ في جِهاز المنصور وغسله وكفنه ، وتولّى ذلك من أهل بيته العباس بن محمد والربيع والرّيان وعدّة من خَدمه ومواليه ، ففرغ من جهازه مع صلاة العصر ، وغطّى من وجهه وجميع جسده بأكفانه إلى قُصاص شعره ، وأبدى رأسه مكشوفاً من أجل الإحرام ، وخرج به أهل بيتِه والأخصُّ من مواليه ، وصلّى عليه ـ فيما زعم الواقديّ ـ عيسى بن موسى في شِعب الخوز.

وقيل : إن الذي صلّى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ. وقيل : إنّ المنصور كان أوصى بذلك ؛ وذلك أنه كان خليفتَه على الصلاة بمدينة السلام.

وذَكر عليّ بن محمد النوفليّ ، عن أبيه ، أنّ إبراهيم بن يحيى صلى عليه في المضارب قبل أن يُحمل ؛ لأن الربيع قال : لا يصلِّي عليه أحد يطمع في الخلافة ، فقدّموا إبراهيم بن يحيى ـ وهو يومئذ غلام حَدَث ـ ودفن في المقبرة التي عند ثَنِيَّة المدنيين التي تسمّى كذا ، وتسمى ثَنيّة المَعْلاة ؛ لأنها بأعلى مكة ، ونزل في قبره عيسى بن عليّ والعباس بن محمد وعيسى بن موسى ، والربيع والرّيان موْلياه ، ويقطين بن موسى.

وفي هذه السنة هلك طاغية الروم.

* * *

ذكر الخبر عن صفة أبي جعفر المنصور

ذُكر أنه كان أسمر طويلاً ، نحيفاً ، خفيفَ العارضين.

وكان وُلِد بالحُمَيْمة.

* * *

ذكر الخبر عن بعض سيره

ذُكر عن صالح بن الوجيه ، عن أبيه ، قال : بلغ المنصورَ أن عيسى بن موسى

قتل رجلاً من ولد نصر بن سيَّار ، كان مستخفياً بالكوفة ، فدُلّ عليه ، فضرب عنقه. فأنكر ذلك وأعظمه ، وهمّ في عيسى بأمر كان فيه هلاكه ، ثم قطعه عن ذلك جهلُ عيسى بما فعل. فكتب إليه :

أما بعد ، فإنه لولا نظرُ أمير المؤمنين واستبقاؤه لم يؤخِّرْك عقوبة قتل ابن نصر بن سيَّار واستبدادك به بما يقطع أطماعَ العمال في مثله ، فأمسِكْ عمّن ولاك أمير المؤمنين أمره؛ من عربيّ وأعجميّ ، وأحمر وأسود ، ولا تستبدّنّ على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبة في أحد قِبَله تباعةٌ ، فإنه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنّة قد وضعها الله عنه بالتوبة ، ولا بحَدَثٍ كان منه في حرب أعقبه الله منها سِلْماً ستر به عن ذي غِلَّة ، وحجز به عن محنة ما في الصدور؛ وليس ييأس أمير المؤمنين لأحدٍ ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر؛ كما أنه لا يأمن إدبار مقبل. إن شاء الله والسلام.

وذكر عن عباس بن الفضل ، قال : حدّثني يحيى بن سُليم كاتب الفضل بن الربيع ، قال : لم يُرَ في دارِ المنصور لهوٌ قطّ ، ولا شيء يشبه اللَّهو واللعب والعبث إلا يوماً واحداً ، فإنّا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز أخا سليمان وعيسى ابني أبي جعفر من الطلحيَّة ، تُوُفي وهو حَدَث ، قد خرج على الناس متنكِّباً قوساً ، متعمّماً بعمامة ، متردّياً ببُرْد ، في هيئة غلام أعرابيّ ، راكباً على قعود بين جُوالقيْن ، فيهما مُقْل ونعال ومساويك وما يهديه الأعراب؛ فعجب الناس من ذلك وأنكروه. قال : فمضى الغلام حتى عبَر الجسر ، وأتى المهديّ بالرُّصافة فأهدى إليه ذلك ، فقبِل المهدِيّ ما في الجواليق وملأهما دراهم؛ فانصرف بين الجُوالقين؛ فعُلم أنه ضَرْبٌ من عبث الملوك.

وذكر عن حمّاد التركيّ ، قال : كنت واقفاً على رأس المنصور ، فسمع جلبةً في الدار ، فقال : ما هذا يا حمّاد؟ انظر ، فذهبتُ فإذا خادم له قد جلس بين الجواري ، وهو يضرب لهنّ بالطنبور ، وهنّ يضحكنَ ، فجئت فأخبرته ، فقال : وأيّ شيء الطنبور؟ فقلت : خشبة من حالها وأمرها. . . ووصفتُها له؛ فقال لي : أصبتَ صفته ، فما يدريك أنت ما الطنبور! قلت : رأيتُه بخُراسان ، قال : نعم هناك ، ثم قال : هات نعلي ، فأتيته بها فقام يمشي رُويداً حتى أشرف عليهم فرآهم ، فلما بصروا به تفرّقوا ، فقال : خذوه ، فأخِذ ، فقال : اضرب به رأسَه ،

فلم أزل أضرب به رأسَه حتى كسّرتُه ، ثم قال: أخرِجْه من قصري ، واذهب به إلى حمران بالكَرْخ ، وقل له يبيعه.

وذكر العباس بن الفضل عن سلاّم الأبرش ، قال: كنت وأنا وصيف وغلام آخر نخدم المنصورَ داخلاً في منزله ، وكانت له حجرة فيها بيت وفُسطاط وفراش ولحاف يخلو فيه ، وكان من أحسن الناس خُلُقاً ما لم يخرج إلى الناس ، وأشدّ احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان؛ فإذا لبس ثيابه تغيَّر لونُه وتربّد وجهه ، واحمرّت عيناه ، فيخرج فيكون منه ما يكون ، فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك؛ فنستقبله في ممشاه ، فربّما عاتبناه.

وقال لي يوماً: يا بنيّ إذا رأيتَني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي؛ فلا يدنُوَنّ مني أحد منكم مخافة أن أعرّه بشيء.

وذكر أبو الهيثم خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن حازم ، قال: حدّثني عبد الله بن محمد ـ يلقب بمنقار من أهل خراسان وكان من عمال الرشيد ـ قال: حدّثني معن بن زائدة ، قال: كنا في الصحابة سبعمئة رجل؛ فكنا ندخل على المنصور في كل يوم ، قال: فقلت للربيع: اجعلني في آخِر مَنْ يدخل ، فقال لي: لستَ بأشرفهم فتكون في أوّلهم ، ولا بأخسِّهم نسباً فتكونَ في آخرهم؛ وإن مرتبتك لتشبه نسبَك. قال: فدخلتُ على المنصور ذات يوم وعليّ دُرَّاعةٌ فضفاضة وسيف حنفيّ ، أقرع بنعله الأرض ، وعمامة قد سدلتها من خلفي وقُدّامي. قال: فسلّمت عليه وخرجت ، فلمَّا صرت عند السِّتْر صاح بي: يا معن ، صيحة أنكرتها! فقلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: إليّ ، فدنوت منه ، فإذا به قد نزل عن عرشه إلى الأرض ، وجثا على ركبتيه ، واستلّ عموداً من بين فراشيْن ، واستحال لونه وَدرَّت أوداجه ، فقال: إنك لصاحبي يوم واسط؛ لا نجوتُ إن نجوتَ مني ، قال: قلت يا أمير المؤمنين ، تلك نصرتي لباطلهم ، فكيف نصرتي لحقك! قال: فقال لي: كيف قلتَ؟ فأعدتُ عليه القول ، فما زال يستعيدني حتى ردّ العمود في مستقرّه ، واستوى متربعاً ، وأسفَر لونه ، فقال: يا معن ، إنّ لي باليمن هنات ، قلت: يا أميرَ المؤمنين ليس لمكتوم رأي ، قال: فقال: أنت صاحبي ، فجلست ، وأمر الربيع بإخراج كلّ مَنْ كان في القصر فخرج ، فقال لي: إن صاحب اليمن قد همّ بمعصيتي ، وإني أريد أن آخذه أسيراً ولا يفوتني

شيء من ماله ، فما ترى؟ قال: قلت: يا أميرَ المؤمنين ، وَلِّني اليمن ، وأظهِر أنك ضممتني إليه ، ومرِ الربيع يُزيح علتي في كلّ ما أحتاج إليه ، ويخرجني من يومي هذا لئلا ينتشر الخبر. قال: فاستلّ عهداً من بين فراشيْن ، فوقَّع فيه اسمي وناولنيه ، ثم دعا الربيع ، فقال: يا ربيع ، إنا قد ضممنا مَعْناً إلى صاحب اليمن ، فأزح عِلّتَه فيما يحتاج إليه من الكُراع والسلاح ، ولا يُمسي إلا وهو راحل. ثم قال: ودِّعني ، فودّعته وخرجتُ إلى الدِّهليز ، فلقيني أبو الوالي ، فقال: يا معن ، أعززْ عليّ أن تضمّ إلى ابن أخيك! قال: فقلت: إنه لا غضاضة على الرجل أن يَضُمَّه سلطانه إلى ابن أخيه ، فخرجت إلى اليمن فأتيت الرّجل ، فأخذته أسيراً ، وقرأت عليه العهد ، وقعدت في مجلسه.

وذكر حمّاد بن أحمد اليمانيّ ، قال: حدّثني محمد بن عمر اليماميّ أبو الرُّدينيّ ، قال: أراد معن بن زائدة أن يوفِد إلى المنصور قوماً يسلُّون سخيمته ، ويستعطفون قلبَه عليه ، وقال: قد أفنيت عمري في طاعته ، وأتعبتُ نفسي وأفنيت رجالي في حرب اليمن ، ثم يسخط عليّ أن أنفقتُ المال في طاعته! فانتخب جماعة من عشيرته من أفناء ربيعة؛ فكان فيمن اختار مُجّاعة بن الأزهر ، فجعل يدعو الرّجال واحداً واحداً ، ويقول: ماذا أنت قائل لأمير المؤمنين إذا وجّهتُك إليه؟ فيقول: أقول وأقول ، حتى جاءه مُجّاعة بن الأزهر ، فقال: أعزّ الله الأمير! تسألني عن مخاطبة رجل بالعراق وأنا باليمن! اقصد لحاجتك ، حتى أتأتَّى لها كما يمكن وينبغي فقال: أنت صاحبي ، ثم التفت إلى عبد الرحمن بن عتيق المزني ، فقال له: شُدّ على عَضُد ابن عمّك وقدّمه أمامك؛ فإن سها عن شيء فتلافه. واختار من أصحابه ثمانية نفر معهما حتى تمُّوا عشرة ، وودّعهم ومضوْا حتى صاروا إلى أبي جعفر ، فلما صاروا بين يديه تقدّموا ، فابتدأ مُجّاعة بن الأزهر بحمد الله والثناء عليه والشكر ، حتى ظنّ القوم أنه إنما قصد لهذا ، ثم كرّ على ذكر النبيّ ﷺ ، وكيف اختاره الله من بطون العرب ، ونشر من فضله؛ حتى تعجّب القوم ، ثم كرّ على ذكر أمير المؤمنين المنصور ، وما شرَّفه الله به ، وما قلّده ، ثم كرّ على حاجته في ذكر صاحبه. فلما انتهى كلامه ، قال المنصور: أمَّا ما وصفْتَ من حمد الله ، فالله أجلُّ وأكبر من أن تبلغه الصفات ، وأما ما ذكرت من النبيّ ﷺ فقد فضَّله الله بأكثر مما قلتَ ، وأما ما وصفتَ به أمير

المؤمنين؛ فإنه فضّله الله بذلك ، وهو معينه على طاعته إن شاء الله ، وأما ما ذكرت من صاحبك فكذبتَ ولؤُمتَ ، اخرج فلا يُقيل ما ذكرت. قال: صدق أميرُ المؤمنين ، ووالله ما كذبتُ في صاحبي. فأخْرِجوا فلما صاروا إلى آخر الإيوان أمر بردّه مع أصحابه ، فقال: ما ذكرتَ؟ فكرّ عليه الكلام: حتى كأنه كان في صحيفة يقرؤه ، فقال له مثل القول الأوّل ، فأخرِجوا حتى برزوا جميعاً ، وأمر بهم فوقفوا ، ثم التفت إلى مَنْ حضر من مُضر ، فقال: هل تعرفون فيكم مثل هذا؟ والله لقد تكلَّم حتى حسدتُه ، وما منعني أن أتمّ على ردّه إلا أن يقال: تعصّب عليه لأنه ربَعيّ ، وما رأيتُ كاليوم رجلاً أربطَ جأشاً ، ولا أظهر بياناً؛ ردّه يا غلام. فلما صار بين يديه أعاد السّلام ، وأعاد أصحابه ، فقال له المنصور: اقصد لحاجتك وحاجة صاحبك. قال: يا أميرَ المؤمنين ، معن بن زائدة عَبْدك وسيفك وسهمك ، رميت به عدوّكَ ، فضرب وطعن ورمى ، حتى سهل ما حَزُن ، وذلّ ما صعُب ، واستوى ما كان معوَجّاً من اليمن ، فأصبحوا من خَول أمير المؤمنين أطال الله بقاءه! فإن كان في نفس أمير المؤمنين هنَة من ساعٍ أو واشٍ أو حاسد فأميرُ المؤمنين أولَى بالتفضل على عبده ، ومن أفنى عمره في طاعته. فقبل وفادتهم ، وقبل العذر من معن؛ وأمر بصرفهم إليه؛ فلما صاروا إلى معن وقرأ الكتاب بالرضا قبّل ما بين عينيه ، وشكر أصحابه ، وخلع عليهم وأجازهم على إقدامهم ، وأمرهم بالرّحِيل إلى منصور ، فقال مُجّاعة:

آليتُ في مَجْلسٍ من وائلٍ قَسَماً ... ألا أَبِيعَك يا مَعْنٌ بأَطماعِ
يا مَعْنُ إنك قد أَوْلَيْتَنِي نِعَماً ... عمَّتْ لُجَيْماً وخَصَّتْ آل مُجّاعِ
فلا أَزالُ إليك الدهرَ مُنْقَطِعاً ... حتى يُشيد بِهُلكي هَتفَةُ الناعِي

قال: وكانت نِعَمُ معن على مُجّاعة ، أنه سأله ثلاث حوائج؛ منها أنه كان يتعشّق امرأة من أهل بيته ، سيدة يقال لها زهراء لم يتزوجْها أحد بعد؛ وكانت إذا ذُكر لها قالت: بأيّ شيء يتزوجني؟ أبجُبّته الصوف ، أم بكسائه؟ فلمّا رجع إلى معن كان أوّل شيء سأله أن يزوّجه بها ، وكان أبوها في جيش مَعْن ، فقال: أريد زهراء ، وأبوها في عسكرك أيّها الأمير ، فزوّجه إياها على عشرة آلاف درهم وأمهرها من عنده. فقال له معن: حاجتَك الثانية: قال: الحائط الذي فيه منزلي بحجَر وصاحبه في عسكر الأمير ، فاشتراه منه وصيَّره له؛ وقال: حاجتك الثالثة؟

قال: تهب لي مالاً. قال: فأمر له بثلاثين ألف درهم، تمام مائة ألف درهم، وصرفه إلى منزله.

وذكر عن محمد بن سالم الخوارزميّ ـ وكان أبوه من قوّاد خراسان ـ قال: سمعتُ أبا الفرج خال عبد الله بن جبلة الطالقانيّ يقول: سمعت أبا جعفر يقول: ما كان أحوجَني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعفّ منهم، قيل له: يا أميرَ المؤمنين، مَنْ هم؟ قال: هم أركان المُلْك، ولا يصلح المُلك إلا بهم؛ كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، إن نقصت واحدة وهَى؛ أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومةُ لائم، والآخر صاحب شُرْطة يُنصف الضعيف من القويّ، والثالث صاحب خراج يستقصِي ولا يظلم الرعيّة فإني عن ظلمها غنيّ، والرابع ـ ثم عضّ على أصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول في كل مرة: آه آه ـ قيل له: ومَنْ هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحّة.

وقيل: إنّ المنصور دعا بعاملٍ من عمّاله قد كسر خراجه، فقال له: أدّ ما عليك، قال: والله ما أملك شيئاً، ونادى المنادي: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: يا أميرَ المؤمنين، هبْ ما عليّ لله ولشهادة أن لا إله إلا الله فخلّى سبيله.

قال: وولّى المنصور رجلاً من أهل الشام شيئاً من الخراج، فأوصاه وتقدَّم إليه، فقال: ما أعرفَني بما في نفسك الساعة يا أخا أهل الشام! تخرج من عندي الساعة، فتقول: الزم الصّحة؛ يلزمك العمل.

قال: وولّى رجلا من أهل العراق شيئاً من خراجِ السواد، فأوصاه، وتقدّم إليه، فقال: ما أعرفني بما في نفسك! تخرج الساعةَ فتقول: من عالَ بعدها فلا اجتبرَ. اخرج عني وامضِ إلى عملك؛ فوالله لئن تعرّضْتَ لذلك لأبلغنّ من عقوبتك ما تستحقّه. قال: فولّيا جميعاً وصحّحا وناصحا.

ذكر الصبّاح بن عبد الملك الشيبانيّ، عن إسحاق بن موسى بن عيسى؛ أنّ المنصور ولّى رجلا من العرب حضرموت، فكتب إليه وإلى البريد أنه يكثر الخروجَ في طلب الصّيد ببزاةٍ وكلاب قد أعدّها، فعزله وكتب إليه: ثكلتْك أمك وعدمتك عشيرتك! ما هذه العِدّة التي أعددتها للنّكاية في الوحش! إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين، ولم نستكفك أمورَ الوحش؛ سلِّم ما كنت تلي من

عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوماً مدحوراً[(١)] .

وذكر الرّبيع أنه قال: أدخِل على المنصور سهيل بن سالم البصريّ ، وقد وُلِّي عملاً فعزِل ، فأمر بحبسه واستئدائه ، فقال سهيل: عبدك يا أمير المؤمنين ، قال: بئس العبد أنت! قال: لكنك يا أمير المؤمنين نِعمَ المولى! قال: أمّا لَكَ فلا .

وقال: وذكر عن الفضل بن الربيع عن أبيه ، أنه قال: بينا أنا قائم بين يدي المنصور أو على رأسه؛ إذ أُتِيَ بخارجيّ قد هزم له جيوشاً ، فأقامه ليضرب عنقه ، ثم اقتحمته عينه ، فقال: يا بن الفاعلة ، مثلك يهزم الجيوش! فقال له الخارجيّ: ويلك وسوءة لك! بيني وبينك أمس السيف والقتل ، واليوم القذف والسبّ! وما كان يؤمنك أن أرُدّ عليك وقد يئستُ من الحياة فلا تستقيلها أبداً! قال: فاستحيا منه المنصور وأطلقه ، فما رأى له وجهاً حولاً .

ذكر عبد الله بن عمرو الملحيّ أن هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي: حدثني عبد الله بن محمد بن أبي أيوب المكّي ، عن أبيه ، قال: حدثني عُمارة بن حمزة ، قال: كنت عند المنصور ، فانصرفت من عنده في وقت النهار ، وبعد أن بايع الناس للمهديّ ، فجاءني المهديّ في وقت انصرافي ، فقال لي: قد بلغني أنّ أبي قد عزم أن يبايع لجعفر أخي ، وأعطِي الله عهداً لئن فعل لأقتلنّه ، فمضيت من فوري إلى أمير المؤمنين ، فقلت: هذا أمر لا يؤخّر ، فقال الحاجب: الساعةَ خرجْتَ! قلتُ: أمر حدَث ، فأذن لي ، فدخلت إليه ، فقال لي: هيه يا عمارة! ما جاء بك؟ قلتُ: أمر حدث يا أمير المؤمنين أريد أن أذكره ، قال: فأنا أخبرك به قبل أن تخبرني ، جاءك المهديّ فقال: كيت وكيت ، قلتُ: والله يا أمير المؤمنين لكأنّك حاضر ثالثنا ، قال: قل له: نحن أشفق عليه من أن نعرضه لك .

وذكر عن أحمد بن يوسف بن القاسم ، قال: سمعتُ إبراهيم بن صالح ، يقول: كنا في مجلس ننتظر الإذن فيه على المنصور ، فتذاكرنا الحجّاج ، فمنَّا مَنْ حمِده ومنا مَن ذمّه ، فكان ممن حمِده معن بن زائدة ، وممّن ذمّه الحسن بن زيد ، ثم أذن لنا فدخلنا على المنصور ، فانبرى الحسن بن زيد ، فقال: يا أمير

---

(١) انظر: البداية والنهاية [٨/ ٧٤].

المؤمنين ، ما كنت أحسبني أبقى حتى يُذكر الحجّاجُ في دارك وعلى بساطك ، فيُثنىٰ عليه. فقال أبو جعفر: وما استنكرت من ذلك! رجل استكفاه قوم فكفاهم؛ والله لوددت أني وجدت مثل الحجاج حتى أستكفيه أمري ، وأنزله أحد الحَرمين. قال: فقال له معن: يا أميرَ المؤمنين ، إن لك مثل الحجاج عدّة لو استكفيتَهم كَفَوْك ، قال: ومَن هم؟ كأنك تريد نفسك! قال: وإن أردتُها فلم أبعد من ذلك ، قال: كلاّ لست كذاك؛ إن الحجاج ائتمنه قومٌ فأدّى إليهم الأمانة ، وإنّا ائتمنّاك فخُنتنَا.

ذكر الهيثم بن عديّ ، عن أبي بكر الهذليّ ، قال: سرت مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكة ، وسايرتُه يوماً ، فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تذهب في الأرض ، وعليه جُبَّة خزّ ، وعمامة عدنيَّة ، وفي يده سوط يكاد يمسّ الأرض ، سريّ الهيئة ، فلما رآه أمرني فدعوتُه ، فجاء فسأله عن نسبه وبلاده وبادية قومه وعن ولاة الصدقة. فأحسن الجواب ، فأعجبه ما رأى منه ، فقال: أنشدني ، فأنشده شعراً لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم؛ وحدّثه حتى أتى على شعر لطريف بن تميم العنبريّ ، وهو قوله:

إنَّ قَنَاتي لَنَبْعٌ لا يؤيّسُها ... غمزُ الثِّقاف ولا دُهْنٌ ولا نارُ
متى أجِرْ خائفاً تأْمَنْ مَسارحُهُ ... وإنْ أخِفْ آمِناً تَقْلَقْ به الدارُ
إنَّ الأُمورَ إذا أَوردتُها صَدَرَتْ ... إنَّ الأمورَ لها وِردٌ وإصدارُ

فقال: ويحك! وما كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر؟ قال: كان أثقلَ العرب على عدوّه وطأةً وأدركهم بثأر ، وأيمنهم نقيبة ، وأعساهم قناة لمن رام هضمه ، وأقراهم لضيفه ، وأحوطهم من وراء جاره؛ اجتمعت العرب بعُكاظ فكلّهم أقرّ له بهذه الخلال؛ غير أن امرأ أراد أن يقصّر به ، فقال: والله ما أنت ببعيد النُّجْعة ، ولا قاصد الرميّة ، فدعاه ذلك إلى أن جعل على نفسه ألاّ يأكل إلا لحم قَنَص يقتنصه ، ولا ينزعَ كلّ عام عن غزوة يُبعد فيها أثره ، قال: يا أخا بني تميم ، لقد أحسنتَ إذ وصفتَ صاحبك ولكني أحقّ ببيته منه؛ أنا الذي وَصف لا هو.

وذكر أحمد بن خالد الفُقَيْميّ أن عدّة من بني هاشم حدّثوه أنّ المنصور كان شغلُه في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزْل وشحن الثّغور والأطراف

وأمْن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعيّة لطَرْح عالتهم والتلطّف لسكونهم وهدوئهم ، فإذا صلّى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره ، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كُتب الثغور والأطراف والآفاق ، وشاور سُمّاره من ذلك فيما أرب؛ فإذا مضى ثلثُ الليل قام إلى فراشه وانصرف سُمّاره ، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه ، فأسبغ وضوءه ، وصفّ في محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلِّي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه(١) .

قال إسحاق: حُدّثت عن عبد الله بن الرّبيع ، قال: قال أبو جعفر لإسماعيل بن عبد الله: صفْ لي الناس ، فقال: أهل الحجاز مبتدأ الإسلام وبقية العرب ، وأهلُ العراق ركن الإسلام ومقاتلة عن الدين ، وأهل الشام حِصْن الأمة وأسنّة الأئمة ، وأهل خُراسان فرسان الهيْجاء وأعنّة الرجال ، والتّرك منابت الصخور وأبناء المغازي ، وأهل الهند حكماء استغنوْا ببلادهم فاكتفوْا بها عمّا يليهم ، والروم أهلُ كتاب وتديّن نحّاهم الله من القرب إلى البعد ، والأنباط كان مُلكهم قديماً فهم لكلّ قوم عبيد. قال: فأيّ الولاة أفضل؟ قال: الباذل للعطاء ، والمعرض عن السيئة. قال: فأيّهم أخرق؟ قال: أنهكهم للرعية ، وأتعبهم لها بالخُرق والعقوبة. قال: فالطاعة على الخوف أبلغ في حاجة الملك أم الطاعة على المحبة؟ قال: يا أميرَ المؤمنين ، الطاعة عند الخوف تُسِرّ الغدر وتبالغ عند المعاينة ، والطاعة على المحبّة تضمر الاجتهاد وتبالغ عند الغفلة. قال: فأيّ الناس أولاهم بالطاعة؟ قال: أولاهم بالمضرّة والمنفعة. قال: ما علامة ذلك؟ قال: سرعة الإجابة وبذْل النفس. قال: فمن ينبغي للملِك أن يتَّخذه وزيراً؟ قال: أسلمُهم قلباً ، وأبعدهم من الهوى.

وذكر عن أبي عبيد الله الكاتب ، قال: سمعت المنصور يقول للمهديّ حين عهد له بولاية العهد: يا أبا عبد الله ، استدِم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألّف والنصر بالتواضع؛ ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبَك من رحمة الله.

---

(١) البداية [٨/ ٧٤].

وذكر الزبير بن بَكّار ، قال: حدثني مبارك الطبريّ ، قال: سمعت أبا عبيد الله يقول: سمعت المنصور يقول للمهديّ: لا تبرِم أمراً حتى تفكّر فيه؛ فإنّ فكر العاقل مرآته ، تريه حسنه وسيّئه.

وذكر الزبير أيضاً ، عن مصعب بن عبد الله ، عن أبيه ، قال: سمعت أبا جعفر المنصور يقول للمهديّ: يا أبا عبد الله؛ لا يصلح السلطانُ إلاّ بالتقوى ، ولا تصلح رعيَّته إلا بالطاعة ، ولا تعمّر البلاد بمثل العدل ، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال ، ولا تَقْدُمُ في الحياطة بمثل نقل الأخبار.

وأقدرُ الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس مَنْ ظلم مَن هو دونه. واعتبر عملَ صاحبك وعلمَه باختباره.

وعن المبارك الطبريّ أنه سمع أبا عبيد الله يقول: سمعتُ المنصور يقول للمهديّ: يا أبا عبد الله ، لا تجلس مجلساً إلا ومعك من أهل العلم مَن يحدّثك؛ فإن محمد بن شهاب الزهريّ قال: الحديث ذكَر ولا يحبّه إلا ذُكور الرجال ، ولا يُبغضه إلاّ مؤنثوهم؛ وصَدَقَ أخو زُهْرة![(١)].

وذُكِر عن عليّ بن مجاهد بن محمد بن عليّ ، أن المنصور قال للمهديّ: يا أبا عبد الله ، مَنْ أحبَّ الحمد أحسن السيرة ، ومن أبغض الحمد أساءها ، وما أبغض أحدٌ الحمد إلا استذمّ ، وما استذمّ إلاّ كرِه.

وقال المبارك الطبريّ: سمعت أبا عبيد الله يقول: قال المنصور للمهديّ: يا أبا عبد الله ، ليس العاقلُ الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه؛ ولكنه الّذي يحتال للأمر الذي غشيَه حتى لا يقع فيه.

وذكر الفقيميّ ، عن عتبة بن هارون ، قال: قال أبو جعفر يوماً للمهديّ: كم راية عندك؟ قال: لا أدري ، قال: هذا والله التَّضييع؛ أنت لأمر الخلافة أشدُّ تضييعاً؛ ولكن قد جمعتُ لك ما لا يضرّك معه ما ضيَّعتَ؛ فاتق الله فيما خوّلك[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية [٨/ ٧٥].
(٢) المصدر السابق [٨/ ٧٥].

وذكر عليّ بن محمد عن حفص بن عمر بن حماد ، عن خالصة ، قالت: دخلتُ على المنصور؛ فإذا هو يتشكَّى وجع ضِرْسه ، فلما سمع حسِّي ، قال: ادخلي؛ فلما دخلت إذا هو واضع يده على صُدغيه ، فسكت ساعة ثم قال لي: يا خالصة ، كم عندك من المال؟ قلت: ألف درهم ، قال: ضعي يدك على رأسي واحلفي ، قلت: عندي عشرة آلاف دينار ، قال: احمليها إليّ ، فرجعت فدخلت على المهديّ والخيزُران فأخبرتهما؛ فركلني المهديّ برجله ، وقال لي: ما ذهب بك إليه! ما به من وجع؛ ولكني سألته أمس مالاً فتمارض ، احملي إليه ما قلتِ؛ ففعلتْ ، فلما أتاه المهديّ ، قال: يا أبا عبد الله؛ تشكو الحاجة وهذا عند خالصة![1]

وقال عليّ بن محمد: قال واضح مولى أبي جعفر ، قال: قال أبو جعفر يوماً: انظر ما عندك من الثِّياب الخلْقان فاجمعْها ، فإذا علمت بمجيء أبي عبد الله فجئني بها قبل أن يدخل؛ وليكن معها رقاع. ففعلت ، ودخل عليه المهديّ وهو يقدّر الرّقاع ، فضحك وقال: يا أميرَ المؤمنين ، من هاهنا يقول الناس: نظروا في الدينار والدرهم وما دون ذلك ـ ولم يقل: دانق ـ فقال المنصور: إنه لا جديدَ لمن لا يصلح خلقه ، هذا الشتاء قد حضر ، ونحتاج إلى كسوة للعيال والولد. قال: فقال المهديّ: فعليّ كُسوة أمير المؤمنين وعياله وولده ، فقال له: دونك فافعل[2].

وذكر عليّ بن مرثد أبو دعامة الشاعر ، أن أشجع بن عمرو السلميّ حدّثه عن المؤمَّل بن أمَيَل ـ وذكره أيضاً عبد الله بن الحسن الخوارزمي أن أبا قدامة حدثه أنّ المؤمل بن أميل حدّثه ـ قال: قدمت على المهديّ ـ قال ابن مرثد في خبره: وهو ولي عهد ، وقال الخوارزمي: قدمت عليه الريّ وهو ولي عهد ـ فأمر لي بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحته بها؛ فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام يخبره أن المهديّ أمر لشاعر بعشرين ألف درهم ، فكتب إليه المنصور يعذِله ويلومه ، ويقول له: إنما كان ينبغي لك أن تعطِيَ الشاعر بعد أن

---

(١) البداية والنهاية [٨/ ٧٥].
(٢) المصدر السابق: [٨/ ٧٥].

يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم. قال أبو قدامة: فكتب إليّ كاتب المهديّ أن يوجّه إليه بالشاعر، فطُلب فلم يُقْدَرَ عليه، فكتب إليه أنه قد توجّه إلى مدينة السلام، فوجّه المنصور قائداً من قوّاده، فأجلسه على جسر النهروان، وأمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً ممّن يمرّ به؛ حتى يظفر بالمؤمَّل؛ فلما رآه قال له: من أنت؟ قال: أنا المؤمَّل بن أمَيل، من زُوّار الأمير المهديّ، قال: إياك طلبت. قال المؤمل: فكاد قلبي ينصدع خوفاً من أبي جعفر، فقبض عليّ ثم أتى بي بابَ المقصورة، وأسلمنيَ إلى الرّبيع، فدخل إليه الربيع، فقال: هذا الشاعر قد ظفرنا به، فقال: أدخلوه عليّ، فأدخِلت عليه، فسلمت فردّ عليّ السلام، فقلت: ليس هاهنا إلا خير، قال: أنت المؤمَّل بن أمَيل؟ قلت: نعم أصلح الله أمير المؤمنين! قال: هيه! أتيتَ غلاماً غِرّاً فخدعْتَه! قال: فقلت: نعم أصلح الله أمير المؤمنين؛ أتيت غلاماً غِرّاً كريماً فخدعته فانخدع، قال: فكأنّ ذلك أعجبه، فقال: أنشدني ما قلتَ فيه، فأنشدته:

هو المهديّ إلاَّ أَن فيه ... مَشابِهَ صورة القمَر المُنِيرِ
تشابَهَ ذا وذا فَهُما إذا ما ... أَنارا مُشْكِلان على البَصِيرِ
فهذا في الظلامِ سِراجُ ليلٍ ... وهذا في النهار سراجُ نورِ
ولكنْ فضَّل الرحمنُ هذا ... على ذا بالمنابِرِ والسَّرير
وبالمُلكِ العزيز فذا أَميرٌ ... وماذا بالأَمير ولا الوزير
ونَقْصُ الشَّهْر يُخمِدُ ذا، وهذا ... منيرٌ عند نقصانِ الشهور
فيا بن خليفةِ الله المُصفَّى ... به تعلو مُفاخَرةُ الفَخورِ
لئن فُتَّ المُلوكَ وقد تَوافَوْا ... إليك من السهُولَةِ والوُعُورِ
لقد سَبَقَ المُلوكَ أَبوك حتى ... بَقُوا من بين كابٍ أَو حَسِيرِ
وجئتَ وراءَه تجري حثيثاً ... وما بك حينَ تجري من فُتور
فقال الناسُ: ما هذان إلا ... بمنزلَةِ الخَليقِ من الجَدِير
لئن سبق الكبيرُ فأَهلُ سَبْقٍ ... له فَضْلُ الكبيرِ على الصَّغِيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ ... لقد خُلِق الصغيرُ من الكبيرِ

فقال: والله لقد أحسنتَ، ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم. وقال لي: أين المال؟ قلت: ها هو ذا، قال يا ربيع انزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم؛

وخذ منه الباقي. قال: فخرج الرّبيع فحطّ ثقَلي، ووزن لي أربعة آلاف درهم وأخذ الباقي. قال: فلمّا صارت الخلافة إلى المهديّ، ولّى ابن ثوبان المظالم، فكان يجلس للناس بالرُّصافة فإذا ملأ كساءه رقاعاً رفعها إلى المهديّ، فرفعتُ إليه يوماً رقعة أذكره قصتي، فلما دخل بها ابن ثوبان، جعل المهديّ ينظر في الرقاع؛ حتى إذا نظر في رقعتي ضحك، فقال له ابن ثوبان: أصلح الله أمير المؤمنين! ما رأيتك ضحكت من شيء من هذه الرّقاع إلا من هذه الرقعة! قال: هذه رقعة أعرف سببَها، ردُّوا إليه العشرين الألف الدرهم، فردت إليّ وانصرفتُ[١].

وذكر واضح مولى المنصور، قال: إني لواقفٌ على رأس أبي جعفر يوماً إذْ دخل عليه المهديّ، وعليه قَبَاء أسود جديد، فسلّم وجلس، ثم قام منصرفاً وأتبعه أبو جعفر بصرَه لحبِّه له وإعجابه به؛ فلما توسّط الرّواق عثر بسيفه فتخرّق سواده، فقام ومضى لوجهه غير مكترِث لذلك ولا حافل به، فقال أبو جعفر: ردُّوا أبا عبد الله؛ فرددناه إليه، فقال: يا أبا عبد الله، استقلالاً للمواهب، أم بطراً لنعمة، أم قلةَ علم بموضع المصيبة! كأنك جاهل بما لَك وعليك! وهذا الذي أنت فيه عطاء من الله، إن شكرتَه عليه زادك، فإن عرفت موضع البلاء منه فيه عافاك. فقال المهديّ: لا أعدمنا الله بقاءك يا أمير المؤمنين وإرشادك: والحمد لله على نعمه، وأسأل الله الشكر على مواهبه، والخلَف الجميل برحمته. ثم انصرف.

قال العباس بن الوليد بن مزيد: قال: سمعت ناعم بن مزيد، يذكر عن الوضين بن عطاء، قال: استزارني أبو جعفر ـ وكانت بيني وبينه خلالة قبل الخلافة ـ فصرت إلى مدينة السلام، فخلوْنا يوماً، فقال لي: يا أبا عبد الله، ما مالُكَ؟ قلت: الخبر الذي يعرفه أمير المؤمنين، قال: وما عيالُك؟ قلت: ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ، قال: فقال لي: أربع في بيتك؟ قلت: نعم، قال: فوالله لردّد عليّ حتى ظننت أنه سيموّلني، قال: ثم رفع رأسه إليّ، فقال: أنت أيسر العرب، أربعة مغازِل يدرْن في بيتك.

---

(١) انظر: تأريخ بغداد [١٣/ ١٧٨]، وابن عساكر [٥٣/ ٤٤٣]، ففيهما الخبر بطوله مع اختلاف يسير والقصيدة بطولها.

وذكر بشر المنجِّم، قال: دعاني أبو جعفر يوماً عند المغرب، فبعثني في بعض الأمر، فلما رجعت رفع ناحية مصلاّه فإذا دينار، فقال لي: خذ هذا واحتفظ به، قال: فهو عندي إلى الساعة.

وذكر أبو الجهم بن عطيّة، قال: حدّثني أبو مقاتل الخراسانيّ، ورفع غلام له إلى أبي جعفر أن له عشرة آلاف درهم؛ فأخذها منه، وقال: هذا مالي؛ قال: ومن أين يكون مالك؟ فوالله ما وليتُ لك عملاً قطّ، ولا بيني وبينك رحِم ولا قرابة، قال: بلَى، كنتَ تزوّجت مولاة لعُيينة بن موسى بن كعب فورّثتْك مالاً؛ وكان ذلك قد عصى وأخذ مالي وهو والٍ على السند؛ فهذا المال من ذلك المال!

وذكر مصعب بن سلاّم، عن أبي حارثة النهديّ صاحب بيت المال، قال: ولَّى أبو جعفر رجلاً باروسما؛ فلما انصرف أراد أن يتعلّل عليه، لئلا يعطيَه شيئاً، فقال له: أشركتُك في أمانتي، ووليتك فيئاً من فيء المسلمين فخنتَه! فقال: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين، ما صحبني من ذلك شيء إلاّ درهم، منه مثقال صررته في كمّي، إذا خرجت من عندك اكتريت به بغلا إلى عيالي، فأدخل بيتي ليس معي شيء من مال الله ولا مالك. فقال: ما أظنك إلا صادقاً؛ هلمَّ درهمنا. فأخذه منه فوضعه تحت لِبده؟ فقال: ما مَثَلي ومثلُك إلا مثل مجير أم عامر، قال: وما مجير أم عامر؛ فذكر قصة الضبع ومجيرها، قال: وإنما غالطه أبو جعفر لئلا يعطيه شيئاً.

وذُكر عن هشام بن محمد أن قُثَم بن العباس دخل على أبي جعفر، فكلّمه في حاجة، فقال له أبو جعفر: دعني من حاجتك هذه، أخبرني لِمَ سميت قُثَم؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما أدري، قال: القُثَم الذي يأكل ويزِلّ، أما سمعت قول الشاعر:

وللكُبراءِ أكلٌ كيف شاءُوا وللصُّغراءِ أَكلٌ واقتِثامُ

وذكر عن إبراهيم بن عيسى أنّ المنصور وهب لمحمد بن سليمان عشرين ألف درهم ولجعفر أخيه عشرة آلاف درهم، فقال جعفر: يا أميرَ المؤمنين، تفضّله عليّ وأنا أسنّ منه! قال: وأنت مثله! إنا لا نلتفت إلى ناحية إلاّ وجدنا من أثر محمّد فيها شيئاً، وفي منزلنا من هداياه بقيّة، وأنت لم تفعل من هذا شيئاً.

وذكِر عن سوادة بن عمرو السُّلمِيّ ، عن عبد الملك بن عطاء ـ وكان في صحابة المنصور ـ قال: سمعتُ ابن هُبَيرة وهو يقول في مجلسه: ما رأيتُ رجلاً قطّ في حرب ، ولا سمعت به في سِلْم ، أمكرَ ولا أبدعَ ، ولا أشدّ تيقُّظاً من المنصور ، لقد حصرني في مدينتي تسعة أشهر ، ومعي فرسان العرب ، فجهدنا كلّ الجهد أن ننال من عسكره شيئاً نكسره به؛ فما تهيّأ ، ولقد حصرني وما في رأسي بيضاء؛ فخرجت إليه وما في رأسي سوداء؛ وإنه لكما قال الأعشى:

يَقومُ على الرّغْمِ مِنْ قومِه فيَعْفو إذا شاءَ أَو يَنتَقِمْ
أَخو الحرب لا ضَرَعٌ واهنٌ ولم يَنْتَعِلْ بنعال خَذِمْ

وذكر إبراهيم بن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلاً على رجل يقال له أزهر السمّان ـ وليس بالمحدِّث ـ وذلك قبل خلافته؛ فلما ولِيَ الخلافة صار إليه إلى مدينة السلام ، فأدخِل عليه ، فقال: حاجتك؟ قال: يا أميرَ المؤمنين ، عليّ دين أربعة آلاف درهم ، وداري مستهدَمة ، وابني محمد يريد البناء بأهلِه؛ فأمر له باثني عشر ألف درهم ، ثم قال: يا أزهر؛ لا تأتنا طالبَ حاجة؛ قال: أفعل. فلما كان بعد قليل عاد ، فقال: يا أزهر ، ما جاء بك؟ قال: جئت مسلِّماً يا أمير المؤمنين ، قال: إنه ليقع في نفسي أشياء؛ منها أنك أتيتنا لِمَا أتيتَنا له في المرّة الأولى؛ فأمر له باثني عشر ألف درهم أخرى ، ثم قال: يا أزهر ، لا تأتنا طالبَ حاجة ولا مسلّماً ، قال: نعم يا أمير المؤمنين ، ثم لم يلبث أن عاد ، فقال: يا أزهر ، ما جاء بك؟ قال: دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عنك ، قال: لا ترده ، فإنه غير مستجاب؛ لأني قد دعوت الله به أن يريحني من خلقتك فلم يفعل ، وصرفه ولم يعطه شيئاً.

وذكر الهيثم بن عديّ أن ابن عيَّاش حدّثه أنّ ابن هبيرة أرسل إلى المنصور وهو محصور بواسط ، والمنصور بإزائه: إني خارج يوم كذا وكذا وداعيك إلى المبارزة ، فقد بلغني تجبينُك إياي؛ فكتب إليه: يا بن هبيرة ، إنك امرؤ متعدٍّ طورَك ، جارٍ في عنان غيِّك ، يعدك الله ما هو مصدّقه ، ويمنِّيك الشيطان ما هو مكذّبه ، ويقرّب ما الله مباعده ، فرويداً يتمّ الكتاب أجله ، وقد ضربتُ مثلي ومثلَك ، بلغني أن أسداً لقي خنزيراً ، فقال له الخنزير: قاتِلني ، فقال الأسد: إنما أنت خنزير ولستَ لي بكفء ولا نظير ، ومتى فعلتَ الذي دعوتني إليه

فقتلتك ، قيل لي: قتلتَ خنزيراً؛ فلم أعتقد بذلك فخراً ولا ذِكْراً ، وإن نالني منك شيء كان سُبّة عليّ ، فقال: إن أنت لم تفعل رجعت إلى السباع فأعلمتُها أنك نكلتَ عني وجبنت عن قتالي ، فقال الأسد: احتمال عار كذبك أيسر عليّ من لطخ شاربي بدمك.

وذُكِر عن محمد بن رياح الجوهريّ ، قال: ذكر لأبي جعفر تدبير هشام بن عبد الملك في حَرْب كانت له ، فبعث إلى رجل كان معه ينزل الرُّصافة ـ رُصافة هشام ـ يسأله عن ذلك الحرب ، فقدم عليه فقال: أنت صاحب هشام؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: فأخبرني كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا؟ قال: إنه فعل فيها رحمه الله كذا وكذا ، ثم أتبع بأن قال: فعل كذا رضي الله عنه؛ فأحفظ ذلك المنصور ، فقال: قم عليك غضب الله! تطأ بساطِي وتترحم على عدوّي! فقام الشيخ ، وهو يقول: إن لعدوّك قلادة في عنقي ومنة في رقبتي لا ينزعها عني إلا غاسلي ، فأمر المنصور بردّه ، وقال: اقعد ، هيه! كيف قلت؟ فقلت: إنه كَفاني الطلب ، وصان وجهي عن السؤال ، فلم أقف على بَاب عربيّ ولا أعجمي منذ رأيتُه ، أفلا يجب عليّ أن أذكره بخير وأتبعه بثنائي! فقال: بلى ، لله أمٌّ نهضت عنك ، وليلة أدّتك ، أشهد أنك نهيض حُرّة وغراس كريم؛ ثم استمع منه وأمر له ببرّ ، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، ما آخذه لحاجة ، وما هو إلاّ أني أتشرّف بحِبائك ، وأتبجّح بصِلتك. فأخذ الصّلة وخرج ، فقال المنصور: عند مثل هذا تحسن الصنيعة ، ويُوضع المعروف ، ويجاد بالمصون ، وأين في عسكرنا مثله!

وذكر عن حفص بن غياث ، عن ابن عيّاش ، قال: كان أهل الكوفة لا تزال الجماعة منهم قد طعنوا على عاملهم ، وتظلّموا على أميرهم ، وتكلّموا كلاماً فيه طعن على سلطانهم؛ فرُفع ذلك في الخبر ، فقال للربيع: اخرج إلى مَنْ بالباب من أهل الكوفة ، فقل لهم: إن أميرَ المؤمنين يقول لكم لئن اجتمع اثنان منكم في موضع لأحلقنّ رءوسهما ولحاهما ، ولأضربنّ ظهورهما ، فالزموا منازلكم ، وابقوا على أنفسكم. فخرج إليهم الربيع بهذه الرسالة فقال له ابن عياش: يا شبه عيسى بن مريم ، أبلغ أمير المؤمنين عنا كما أبلغتنا عنه ، فقل له: والله يا أميرَ المؤمنين ما لنا بالضَّرْب طاقة ، فأمّا حلْق اللِّحى فإذا شئت ـ وكان ابن عياش

منتوفاً ـ فأبلغه ، فضحك ، وقال : قاتله الله ما أدهاه وأخبثه!

وقال موسى بن صالح : حدّثني محمد بن عقبة الصيداوي عن نصر بن حرب ـ وكان في حرس أبي جعفر ـ قال : رُفع إليّ رجلٌ قد جيء به من بعض الآفاق ، قد سعى في فساد الدولة ، فأدخلته على أبي جعفر ، فلما رآه قال : أصْبَغ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ويلك! أما أعتقتُك وأحسنتُ إليك! قال : بلى ، قال : فسعيتَ في نقضِ دولتي وإفساد ملكي! قال : أخطأتُ وأمير المؤمنين أولى بالعفو . قال : فدعا أبو جعفر عُمارة ـ وكان حاضراً ـ فقال : يا عُمارة ؛ هذا أصبَغ ، فجعل يتثبَّت في وجهي ، وكأنّ في عينيه سوءاً ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : عليّ بكيس عطائي ، فأتِيَ بكيس فيه خمسمائة درهم ، فقال : خذها فإنها وَضَحٌ ، ويلك ، وعليك بعملك ـ وأشار بيده يحرّكها ـ قال عُمارة : فقلت لأصبغ : ما كان عَنَى أمير المؤمنين؟ قال : كنتُ وأنا غلام أعمل الحِبال ، فكان يأكل من كسبي . قال نصر : ثم أتِيَ به ثانية ، فأدخلته كما أدخلتُه قبلُ ، فلما وقف بين يديه أحدَّ النظر إليه ، ثم قال : أصبغ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فقصّ عليه ما فعل به ، وذكره إياه ، فأقرّ به ، وقال : الحمق يا أمير المؤمنين؛ فقدمه فضرب عنقه .

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ ، قال : حدّثني أبي ، قال : كان خِضاب المنصور زَعفرانيًّا ، وذلك أن شعره كان ليِّناً لا يقبل الخضاب ، وكانت لحيته رقيقة؛ فكنت أراه على المنبر يخطُب ويبكي فيسرِع الدمع على لحيته حتى تَكِفَ لقلة الشعر ولِينه .

وذكر إبراهيم بن عبد السلام ، ابن أخي السنديّ بن شاهك السنديّ ، قال : ظفِر المنصور برجل من كبراء بني أمية ، فقال : إني أسألك عن أشياء فاصدُقني ولك الأمان ، قال : نعم ، فقال له المنصور : منْ أينَ أُتِيَ بنو أميّة حتى انتشر أمرهم؟ قال : من تضييع الأخبار ، قال : فأيّ الأموال وجدوها أنفع؟ قال : الجوهر ، قال فعِند مَنْ وجدوا الوفاء؟ قال : عند مواليهم ، قال : فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته ، ثم قال : أضعُ من أقدارهم ، فاستعان بمواليه .

وذكر عليّ بن محمد الهاشميّ أنّ أباه محمد بن سليمان حدّثه ، قال : بلغني أن المنصور أخذ الدّواء في يوم شاتٍ شديد البرد ، فأتيته أسأله عن موافقة الدواء

له ، فأدخِلت مدخلاً من القَصْر لم أدخله قطّ ، ثم صرتُ إلى حُجيرة صغيرة ، وفيها بيتٌ واحد ورِواق بين يديه في عَرْض البيت وعَرْض الصحن ، على أسطوانة ساجٍ ، وقد سدل على وجه الرّواق بواريّ كما يصنع بالمساجد ، فدخلت فإذا في البيتِ مِسْح ليس فيه شيء غيره إلا فراشه ومرافقه ودِثاره ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين ، هذا بيت أربأ بك عنه ، فقال: يا عمّ ، هذا بيت مبيتي ، قلت: ليس هنا غير هذا الذي أرى ، قال: ما هو إلا ما ترَى.

قال: وسمعته يقول عمَّن حدّثه ، عن جعفر بن محمد ، قال: قيل إنّ أبا جعفر يعرف بلباس جبة هروية مرقوعة؛ وأنه يرقع قميصه، فقال جعفر: الحمد لله الذي لطف له حتى ابتلاه بفقر نفسه ـ أو قال: بالفقر في ملكه. قال: وحدثني أبي، قال: كان المنصور لا يولي أحداً ثم يعزله إلا ألقاه في دار خالد البطين ـ وكان منزل خالد على شاطئ دِجلة ، ملاصقاً لدار صالح المسكين ـ فيستخرج من المعزول مالاً ، فما أخذ من شيء أمر به فعُزل ، وكُتِبَ عليه اسم مَنْ أخِذ منه ، وعزل في بيت مال ، وسمّاه بيتَ مال المظالم ، فكثر ما في ذلك البيت من المال والمتاع. ثم قال للمهديّ: إني قد هيّأت لك شيئاً تُرضي به الخلق ولا تغرم من مالك شيئاً ، فإذا أنا متّ فادع هؤلاء الذين أخذتُ منهم هذه الأموال التي سميتُها المظالم ، فاردد عليهم كلّ ما أخِذ منهم؛ فإنك تستحمد إليهم وإلى العامة؛ ففعل ذلك المهديّ لما ولِيَ.

قال عليّ بن محمد: فكان المنصور ولّى محمد بن عبيد الله بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث البلقاء ، ثم عزله ، وأمر أن يُحمَل إليه مع مالٍ وُجِد عنده ، فحُمل إليه على البريد ، وألفِيَ معه ألفا دينار ، فحملت مع ثقله على البريد ـ وكان مصلى سُوسَنْجِرْد ومضربة ومرفقة ووسادتين وطستاً وإبريقاً وأشناندانة نحاس ـ فوجد ذلك مجموعاً كهيئته؛ إلا أن المتاع قد تأكّل ، فأخذ ألفي الدينار ، واستحيا أن يخرج ذلك المتاع ، وقال: لا أعرفه ، فتركه ، ثم ولاّه المهديّ بعد ذلك اليمن ، وولّى الرشيد ابنه الملقب ربرا المدينة.

وذكر أحمد بن الهيثم بن جعفر بن سليمان بن عليّ ، قال: حدثني صباح بن خاقان ، قال: كنت عند المنصور حين أتِيَ برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن ،

فوُضع بين يديه في تُرس ، فأكبّ عليه بعض السيَّافة ، فبصق في وجهه ، فنظر إليه أبو جعفر نظراً شديداً ، وقال لي : دقّ أنفه ، قال : فضربت أنفه بالعمود ضربة واحدة لو طُلب له أنف بألف دينار ما وجد ، وأخذته أعمدة الحرس ، فمازال يُهشَم بها حتى خمِد ، ثم جُرّ برجله .

قال الأصمعيّ : حدثني جعفر بن سليمان ، قال : قدِم أشعب أيام أبي جعفر بغداد ، فأطاف به فتيان بني هاشم فغنَّاهم ، فإذا ألحانه طربةٌ وحلقه على حاله ، فقال له جعفر : لمن هذا الشعر؟

لِمَــــنْ طَلَـــلٌ بِـــذَاتِ الجَيْـ ـــش أَمســـى دارِســـاً خَلَقَـــا
عَلَـــوْن بظـــاهِـــرِ البَيْـــدا ءِ فـــالمَحْـــزُون قـــد قَلِقَـــا

فقال : أخذت الغناءَ من معبد ، ولقد كنت آخذ عنه اللحن ، فإذا سئل عنه قال : عليكم بأشعب؛ فإنه أحسن تأديةً له منّي .

قال الأصمعيّ : وقال جعفر بن سليمان : قال أشعب لابنه عبيدة : إني أراني سأخرجك من منزلي وأنتفي منك ، قال : ولِمَ يا أبه؟ قال : لأني أكسب خلق الله لرغيفٍ ، وأنت ابني قد بلغتَ هذا المبلغ من السنّ ، وأنت في عيالي ما تكسب شيئاً ، قال : بلى والله ، إني لأكسب؛ ولكن مثل الموزة لا تحمل حتى تموت أمها .

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان الهاشميّ؛ أن أباه محمداً حدّثه أن الأكاسرة كان يُطيَّن لها في الصيف سقفُ بيت في كلّ يوم ، فتكون قائلة الملك فيه ، وكان يؤتى بأطنان القصب والخِلاف طُوالاً غلاظاً ، فترصَف حول البيت ويؤتى بقطع الثلج العِظام فتجعل ما بين أضعافها؛ وكانت بنو أميّة تفعل ذلك؛ وكان أوّل من اتخذ الخَيْش المنصور .

وذكر بعضهم : أن المنصور كان يطيَّن له في أول خلافته بيتٌ في الصيف يَقيل فيه؛ فاتخذ له أبو أيوب الخوزيّ ثياباً كثيفة تبلّ وتوضع على سِبايك . فيجد بردها ، فاستظرفها ، وقال : ما أحسبُ هذه الثياب إن اتخذت أكثف من هذه إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل؛ وكانت أبرد ، فاتُّخِذ له الخيش ، فكان ينصب على قبَّة ، ثم اتخذ الخلفاء بعده الشرائج ، واتّخذها الناس .

وقال عليّ بن محمد عن أبيه: إنّ رجلاً من الرّاونديّة كان يقال له الأبلق، وكان أبرصَ، فتكلم بالغلوّ، ودعا بالرّاونديّة إليه، فزعم أن الرّوح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في عليّ بن أبي طالب، ثم في الأئمة، في واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد، وأنهم آلهة، واستحلّوا الحُرمات؛ فكان الرجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله فيُطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته؛ فبلغ ذلك أسد بن عبد الله، فقتلَهم وصلَبهم، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم، فعبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء، فألقوْا أنفسهم، كأنهم يطيرون، وخرج جماعتهم على الناس بالسِّلاح، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت أنت! قال: فخرج إليهم بنفسه، فقاتلهم فأقبلوا يقولون وهم يقاتلون: أنت أنت. قال: فحُكِي لنا عن بعض مشيختنا أنه نظر إلى جماعة الراونديّة يرمون أنفسهم من الخضراء كأنهم يَطيرون، فلا يبلغ أحدهم الأرض إلا وقد تفتّت، وخرجت روحه.

قال أحمد بن ثابت مولى محمد بن سليمان بن عليّ عن أبيه: إن عبد الله بن عليّ، لما توارى من المنصور بالبصرة عند سليمان بن عليّ أشرف يوماً ومعه بعض مواليه ومولى لسليمان بن عليّ، فنظر إلى رجل له جَمَال وكمال، يمشي التَّخاجى، ويجرّ أثوابه من الخُيلاء، فالتفت إلى مولىً لسليمان بن عليّ، فقال: من هذا؟ قال له: فلان ابن فلان الأمويّ، فاستشاط غضباً وصفق بيديه عجباً، وقال: إن طريقنا لنَبَك بعد، يا فلان ـ لمولى له ـ انزل فأتني برأسه، وتمثّل قول سَدِيف:

علامَ، وفيمَ نَترُكُ عبدَ شمسٍ لها في كلِّ راعيةٍ ثُغاءُ!
فما بالرَّمْسِ في حَرّانَ منها ولو قُتِلَتْ بأَجْمَعِها وفاءُ

وذكر عليّ بن محمد المدائنيّ أنه قدم على أبي جعفر المنصور ـ بعد انهزام عبد الله بن عليّ وظفر المنصور به، وحبسه إياه ببغداد ـ وفد من أهل الشأم فيهم الحارث بن عبد الرحمن، فقام عِدّة منهم فتكلّموا، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين! إنا لسنا وفدَ مباهاة، ولكنا وفد تَوبة؛ وإنا ابتلينا بفتنة استفزّت كريمَنا، واستخفَّتْ حليمَنا، فنحن بما قدّمنا معترفون، وممّا سلف منّا معتذرون، فإن تعاقبْنا فبما أجرمنا، وإن تعفُ عنا

فبفضلك علينا؛ فاصفح عنا إذْ ملكت ، وامنن إِذ قَدرت ، وأحسِنْ إذ ظفرت ، فطالما أحسنت! قال أبو جعفر : قد فعلت.

وذكر عن الهيثم بن عديّ عن زيد مولى عيسى بن نهيك ، قال: دعاني المنصور بعد موتِ مولاي ، فقال: يا زيد ، قلت: لَبّيك يا أمير المؤمنين؛ قال: كم خلّف أبو زيد من المال؟ قلت: ألف دينار أو نحوها ، قال: فأين هي؟ قلت: أنفقتْها الحرّة في مأتمه. قال: فاستعظم ذلك ، وقال: أنفقت الحرّة في مأتمه ألف دينار! ما أعجب هذا! ثم قال: كم خلّف من البنات؟ قلت: ستّاً ، فأطرق مليّاً ثم رفع رأسه ، وقال: اغدُ إلى باب المهديّ ، فغدوت فقيل لي: أمعك بغال؟ فقلت: لم أومر بذلك ولا بغيره؛ ولا أدري لِمَ دعيت! قال: فأعطِيتُ ثمانين ومائة ألف دينار ، وأمِرتُ أن أدفع إلى كلّ واحدة من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار. ثم دعاني المنصور ، فقال: أقبضت ما أمرنا به لبنات أبي زيد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: اغد عليّ بأكفائهنّ حتى أزوّجهنّ منهم؛ قال: فغدوتُ عليه بثلاثة من ولد العكيّ وثلاثة من آل نهيك من بني عَمهنّ ، فزوّج كلّ واحدة منهنّ على ثلاثين ألف درهم ، وأمر أن تحمَل إليهنّ صدقاتهنّ من ماله ، وأمرني أن أشتريَ بما أمر به لهنّ ضياعاً ، يكون معاشهنّ منها ، ففعلت ذلك.

وقال الهيثم: فرّق أبو جعفر على جماعة من أهل بيته في يوم واحد عشرة آلاف درهم ، وأمر للرّجل من أعمامه بألف ألف ، ولا نعرف خليفة قبله ولا بعده وصلَ بها أحداً من الناس[١].

وقال العباس بن الفضل: أمر المنصور لعمومته: سليمان ، وعيسى ، وصالح ، وإسماعيل ، بني عليّ بن عبد الله بن عباس ، لكلّ رجل منهم بألف ألف معونةً له من بيت المال. وكان أول خليفة أعطى ألف ألف من بيت المال؛ فكانت تجري في الدواوين.

وذكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، قال: حدّثني الفضل بن الربيع ، عن أبيه ، قال: جلس أبو جعفر المنصور للمدنيّين مجلساً عامّاً ببغداد ـ وكان وفد إليه منهم جماعة ـ فقال: لينتسب كلّ من دخل عليّ منكم ، فدخل عليه فيمن

(١) الهيثم بن عدي متروك ، والخبر لا يصح.

دخل شابٌ من ولد عمرو بن حزم ، فانتسب ثم قال: يا أميرَ المؤمنين ، قال الأحوص فينا شعراً ، منعنا أموالنا من أجله منذ ستين سنة ، فقال أبو جعفر: فأنشدني ، فأنشده:

لا تَـأْوِيَـنَّ لحَـزمِـيٍّ رأيـتَ بـه فقراً وإن أُلقِيَ الحَزْمِيُّ في النار[1]

النَّـاخِسِيـن بِمَـرْوانٍ بـذي خُشُـبٍ والـداخليـن علـى عثمـانَ فـي الـدار

قال: والشّعر في المدح للوليد بن عبد الملك؛ فأنشده القصيدة ، فلما بلغ هذا الموضع قال الوليد: أذكرتَني ذنب آل حَزْم ، فأمر باستصفاء أموالهم. فقال أبو جعفر: أعِدْ عليّ الشعر ، فأعاده ثلاثاً ، فقال له أبو جعفر: لا جرم ، إنك تحتظِي بهذا الشعر كما حرِمت به ، ثم قال لأبي أيّوب: هات عشرة آلاف درهم فادفعها إليه لغنائه إلينا ، ثم أمر أن يكتب إلى عماله أن تردّ ضياع آل حزم عليهم ، ويُعْطَوْا غلاّتها في كل سنة من ضياع بني أمية ، وتقسَّم أموالهم بينهم على كتاب الله على التناسخ ، ومن مات منهم وفِّر على ورثته. قال: فانصرف الفتى بما لم ينصرف به أحد من الناس.

وحدّثني جعفر بن أحمد بن يحيى ، قال: حدّثني أحمد بن أسد ، قال: أبطأ المنصور عن الخروج إلى الناس والركوب ، فقال الناس: هو عليل ، وكثروا ، فدخل عليه الربيع ، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، لأمير المؤمنين طولُ البقاء ، والناس يقولون ، قال: ما يقولون؟ قال: يقولون: عليل؛ فأطرق قليلاً ثم قال: يا ربيع ، ما لنا وللعامّة! إنما تحتاج العامة إلى ثلاث خلال ، فإذا فُعل ذلك بها فما حاجتهم! إذا أقيم لهم مَنْ ينظر في أحكامهم فينصف بعضَهم من بعض ، ويُؤمِن سبلَهم حتى لا يخافوا في ليلهم ولا نهارهم ، ويسدّ ثغورهم وأطرافهم حتى لا يجيئهم عدوّهم؛ وقد فعلنا ذلك بهم. ثم مكث أياماً ، وقال: يا ربيع ، اضرب الطبل؛ فركِب حتى رآه العامة.

وذكر عليّ بن محمد ، قال: حدّثني أبي ، قال: وجّه أبو جعفر مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والمُجّان ، فكان فيهم حماد عَجْرد ، فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجُون؛ وإنما أراد بذلك أن يبغّضه إلى الناس ، فأظهر محمد أنه

---

(١) الأغاني: (١/ ٢٦).

يعشق زينب بنت سليمان بن عليّ ، فكان يركب إلى المِربَد ، فيتصدّى لها؛ يطمع أن تكون في بعض المناظر تنظر إليه؛ فقال محمد لحمَّاد: قل لي فيها شعراً ، فقال فيها أبياتاً ، يقول فيها:

يا ساكنَ المِرْبَدِ قد هِجْتَ لي شَوْقاً فما أَنفكُّ بالمِرْبَدِ

قال: فحدّثني أبي قال: كان المنصور نازلاً على أبي سنتين ، فعرفت الخصيب المتطبّب لكثرة إتيانه إياه؛ وكان الخصيب يُظهر النصرانية وهو زِنديق معطّل لا يبالي مَنْ قتل ، فأرسل إليه المنصور رسولاً يأمره أن يتوخّى قتل محمد بن أبي العباس ، فاتّخذ سمّاً قاتلاً ، ثم انتظر عِلَّة تحدث بمحمد ، فوجد حرارة ، فقال له الخصيب: خذ شربة دواء ، فقال: هَيِّئها لي ، فهيّأها ، وجعل فيها ذلك السمّ ثم سقاه إياها ، فمات منها. فكتبت بذلك أمّ محمد بن أبي العباس إلى المنصور تعلمه أنّ الخصيب قتل ابنَها. فكتب المنصور يأمر بحمله إليه؛ فلما صار إليه ضربه ثلاثين سوطاً ضرباً خفيفاً ، وحبسه أياماً ، ثم وهب له ثلثمائة درهم ، وخلّاه.

قال: وسمعتُ أبي يقول: كان المنصور شَرَط لأمّ موسى الحميرية ألاّ يتزوّج عليها ولا يتسرّى ، وكتبت عليه بذلك كتاباً أكّدته وأشهدت عليه شهوداً ، فعزب بها عشر سنين في سلطانه؛ فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهلِ الحجاز يستفتيه ، ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرِض عليه الكتاب ليفتيه فيه برُخصة؛ فكانت أمّ موسى إذا علمتْ مكانه بادرتْه ، فأرسلت إليه بمال جزيل ، فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برُخصة ، حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ، فأتته وفاتها بحُلوان ، فأهديت له في تلك الليلة مائة بِكْر؛ وكانت أم موسى ولدت له جعفراً والمهديّ.

وذكِر عن عليّ بن الجَعْد أنه قال: لما قدم بختيشوع الأكبر على المنصور من السوس ، ودخل عليه في قَصْره بباب الذهب ببغداد ، أمر له بطعام يتغدّى به ، فلما وضعت المائدة بين يديه ، قال: شراب ، فقيل له: إن الشّراب لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين ، فقال: لا آكل طعاماً ليس معه شراب ، فأخبِر المنصور بذلك ، فقال: دعوه ، فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب ، فقيل له: لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب ، فتعشّى وشرب ماء دِجلة ،

فلما كان من الغد نظر إلى مائه ، فقال: ما كنت أحسب شيئاً يُجزي من الشراب ، فهذا ماء دِجلة يجزي من الشراب.

وذكر عن يحيى بن الحسن أن أباه حدّثه ، قال: كتب المنصور إلى عامله بالمدينة أن بعْ ثمار الضياع ولا تبعها إلا ممَّن نغلبه ولا يغلبنا؛ فإنما يغلبنا المفلس الذي لا مال له ، ولا رأي لنا في عذابه ، فيذهب بما لنا قِبَله ولو أعطاك جزيلاً ، وبعْها من الممكن بدون ذلك ممّن ينصفك ويوفيك.

وذكر أبو بكر الهُذليّ أنّ أبا جعفر كان يقول: ليس بإنسان من أسْدِيَ إليه معروف فنسيه دون الموت.

وقال الفضل بن الربيع: سمعت المنصور يقول: كانت العرب تقول: الغَوَى الفادح خير من الرّيّ الفاضح.

وذكر عن أبان بن يزيد العنبريّ أن الهيثم القارى البصريّ قرأ عند المنصور ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[1] ، إلى آخر الآية ، فقال له المنصور: وجعل يدعو: اللهم جنّبني وبنيّ التبذير فيما أنعمت به علينا من عطيّتك.

قال: وقرأ الهيثم عنده: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾[2] فقال للناس: لولا أنّ الأموال حصن السلطان ودعامة للدين والدنيا وعزّهما وزينتهما ما بتّ ليلة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهماً ، لما أجد لبذل المال من اللذاذة؛ ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة.

ودخل على المنصور رجل من أهل العلم ، فازدراه واقتحمته عينُه ، فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده ، فقال له: أنَّى لك هذا العلم! قال: لم أبخل بعلمٍ علمتُه ، ولم أستح من علم أتعلّمه. قال: فمن هناك!

قال: وكان المنصور كثيراً ما يقول: مَنْ فعل بغير تدبير ، وقال عن غير تقدير ، لم يعدم من الناس هازئاً أو لاحياً.

وذكر عن قحطبة ، قال: سمعت المنصور يقول: الملوك تحتمل كلَّ شيء من

(١) سورة الإسراء: ٢٦.

(٢) سورة النساء: ٣٧.

أصحابها إلا ثلاثاً: إفشاء السرّ، والتعرّض للحُرْمة، والقدح في الملك.

وذكر عليّ بن محمد أنّ المنصور كان يقول: سرُّك من دمك، فانظر مَنْ تُمَلِّكه.

وذكر الزبير بن بكّار، عن عمر، قال: لما حُمِل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزديّ إلى المنصور بعد خروجه عليه، قال له: يا أمير المؤمنين، قِتْلة كريمة! قال: تركتها وراءك يا بن اللّخناء!

وذكر عن عمر بن شبّة، أنّ قَحطبة بن غُدانة الجشميّ - وكان من الصحابة - قال: سمعت أبا جعفر المنصور يخطب بمدينة السلام سنة اثنتين وخمسين ومائة، فقال: يا عباد الله، لا تظالموا، فإنها مظلمة يوم القيامة، والله لولا يدٌ خاطئة، وظلم ظالم، لمشيت بين أظهركم في أسواقكم؛ ولو علمت مكان مَنْ هو أحقّ بهذا الأمر مني لأتيتُه حتى أدفَعه إليه.

وذكر إسحاق الموصليّ، عن النضر بن حديد، قال: حدّثني بعض الصحابة أنّ المنصور كان يقول: عقوبة الحليم التعريض، وعقوبة السفيه التصريح.

وذكر أحمد بن خالد، قال: حدثني يحيى بن أبي نصر القرشيّ، أن أباناً القارئ قرأ عند المنصور: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ..﴾[1]، الآية فقال المنصور: ما أحسن ما أدّبنا رَبّنا!

قال: وقال المنصور: مَنْ صنع مثل ما صُنع إليه فقد كافأ، ومن أضعف فقد شكر، ومن شكر كان كريماً، ومن علم أنه إنما صنع إلى نفسه لم يستبطئ الناس في شكرهم، ولم يستزدهم من مودّتهم، فلا تلتمس من غيرك شكرَ ما آتيته إلى نفسك، ووقَيْت به عرضَك. واعلم أن طالب الحاجة إليك لم يكرِم وجهه عن وجهك، فأكرم وجهَك عن ردّه.

وذكر عمر بن شبّة أن محمد بن عبد الوهاب المهلبيّ، حدّثه، قال: سمعت إسحاق بن عيسى يقول: لم يكن أحدٌ من بني العباس يتكلّم فيبلغ حاجته على

---

(١) سورة الإسراء: ٢٩.

البديهة غير أبي جعفر وداود بن عليّ والعباس بن محمد.

وذكر عن أبي توبة الرّبيع بن نافع، عن ابن أبي الجوزاء، أنه قال: قمت إلى أبي جعفر وهو يخطب ببغداد في مسجد المدينة على المنبر فقرأت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[1]، فأخِذت فأدخلت عليه، فقال: مَن أنت ويلك! إنما أردتَ أن أقتلك، فاخرج عني فلا أراك. قال: فخرجت من عنده سليماً.

وقال عيسى بن عبد الله بن حميد: حدّثني إبراهيم بن عيسى، قال: خطب أبو جعفر المنصور في هذا المسجد ـ يعني به مسجد المدينة ببغداد ـ فلما بلغ: اتقوا الله حق تقاته، قام إليه رجل، فقال: وأنت يا عبد الله، فاتّق الله حق تقاته... فقطع أبو جعفر الخطبة، وقال: سمعاً سمعاً، لمن ذكّر بالله، هات يا عبد الله، فما تُقى الله؟ فانقطع الرجل فلم يقل شيئاً، فقال أبو جعفر: الله الله أيها الناس في أنفسكم، لا تحملونا من أموركم ما لا طاقة لكم به، لا يقوم رجل هذا المقام إلا أوجعتُ ظهره، وأطلت حبسه. ثم قال: خذه إليك يا ربيع، قال: فوثِقنا له بالنجاة ـ وكانت العلامة فيه إذا أراد بالرجل مكروهاً قال: خذه إليك يا مسيّب ـ قال: ثم رجع في خطبته من الموضع الذي كان قطعه، فاستحسن الناس ذلك منه، فلما فرغ من الصلاة دخل القصر؛ وجعل عيسى بن موسى يمشي على هِينته خلْفَه، فأحسّ به أبو جعفر، فقال: أبو موسى؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين؛ قال: كأنك خفتَني على هذا الرجل! قال: والله لقد سبق إلى قلبي بعضُ ذلك؛ إلا أن أمير المؤمنين أكثر علماً، وأعلى نظراً من أن يأتي في أمره إلا الحقّ، فقال: لا تخفني عليه. فلما جلس قال: عليّ بالرجل، فأتِيَ به، فقال: يا هذا؛ إنك لما رأيتني على المنبر، قلت: هذا الطاغية لا يسعني إلا أن أكلِّمه، ولو شغلت نفسك بغير هذا لكان أمثَل لك؛ فاشغلها بظماء الهواجر، وقيام الليل، وتغبير قدميك في سبيل الله؛ أنطه يا ربيع أربعمائة درهم، واذهب فلا تعد.

وذكر عن عبد الله بن صاعد، مولى أمير المؤمنين أنه قال: حجّ المنصور بعد

---

(١) سورة الصف: ٢.

بناء بغداد ، فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[(١)] ، أمرٌ مُبْرَمٌ ، وقول عدْل ، وقضاء فَصْل ؛ والحمد لله الذي أفلج حجته ، وبعداً للقوم الظالمين ؛ الذين اتخذوا الكعبة عرَضاً ، والفيء إرثاً ، وجعلوا القرآن عضين ؛ لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معطّلة وقَصْرٍ مشيد ؛ أهملهم الله حتى بدّلوا السنة ، واضطهدوا العِترة ، وعندوا واعتدوْا ، واستكبروا وخاب كلُّ جبار عنيد ؛ ثم أخذهم ؛ فهل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً!

وذكر الهيثم بن عديّ ، عن ابن عياش ، قال : إن الأحداث لما تتابعت على أبي جعفر ، تمثّل :

تفرَّقت الظّباءُ على خِداشٍ فما يَدْري خداشٌ ما يَصِيدُ

قال : ثم أمر بإحضار القوّاد والموالي والصحابة وأهل بيته ، وأمر حمّاداً التركي بإسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدّم والمسيّب بن زهير بأخذ الأبواب ، ثم خرج في يوم من أيامه حتى علا المنبر . قال : فأزِمَ عليه طويلاً لا ينطق . قال رجل لشبيب بن شيبة : ما لأمير المؤمنين لا يتكلم! فإنه والله ممّن يهون عليه صِعاب القول ، فما باله! قال : فافترع الخطبة ، ثم قال :

ما لي أُكفْكِفُ عن سَعْدٍ ويشْتمنِي ولو شتمتُ بني سَعْدٍ لقد سكنوا
جهلاً عليَّ وجُبْناً عن عَدُوِّهمُ لبئست الخَلَّتان الجَهْلُ والجُبُنُ

ثم جلس وقال :

فألَقيتُ عن رَأسِي القناعَ ولم أَكنْ لأَكشِفَهُ إلا لإحْدَى العظائم

والله لقد عجزوا عن أمرٍ قمنا به ، فما شكروا الكافي ؛ ولقد مهّدوا فاستوعروا وغمطوا الحقّ وغمصوا ، فماذا حاولوا! أشرب رنْقاً على غَصصٍ ، أم أقيم على ضيم ومضَض! والله لا أكرم أحداً بإهانة نفسي ؛ والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلُبنّه ثم لا يجدونه عندي ؛ والسعيد مَنْ وُعظ بغيره . قدّم يا غلام ، ثم ركب .

وذكر الفقيميّ أنّ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن مولى محمد بن عليّ حدّثه ، أن المنصور لما أخذ عبد الله بن حسن وإخوته والنَّفر الذين كانوا معه من

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٥ .

أهل بيته، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبيّ ﷺ، ثم قال:

يا أهلَ خُراسان، أنتم شيعتُنا وأنصارنا وأهلُ دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا مَنْ هو خير منا، وإنّ أهلَ بيتي هؤلاء من ولد عليّ بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافةَ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير؛ فقام فيها عليّ بن أبي طالب فتلطّخ وحكَّم عليه الحكَمين؛ فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثمّ وثبت عليه شيعتُه وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه، ثمّ قام من بعده الحسن بن عليّ؛ فوالله ما كان فيها برجُل؛ قد عرِضت عليه الأموال، فقبلها، فدسّ إليه معاوية: إني أجعلك وليَّ عهدي من بعدي، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه، وسلّمه إليه، فأقبل على النساء يتزوّج في كل يوم واحدة فيطلّقها غداً؛ فلم يزل على ذلك حتى مات على فِراشه، ثمّ قام من بعده الحسين بن عليّ، فخدعه أهل العراق وأهلُ الكوفة؛ أهل الشِّقاق والنفاق والإغراق في الفتن، أهل هذه المَدَرة السوداء - وأشار إلى الكوفة - فوالله ما هي بحرب فأحاربها، ولا سلم فأسالمها، فرّق الله بيني وبينها، فخذلوه وأسلموه حتى قتِل، ثم قام من بعده زيد بن عليّ، فخدعه أهل الكوفة وغرّوه؛ فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه؛ وقد كان أتى محمد بن عليّ، فناشده في الخروج وسأله ألاّ يقبلِ أقاويل أهل الكوفة، قال له: إنا نجد في بعض علمنا، أنّ بعض أهل بيتنا يُصلَب بالكوفة، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوبَ؛ وناشده عمّي داود بن عليّ وحذّره غدر أهل الكوفة فلم يقبل؛ وأتمّ على خروجه، فقتِل وصُلب بالكُناسة، ثم وثب علينا بنو أميّة، فأماتوا شرفنا، وأذهبوا عزّنا؛ والله ما كانت لَهم عندنا تِرَة يطلبونها؛ وما كان لهم ذلك كله إلاّ فيهم وبسبب خروجهم عليهم؛ فنفوْنا من البلاد، فصرْنا مرة بالطائف، ومرّة بالشام، ومرّة بالشّراة؛ حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً، فأحيا شرَفنا، وعزّنا بكم أهل خراسان، ودمغ بحقِّكم أهلَ الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ، فقرّ الحق مقرّه، وأظهر مناره، وأعزّ أنصاره، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرّت الأمور فينا على قرارها؛ من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا، وثبوا علينا، ظلماً وحسداً منهم لنا، وبغياً لما فضّلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ.

جَهْلاً عليّ وجُبْناً عن عدوّهمُ لبئست الخَلَّتان الجَهْل والجُبْنُ

فإنّي والله يا أهل خراسان ما أتيت من هَذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعرّم ، وقد دسست لهم رجالاً فقلت: قم يا فلان قم يا فلان ، فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه؛ فخرجوا حتى أتوْهم بالمدينة ، فدسُّوا إليهم تلك الأموال؛ فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شابّ ، ولا صغير ولا كبير إلاّ بايعهم بيعةً ، استحللت بها دماءهم وأموالَهم وحَلَّت لي عند ذلك بنقضِهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج عليّ؛ فلا يرون أني أتيتُ ذلك على غير يقين. ثم نزل وهو يتلو على دَرَج المنبر هذه الآية: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾[1].

قال: وخطب المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم ، فقال:

أيُّها الناس؛ لا تخرجُوا من أنسِ الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تُسرُّوا غشَّ الأئمة ، فإنه لم يُسرّ أحد قطّ منكرةً إلا ظهرت في آثار يده ، أو فلتاتِ لسانه؛ وأبداها الله لإمامه؛ بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه. إنا لن نبخسَكم حقوقَكم ، ولن نبخَس الدّين حقه عليكم. إنه مَنْ نازعنا عُرْوة هذا القميص أجزَرْناه خبِيّ هذا الغمْد. وإن أبا مسلم بايعَنا وبايع الناس لنا ، على أنه مَنْ نكث بنا فقد أباحَ دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا؛ ولم تمنعنا رعاية الحقّ له من إقامة الحقّ عليه.

وذكر إسحاق بن إبراهيم الموصليّ أن الفَضْل بن الرّبيع أخبره عن أبيه ، قال: قال المنصور: قال أبي: سمعتُ أبي؛ علي بن عبد الله يقول: سادة الدنيا الأسخياء ، وسادة الآخرة الأنبياء.

وذكِر عن إبراهيم بن عيسى ، أن المنصور غضب على محمد بن جُمَيْل الكاتب ـ وأصله من الرّبذَة ـ فأمر ببطحه ، فقام بحجَّته ، فأمر بإقامته ، ونظر إلى سراويله ، فإذا هو كَتّان ، فأمر ببطحه وضربه خمس عشرة درّة ، وقال: لا تلبس سراويل كَتَّان فإنه من السرف.

وذكر محمد بن إسماعيل الهاشميّ ، أن الحسن بن إبراهيم حدّثه ، عن

---

(١) سورة سبأ: ٥٤.

أشياخه ، أن أبا جعفر لما قَتل محمد بن عبد الله بالمدينة وأخاه إبراهيم بباخَمْرَى وخرج إبراهيم بن حسن بن حسن بمصر فحمِل إليه ، كتب إلى بني عليّ بن أبي طالب بالمدينة كتاباً يذكر لهم فيه إبراهيم بن الحسن بن الحسن وخروجه بمصر ، وأنّه لم يفعل ذلك إلا عن رأيهم ، وأنهم يدأبون في طلب السلطان ، ويلتمسون بذلك القطيعة والعُقوق ، وقد عجزوا عن عَدَاوة بني أمية لمّا نازعوهم السلطان ، وضعفوا عن طلب ثأرهم؛ حتى وثب بنو أبيه غضباً لهم على بني أمية ، فطلبوا بثأرهم ، فأدركوا بدمائهم ، وانتزعوا السلطان عن أيديهم ، وتمثّل في الكتاب بشعر سُبيع بن ربيعة بن معاوية اليربوعيّ:

فَلولا دِفاعي عنكُمُ إذ عَجَزْتُمُ ... وبالله أَحْمي عنكُمُ وأُدافِعُ
لَضاعَتْ أُمورٌ منكُمُ لا أَرى لها ... كفاةً وما لا يَحْفَظُ اللهُ ضائعُ
فَسَمُّوا لنا مَنْ طَحْطَحَ الناسَ عنكُمُ ... ومن ذا الذي تُحْنَى عليه الأَصابعُ!
وما زال منَّا قد عَلمْتمْ عليكُمُ ... على الدهر إِفْضالٌ يُرَى وَمنافِع
وما زال منكُمْ أَهْلُ غَدْرٍ وجَفْوةٍ ... وبالله مُغْتَرٌّ وللرّحْم قاطعُ
وإن نحن غِبْنا عنكُم وَشَهِدْتُمُ ... وَقائعَ منكمْ ثَمَّ فيها مقانِعُ
وإِنا لَنَرْعاكم وترعون شَأْنكم ... كذاك الأُمور؛ خافضاتٌ رَوافِعُ!
وهل تَعْلُوَنْ أَقدامُ قوْمٍ صُدورَهمْ ... وهل تعْلُوَنْ فوق السَّنام الأَكارعُ!
وَدَبَّ رِجالٌ للرِّياسَةِ منكمُ ... كما دَرَجَتْ تحْتَ الغديرِ الضَّفَادعُ؟

وذكر عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق ، قال: كان أرزاق الكتاب والعمّال أيام أبي جعفر ثلثمائة درهم؛ فلما كانت كذلك لم تزل على حالها إلى أيام المأمون ، فكان أوّل مَنْ سنّ زيادة الأرزاق الفضل بن سهل ، فأمّا في أيام بني أمية وبني العباس فلم تزل الأرزاق من الثلثمائة إلى ما دونها ، كان الحجّاج يُجرِي على يزيد بن أبي مسلم ثلثمائة درهم في الشهر.

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى ، أنّ ولاة البريد في الآفاق كلِّها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كلّ يوم بسعر القمح والحبوب والأُدْم ، وبسعرِ كلّ مأكول ، وبكلّ ما يقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيتَ المال من المال ، وكلّ حدث ، وكانوا إذا صلّوا المغرب يكتبون إليه بما كان في كلّ ليلة إذا صلّوا الغداة؛ فإذا وردت كتبهم نظر فيها ، فإذا رأى

الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغيّر شيء منها عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك ، وسأل عن العلّة التي نقلت ذاك عن سعره؛ فإذا ورد الجواب بالعلّة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله؛ وإن شكّ في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه بذلك؛ وسأل من بحضرته عن عمله؛ فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبِّخه ويلومه.

وذكر إسحاق الموصليّ أن الصّبّاح بن خاقان التميميّ ، قال: حدّثني رجل من أهلي ، عن أبيه ، قال: ذُكِر الوليد عند المنصور أيام نزوله بغداد وفروغه من المدينة ، وفراغه من محمد وإبراهيم ابني عبد الله ، فقالوا: لعن الله الملحد الكافر ـ قال: وفي المجلس أبو بكر الهذلي وابن عياش المنتوف والشّرقيّ بن القطاميّ ، وكل هؤلاء من الصحابة ـ فقال أبو بكر الهذليّ: حدثني ابن عمٍّ للفرزدق ، عن الفرزدق ، قال: حضرت الوليد بن يزيد وعنده ندماؤه وقد اصطبح ، فقال لابن عائشة: تغنَّ بشعر ابن الزِّبَعْرَى:

لَيْتَ أَشْيَاخي ببَدْرٍ شَهِدُوا جزَعَ الخَزْرَجِ من وقعِ الأَسَلْ
وقتلْنا الضِّعْفَ من ساداتِهِمْ وعَدَلْنا مَيْلَ بَدْرٍ فاعْتَدلْ

فقال ابن عائشة: لا أغنّي هذا يا أمير المؤمنين؛ فقال: غَنِّه وإلا جدعتُ لهَواتِك ، قال: فغنَّاه ، فقال: أحسنت والله! إنه لعلى دينِ ابن الزّبَعْرَى يوم قال هذا الشعر. قال: فلعنه المنصور ولعنه جلساؤه؛ وقال: الحمد لله على نعمته وتوحيده.

وذكر عن أبي بكر الهذليّ ، قال: كتب صاحب إرمينيَة إلى المنصور: إن الجند قد شَغَبوا عليه ، وكسروا أقفال بيت المال ، وأخذوا ما فيه ، فوقّع في كتابه: اعتزل عملنَا مذموماً ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينتبهوا.

وقال إسحاق الموصليّ ، عن أبيه: خرج بعضُ أهل العبث على أبي جعفر بفِلسطين ، فكتب إلى العامل هناك: دمه في دمك إلا توجّهه إليّ؛ فجدّ في طلبه ، فظفر به فأشخِص ، فأمر بإدخاله عليه ، فلمّا مثل بين يديه ، قال له أبو جعفر: أنت المتوثِّب على عُمَّالي! لأنثرنَّ من لحمك أكثر مما يبقى منه على عظمك ، فقال له ـ وقد كان شيخاً كبير السنّ ـ بصوت ضعيف ضئيل غير مستعلٍ:

أَتَرُوضُ عِرْسَكَ بَعدَ ما هَرِمتْ ومنَ العَناءِ رياضَةُ الهَرِمَ

قال: فلم تتبيَّن للمنصور مقالته، فقال: يا ربيع، ما يقول؟ فقال: يقول:

العَبْدُ عبدُكمُ والمالُ مالكُمُ فهلْ عذابُك عني اليومَ مُنْصَرِفُ!

قال: يا ربيع، قد عفوتُ عنه؛ فخلّ سبيله، واحتفظ به، وأحسن ولايته.

قال: ورُفع رجل إلى المنصور يشكو عامله أنه أخذ حدّاً من ضيعته، فأضافه إلى ماله، فوقّع إلى عامله في رقعة المتظلم: إن آثرتَ العدل صحبتْك السلامة، فأنصف هذا المتظلّم من هذه الظلامة.

قال: ورفع رجل من العامّة إليه رقعة في بناء مسجد في محلته، فوقّع في رقعته: من أشراط الساعة كثرة المساجد، فزد في خطاك تزدد من الثواب.

قال: وتظلّم رجل من أهل السواد من بعض العمال، في رقعة رفعها إلى المنصور، فوقّع فيها: إن كنت صادقاً فجىء به ملبّباً قد أذنّا لك في ذلك.

وذكر عمر بن شبّة أن أبا الهذيل العلاّف حدّثه، أن أبا جعفر قال: بلغني أن السيّد بن محمد ماتَ بالكرْخ ـ أو قال: بواسط ـ ولم يدفنوه، ولئن حقّ ذلك عندي لأحرقنّها. وقيل: إن الصحيح أنه مات في زمان المهديّ بكَرْخ بغداد، وأنهم تحامَوْا أن يدفنوه، وأنه بعث بالرّبيع حتى ولي أمره، وأمَره إن كانوا امتنعوا أن يحرق عليهم منازِلهم، فدُفع ربيع عنهم.

وقال المدائنيّ، لما فرغ المنصور من محمد وإبراهيم وعبد الله بن عليّ وعبد الجبار بن عبد الرحمن، وصار ببغداد، واستقامت له الأمور، كان يتمثّل هذا البيت:

تبيت من البلوَى على حدّ مُرهَفٍ مراراً ويكْفي الله ما أَنت خائفُ

قال: وأنشدني عبد الله بن الربيع، قال: أنشدني المنصور بعد قتل هؤلاء:

وربّ أمورٍ لا تَضِيرُكَ ضَيْرَةً وللقلب من مَخشاتِهنّ وَجيبُ

وقال الهيثم بن عدي: لما بلغ المنصور تفرّق ولد عبد الله بن حسن في البلاد هرباً من عقابه، تمثّل:

إنَّ قناتي لَنَبْعٌ لا يُؤيّسهُا غَمزُ الثِّقاف ولا دُهْنٌ ولا نارُ
متى أجِرْ خائفاً تأْمَنْ مَسارِحُه وإن أُخِفْ آمِناً تَقلَقْ به الدارُ
سيرُوا إِليَّ وغُضُّوا بعض أَعْيُنِكم إِني لكل امرىءٍ من جاره جارُ

وذكر عليّ بن محمد عن واضح مولى أبي جعفر ، قال: أمرني أبو جعفر أن أشتريَ له ثوبيْن ليّنين ، فاشتريتهما له بعشرين ومائة درهم ، فأتيته بهما ، فقال: بكم؟ فقلت: بثمانين درهماً ، قال: صالحان ، استحِطّه؛ فإنّ المتاع إذا أُدخل علينا ثم رُدّ على صاحبه كسره ذلك. فأخذتُ الثوبين من صاحبهما فلما كان من الغد حملتُهما إليه معي ، فقال: ما صنعت؟ قلت: رددتهما عليه فحطّني عشرين درهماً ، قال: أحسنتَ؛ اقطع أحدَهما قميصاً ، واجعل الآخر رداء لي. ففعلتُ ، فلبس القميص خمسة عشر يوماً لم يلبس غيرَه.

وذكر مولىً لعبد الصمد بن عليّ ، قال: سمعتُ عبدَ الصَّمد يقول: إنّ المنصور كان يأمر أهلَ بيته بحسن الهيئة وإظهار النعمة وبلزوم الوشْي والطّيب؛ فإن رأى أحداً منهم قد أخلّ بذلك أو أقل منه ، قال: يا فلان ، ما أرى وبيص الغالية في لحيتك؛ وإني لأراها تلمع في لحية فلان؛ فيشحذهم بذلك على الإكثار من الطّيب ليتزين بهيئتهم وطيب أرواحهم عند الرعيّة ، ويزيّنهم بذلك عندهم؛ وإن رأى على أحد منهم وشياً طاهراً عضّه بلسانه.

وذكِر عن أحمد بن خالد ، قال: كان المنصور يسأل مالك بن أدهم كثيراً عن حديث عجلان بن سُهيل ، أخي حوثرة بن سُهيل ، قال: كنَّا جلوساً مع عجلان ، إذ مرَّ بنا هشام بن عبد الملك ، فقال رجل من القوم: قد مرّ الأحول ، قال: مَن تعني؟ قال: هشاماً ، قال: تسمِّي أمير المؤمنين بالنّبَز! والله لولا رَحِمُك لضربت عنقك ، فقال المنصور: هذا والله الذي ينفع مع مثله المحيا والممات.

وقال أحمد بن خالد: قال إبراهيم بن عيسى: كان للمنصور خادم أصفرُ إلى الأدْمة ، ماهر لا بأس به ، فقال له المنصور يوماً: ما جنسك؟ قال: عربيّ يا أمير المؤمنين ، قال: ومنْ أيّ العرب أنت؟ قال: من خَوْلان ، سُبيتُ من اليمن ، فأخذني عدوٌّ لنا ، فجبَّني فاسترققت ، فصرت إلى بعض بني أميَّة ، ثم صرت إليك. قال: أمّا إنك نعم الغلام؛ ولكن لا يدخل قصري عربيّ يخدُم حُرَمي ، اخرج عافاك الله؛ فاذهب حيث شئت!

وذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن معاوية بن بكر ـ وكان من الصحابة ـ أنّ المنصورَ ضمّ رجلاً من أهل الكوفة ، يقال له الفُضيل بن عمران ، إلى ابنه جعفر ، وجعله كاتباً ، وولاّه أمرَه ، فكان منه بمنزلة أبي عبيد الله من

المهديّ ، وقد كان أبوجعفر أراد أن يبايع لجعفر بعد المهديّ ، فنصبت أم عبيد الله حاضنةُ جعفر للفُضيل بن عمران ، فسعتْ به إلى المنصور ، وأومأت إلى أنه يعبث بجعفر. قال: فبعث المنصور الريّان مولاه وهارون بن غَزْوان مولى عثمان بن نهيك إلى الفُضيل ـ وهو مع جعفر بحديثة الموصل ـ وقال: إذا رأيتما فُضيلاً فاقتلاه حيث لقيتماه ، وكتب لهما كتاباً منشوراً ، وكتب إلى جعفر يعلمه ما أمرهما به ، وقال: لا تدفعا الكتابَ إلى جعفر حتى تفرُغا من قتله. قال: فخرجا حتى قدِما على جعفر ، وقعدا على بابه ينتظران الإذن؛ فخرج عليهما فُضيل ، فأخذاه وأخرجا كتاب المنصور ، فلم يعرِض لهما أحدٌ؛ فضربا عنقه مكانه ، ولم يعلم جعفر حتى فرغا منه ـ وكان الفُضيل رجلاً عفيفاً ديّناً ـ فقيل للمنصور: إنّ الفضيل كان أبرأ الناس مما رُمِيَ به ، وقد عجِلتَ عليه. فوجَّه رسولاً ، وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتَل ، فقدم الرسول قبل أن يجفّ دمه.

فذكر معاوية بن بكر عن سويد مولى جعفر ، أنّ جعفراً أرسل إليه ، فقال: ويلك! ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف ديّن مسلم بلا جُرْم ولا جناية! قال سويد: فقلت: هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء؛ وهو أعلم بما يصنع؛ فقال: يا ماصّ بظر أمّه ، أكلِّمك بكلام الخاصّة وتكلمني بكلام العامة! خذوا برجله فألقوه في دِجْلة. قال فأخذت ، فقلت: أكلّمك ، فقال: دعوه ، فقلت: أبوك إنما يُسأَل عن فُضيل ، ومتى يُسْأَلُ عنه ، وقد قتل عمّه عبد الله بن عبد الله بن عليّ ، وقد قتل عبد الله بن الحسن وغيره من أولاد رسول الله ﷺ ظلماً ، وقتل أهل الدّنيا ممن لا يُحصى ولا يعدّ! هو قبل أن يُسأل عن فضيل جُرذانة تجبّ خصى فرعون قال: فضحك ، وقال: دعوه إلى لعنة الله.

وقال قعنَب بن محرز: أخبرنا محمد بن عائد مولى عثمان بن عفان أن حفصاً الأمويّ الشاعر ، كان يقال له حفص بن أبي جُمعة ، مولى عبّاد بن زياد ، وكان المنصور صيّره مؤدباً للمهديّ في مجالسه ، وكان مدّاحاً لبني أمية في أيام بني أميّة وأيّام المنصور ، فلم ينكِر عليه ذلك المنصورُ ، ولم يزل مع المهديّ أيام ولايته العهد؛ ومات قبل أن يلِي المهديّ الخلافة. قال: وكان مما مدح به بني أميّة قوله:

أَيــنَ رَوْقـا عبـد شمـسٍ أَيْـنَ هُـمْ ... أَيــن أَهـلُ البـاع منهـم والحَسـبْ!
لــم تكْــن أَيْــدٍ لهــم عنـدكُـمُ ... مــا فَعلتــمْ آل عبــدِ المطلــبْ!
أَيهـــا السّـــائــل عنهـــمُ أُولـــو ... جُثَـث تلمـعُ مـن فـوْق الخشـبْ
إِنْ تجُــدُّوا الأَصــلَ منهــمْ سَفهــاً ... يــا لَقَــوْمٍ للــزمــان المنقلِــبْ!
إِنْ فـاحلبُـوا مـا شئتـمُ فـي صَحْنكـمْ ... فسَتُسقَــون صَــرَى ذاك الحَلــبْ

وقيل: إن حفصاً الأمويّ دخل على المنصور، فكلّمه فاستخبره، فقال له: من أنت؟ فقال: مولاك يا أمير المؤمنين، قال: مولىً لي مثلك لا أعرفه! قال: مولى خادم لك عبد مناف يا أمير المؤمنين؛ فاستحسن ذلك منه، وعلم أنه مولىً لبني أميّة، فضمّه إلى المهديّ، وقال له: احتفظ به.

* * *

ومما رُثي به قول سَلْم الخاسر:

عجبــاً للــذي نَعــى النــاعيــانِ ... كيـف فـاهَـتْ بمـوتـه الشَّفَتَـانِ!
مَلـكٌ إِن غَـدَا علـى الـدَّهـرِ يـومـاً ... أصبـحَ الـدَّهـرُ سـاقطـاً للجِـرَانِ
لَيْــت كفّــاً حثَــتْ عليــه تــرابــاً ... لــم تَعُــدْ فــي يمينهــا ببَنَــان
حيـن دانَـتْ لـه البـلادُ علـى العَسْـ ... ـف وأَغضَـى مـن خـوفـه الثَّقَـلاَنِ
أَيــنَ ربُّ الــزَّوْراءِ قــد قلّــدَتْــهُ الـ ... ـملـكَ، عشـرون حجَّـةَ واثنتـان
إِنّمــا المــرءُ كــالــزنــاد إِذا مــا ... أَخَــذَتْــهُ قــوادحُ النِّيــرانِ
ليــس يَثنــي هَــواه زجــرٌ ولا يَقـ ... ــدَحُ فــي حَبْلــه ذَوو الأذهــانِ
قَلَّــدَتــهُ أَعِنَّــةُ المُلــكِ حتــى ... قــادَ أَعــداءَه بغيــرِ عِنــانِ
يُكْسَــرُ الطَّـرْفُ دونـه وتـرى الأَيـ ... ـدِيَ مـن خـوفِـهِ علـى الأذقـانِ
ضـمَّ أطـرافَ مُلكـه ثـم أَضحَـى ... خَلْـفَ أقصـاهُـمُ ودونَ الـدّانـي
هــاشِمــيُّ التَّشميــرِ لاَ يَحْمِـلُ الثِّقْـ ... ــلَ علـى غـاربِ الشَّـرُودِ الهِـدَانِ
ذو أَنـاةٍ ينسَـى لهـا الخـائـفُ الخَـو ... فَ وعــزمٍ يُلــوِي بكــلِّ جَنَــانِ
ذَهَبَــتْ دونــه النفــوسُ حِـذاراً ... غيــر أَنَّ الأَرواحَ فــي الأَبــدانِ

* * *

ذكر أسماء ولده ونسائه

فمن ولده المهديّ ـ واسمه محمد ـ وجعفر الأكبر ، وأمّهما أروى بنت منصور أخت يزيد بن منصور الحميريّ؛ وكانت تكنى أم موسى؛ وهلك جعفر هذا قبل المنصور.

وسليمان وعيسى ويعقوب ، وأمهم فاطمة بنت محمد ، من ولد طلحة بن عبيد الله.

وجعفر الأصغر ، أمّه أمّ ولد كرديّة ، كان المنصور اشتراها فتسرّاها ، وكان يقال لابنها: ابن الكرديّة.

وصالح المسكين ، أمّه أم ولد روميّة ، يقال لها قالى الفرّاشة.

والقاسم ، مات قبل المنصور ، وهو ابن عشر سنين ، وأمه أم ولد تعرف بأم القاسم ، ولها بباب الشأم بستان يعرف إلى اليوم ببستان أمّ القاسم.

والعالية ، أمّها امرأة من بني أميّة ، زوّجها المنصور من إسحاق بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، وذكر عن إسحاق بن سليمان أنه قال: قال لي أبي: زوّجتك يا بنيّ أشرف الناس؛ العالية بنت أمير المؤمنين. قال: فقلت: يا أباه ، مَنْ أكفاؤنا؟ قال: أعداؤنا من بني أميّة.

* * *

ذكر الخبر عن وصاياه

ذكر عن الهيثم بن عديّ أن المنصور أوصى المهديّ في هذه السنة لما شخص متوجِّهاً إلى مكة في شوّال ، وقد نزل قصر عَبْدويه ، وأقام بهذا القصر أياماً والمهديّ معه يوصيه ، وكان انقضّ في مقامه بقصر عبدويه كوكبٌ ، لثلاثٍ بقِينَ من شوّال بعد إضاءة الفجر ، وبقي أثره بيِّناً إلى طلوع الشمس ، فأوصاه بالمال والسلطان؛ يفعل ذلك كلّ يوم من أيام مقامه بالغدَاة والعشيّ ، لا يفتر عن ذلك ، ولا يفترقان إلاّ تحريكاً. فلما كان اليوم الذي أراد أن يرتحل فيه ، دعا المهديّ ، فقال له: إني لم أدع شيئاً إلا قد تقدمتُ إليك فيه ، وسأوصيك بخصال والله

ما أظنك تفعل واحدة منها ـ وكان له سَفَط فيه دفاتر علمه ، وعليه قُفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً ، يصرّ مفتاحه في كمّ قميصه. قال: وكان حمّاد التركيّ يقدّم إليه ذلك السّفَط إذا دعا به ، فإذا غاب حماد أو خرج كان الذي يليه سلمة الخادم ـ فقال للمهديّ: انظر هذا السَّفَط فاحتفظ به؛ فإنّ فيه علم آبائك. ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فإن أحزنك أمر فانظر في الدّفتر الأكبر؛ فإن أصبتَ فيه ما تريد ، وإلا فالثاني والثالث؛ حتى بلغ سبعة؛ فإن ثقل عليك فالكرّاسة الصغيرة؛ فإنك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة؛ فإياك أن تستبدل بها؛ فإنها بيتك وعزّك ، قد جمعتُ لك فيها من الأموال ما إن كُسِر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذريّة ومصلحة الثغور؛ فاحتفظ بها ، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك؛ أن تُظهر كرامتهم وتقدّمهم وتكثر الإحسان إليهم ، وتعظِّم أمرَهم ، وتوطئ الناس أعقابهم ، وتولّيهم المنابر؛ فإنّ عزّك عزّهم وذكرهم لك ، وما أظنك تفعل. وانظر مواليَك ، فأحسن إليهم وقرّبهم واستكثر منهم فإنهم مادّتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل خُراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتُك الَّذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومَنْ لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسِن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلُف مَن مات منهم في أهله وولده ، وما أظنّك تفعل. وإياك أن تبني مدينة الشرقيّة فإنك لا تتم بناءها ، وما أظنّك تفعل. وإيَّاك أن تستعين برجل من بني سُليم ، وأظنّك ستفعل. وإياك أن تدخل النساء في مشورتِك في أمرك ، وأظنك ستفعل.

وقال غير الهيثم: إنّ المنصور دعا المهديّ عند مسيره إلى مكة ، فقال: يا أبا عبد الله ، إني سائر وإني غير راجع؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون! فاسأل الله بركة ما أقدم عليه ، هذا كتاب وصيتي مختوماً ، فإذا بلغك أني قد متّ ، وصار الأمر إليك فانظر فيه ، وعليّ دينٌ فأحبّ أن تقضِيَه وتضْمَنه ، قال: هو عليّ يا أميرَ المؤمنين ، قال: فإنه ثلثمائة ألف درهم ونيّف ، ولست أستحلُّها من بيت مال المسلمين ، فاضمنها عني ، وما يفضي إليك من الأمر أعظم منها. قال: أفعل ، هو عليّ. قال: وهذا القصر ليس هو لكَ ، هو لي ، وقصري بنيتُه

بمالي ، فأحبّ أن تصيّر نصيبَك منه لإخوتك الأصاغر. قال: نعم ، قال: ورقيقي الخاصّة هم لك ، فاجعلهم لهم ، فإنك تصير إلى ما يُغنيك عنهم ، وبهم إلى ذلك أعظم الحاجة. قال: أفعل ، قال: أما الضياع ، فلست أكلِّفك فيها هذا ، ولو فعلتَ كان أحبَّ إليّ ، قال: أفعل ، قال: سلِّمْ إليهم ما سألتك من هذا ، وأنت معهم في الضياع. قال: والمتاع والثياب ، سلِّمه لهم ، قال: أفعل. قال: أحسنَ الله عليك الخلافة ولك الصُّنْع! اتق الله فيما خَوّلك وفيما خلَّفتُك عليه.

ومضى إلى الكوفة ، فنزل الرُّصافة ، ثمّ خرج منها مهلاً بالعمرة والحجّ ، قد ساق هَديَه من البُدْن ، وأشعر وقلّد؛ وذلك لأيام خلتْ من ذي القعدة.

وذكر أبو يعقوب بن سليمان ، قال: حدثتني جَمرة العطَّارة ـ عطّارة أبي جعفر ـ قالت: لما عزم المنصور على الحج دعا رَيْطة بنت أبي العباس امرأة المهديّ ـ وكان المهديّ بالريّ قبل شخوص أبي جعفر ـ فأوصاها بما أراد ، وعهد إليها ، ودفع إليها مفاتيح الخزائن ، وتقدّم إليها وأحلفها ، ووكّد الأيمان ألاّ تفتح بعض تلك الخزائن ، ولا تُطلع عليها أحداً إلا المهديّ؛ ولا هي؛ إلاّ أن يصحّ عندها موته ، فإذا صحّ ذلك اجتمعتْ هي والمهديّ وليس معهما ثالث؛ حتى يفتحا الخزانة. فلما قدِم المهديّ من الرّيّ إلى مدينة السلام ، دفعت إليه المفاتيح ، وأخبرتْه عن المنصور أنه تقدّم إليها فيه ألاّ يفتحه ولا يُطلع عليه أحداً حتى يصحّ عندها موتُه. فلما انتهى إلى المهديّ موتُ المنصور ووليَ الخلافة ، فتح الباب ومعه ريْطة ، فإذا أزجٌ كبير فيه جماعة من قتلاء الطالبيين ، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم ، وإذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدّة كثيرة ، فلما رأى ذلك المهديّ ارتاع لما رأى ، وأمر فحفِرت لهم حفيرة فدُفنوا فيها ، وعمِل عليهم دكان.

وذُكِر عن إسحاق بن عيسى بن عليّ ، عن أبيه ، قال: سمعتُ المنصور وهو متوجّه إلى مكة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وهو يقول للمهديّ عند وداعه إياه: يا أبا عبد الله؛ إني وُلدت في ذي الحجة ، ووليت في ذي الحجة ، وقد هجس في نفسي أني أموت في ذي الحجة من هذه السنة؛ وإنما حداني على الحجّ ذلك ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي؛ يجعل لك فيما كَربك وحزَنك مخرجاً ـ أو قال: فَرجاً ومخرجاً ـ ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث

لا تحتسب. احفظ يا بنيّ محمداً ﷺ في أمّته يحفظ الله عليك أمورَك. وإياك والدّم الحرام، فإنه حَوْب عند الله عظيم، وعارٌ في الدنيا لازم مقيم. والزم الحلال؛ فإن ثوابَك في الآجل، وصلاحك في العاجل. وأقم الحدود ولا تعتدِ فيها فتبور؛ فإن الله لو علم أنّ شيئاً أصلحُ لدينه وأزجرُ من معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه. واعلم أنّ من شدّة غضب الله لسلطانه، أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على مَنْ سعى في الأرض فساداً، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾[1] الآية. فالسلطان يا بنيّ حبْل الله المتين، وعُروته الوثقَى، ودين الله القيّم، فاحفظه وحُطْه وحصّنه، وذُبَّ عنه، وأوقع بالملحدين فيه، واقْمَع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمَثُلات بهم؛ ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن. واحكم بالعدل ولا تُشْطِط؛ فإن ذلك أقطعُ للشَّغَب، وأحسم للعدوّ، وأنجع في الدواء. وعفّ في الفيء، فليْس بك إليه حاجة مع ما أخلِّفه لك، وافتتح عملك بصلةِ الرَّحِم وبرّ القرابة. وإياك والأثَرة والتبذير لأموال الرّعية. واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمِّن السبل، وخصّ الواسطة، ووسِّع المعاش، وسكِّن العامة، وأدخل المرافق عليهم، واصرف المكاره عنهم، وأعدّ الأموال واخزنها. وإيّاك والتبذير؛ فإنَّ النوائب غير مأمونة، والحوادث غير مضمونة، وهي من شيَم الزّمان. وأعدّ الرجال والكُراع والجند ما استطعت. وإيّاك وتأخيرَ عمل اليوم إلى غد، فتتدارك عليك الأمور وتضيع. جِدَّ في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً، واجتهد وشمّر فيها، وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل. وباشر الأمور بنفسك، ولا تضجر ولا تكسل ولا تفشل، واستعمل حسنَ الظن بربك، وأسئ الظن بعمّالك وكتابك. وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقَّد مَنْ يبيت على بابك، وسهّل إذنَك للناس، وانظر في أمر النزاع إليك، ووكِّل بهم عيناً غير نائمة، ونفساً غير لاهية، ولا تنم فإنّ أباك لم ينمْ منذ ولِيَ الخلافة، ولا دخل عينه غمض إلاّ وقلبه مستيقظ. هذه وصيّتي إليك، والله خليفتي عليك.

قال: ثم ودّعه وبكى كلّ واحد منهما إلى صاحبه.

---

(١) سورة المائدة: ٣٣.

وذكر عمر بن شبّة عن سعيد بن هريم ، قال: لما حجّ المنصور في السنة التي تُوفّيَ فيها شيّعه المهديّ ، فقال: يا بنيّ ، إني قد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وجمعت لك من الموالي ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وبنيت لك مدينة لم يكن في الإسلام مثلها؛ ولست أخاف عليك إلا أحدَ رجلين: عيسى بن موسى ، وعيسى بن زيد؛ فأما عيسى بن موسى فقد أعطاني من العهود والمواثيق ما قبلتُه ، ووالله لو لم يكن إلا أن يقول قولاً لما خفتُه عليك ، فأخرجه من قلبك. وأما عيسى بن زيد فأنفِق هذه الأموال واقتل هؤلاء الموالي ، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به ، ثم لا ألومك[1].

وذكر عيسى بن محمد أنّ موسى بن هارون حدّثه ، قال: لما دخل المنصور آخرَ منزل نزَله من طريق مكة ، نظر في صدر البيت الذي نزل فيه ، فإذا فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم.

أَبا جعفرٍ حانَتْ وَفاتُكَ وانقَضَتْ سِنُوك ، وأَمرُ الله لا بدَّ واقعُ
أَبا جعفر هل كاهنٌ أَو مُنجّمٌ لك اليومَ من حَرّ المَنِيَّة مانعُ!

قال: فدعا بالمتولي لإصلاح المنازل ، فقال له: ألم آمرك ألاّ يدخل المنزل أحدٌ من الدّعّار! قال: يا أميرَ المؤمنين؛ والله ما دخلها أحد منذ فُرِغ منها ، فقال: اقرأ ما في صدر البيت مكتوباً ، قال: ما أرى شيئاً يا أميرَ المؤمنين ، قال: فدعا برئيس الحجَبة ، فقال: اقرأ ما على صدر البيت مكتوباً ، قال: ما أرى على صدر البيت شيئاً ، فأملى البيتين فكُتِبا عنه ، فالتفت إلى حاجبه فقال: اقرأ لي آية من كتاب الله جلّ وعز تشوّقني إلى الله عزّ وجلّ ، فتلا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ، فأمر بفكَّيْه فوُجئا. وقال: ما وجدت شيئاً تقرؤه غير هذه الآية! فقال: يا أميرَ المؤمنين ، مُحِي القرآن من قلبي غير هذه الآية ، فأمر بالرّحيل عن ذلك المنزل تطيُّراً مما كان ، وركب فرساً ، فلما كان في الوادي الذي يقال له سَقَر ـ وكان آخر منزل بطريق مكة ـ كبا به الفرس ، فدقّ ظهره ، ومات فدفن ببئر ميمون.

---

(١) سعد بن هريم مجهول والخبر لا يصح. والمتتبع لروايات الطبري يرى أنها تشبه مثيلاتها من الروايات المختلقة حول وصايا الخلفاء لأبنائهم والله أعلم.

وذكر عن محمد بن عبد الله مولى بنيّ هاشم ، قال: أخبرني رجل من العلماء وأهل الأدب ، قال: هتف بأبي جعفر هاتف من قصره بالمدينة فسمعه يقول:

أَمَــا وربِّ السُّكــونِ والحَــرَكِ إِنَّ المنــايــا كثيــرةُ الشَّــرَكِ
عليــكِ يــا نفــسُ إن أَســأْتِ وإِنْ أَحْسَنْـتِ بـالقَصْـدِ ، كـلُّ ذاكَ لَـكِ
مــا اخْتلَـفَ الليــلُ والنهــارُ ولاَ دارَت نُجـومُ السمــاءِ فـي الفَلَـكِ
إلا بِنَقْــلِ السُّلْطــان عــن مَلــكٍ إذا انقضَــى مُلكــهُ إلــى مَلِــكِ
حتــى يصيــرَا بــه إلــى مَلِــكٍ مــا عِــزُّ سُلطــانــه بِمُشتَــرَكِ
ذاك بـديـعُ السمـاءِ والأَرض والمُـرْ سِــي الجبــالِ المُسخِّــرُ الفلَــكِ

فقال أبو جعفر: هذا والله أوان أجَلِي.

وذكر عبد الله بن عبيد الله ، أنّ عبد العزيز بن مُسلم حدّثه أنه قال: دخلت على المنصور يوماً أسلِّم عليه؛ فإذا هو باهت لا يُحير جواباً ، فوثبت لما أرى منه ، أريد الانصراف عنه ، فقال لي بعد ساعة: إني رأيت فيما يرى النائم؛ كأن رجلاً ينشدني هذه الأبيات:

أَأُخَــيَّ أَخفِــض مِــن مُنَــاكــا فكــأَنَّ يَــوْمَــكَ قــد أَتَــاكَــا
ولقــد أَرَاك الــدَّهْــرُ مِــنْ تَصــرِيفِــه مــا قَــدْ أَراكَــا
فــإِذا أَرَدْتَ النَّــاقِــصَ الـ ـعبـدَ الـذَّلِيـلَ فـأَنـت ذَاكَـا
مُلِّكْــتَ مــا مُلِّكْتَــهُ والأَمــرُ فيــه إِلــى سِــوَاكَــا

فهذا الذي ترى من قلقي وغَمِّي لما سمعت ورأيت. فقلت: خيراً رأيتَ يا أمير المؤمنين. فلم يلبث إلى أن خرج إلى الحجّ فمات لوجهه ذاك.

* * *

ذكر الخبر عن صفة العقد الذي عُقِد للمهديّ بالخلافة حين مات والده المنصور بمكة

ذكر عليّ بن محمد النوفليّ أن أباه حدّثه ، قال: خرجت في السنة التي مات فيها أبو جعفر من طريق البصرة ، وكان أبو جعفر خرج على طريق الكوفة ، فلقيتُه بذات عِرْق ، ثم سرت معه ، فكان كلَّما ركب عرضتُ له فسلّمت عليه ،

وقد كان أدنف وأشفى على الموت ، فلما صار ببئر ميمون نزل به ، ودخلنا مكة ، فقضيتُ عُمرتي ، ثم كنت أختلف إلى أبي جعفر إلى مَضْربه ، فأقيم فيه إلى قريب من الزّوال ، ثم أنصرف ـ وكذلك كان يفعل الهاشميّون ـ وأقبلت علّته تشتدّ وتزداد ، فلما كان في الليلة التي مات فيها ، ولم نعلم؛ فصليت الصبح في المسجد الحرام مع طلوع الفجر ، ثم ركبتُ في ثوبيّ متقلداً السيف عليهما ، وأنا أساير محمد بن عون بن عبد الله بن الحارث ـ وكان من سادة بني هاشم ومشايخهم؛ وكان في ذلك اليوم عليه ثوبان مورّدان قد أحرم فيهما ، متقلّداً السيف عليهما ـ قال: وكان مشايخ بني هاشم يحبّون أن يُحرِموا في المورّد لحديث عمر بن الخطاب وعبد الله بن جعفر وقول عليّ بن أبي طالب فيه. فلما صرنا بالأبطح لقيَنا العباس بن محمد ومحمد بن سليمان في خيل ورجال يدخلان مكة ، فعدلنا إليهما ، فسلّمنا عليهما ثم مضينا ، فقال لي محمد بن عون: ما ترى حال هذين ودخولهما مكة؟ قلت: أحسب الرّجُل قد مات؛ فأرادا أن يحصّنا مكة؛ فكان ذلك كذلك ، فبينا نحن نسير ، إذا رجل خفيّ الشَّخْص في طِمْرين ، ونحن بعد في غَلَس ، قد جاء فدخل بين أعناق دابتيْنا ، ثم أقبل علينا ، فقال: مات والله الرجل! ثم خفي عنّا ، فمضينا نحن حتى أتينا العسكر ، فدخلنا السُّرادق الذي كنا نجلس فيه في كلّ يوم؛ فإذا بموسى بن المهديّ قد صدِّرَ عند عَمُود السرادق؛ وإذا القاسم بن منصور في ناحية السُّرادق ـ وقد كان حين لقينا المنصور بذات عِرْق ، إذا ركب المنصور بعيرَه جاء القاسم فسار بين يديه بينه وبين صاحب الشرطة ، ويؤمَر الناس أن يرفعوا القصص إليه ـ قال: فلما رأيته في ناحية السرادق ورأيت موسى مصدّراً ، علمت أنّ المنصور قد مات. قال: فبينا أنا جالس إذ أقبل الحسن بن زيد ، فجلس إلى جنبي ، فصارت فخِذه على فخذي ، وجاء الناس حتى ملؤوا السرادق ، وفيهم ابن عيّاش المنتوف؛ فبينا نحن كذلك ، إذ سمعنا همساً من بكاء. فقال لي الحسن: أترى الرجل مات! قلت: لا أحسب ذلك؛ ولكن لعله ثقِيل ، أو أصابته غَشْية ، فما راعنا إلا بأبي العنبر الخادم الأسود خادم المنصور ، قد خرج علينا مشقوق الأقبِيَة من بين يديه ومن خَلْفه ، وعلى رأسه التراب ، فصاح: وا أمير المؤمنيناه! فما بقي في السرادق أحدٌ إلاّ قام على رجليه ، ثم أهووا نحو مضَارب أبي جعفر يريدون الدّخول ، فمنعهم الخدم ، ودفعوا في صدورهم. وقال ابن عياش المنتوف: سبحان الله! أما شهدتم

موت خليفة قطّ! اجلسوا رحمكم الله. فجلس الناس، وقام القاسم فشقّ ثيابه، ووضع التراب على رأسه، وموسى جالس على حاله. وكان صبيّاً رَطْباً ما يتحلحل.

ثم خرج الرّبيع، وفي يده قِرطاس، فألقى أسفله على الأرض، وتناول طرفه ثم قرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى مَنْ خلّف بعده من بني هاشم وشيعته من أهل خُراسان وعامة المسلمين ـ ثم ألقى القرطاس من يده، وبكى وبكى الناس، فأخذ القرطاس، وقال: قد أمكنكم البكاء؛ ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين، لا بدّ من أن نقرأه عليكم، فأنصِتوا رحمكم الله؛ فسكت الناس، ثم رجع إلى القراءة ـ أما بعد: فإني كتبتُ كتابي هذا وأنا حيٌّ في آخر يوم من الدّنيا وأول يوم من الآخرة، وأنا أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألاّ يفتنكم بعدي، ولا يُلبِسكم شيَعاً، ولا يُذيق بعضكم بأس بعض. يا بني هاشم، ويا أهلَ خراسان....... ثم أخذ في وصيّتهم بالمهديّ، وإذكارهم البيعةَ له، وحضّهم على القيام بدولته، والوفاء بعهده إلى آخر الكتاب.

قال النوفليّ: قال أبي: وكان هذا شيئاً وضعه الربيع، ثم نظر في وجوه النّاس، فدنا من الهاشميّين، فتناول يد الحسن بن زيد، فقال: قم يا أبا محمد، فبايِعْ، فقام معه الحسن، فانتهى به الرّبيع إلى موسى فأجلسه بين يديه، فتناول الحسن يدَ موسى، ثم التفت إلى الناس، فقال: يا أيها الناس، إن أمير المؤمنين المنصور كان ضربني واصطفى مالي؛ فكلّمه المهدي فرضي عني، وكلمه في ردّ مالي عليّ فأبى ذلك، فأخلفه المهديّ من ماله وأَضعفه مكان كل عِلْق عِلْقين، فمَن أولى بأن يبايع لأمير المؤمنين بصدر منشرح ونفس طيبة وقلب ناصح منِّي! ثم بايع موسى للمهديّ، ثم مسح على يده. ثم جاء الربيع إلى محمد بن عون، فقدّمه للسنّ فبايع، ثم جاء الرّبيع إليَّ فأنهضني؛ فكنت الثالث؛ وبايع الناس؛ فلما فرغ دخل المضارب، فمكث هنيهة ثم خرج إلينا معشر الهاشميّين، فقال: انهضوا، فنهضنا معه جميعاً، وكنا جماعة كثيرة من أهل العراق وأهل مكة والمدينة ممن حضر الحج، فدخلنا فإذا نحن بالمنصور

على سريره في أكفانه ، مكشوف الوجه؛ فحملناه حتى أتينا به مكّة ثلاثة أميال؛ فكأني أنظر إليه أدنو من قائمة سريره نحمله؛ فتحرّك الريح ، فتطيّر شعر صدغيه؛ وذلك أنه كان قد وفّر شعره للحلق؛ وقد نصل خِضابه؛ حتى أتينا به حفرته ، فدلّيناه فيها.

قال: وسمعت أبي يقول: كان أوّل شيء ارتفع به عليّ بن عيسى بن ماهان؛ أنه لما كان الليلة التي مات فيها أبو جعفر أرادوا عيسى بن موسى على بَيْعة مجدّدة للمهديّ ـ وكان القائم بذلك الربيع ـ فأبى عيسى بن موسى، فأقبل القوّاد الذين حضروا يقرّبون ويتباعدون ، فنهض عليّ بن عيسى بن ماهان ، فاستلّ سيفه ، ثمّ جاء إليه ، فقال: والله لتبايعنّ أو لأضربنّ عنقك! فلمّا رأى ذلك عيسى ، بايع وبايع الناس بعده.

وذكر عيسى بن محمد أنّ موسى بن هارون حدّثه أن موسى بن المهديّ والربيع مولى المنصور وجّها منارة مولى المنصور بخبر وفاة المنصور وبالبيْعة للمهديّ. وبعثا بعدُ بقضيب النبيّ ﷺ وبُرْدته التي يتوارثها الخلفاء مع الحسن الشرويّ ، وبعث أبو العباس الطوسيّ بخاتم الخلافة مع منارة؛ ثم خرجوا من مكة ، وسار عبد الله بن المسيّب بن زهير بالحَرْبة بين يدي صالح بن المنصور ، على ما كان يسير بها بين يديه في حياة المنصور ، فكسرها القاسم بن نصر بن مالك؛ وهو يومئذ على شُرْطة موسى بن المهديّ ، واندسّ عليّ بن عيسى بن ماهان لما كان في نفسه من أذى عيسى بن موسى ، وما صُنع به للراونديّة ، فأظهر الطعن والكلام في مسيرهم. وكان من رؤسائهم أبو خالد المرورّوذي ، حتى كاد الأمر يعظُم ويتفاقم؛ حتى لبس السلاح. وتحرّك في ذلك محمد بن سليمان ، وقام فيه وغيره من أهل بيته؛ إلاّ أن محمداً كان أحسنَهم قياماً به حتى طفئ ذلك وسكن. وكتب به إلى المهديّ ، فكتب بعزل عليّ بن عيسى عن حَرس موسى بن المهدي ، وصيَّر مكانه أبا حنيفة حرب بن قيس ، وهذا أمر العسكر ، وتقدّم العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى المهديّ ، وسبق إليه العباس بن محمد. وقدم منارة على المهديّ يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة ، فسلّم عليه بالخلافة ، وعزّاه ، وأوصل الكتب إليه ، وبايعه أهل مدينة السلام.

وذكر الهيثم بن عديّ عن الربيع ، أنّ المنصور رأى في حجّته التي مات فيها

وهو بالعُذَيب ـ أو غيره من منازل طريق مكة ـ رؤيا ـ وكان الربيع عديله ـ وفزع منها ، وقال: يا ربيع ، ما أحسبني إلا ميّتاً في وجهي هذا؛ وأنك تؤكد البَيْعة لأبي عبد الله المهديّ ، قال الربيع: فقلت له: بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ، ويَبْلغ أبو عبد الله محبّتك في حياتك إن شاء الله. قال: وثقِل عند ذلك وهو يقول: بادر بي إلى حَرم ربي وأمنه، هارباً من ذنوبي وإسرافي على نفسي؛ فلم يزل كذلك حتى بلغ بئر ميمون، فقلت له: هذه بئر ميمون، وقد دخلتَ الحرم، فقال: الحمد لله ، وقضى من يومه.

قال الربيع: فأمرت بالخِيَم فضُربت ، وبالفساطيط فهيِّئَتْ ، وعمدْت إلى أمير المؤمنين فألبسته الطويلة والدّرّاعة ، وسندته ، وألقيت في وجهه كِلّة رقيقة يُرى منها شخصه ، ولا يفهم أمره ، وأدنيت أهلَه من الكِلَّة حيث لا يُعلم بخبره ، ويُرى شخصُه. ثم دخلت فوقفت بالموضع الذي أوهمهم أنه يخاطبني ، ثم خرجت فقلت: إن أمير المؤمنين مُفيق بمنّ الله ، وهو يقرأ عليكم السلام ، ويقول: إني أحبّ أن يؤكّد الله أمرَكم؛ ويكبت عدوّكم ، ويسرّ وليّكم؛ وقد أحببت أن تجدّدوا بيعة أبي عبد الله المهديّ؛ لئلا يطمع فيكم عدوٌّ ولا باغٍ ، فقال القوم كلهم: وفّق الله أمير المؤمنين؛ نحن إلى ذاك أسرع. قال: فدخل فوقف ، ورجع إليهم ، فقال: هلمُّوا للبَيْعة ، فبايع القوم كلُّهم ، فلم يبق أحدٌ من خاصّته والأولياء ورؤساء مَنْ حضره إلا بايع المهديّ ، ثم دخل وخرج باكياً مشقوق الجيْب لاطماً رأسه ، فقال بعض مَنْ حضر: ويلي عليك يا بن شاة! يريد الربيع ـ وكانت أمّه ماتت وهي ترضعه فأرضعته شاة ـ قال: وحفِر للمنصور مائة قَبْر ، ودفن في كلها ، لئلا يعرف موضع قبره الذي هو ظاهر للناس ، ودفِن في غيرها للخوف عليه.

قال: وهكذا قبور خلفاء ولَد العباس ، لا يعرَف لأحد منهم قبر.

قال: فبلغ المهديّ ، فلما قدم عليه الربيع قال: يا عبدُ؛ ألم تمنعك جلالة أمير المؤمنين أن فعلتَ ما فعلتَ به! وقال قوم: إنّه ضربه؛ ولم يصحّ ذلك.

قال: وذكر مَنْ حضر حجّة المنصور ، قال: رأيت صالح بن المنصور وهو مع أبيه والناس معه؛ وإنّ موسى بن المهديّ لقي تُبّاعه ، ثم رجع الناس وهم خَلف موسى ، وأن صالحاً معه.

وذكر عن الأصمعيّ أنه قال: أوّل مَنْ نعى أبا جعفر المنصور بالبصرة خَلَف الأحمر ، وذلك أنّا كنّا في حلقة يونس ، فمرّ بنا فسلَّم علينا ، فقال:

قد طَرَّقَت بِبِكرِها أمّ طَبَقْ

قال يونس: وماذا؟ قال:

تُنَتِّجوها خيرَ أَضخَم العُنُقْ موتُ الإِمَامِ فِلقَةٌ مِنَ الفِلَقْ

* * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

ذكر ما كان فيها من الأحداث

وفيها وجّه المهدي عبد الملك بن شهاب المِسمعيّ في البَحْر إلى بلاد الهند ، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد ، وأشخصهم معه، وأشخص معه من المطوّعة الذين كانوا يلزمون المُرابطات ألفاً وخمسمائة رجل ، ووجّه معه قائداً من أبناء أهل الشام يقال له ابن الحُباب المذحجيّ في سبعمائة من أهل الشام ، وخرج معه من مطوّعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل ، فيهم ـ فيما ذكر ـ الربيع بن صُبيح ، ومن الأسواريين والسبابجة أربعة آلاف رجل ، فولى عبد الملك بن شهاب المنذر بن محمد الجاروديّ الألف الرجل المطّوّعة من أهل البصرة ، وولّى ابنه غسان بن عبد الملك الألفي الرّجل الذين من فرض البصرة ، وولّى عبد الواحد بن عبد الملك الألف والخمسمائة الرجل من مُطّوّعة المرابطات ، وأفرد يزيد بن الحباب في أصحابه فخرجوا ، وكان المهديّ وجّه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا القاسم محرِز بن إبراهيم ، فمضوا لوجههم؛ حتى أتوا مدينة باربَد من بلاد الهند في سنة ستين ومائة.

وفيها تُوفّيَ معبد بن الخليل بالسند ، وهو عامل المهديّ عليها ، فاستعمل مكانه روح بن حاتم بمشورة أبي عبيد الله وزيره[1].

وفيها أمر المهديّ بإطلاق مَنْ كان في سجن المنصور ، إلا من كان قبلَه تِباعة من دم أو قتل ، ومَنْ كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد ، أو مَنْ كان لأحد

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ٧٦).

قِبَله مظلمة أو حقّ ، فأطلقوا ، فكان ممّن أطلِق من المَطْبَق يعقوب بن داود مولى بني سُليم ، وكان معه في ذلك الحبس محبوساً الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب[١] .

* * *

وفيها حوّل المهديّ الحسن بن إبراهيم من المطبق الذي كان فيه محبوساً إلى نصير الوصيف فحبسه عنده[٢] .

ذكر الخبر عن سبب تحويل المهديّ الحسن بن إبراهيم من المطبق إلى نُصير

ذكر أن السبب في ذلك ، كان أن المهديّ لما أمرَ بإطلاق أهل السجون على ما ذكرت ، وكان يعقوب بن داود محبوساً مع الحسن بن إبراهيم في موضع واحد ، فأطلق يعقوب بن داود ، ولم يُطلق الحسن بن إبراهيم ، ساء ظنه ، وخاف على نفسه ، فالتمس مخرجاً لنفسه وخلاصاً ، فدسّ إلى بعض ثقاته ، فحفر له سَرَباً من موضع مُسَامت للموضع الذي هو فيه محبوس ، وكان يعقوب بن داود بعد أن أطلِق يُطيف بابن علاثة ـ وهو قاضي المهديّ بمدينة السلام ـ ويلزمه ، حتى أنس به ، وبلغ يعقوب ما عزم عليه الحسن بن إبراهيم من الهرب ، فأتى ابن عُلاثة ، فأخبره أن عنده نصيحة للمهديّ ، وسأله إيصاله إلى أبي عبيد الله ، فسأله عن تلك النصيحة ، فأبى أن يخبره بها ، وحذّره فوتَها ، فانطلق ابن عُلاثة إلى أبي عبيد الله ، فأخبره خبر يعقوب وما جاء به ، فأمره بإدخاله عليه؛ فلما دخل عليه سأله إيصاله إلى المهديّ ، ليعلمه النّصيحة التي له عنده ، فأدخله عليه ، فلما دخل على المهديّ شكر له بلاءه عنده في إطلاقه إياه ومَنِّه عليه ، ثم أخبره أنّ له عنده نصيحة ، فسأله عنها بمحضر من أبي عبيد الله وابن عُلاثة ، فاستخلاه منهما ، فأعلمه المهديّ ثقته بهما ، فأبى أن يبوحَ له

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ٧٧) .

(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ٧٧) .

بشيء حتى يقوما ، فأقامهما وأخلاه ، فأخبره خبرَ الحسن بن إبراهيم وما أجمع عليه ، وأنّ ذلك كائن من ليلته المستقبلة ، فوجّه المهديّ مَن يثق به ليأتيَه بخبره ، فأتاه بتحقيق ما أخبره به يعقوب ، فأمر بتحويله إلى نُصَير ، فلم يزل في حبسه إلى أن احتال واحتيل له ، فخرج هارباً ، وافتُقِد ، فشاع خبره ، فطُلب فلم يُظْفَر به ، وتذكّر المهديّ دلالة يعقوب إيّاه كانت عليه ، فرجا عنده من الدلالة عليه مثل الّذي كان منه في أمره ، فسأل أبا عبيد الله عنه فأخبره أنه حاضر ـ وقد كان لزم أبا عبيد الله ـ فدعا به المهديّ خالياً ، فذكر له ما كان من فعله في الحسن بن إبراهيم أوّلاً ، ونصحه له فيه ، وأخبره بما حدث من أمره ، فأخبره يعقوب أنه لا علم له بمكانه ، وأنه إن أعطاه أماناً يثق به ضمِن له أن يأتيَه به ، على أن يتمّ له على أمانه ، ويصله ويُحسن إليه. فأعطاه المهديّ ذلك في مجلسه وضمنه له. فقال له يعقوب: فالهُ يا أمير المؤمنين عن ذكره ، ودَعْ طلبه ، فإن ذلك يُوحشه ، ودعني وإياه حتى أحتال فآتيَك به؛ فأعطاه المهديّ ذلك. وقال يعقوب: يا أمير المؤمنين ، قد بسطتَ عدلَك لرعيّتك ، وأنصفتهم ، وعممتَهم بخيرك وفضلك ، فعظم رجاؤهم ، وانفسحت آمالهم؛ وقد بقيت أشياء لو ذكرتُها لك لم تَدَع النظر فيها بمثل ما فعلت في غيرها ، وأشياء مع ذلك خلف بابك يُعمل بها لا تعملها ، فإن جعلت لي السبيلَ إلى الدخول عليك ، وأذنتَ لي في رفعها إليك فعلتُ. فأعطاه المهديّ ذلك ، وجعله إليه ، وصَيّر سُلَيْماً الخادم الأسود خادم المنصور سببه في إعلام المهديّ بمكانه كلّما أراد الدخول ، فكان يعقوب يدخل على المهديّ ليلاً ، ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة من أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغُزاة وتزويج العزَّاب ، وفكَاك الأسارى والمحبَّسين والقضاء على الغارمين ، والصّدَقة على المتعفّفين ، فحظي بذلك عنده ، وبما رجا أن يناله به من الظَّفَر بالحسن بن إبراهيم ، واتّخذه أخاً في الله ، وأخرج بذلك توقيعاً ، وأثبت في الدواوين ، فتسبّب مائة ألف درهم كانت أوّل صلة وصلَه بها ، فلم تزل منزلته تنمِي وتعلو صُعُداً ، إلى أن صيّر الحسن بن إبراهيم في يد المهديّ بعد ذلك؛ وإلى أن سقطت منزلتُه ، وأمر المهديّ بحبسه ، فقال عليّ بن الخليل في ذلك:

عجباً لتصريف الأمو ... رِ مَسَرَّةً وكَراهيَةْ
والدّهرُ يلعبُ بالرِّجا ... لِ له دوائرُ جاريَةْ

رَثّـــتْ بيعقـــوب بــــن دا ود حِبَــــالُ معــــاويـــةْ
وعَـــدَتْ علـــى ابـــن عُـــلاثـــة الـ ـقــاضِـــي بَـــوائـــقُ عـــافيـــةْ
قـــلْ للـــوزيـــرِ أَبـــي عُبيـ ـــد الله: هـــلْ لـــك بـــاقيـــةْ!
يعقـــوب ينظـــرُ فـــي الأمـــو ر وأَنـــتَ تنظـــرُ نـــاحيـــةْ
أدخلتـــــــه فعَـــــــلا عليـ ـــك، كـــذاك شـــؤمُ النَّـــاصيـــةْ

* * *

وفي هذه السّنة عزل المهديّ إسماعيل بن أبي إسماعيل عن الكوفة وأحداثها. واختُلف فيمن ولّى مكانه، فقال بعضهم: ولّى مكانه إسحاق بن الصبّاح الكنديّ ثم الأشعثي بمشورة شَريك بن عبد الله قاضي الكوفة. وقال عمر بن شبّة: ولّى على الكوفة المهديُّ عيسى بنَ لقمان بن محمد بن حاطب بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُمح، فولَّى على شُرَطِه ابنَ أخيه عثمان بن سعيد بن لقمان. ويقال: إن شريك بن عبد الله كان على الصَّلاة والقضاء، وعيسى على الأحداث، ثم أفرد شريك بالولاية، فجعل على شُرَطِه إسحاقَ بن الصباح الكنديّ، فقال بعض الشعراء:

لَسْـتَ تَعْـدو بـأَنْ تكـونَ وَلـوْ نِلْـ ـتَ سُهيْـلاً صَنيعَـةً لِشَـريـكِ

قال: ويزعمون أن إسحاق لم يشكر لشريك، وأن شريكاً قال له:

صَلَّـى وصَـامَ لـدُنْيـا كـان يَـأْمُلهـا فَقَـدْ أَصـابَ ولا صلَّـى ولا صَـامَـا

وذكر عمر أن جعفر بن محمد قاضي الكوفة، قال: ضمّ المهديّ إلى شريك الصلاة مع القضاء، وولّى شرطه إسحاق بن الصباح، ثم ولّى إسحاق بن الصباح الصلاة والأحداث بعد، ثم ولّى إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث الكوفة، فولى شُرَطه النعمانَ بن جعفر الكنديّ، فمات النعمان، فولَّى على شُرَطِه أخاه يزيد بن جعفر.

وفيها عَزل المهديُّ عن أحداث البصرة سعيد بن دَعلَج، وعزل عن الصلاة والقضاء من أهلها عبيد الله بن الحسن، وولّى مكانهما عبد الملك بن أيّوب بنَ ظَبيان النُّميريّ، وكتب إلى عبد الملك يأمره بإنصاف مَنْ تظلّم من أهل البصرة من سعيد بن دعلج، ثم صُرفت الأحداث في هذه السنة عن عبد الملك بن أيّوب

إلى عُمارة بن حمزة، فولاّها عُمَارة رجلاً من أهل البصرة يقال له المِسْوَر بن عبد الله بن مسلم الباهليّ، وأقرّ عبد الملك على الصلاة.

وفيها عُزِل قُثَمَ بن العباس عن اليمامة عن سخطة، فوصل كتابُ عزله إلى اليمامة، وقد تُوُفِّيَ فاستعمل مكانه بشر بن المنذر البَجَليّ.

وفيها عزل يزيد بن منصور عن اليمن، واستعمل مكانه رجاء بن رَوْح.

وفيها عزل الهَيْثم بن سعيد عن الجزيرة، واستعمل عليها الفضل بن صالح وفيها أعتق المهديّ أمّ ولده الخيزران وتزوّجها.

وفيها تزوّج المهديّ أيضاً أم عبد الله بنت صالح بن عليّ، أخت الفضل وعبد الله ابني صالح لأمّهما.

وفيها وقع الحريق في ذي الحجة في السفن ببغداد عند قصر عيسى بن عليّ، فاحترق ناس كثير، واحترقت السفن بما فيها[1].

وفيها عُزِل مطر مولى المنصور عن مصر، واستعمل مكانه أبو ضمرة محمد بن سليمان.

وفيها كانت حركة من تحرّك من بني هاشم وشيعتهم من أهل خُراسان في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وتصيير ذلك لموسى بن المهديّ؛ فلمّا تبيّن ذلك المهديّ كتب ـ فيما ذكر ـ إلى عيسى بن موسى في القُدوم عليه وهو بالكوفة، فأحسّ بالذي يُراد به، فامتنع من القدوم عليه.

وقال عمر: لما أفضى الأمر إلى المهديّ سأل عيسى أن يخرج من الأمر فامتنع عليه، فأراد الإضرار به، فولّى على الكوفة رَوْح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، فولّى على شُرَطه خالد بن يزيد بن حاتم؛ وكان المهديّ يحبّ أن يحمل رَوْح على عيسى بعض الحمل فيما لا يكون عليه به حجّة، وكان لا يجد إلى ذلك سبيلاً، وكان عيسى قد خرج إلى ضَيْعة له بالرُّحبة؛ فكان لا يدخل الكوفة إلاّ في شهرين من السنة في شهر رمضان، فيشهد الجُمَع والعيد، ثم يرجع إلى ضَيْعته. وفي أوّل ذي الحجة، فإذا شهد العيد رجع إلى ضَيْعته، وكان

(١) وقال ابن كثير: وغالب نوّاب البلاد قد تغيّروا في هذه السنة (البداية والنهاية/ ٨/ ٧٨).

إذا شهد الجمعة أقبل من دارِه على دوابه حتى ينتهي إلى أبواب المسجد فينزل على عَتبة الأبواب، ثم يصلّي في موضعه؛ فكتب رَوْح إلى المهديّ أن عيسى بن موسى لا يشهد الجُمَع، ولا يدخل الكوفة إلاّ في شهرين من السنة؛ فإذا حضر أقبل على دوابّه حتى يدخل رَحبَة المسجد؛ وهو مصلّى الناس، ثم يتجاوزها إلى أبواب المسجد، فتروث دوابُّه في مصلَّى الناس؛ وليس يفعل ذلك غيره؛ فكتب إليه المهديّ أن اتّخذ على أفواه السِّكك التي تلي المسجد خشباً ينزل عنده الناس، فاتّخذ روح ذلك الخشب في أفواه السكك ـ فذلك الموضع يسمى الخشبة ـ وبلغ ذلك عيسى بن موسى قبل يوم الجُمعة، فأرسل إلى ورثة المختار بن أبي عبيدة ـ وكانت دار المختار لزيقة المسجد ـ فابتاعها وأثمن بها، ثم إنه عمّرها واتخذ فيها حمّاماً، فكان إذا كان يوم الخميس أتاها فأقام بها، فإذا أراد الجمعة ركب حماراً فدبّ به إلى باب المسجد فصلّى في ناحية، ثم رجع إلى داره. ثم أوطن الكوفة وأقام بها، وألحَّ المهديّ على عيسى فقال: إنك لم تجبني إلى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى وهارون استحللتُ منك بمعصيتك ما يستحَلّ من العاصي، وإن أجبتَني عوّضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً. فأجابه، فبايعَ لهما وأمر له بعشرة آلاف ألف درهم ـ ويقال عشرين ألف ألف ـ وقطائع كثيرة.

وأما غير عمر فإنه قال: كتب المهديّ إلى عيسى بن موسى لما همّ بخلعه يأمره بالقدوم عليه، فأحسّ بما يُراد به، فامتنع من القدوم عليه، حتى خيف انتقاضه، فأنفذ إليه المهديّ عمّه العباس بن محمد، وكتب إليه كتاباً، وأوصاه بما أحبّ أن يبلغه، فقدم العباس على عيسى بكتاب المهديّ ورسالته إليه، فانصرف إلى المهديّ بجوابه في ذلك، فوجّه إليه بعد قدوم العباس عليه محمد بن فرّوخ أبا هريرة القائد في ألف رجل من أصحابه من ذوي البصيرة في التشيّع، وجعل مع كل رجل منهم طبلاً، وأمرهم أن يضربوا جميعاً بطبولهم عند قدومهم الكوفة، فدخلها ليلاً في وجه الصبح، فضرب أصحابه بطبولهم، فراع ذلك عيسى بن موسى رَوْعاً شديداً، ثم دخل عليه أبو هريرة، فأمر بالشخوص، فاعتلّ بالشكوى فلم يقبل ذلك منه، وأشخصه من ساعته إلى مدينة السلام.

* * *

ثم دخلت سنة ستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ذكر الخبر خلع عيسى بن موسى وبيعة موسى الهادي

وفيها قدم عيسى بن موسى مع أبي هريرة يوم الخميس لستٍّ خلوْن من المحرّم ـ فيما ذكر ـ الفضل بن سليمان فنزل داراً كانت لمحمد بن سليمان على شاطئ دِجْلة في عسكر المهديّ ، فأقام أياماً يختلف إلى المهديّ ، ويدخل مدخلَه الذي كان يدخله؛ لا يكلَّم بشيء ، ولا يرى جفوة ولا مكروهاً ولا تقصيراً به؛ حتى أنس به بعض الأنس ، ثم حضر الدار يوماً قبل جلوس المهديّ ، فدخل مجلساً كان يكون للربيع في مَقْصورة صغيرة ، وعليها باب ، وقد اجتمع رؤساء الشِّيعة في ذلك اليوم على خلعه والوثوب عليه؛ ففعلوا ذلك وهو في المقصورة التي فيها مجلس الربيع ، فأغلق دونهم المقصورة ، فضربوا الباب بجرُزهم وعَمدهم؛ فهشَموا الباب ، وكادوا يكسرونه ، وشتموه أقبحَ الشَّتْم ، وحصروه هنالك؛ وأظهر المهديّ إنكاراً لما فعلوا ، فلم يردعهم ذلك عن فعلهم؛ بل شدُّوا في أمره؛ وكانوا بذلك هو وهم أياماً ، إلى أن كاشفه ذوو الأسنان من أهل بيته بحضرة المهديّ ، فأبوا إلاّ خلعَه ، وشتموه في وجهه؛ وكان أشدّهم عليه محمد بن سليمان.

فلما رأى المهديّ ذلك من رأيهم وكراهتهم لعيسى وولايته؛ دعاهم إلى العهد لموسى ، فصار إلى رأيهم وموافقتهم ، وألحّ على عيسى في إجابته وإياهم إلى الخروج ممّا له من العهد في أعناق الناس وتحليلهم منه؛ فأبى؛ وذكر أن عليه أيماناً محرّجة في ماله وأهله؛ فأحضر له من الفقهاء والقضاة عِدّة ، منهم محمد بن عبد الله بن عُلاثة والزّنجيّ بن خالد المكيّ وغيرهما؛ فأتوهْ بما رأوا ، وصار إلى المهديّ ابتياع ماله من البيعة في أعناق الناس بما يكون له فيه رضاً وعِوض؛ ممَّا يخرج له من ماله لما يلزمه من الحِنْث في يمينه؛ وهو عشرة آلاف ألف ألف درهم ، وضياع بالزّاب الأعلى وكَسْكَر. فقبل ذلك عيسى ، وبقي منذ فاوضه المهديّ على الخلع إلى أن أجاب محتسباً عنده في دار الديوان من الرُّصافة إلى أن صار إلى الرضا بالخلع والتسليم، وإلى أن خُلع يوم الأربعاء لأربع بقِين من

المحرّم بعد صلاة العصر، فبايع للمهديّ ولموسى من بعده من الغد يوم الخميس لثلاث بقين من المحرّم لارتفاع النهار. ثم أذن المهديّ لأهل بيته، وهو في قبة كان محمد بن سليمان أهداها له مضروبة في صحن الأبواب، ثم أخذ بيعتَهم رجلا رجلا لنفسه ولموسى بن المهديّ من بعده؛ حتى أتى إلى آخرهم. ثم خرج إلى مسجد الجماعة بالرُّصافة فقعد على المنبر، وصعد موسى حتى كأنه دونه. وقام عيسى على أول عتبة من المنبر، فحمد الله المهديُّ وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ ﷺ، وأخبر بما أجمع عليه أهلُ بيته وشيعته وقوّاده وأنصاره وغيرهم من أهل خُراسان من خلع عيسى بن موسى وتصيير الأمر الذي كان عقد له في أعناق الناس لموسى بن أمير المؤمنين؛ لاختيارهم له ورضاهم به؛ وما رأى من إجابتهم إلى ذلك؛ لما رجا من مصلحتهم وألفتِهم، وخاف مخالفتهم في نيّاتهم واختلاف كلمتهم، وأن عيسى قد خلع تقدُّمَه، وحللهم مما كان له من البيعة في أعناقهم، وأنّ ما كان له من ذلك فقد صار لموسى بن أمير المؤمنين، بعقد من أمير المؤمنين وأهل بيته وشيعته في ذلك؛ وأن موسى عاملٌ فيهم بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ بأحسن السِّيرة وأعدلها، فبايِعوا معشر مَن حضر، وسارعوا إلى ما سارع إليه غيرُكم؛ فإن الخير كله في الجماعة، والشرّ كله في الفرقة. وأنا أسأل الله لنا ولكم التوفيق برحمته، والعمل بطاعته وما يرضيه، وأستغفر الله لي ولكم.

وجلس موسى دونه معتزلاً للمنبر؛ لئلا يحول بينه وبين من صعد إليه، يبايعه ويمسح على يده، ولا يستر وجهه، وثبت عيسى قائماً في مكانه، وقُرِئ عليه كتاب ذكر الخلع له، وخروجهُ مما كان إليه من ولاية العهد وتحليله جماعة مَن كان له في عنقه بيعة، مما عقدوا له في أعناقهم؛ وأن ذلك من فعله وهو طائعٌ غير مكرَه، راضٍ غير ساخط، محبّ غير مجبَرٍ. فأقرّ عيسى بذلك، ثم صعد فبايع المهديّ، ومسح على يده ثم انصرف، وبايع أهل بيت المهديّ على أسنانهم؛ يبايعون المهديّ ثم موسى، ويمسحون على أيديهما؛ حتى فرغ آخرهم، وفعل مَنْ حضر من أصحابه ووجوه القوّاد والشِّيعة مثل ذلك، ثم نزل المهديّ، فصار إلى منزله، ووكّل ببيعته مَن بقي من الخاصّة والعامّة خاله يزيد بن منصور، فتولّى ذلك حتى فرغ من جميع الناس، ووفّى المهديّ لعيسى بما أعطاه وأرضاه مما خلعه منه من ولاية العهد، وكتب عليه بخلعه إياه كتاباً أشهد عليه فيه جماعة

أهل بيته وصحابته وجميع شيعته وكتّابه وجنده في الدّواوين؛ ليكون حجّة على عيسى ، وقطعاً لقوله ودعواه فيما خرج منه .

وهذه نسخة الشرط الذي كتبه عيسى على نفسه :

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله المهديّ محمد أمير المؤمنين ولوليّ عهد المسلمين موسى بن المهديّ ، ولأهل بيته وجميع قوّاده وجنوده من أهل خُراسان وعامّة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ وحيث كان كائن منهم ، كتبتُه للمهديّ محمد أمير المؤمنين ، ووليّ عهد المسلمين موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ؛ فيما جُعل إليه من العهد إذ كان إليّ ، حتى اجتمعت كلمة المسلمين ، واتَّسق أمرهم ، وائتلفت أهواؤهم ، على الرضا بولاية موسى بن المهديّ محمد أمير المؤمنين ، وعرفتُ الخطّ في ذلك عليّ والخط فيه لي ، ودخلتُ فيما دخل فيه المسلمون من الرضا بموسى بن أمير المؤمنين ، والبيعة له ، والخروج ممّا كان لي في رقابهم من البيعة ، وجعلتكم في حِلٍّ من ذلك وسَعة ، من غير حرج يدخل عليكم ، أو على أحد من جماعتكم وعامة المسلمين ، وليس في شيء من ذلك ، قديمٍ ولا حديث لي دعوى ولا طِلبة ولا حجّة ولا مقالة ولا طاعة على أحد منكم ، ولا على عامة المسلمين ولا بيعة في حياة المهديّ محمد أمير المؤمنين ولا بعده ولا بعد وليّ عهد المسلمين موسى ، ولا ما كنت حيّاً حتى أموت. وقد بايعت لمحمد المهديّ أمير المؤمنين ولموسى بن أمير المؤمنين من بعده ، وجعلت لهما ولعامة المسلمين من أهل خُراسان وغيرهم الوفاء بما شرطْت على نفسي في هذا الأمر الذي خرجت منه ، والتمام عليه. عليّ بذلك عهد الله وما اعتقد أحد من خلقه من عهد أو ميثاق أو تغليظ أو تأكيد على السّمع والطاعة والنصيحة للمهديّ محمد أمير المؤمنين ووليّ عهده موسى بن أمير المؤمنين ، في السرّ والعلانية ، والقول والفعل ، والنيّة والشدّة والرّخاء والسرّاء والضرّاء والموالاة لهما ولمن والاهما ، والمعاداة لمن عاداهما ، كائناً مَنْ كان في هذا الأمر الذي خرجت منه. فإن أنا نكلت أو غيّرت أو بدّلت أو دَغَلت أو نويْت غير ما أعطيت عليه هذه الإيمان ، أو دعوت إلى خلاف شيء مما حملت على نفسي في هذا الكتاب للمهديّ محمد أمير المؤمنين ولوليّ عهده موسى بن أمير المؤمنين ولعامّة المسلمين ، أو لم أفِ

بذلك؛ فكلّ زوجة عندي يوم كتبت هذا الكتاب ـ أو أتزوّجها إلى ثلاثين سنة ـ طالق ثلاثاً ألبتة طلاق الحرج وكلُّ مملوك عندي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرارٌ لوجه الله ، وكلّ مالٍ لي نَقْد أو عَرْض أو قرْض أو أرْض ، أو قليل أو كثير ، تالد أو طارف أو أستفيده فيما بعد اليوم إلى ثلاثين سنة صدقة على المساكين ، يضع ذلك الوالي حيث يرى ، وعليَّ من مدينة السلام المشيُ حافياً إلى بيت الله العتيق الذي بمكة نذراً واجباً ثلاثين سنة ، لا كفارة لي ولا مخرج منه؛ إلا الوفاء به. والله على الوفاء بذلك راعٍ كفيل شهيد ، وكفى بالله شهيداً. وشهيدٌ على عيسى بن موسى بإقراره بما في هذا الشرط أربعمائة وثلاثون من بني هاشم ومن الموالي والصحابة من قريش والوزراء والكتاب والقضاة.

وكتب في صفر سنة ستين ومائة. وختم عيسى بن موسى.

فقال بعض الشعراء:

كَرِهَ الموت أَبو موسى وقد ... كان في الموت نجاءٌ وكَرمْ
خَلَعَ الملكَ وأَضحى مُلبَساً ... ثوبَ لومٍ ما تُرى منه القَدم

* * *

وفي سنة ستين ومائة وافَى عبد الملك بن شهاب المسمعيّ مدينة باربد بمن توجّه معه من المطّوّعة وغيرهم ، فناهضوها بعد قدومهم بيوم ، وأقاموا عليها يومين ، فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة ، وتحاشد الناس ، وحضّ بعضُهم بعضاً بالقرآن والتذكير ، ففتحها الله عليهم عَنْوة ، ودخلت خيلهم من كلّ ناحية؛ حتى ألجؤوهم إلى بدّهم ، فأشعلوا فيها النِّيران والنِّفط ، فاحترق منهم مَن احترق ، وجاهد بعضهم المسلمين ، فقتلهم الله أجمعين ، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً ، وأفاءها الله عليهم. وهاج البحر فلم يقدروا على ركوبه والانصراف ، فأقاموا إلى أن يطيب ، فأصابهم في أفواههم داءٌ يقال له حُمام قُرّ ، فمات نحو من ألف رجل ، منهم الربيع بن صُبيح. ثم انصرفوا لمّا أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلاً من فارس ، يقال له بحر حمران ، فعصفت عليهم فيه الريح ليلاً ، فكسرت عامَّة مراكبهم ، فغرق منهم بعض ونجا بعض ، وقدموا معهم بسبيٍ من سبْيِهم ـ فيهم بنت ملك باربد ـ على محمد بن سليمان ، وهو يومئذ والي البصرة.

وفيها صُيّر أبان بن صدقة كاتباً لهارون بن النهديّ ووزيراً له.

وفيها عُزل أبو عون عن خُراسان عن سَخْطةٍ، ووليَ مكانه معاذ بن مسلم.

وفيها غزا ثُمامة بن الوليد العبسيّ الصائفة.

وفيها غزا الغمر بن العباس الخثعمي بحر الشام.

* * *

ذكر خبر ردّ نسب آل بكرة وآل زياد(١)

وفيها ردّ المهدي آل بكرة من نسبهم في ثَقيف إلى ولاء رسول الله ﷺ؛ وكان سبب ذلك أن رجلاً من آل أبي بَكْرة رفع ظُلامة إلى المهديّ، وتقرّب إليه فيها بولاء رسول الله ﷺ، فقال المهديّ: إن هذا نسب واعتزاء، ما تقرّون به إلاّ عند حاجة تعرض لكم، وعند اضطراركم إلى التقرّب به إلينا. فقال الحكَم: يا أمير المؤمنين، مَنْ جحد ذلك فإنا سنقرّ؛ أنا أسألك أن تردّني ومعشر آل أبي بكرة إلى نسبنا من ولاء رسول الله ﷺ، وتأمر بآل زياد بن عبيد فيخرجوا من نَسبهم الذي ألحقهم به معاوية رغبةً عن قضاء رسول الله ﷺ: «إن الولد للفراش وللعاهر الحجَر»، فيُردُّوا إلى نسبهم من عبيد في موالي ثقيف. فأمر المهديّ في آل أبي بكرة وآل زياد أن يردّ كلّ فريق منهم إلى نسبه، وكتب إلى محمد بن سليمان كتاباً، وأمره أن يُقرأ في مسجد الجماعة على الناس، وأن يردّ آل أبي بكرة إلى ولائهم من رسول الله ﷺ ونسبهم إلى نُفَيع بن مسروح، وأن يردّ على من أقرّ منهم ما أمر بردّه عليهم من أموالهم بالبصرة مع نظرائهم، ممن أمر بردّ ماله عليه، وألاّ يرد على من أنكر منهم، وأن يجعل الممتحن منهم والمستبرئ لما عندهم الحَكم بن سمرقند. فأنفذ محمد ما أتاه في آل أبي بكْرة إلاّ في أناس منهم غيَبٍ عنهم.

وأما آل زياد فإنّه مما قوّى رأي المهديّ فيهم ـ فيما ذكر عليّ بن سليمان ـ أن

(١) ذكر الطبري هذا الخبر المطول دون إسناد، وموضوع خطير كهذا يحتاج إلى إسناد موصول صحيح فكيف ولا إسناد له؟!!.

أباه حدّثه ، قال: حضرت المهديّ وهو ينظر في المظالم إذ قدم عليه رجل من آل زياد يقال له الصغديّ بن سلم بن حرب ، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: ابن عمّك ، قال: أيّ ابن عمي أنت؟ فانتسب إلى زياد ، فقال له المهديّ: يابن سميَّة الزانية ، متى كنتَ ابن عمي! وغضب وأمر به فوجِئ في عنقه ، وأخرِج ، ونهض الناس.

قال: فلمّا خرجت لحقني عيسى بن موسى - أو موسى بن عيسى - فقال: أردْتُ والله أن أبعثَ إليك ، أن أمير المؤمنين التفت إلينا بعد خروجك ، فقال: من عنده علم من آل زياد؟ فو الله ما كان عند أحد منا من ذاك شيء ، فما عندك يا أبا عبد الله؟ فما زلت أحدثه في زياد وآل زياد حتى صرنا إلى منزله بباب المحوّل ، فقال: أسألك بالله والرَّحم لما كتبتَ لي هذا كله حتى أروح به إلى أمير المؤمنين ، وأخبره عنك. فانصرفتُ فكتبت ، وبعثت به إليه. فراح إلى المهديّ ، فأخبره ، فأمر المهديّ بالكتاب إلى هارون الرشيد؛ وكان والي البصرة من قبله يأمره أن يكتب إلى واليها يأمره أن يخرج آل زياد من قريش وديوانهم والعرب ، وأن يعرض ولد أبي بَكْرة على ولاء رسول الله ﷺ ، فمن أقرّ منهم ترك ماله في يده ، ومن انتمى إلى ثَقِيف اصطفى ماله. فعرضهم ، فأقرُّوا جميعاً بالولاء ، إلا ثلاثة نفر ، فاصطُفيت أموالهم.

ثم إن آل زياد بعد ذاك رشَوْا صاحب الديوان حتى ردّهم إلى ما كانوا عليه ، فقال خالد النجار في ذلك:

إن زياداً ونافعاً وأَبا ... بَكْرةَ عندي من أَعجَبِ الْعَجَبِ
ذَا قُرَشِيٌّ كما يقولُ ، وذا ... مولىً ، وهذا - بزعمِه - عَرَبي

* * *

نسخة كتاب المهديّ إلى والي البصرة في رد آل زياد إلى نسبهم

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد؛ فإنّ أحقّ ما حَمَل عليه ولاة المسلمين أنفسهم وخواصّهم وعوامّهم في أمورهم وأحكامهم ، العمل بينهم بما في كتاب الله والاتباع لسنة رسول الله ﷺ ، والصّبر على ذلك ، والمواظبة عليه ، والرضا به فيما وافقهم وخالفهم ، للذي فيه من إقامة حدود الله ومعرفة حقوقه ، واتّباع مرضاتِه ، وإحراز جَزائه وحسن ثوابه ، ولِما في مخالفة ذلك والصدود عنه وغلبة

الهَوى لغيره من الضلال والخسار في الدنيا والآخرة.

وقد كان من رأي معاوية بن أبي سفيان في استلحاقه زياد بن عبيد عبد آل علاج من ثقيف، وادّعائه ما أباه بعد معاوية عامّة المسلمين وكثير منهم في زمانه، لعلمهم بزياد وأبي زياد وأمه من أهل الرضا والفضل والوَرَع والعلم، ولم يَدْعُ معاوية إلى ذلك ورع ولا هدى، ولا اتّباع سنة هادية، ولا قُدوة من أئمة الحقّ ماضية، إلا الرغبة في هلاك دينه وآخرته، والتصميم على مخالفة الكتاب والسنة. والعُجْب بزياد في جَلَده ونفاذه، وما رجا من معونته وموازرته إياه على باطل ما كان يركن إليه في سيرته وآثاره وأعماله الخبيثة. وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحَجْر»، وقال: «مَن ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه لا صرفاً ولا عدلاً».

ولعمري ما وُلد زياد في حجْر أبي سفيان ولا على فراشه، ولا كان عُبيد عبداً لأبي سفيان، ولا سميّة أمةً له، ولا كانا في مُلكه، ولا صارا إليه لسبب من الأسباب. ولقد قال معاوية فيما يعلمه أهل الحفظ للأحاديث عند كلام نَصْر بن الحجاج بن عُلاط السُّلمي ومَنْ كان معه من موالي بني المغيرة المخزوميّين وإرادتهم استلحاقه وإثبات دعوته، وقد أعدّ لهم معاوية حجَراً تحت بعض فرشه فألقاه إليهم، فقالوا له: نسوّغ لك ما فعلت في زياد، ولا تسوّغ لنا ما فعلنا في صاحبنا، فقال: قضاء رسول الله ﷺ خير لكم من قضاء معاوية. فخالف معاوية بقضائه في زياد واستلحاقه إياه وما صَنَع فيه وأقدم عليه، أمرَ الله جل وعزّ وقضاء رسول الله ﷺ واتّبع في ذلك هواه رغبة عن الحقّ ومجانبة له، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]، وقال لداود عليه الصلاة والسلام وقد أتاه الحكم والنّبوة والمال والخلافة: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[2] الآية إلى آخرها.

فأمير المؤمنين يسأل الله أن يعصم له نفسه ودينَه، وأن يعيذه من غلبة

(١) القصص: الآية ٥٠.
(٢) ص: الآية ٢٦.

الهوى ، ويوفّقه في جميع الأمور لما يحب ويرضى؛ إنه سميع قريب.

وقد رأى أمير المؤمنين أن يردّ زياداً ومَنْ كان من ولده إلى أمّهم ونسبهم المعروف ويلحِقهم بأبيهم عبيد؛ وأمهم سميّة ، ويتّبع في ذلك قول رسول الله ﷺ ، وما أجمع عليه الصالحون وأئمة الهدى ، ولا يجيز لمعاوية ما أقدم عليه مما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكان أمير المؤمنين أحَقَّ مَنْ أخذ بذلك وعمل به؛ لقرابته من رسول الله ﷺ واتّباعه آثاره وإحيائه سنَّته ، وإبطاله سنن غيره الزائغة الجائرة عن الحق والهدى ، وقد قال الله جلّ وعزّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾(١).

فاعلم أن ذلك من رأي أمير المؤمنين في زياد ، وما كان من ولد زياد فألحقْهم بأبيهم زياد بن عبيد ، وأمهم سميّة ، واحملهم عليه ، وأظهره لمن قِبلَك من المسلمين حتى يعرفوه ويستقيم فيهم؛ فإن أمير المؤمنين قد كتب إلى قاضي البصرة وصاحب ديوانهم بذلك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب معاوية بن عبيد الله في سنة تسع وخمسين ومائة.

فلما وصل الكتاب إلى محمد بن سليمان وقّع بإنقاذه ، ثم كُلِّم فيهم ، فكفّ عنهم؛ وقد كان كتب إلى عبد الملك بن أيوب بن ظَبْيان النميريّ بمثل ما كتب به إلى محمد ، فلم ينفذه لموضعه من قيس ، وكراهته أن يخرج أحد من قومه إلى غيرهم.

* * *

وشخص مع المهديّ في هذه السنة ابنه هارون وجماعة من أهل بيته؛ وكان ممّن شخص معه يعقوب بن داود ، على منزلته التي كانت له عنده ، فأتاه حين وافى مكة الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن الذي استأمن له يعقوب من المهديّ على أمانه ، فأحسن المهديّ صلته وجائزته ، وأقطعه مالاً من الصّوافِي بالحجاز(٢).

---

(١) يونس: الآية ٣٢.

(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ٧٩).

وفيها نزع المهديّ كسوة الكعبة التي كانت عليها ، وكساها كسوة جديدة؛ وذلك أن حَجَبة الكعبة ـ فيما ذكر ـ رفعوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة ، فأمر أن يُكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجرّدة ، ثم طُلِي البيت كله بالخَلُوق ، وذُكر أنهم لما بلغوا إلى كسوة هشام وجدوها ديباجاً ثخيناً جيداً ، ووجدوا كسوة مَنْ قبله عامّتها من متاع اليمن[١] .

وقسم المهديّ في هذه السنة بمكة في أهلها ـ فيما ذكر ـ مالاً عظيماً ، وفي أهل المدينة كذلك؛ فذكر أنه نُظر فيما قسم في تلك السفرة فوُجد ثلاثين ألف ألف درهم ، حُملت معه ، ووصلت إليه من مصر ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليمن مائتا ألف دينار ، فقسّم ذلك كلّه. وفرّق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب ، ووسّع في مسجد رسول الله ﷺ ، وأمر بنزع المقصورة التي في مسجد رسول الله ﷺ فنزعت ، وأراد أن ينقص منبر رسول الله ﷺ فيعيده إلى ما كان عليه ، ويلقي منه ما كان معاوية زاد فيه؛ فذكر عن مالك بن أنس أنه شاور في ذلك ، فقيل له: إن المسامير قد سلكت في الخشب الذي أحدثه معاوية ، وفي الخشب الأول وهو عتيق ، فلا نأمن إن خرجت المسامير التي فيه وزعزعت أن يتكسّر ، فتركه المهديّ.

وأمر أيام مقامه بالمدينة بإثبات خمسمائة رجل من الأنصار ليكونوا معه حرساً له بالعراق وأنصاراً ، وأجرى عليهم أرزاقاً سوى أعطياتِهم ، وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم.

وتزوج في مقامه بها برقيَّة بنت عمرو العثمانية[٢] .

وفي هذه السنة حمل محمد بن سليمان الثلج للمهديّ ، حتى وافى به مكة ، فكان المهديّ أوّل من حُمل له الثلج إلى مكة من الخلفاء[٣] .

وفيها ردّ المهديّ على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التي كانت مقبوضة عنهم.

* * *

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ٧٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٧٩).

(٣) انظر البداية والنهاية (٨/ ٧٩).

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها ظفر نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعيّ بعبد الله بن مروان بالشام؛ فقدم به على المهدي قبل أن يولِّيَه السِّند، فحبسه المهديّ في المطْبَق؛ فذكر أبو الخطاب أن المهديّ أُتِي بعبد الله بن مروان بن محمد ـ وكان يكنى أبا الحكم ـ فجلس المهديّ مجلساً عامّاً في الرّصافة، فقال: مَنْ يعرف هذا؟ فقام عبد العزيز بن مسلم العُقَيليّ، فصار معه قائماً، ثم قال له: أبو الحكم؟ قال: نعم ابنُ أمير المؤمنين، قال: كيف كنت بعدي؟ ثم التفت إلى المهديّ، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، هذا عبد الله بن مروان. فعجب الناس من جُرأته، ولم يعرض له المهديّ بشيء.

قال: ولما حبس المهديّ عبد الله بن مروان احتِيل عليه، فجاء عمرو بن سهلة الأشعريّ فادّعى أن عبد الله بن مروان قتل أباه، فقدّمه إلى عافية القاضي، فتوجّه عليه الحُكْم أن يقادَ به، وأقام عليه البيّنة؛ فلما كاد الحُكْم يبرَم جاء عبد العزيز بن مسلم العقيليّ إلى عافية القاضي يتخطّى رقاب الناس؛ حتى صار إليه، فقال: يزعم عمرو بن سهلة أن عبد الله بن مروان قتل أباه؛ كذب والله ما قتل أباه غيري؛ أنا قتلتُه بأمرِ مروان، وعبدُ الله بن مروان من دمه بريء. فزالت عن عبد الله بن مروان، ولم يعرض المهديّ لعبد العزيز بن مسلم لأنه قتله بأمر مروان.

وفيها أمر المهديّ يعقوب بن داود بتوجيه الأمناء في جميع الآفاق، فعمل به، فكان لا ينفذ للمهديّ كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك[١].

وفيها اتّضعت منزلة أبي عبيد الله وزير المهديّ، وضمّ يعقوب إليه من متفقهة البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام عدداً كثيراً، وجعل رئيس البصريين والقائم بأمرهم إسماعيل بن عُلَيَّة الأسديّ ومحمد بن ميمون العنبريّ، وجعل رئيس أهل

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٨٠).

الكوفة وأهل الشام عبد الأعلى بن موسى الحلبيّ[١].

ذكر السبب الذي من أجله تغيرت منزلة أبي عبيد الله عند المهديّ[٢]

قد ذكرنا سببَ اتّصاله به الذي كان قبلُ في أيام المنصور وضمّ المنصور إياه إلى المهديّ حين وجّهه إلى الرّيّ عند خلْع عبد الجبار بن عبد الرحمن المنصور، فذكر أبو زيد عمر بن شبّة، أنّ سعيد بن إبراهيم حدّثه أن جعفر بن يحيى حدّثه أن الفضل بن الرّبيع أخبره، أنّ الموالي كانوا يشنّعون على أبي عبيد الله عند المهديّ، ويسعَوْن عليه عنده؛ فكانت كتب أبي عبيد الله تنفذ عند المنصور بما يريد من الأمور، وتتخلَّى الموالي بالمهديّ، فيبلّغونه عن أبي عبيد الله، ويحرِّضونه عليه.

قال الفضل: وكانت كتب أبي عبيد الله تصِل إلى أبي تَتْرَى، يشكو الموالي وما يلقى منهم، ولا يزال يذكره عند المنصور ويخبره بقيامه، ويستخرج الكتب عنه إلى المهديّ بالوَصاة به، وترك القبول فيه. قال: فلمّا رأى أبو عبيد الله غلَبة الموالي على المهديّ، وخَلْوَتهم به نظر إلى أربعة رجال من قبائل شتّى من أهل الأدب والعلم، فضمّهم إلى المهديّ، فكانوا في صحابته، فلم يكونوا يَدعون الموالي يتخلّوْن به.

ثم إنّ أبا عبيد الله كلّم المهديّ في بعض أمره إذ اعترض رجل من هؤلاء الأربعة في الأمر الذي تكلّم فيه، فسكت عنه أبو عبيد الله، فلم يرادّه، وخرج فأمر أن يحجب عن المهديّ فحجبه عنه؛ وبلغ ذلك من خبره أبي.

* * *

قال: وحجّ أبي مع المنصور في السنة التي مات فيها، وقام أبي من أمر المهديّ بما قام به من أمر البيعة وتجديدها على بيت المنصور والقوّاد والموالي؛ فلما قدم تلقَّيته بعد المغرب، فلم أزل معه حتى تجاوز منزله، وترك دار المهديّ، ومضى إلى أبي عبيد الله، فقال: يا بنيّ؛ هو صاحب الرجل؛ وليس ينبغي أن نعامله على ما كنّا نعامله عليه؛ ولا أن نحاسبه بما كان منا في أمره من

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ٨٠).
(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ٨٠).

نصرتنا له. قال: فمضينا حتى أتينا باب أبي عبيد الله؛ فما زال واقفاً حتى صلّيتُ العَتَمة ، فخرج الحاجب ، فقال: ادخل ، فثنى رجلَه وثنيتُ رجلي. قال: إنما استأذنتُ لك يا أبا الفضل وحدَك. قال: اذهب فأخبِره أنّ الفضل معي. قال: ثم أقبل عليّ ، فقال: وهذا أيضاً من ذلك! قال: فخرج الحاجب ، فأذن لنا جميعاً ، فدخلنا أنا وأبي ، وأبو عبيد الله في صدر المجلس ، على مصلّىً متكئٌ على وسادة ، فقلت: يقوم إلى أبي إذا دخل إليه ، فلم يقم إليه ، فقلت: يستوي جالساً إذا دنا ، فلم يفعل ، فقلت: يدعو له بمصلى ، فلم يفعل ، فقعد أبي بين يديه على البساط وهو متكئ ، فجعل سائله عن مسيره وسفره وحاله، وجعل أبي يتوقع أن يسأله عمّا كان منه في أمرِ المهديّ وتجديد بيعته ، فأعرض عن ذلك ، فذهب أبي يبتدئه بذكره ، فقال: قد بلَغنا نبؤكم ، قال: فذهب أبي لينهض ، فقال: لا أرى الدُّروب إلاّ وقد غُلّقت ، فلو أقمت! قال: فقال أبي: إن الدروب لا تغلَق دوني ، قال: بلى قد أغلقت. قال: فظنّ أبي أنه يريد أن يحتَبسه ليسكن من مسيره ، ويريد أن يسأله؛ قال: فأقيمُ. قال: يا فلان ، اذهب فهيّئ لأبي الفضل في منزل محمد بن أبي عبيد الله مبيتاً. فلما رأى أنه يريد أن يخرج من الدّار ، قال: فليس تُغْلَق الدروب دوني فأعتزم. ثم قام ، فلما خرجنا من الدار أقبل عليّ فقال: يا بني ، أنت أحمق ، قلت: وما حمقي أنا! قال: تقول لي: كان ينبغي لك ألاّ تجيء ، وكان ينبغي إذا جئت فحجبَنا ألاّ تقيم حتى صلّيتَ العَتَمة ، وأن تنصرف ولا تدخل؛ وكان ينبغي إذا دخلتَ فلم يقم إليك أن ترجعَ ولا تقيم عليه؛ ولم يكن الصوابُ إلاّ ما عملتُ كلّه؛ ولكن والله الذي لا إله إلا هو ـ واستغلق في اليمين ـ لأخلعنّ جاهي ، ولأنفقنّ مالي حتى أبلغ من أبي عبيد الله.

قال: ثم جعل يضطرب بجَهده ، فلا يجد مساغاً إلى مكروهه ، ويحتال الجدّ إذ ذكر القُشيريّ الذي كان أبو عبيد الله حجبَه ، فأرسل إليه فجاءه ، فقال: إنّك قد علمت ما ركبك به أبو عبيد الله ، وقد بلغ مني كلّ غاية من المكروه؛ وقد أرغْتُ أمره بجهدي؛ فما وجدت عليه طريقاً ، فعندك حيلة في أمره ، فقال: إنما يؤتَى أبو عبيد الله من أحدِ وجوهٍ أذكرها لك. . . يقال: هو رجل جاهل بصناعته وأبو عبيد الله أحذق الناس ، أو يقال: هو ظَنِينٌ في الدّين بتقليده ، وأبو عبيد الله أعفّ الناس؛ لو كان بنات المهديّ في حِجره لكان لهنّ موضع ، أو يقال: هو

يميل إلى أن يخالف السلطان فليس يؤتى أبو عبيد الله من ذلك؛ إلاّ أنه يميل إلى القَدَر بعضَ الميْل؛ وليس يتسلّق عليه بذاك أن يقال: هو متّهم؛ ولكن هذا كلّه مجتمع لك في ابنه؛ قال: فتناوله الرّبيع، فقبَّل بين عينيه، ثم دبّ لابن أبي عبيد الله؛ فو الله ما زال يحتال ويدسّ إلى المهديّ ويتهمه ببعض حُرم المهديّ، حتى استحكم عند المهديّ الظنَّة بمحمد بن أبي عبيد الله، فأمر فأحضر، وأخرِج أبو عبيد الله. فقال: يا محمد اقرأ، فذهب ليقرأ، فاستعجم عليه القرآن، فقال: يا معاوية ألم تعلمني أنّ ابنك جامع للقرآن؟ قال: أخبرتك يا أميرَ المؤمنين، ولكن فارقني منذ سنين؛ وفي هذه المدّة التي نأى فيها عني نسيَ القرآن، قال: قم فتقرّب إلى الله في دمه، فذهب ليقوم فوقع، فقال العبّاس بن محمد: إن رأيت يا أميرَ المؤمنين أن تعفي الشيخ! قال: ففعل، وأمر به فأخرِج، فضربت عنقه.

قال: فاتهمه المهديّ في نفسه، فقال له الربيع: قتلت ابنَه، وليس ينبغي أن يكون معك، ولا أن تثق به. فأوحشَ المهديّ؛ وكان الذي كان من أمره وبلغ الربيع ما أرادَ، واشتفى وزاد.

وذكر محمد بن عبد الله يعقوبَ بن داود، قال: أخبرَني أبي، قال: ضرب المهديّ رجلاً من الأشعريّين، فأوجعه، فتعصّب أبو عبيد الله ـ وكان مولىً لهم ـ فقال: القتل أحسنُ من هذا يا أمير المؤمنين، فقال له المهديّ: يا يهوديّ، اخرج من عسكري لعنك الله. قال: ما أدري إلى أين أخرج إلاّ إلى النار! قال: قلت: يا أميرَ المؤمنين، أحْرِ بهذا أن لمثلها يتوقع، قال: فقال لي: سبحان الله يا أبا عبيد اللهّ!.

* * *

وفيها غزا الغمر بن العبّاس في البحر.

وفيها ولّى نَصر بن محمد بن الأشعث السّند مكان رَوْح بن حاتم، وشخص إليها حتى قدمها ثم عُزل، ووُلّيَ مَكانه محمد بن سليمان، فوجّه إليها عبد الملك بن شهاب المِسمعيّ فقدمها على نصر، فبغَته، ثم أذن له في الشخوص، فشخص حتى نزل الساحل على ستّة فراسخ من المنصورة؛ فأتي

نصر بن محمد عهده على السّند ، فرجع إلى عمله؛ وقد كان عبد الملك أقام بها ثمانية عشر يوماً ، فلم يعرِض له ، فرجع إلى البصرة.

وفيها استعملَ عيسى بن لقمان على مصر.

وفيها ولّى يزيد بن منصور سَواد الكوفة وحسان الشَرويّ الموصل وبِسطام بن عمرو التغلبيّ أذرَبيجان.

وفيها عزل أبا أيوب المسمى سليمان المكيّ عن ديوان الخراج ، ووُلِّي مكانه أبو الوزير عمر بن مطرّف.

وفيها تُوفِّيَ نصر بن مالك من فالج أصابه ، ودفن في مقابر بني هاشم وصلّى عليه المهديّ.

وفيها صرف أبان بن صدقة عن هارون بن المهدي إلى موسى بن المهديّ، وجعله له كاتباً ووزيراً، وجعل مكانه مع هارون بن المهديّ يحيى بن خالد بن بَرْمك.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

خبر مقتل عبد السلام الخارجيّ

فمن ذلك ما كان من مقتل عبد السلام الخارجيّ بِقنَّسْرِين.

ذكر الخبر عن مقتله

ذكر أن عبد السلام بن هاشم اليَشكريّ هذا خرج بالجزيرة ، وكثر بها أتباعه ، واشتدّت شوكته ، فلقيه من قوّاد المهديّ عِدّة ، منهم عيسى بن موسى القائد ، فقتله في عدّة ممّن معه ، وهزم جماعة من القوّاد ، فوجّه إليه المهديّ الجنودَ ، فنكب غير واحد من القوّاد ، منهم شبيب بن واج المرْورُّوذيّ ، ثم ندب إلى شبيب ألف فارس ، أعطى كلّ رجل منهم ألف دِرهم معونة ، وألحقهم بشبيب

فوافوْه ، فخرج شبيب في أثر عبد السلام ، فهرب منهم حتى أتى قِنسرين ، فلحقه بها فقتله[١].

* * *

وفيها وضع المهديُّ دواوين الأزمَّة ، وولّى عليها عمر بن بَزِيع مولاه ، فولّى عمر بن بَزِيع النّعمانَ بن عثمان أبا حازم زمام خراج العراق.

وفيها أمر المهديُّ أن يجريَ على المجذَّمين وأهل السجون في جميع الآفاق[٢].

وفيها خرجت الروم إلى الحدث إنما أتى هذه الحمّة الحسنُ ليستنقع فيها للوضَح الذي كان به؛ ثم قفل بالناس سالمين.

وكان على قضاء عسكره وما يجتمع من الفيء حَفْص بن عامر السُّلَمي[٣].

قال: وفيها غزا يزيد بن أَسَيْد السُّلَميّ من باب قالِيقَلا ، فغنم وفتح ثلاثة حصون ، وأصاب سَبْياً كثيراً وأسرى[٤].

* * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة
ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

وفيها قطع المهديّ البعوثَ للصائفة على جَميع الأجناد من أهل خُراسان وغيرهم ، وخرج فعسكر بالبَرَدان ، فأقام به نحواً من شهرين يتعبّأ فيه ويتهيّأ ، ويعطي الجنود ، وأخرج بها صِلات لأهل بيته الذين شخصوا معه ، فتُوفِّيَ عيسى بن علي في آخر جمادى الآخرة ببغداد. وخرج المهديّ من الغد إلى البَرَدان متوجِّهاً إلى الصائفة ، واستخلف ببغداد موسى بن المهديّ ، وكاتبه يومئذ أبان بن صدقة؛ وعلى خاتمه عبد الله بن عُلاثة ، وعلى حرسه عليّ بن عيسى ،

---

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي (٨/ ٢٥٧).
(٢) وقال ابن كثير تعليقاً على هذه الخطوة: وهذه مثوبة عظيمة. ومكرمة جيدة (٨/ ٨١).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٨١).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٨١).

وعلى شُرَطه عبد الله بن خازم؛ فذكر العباس بن محمد أنّ المهديّ لما وجّه الرشيد إلى الصائفة سنة ثلاث وستين ومائة خرج يشيّعه وأنا معه؛ فلما حاذى قصر مسلمة ، قلت: يا أمير المؤمنين ، إن لمسلمَة في أعناقنا مِنَّةً؛ كان محمد بن عليّ مرّ به ، فأعطاه أربعة آلاف دينار ، وقال له: يابن عمّ هذان ألفان لدَينك ، وألفان لمعونتك ، فإذا نفدت فلا تحتشمنا. فقال لما حدثته الحديث: أحضِروا مَنْ هاهنا من ولد مسلَمة ومواليه ، فأمر لهم بعشرين ألف دينار ، وأمر أن تُجْرَى عليهم الأرزاق ، ثم قال: يا أبا الفضل ، كافأنا مسلمة وقضينا حقه؟ قلت: نعم ، وزدتَ يا أمير المؤمنين.

وذكر إبراهيم بن زياد ، عن الهيثم بن عدي ، أن المهديّ أغزى هارون الرشيد بلادَ الرّوم ، وضمّ إليه الربيع الحاجب والحسن بن قحطبة.

قال محمّد بن العباس: إنّي لقاعد في مجلس أبي في دار أمير المؤمنين وهو على الحرَس؛ إذ جاء الحسن بن قحطبة ، فسلّم عليّ ، وقعد على الفراش الذي يقعد أبي عليه ، فسأل عنه فأعلمتُه أنه راكب ، فقال لي ، يا حبيبي أعلمه أني جئت ، وأبلغه السلام عني ، وقل له: إن أحبّ أن يقول لأمير المؤمنين: يقول الحسن بن قحطبة: يا أمير المؤمنين؛ جعلني الله فداك! أغزيتَ هارون ، وضممتني والرّبيع إليه ، وأنا قريع قوّادك ، والربيع قريع مواليك ، وليس تطيب نفسي بأن نُخَلِّيَ جميعاً بابك؛ فإمّا أغزيتني مع هارون وأقام الربيع ، وإما أغزيتَ الربيع وأقمتُ ببابك. قال: فجاء أبي فأبلغته الرسالة ، فدخل على المهديّ فأعلمه ، فقال: أحسن والله الاستعفاء؛ لا كما فعل الحجام بن الحجام - يعني عامر بن إسماعيل - وكان استعفى من الخروج مع إبراهيم فغضب عليه ، واستصفى ماله.

وذكر عبد الله بن أحمد بن الوضّاح ، قال: سمعت جدي أبا بُديل ، قال: أغزى المهديّ الرشيد ، وأغزى معه موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح بن عليّ ومولَيَيْ أبيه: الربيع الحاجب والحسن الحاجب؛ فلمّا فصل دخلت عليه بعد يومين أو ثلاثة ، فقال: ما خلّفك عن وليّ العهد ، وعن أخويْك خاصّة؟ يعني الربيع والحسن الحاجب. قلت: أمر أمير المؤمنين ومقامي بمدينة السلام حتى يأذن لي. قال: فسرْ حتى تلحق به وبهما؛ واذكر ما تحتاج إليه. قال: قلت:

ما أحتاج إلى شيء من العُدّة؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ودَاعه! فقال لي: متى تراك خارجاً؟ قال: قلت: من غدٍ، قال: فودّعته وخرجت، فلحقت القوم. قال: فأقبلتُ أنظر إلى الرّشيد يخرج، فيضرب بالصَّوالجة، وأنظر إلى موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح؛ وهما يتضاحكان منه.

قال: فصرت إلى الربيع والحسن ـ وكنّا لا نفترق ـ قال: فقلت: لا جزاكما الله عمّن وجَّهكما ولا عمّن وُجِّهتُما معه خيراً؛ فقالاَ: إيهٍ، وما الخبر؟ قال: قلت: موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح يتضاحكان من ابن أمير المؤمنين، أوَمَا كنتما تقدران أن تجعلا لهما مجلساً يدخلان عليه فيه ولمن كان معه من القوّاد في الجمعة يدخلون عليه ويخلّوه في سائر أيامه لما يريد! قال: فبينا نحن في ذلك المسير إذ بعثا إليّ في الليل. قال: فجئت وعندهما رجل، فقالا لي: هذا غلام الغمر بن يزيد، وقد أصبنا معه كتاب الدولة. قال: ففتحت الكتابَ، فنظرت فيه إلى سِنِي المهديّ فإذا هي عشر سنين. قال: فقلت: ما في الأرض أعجب منكما! أتريان أنّ خبر هذا الغلام يخفى، وأن هذا الكتاب يستتر! قالا: كلاّ، قلت: فإذا كان أمير المؤمنين قد نقص من سنيه ما نقص، أفلستم أوّلَ مَنْ نعى إليه نفسَه! قال: فتبلّدوا والله، وسُقط في أيديهما، فقالا: فما الحيلةُ؟ قلت: يا غلام عليّ بعنبسة ـ يعني الوراق الأعرابي مولى آل أبي بديل ـ فأتِيَ به، فقلت له: خطَّ مثل هذا الخطّ، وورقة مثل هذه الورقة، وصيّر مكان عشر سنين أربعين سنة، وصيرها في الورقة، قال: فوالله لولا أني رأيتُ العشر في تلك والأربعين في هذه ما شككت أن الخَطّ ذلك الخط، وأن الورقة تلك الورقة.

قال: ووجّه المهديّ خالد بن برمك مع الرّشيد وهو وليّ العهد حين وجّهه لغزو الروم، وتوجّه معه الحسن وسليمان ابنا برمك، ووجّه معه على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره يحيى بن خالد ـ وكان أمر هارون كلّه إليه ـ وصُيِّر الربيع الحاجب مع هارون يغزو عن المهديّ، وكان الذي بين الربيع ويحيى على حسب ذلك؛ وكان يشاورهما ويعمل برأيهما؛ ففتح الله عليهم فتوحاً كثيرة، وأبلاهم في ذلك الوجه بلاءً جميلاً، وكان لخالد في ذلك بسَمَالو أثر جميل لم يكن لأحد؛ وكان منجّمهم يسمى البرمكيّ تبرّكاً به، ونظراً إليه. قال: ولما ندب المهديّ هارون الرشيد لما ندبَه له من الغَزْو، أمر أن يدخل عليه كتّاب

أبناء الدّعوة لينظر إليهم ويختار له منهم رجلاً.

قال يحيى: فأدخلوني عليه معهم، فوقفوا بين يديه، ووقفت آخرهم فقال لي: يا يحيى، ادنُ، فدنوت، ثم قال لي: اجلس، فجلست فجثوتُ بين يديه، فقال لي: إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي، واخترت منهم رجلاً لهارون ابني أضمّه إليه ليقوم بأمر عسكره، ويتولى كتابته، فوقعتْ عليك خِيرتي له، ورأيتك أوْلَى به؛ إذ كنت مربّيَه وخاصّته، وقد ولّيتك كتابتَه وأمْرَ عسكره. قال: فشكرتُ ذلك له، وقبّلت يدَه، وأمر لي بمائة ألف درهم معونةً على سفري، فوُجّهت في ذلك العسكر لما وُجِّهت له.

قال: وأوفد الربيعُ سليمانَ بن برمك إلى المهديّ، وأوفد معه وفداً، فأكرم المهديّ وفادته وفضله، وأحسن إلى الوفد الذين كانوا معه، ثم انصرفوا من وجههم ذلك.

* * *

عزل عبد الصمد بن عليّ عن الجزيرة وتولية زفر بن الحارث

وفي هذه السنة؛ سنة مسير المهديّ مع ابنه هارون، عزل المهديّ عبد الصمد بن عليّ عن الجزيرة، وولّى مكانه زفر بن عاصم الهلاليّ.

ذكر السبب في عزله إياه:

ذُكر أن المهديّ سلك في سَفْرته هذه طريق الموصل، وعلى الجزيرة عبد الصمد بن عليّ، فلما شخص المهديّ من الموصِل، وصار بأرض الجزيرة، لم يتلقّه عبد الصمد ولا هيَأ له نُزُلاً، ولا أصلح له قناطر. فاضطغن ذلك عليه المهديّ، فلما لقيه تجهّمه وأظهر له جفاءً، فبعث إليه عبد الصمد بألطافٍ لم يرضَها، فردَّها عليه، وازْدَاد عليه سخطاً، وأمر بأخذه بإقامة النُّزُل له، فتعبّث في ذلك، وتقنّع، ولم يزل يربي ما يكرهه إلى أن نزل حصن مسلمة، فدعا به، وجرى بينهما كلامٌ أغلظ له فيه القولَ المهديّ، فردّ عليه عبد الصمد ولم يحتمله، فأمر بحبسه وعَزْله عن الجزيرة، ولم يزل في حبسه في

سفره ذلك وبعد أن رجع إلى أن رضي عنه. وأقام له العبّاس بن محمد النُّزُل، حتى انتهى إلى حلَب، فأتته البشرى بها بقتل المقنّع، وبعث وهو بها عبد الجبار المحتسب لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة. ففعل، وأتاه بهم، وهو بدابِق، فقتل جماعة منهم وصلَبهم، وأُتِيَ بكتب من كتبهم فقطِّعت بالسكاكين ثم عرض بها جندَه، وأمر بالرحلة، وأشخص جماعة مَن وافاه من أهل بيته مع ابنه هارون إلى الروم، وشيّع المهديّ ابنَه هارون حتى قطع الدّرْب، وبلغ جيحان، وارتاد بها المدينة التي تسمى المهديّة، وودّع هارون على نهر جيحان. فسار هارون حتى نزل رستاقاً من رساتيق أرض الرُّوم فيه قَلْعة، يقال لها سَمالو، فأقام عليها ثمانياً وثلاثين ليلة، وقد نصب عليها المجانيق، حتى فتحها الله بعد تخريب لها، وعطش وجوع أصاب أهلها، وبعد قتل وجراحات كانت في المسلمين؛ وكان فتحها على شروط شرطوها لأنفسهم: لا يُقتَلوا ولا يُرحّلوا، ولا يُفرَق بينهم؛ فأُعطوا ذلك، فنزلوا، ووفّى لهم، وقفل هارون بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم بها.

* * *

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها بَنَى المهديّ بعيساباذ الكبرى قصراً من لَبِن، إلى أن أسس قصره الذي بالآجر: الذي سماه قصر السلامة؛ وكان تأسيسه إياه يوم الأربعاء في آخر ذي القعدة.

وفيها شخص المهديّ حين أسس هذا القصر إلى الكوفة حاجّاً، فأقام برُصافة الكوفة أيّاماً، ثم خرج متوجّهاً إلى الحجّ، حتى انتهى إلى العَقَبة، فغلاَ عليه وعلى مَنْ معه الماء، وخاف ألاّ يحمله ومَنْ معه ما بين أيديهم، وعرضتْ له مع ذلك حُمّى، فرجع من العقبة، وغضب على يقطين بسبب الماء؛ لأنه كان صاحبَ المصانع، واشتدّ على الناس العَطَش في منصرَفهم وعلى ظهرهم حتى أشفَوْا على الهَلكة.

وفيها تُوفِّيَ نصر بن محمد بن الأشعث بالسند.

وفيها عزل عبد الله بن سليمان عن اليَمن عن سَخْطة ، ووجَّه مَنْ يستقبله ويفتش متاعه ، ويحصي ما معه ، ثم أمر بحبسه عند الرّبيع حين قدم ، حتى أقرّ من المال والجوهر والعنبر بما أقرّ به ، فردّه إليه ، واستعمل مكانه منصور بن يزيد بن منصور.

* * *

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

وسار إلى الدُّمُسْتُق بنقُمودية وهو صاحب المسالح ، وسار هارون في خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ، وحمل لهم من العَيْن مائة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفا وأربعمائة وخمسين ديناراً ، ومن الوَرِق أحداً وعشرين ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم. وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الرُّوم يومئذ أغُسْطه امرأة أليون؛ وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها ، فجرت بينهما وبين هارون بن المهديّ الرّسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفِدْية ، فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له ، وأن تقيم له الأدلّاء والأسواق في طريقه؛ وذلك أنه دخل مدخلا صعباً مخوّفاً على المسلمين ، فأجابته إلى ما سأل ، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار ، تؤديها في نيسان الأول في كلّ سنة ، وفي حزيران ، فقبِل ذلك منها ، فأقامت له الأسواق في منصرَفه ، ووجّهت معه رسولاً إلى المهديّ بما بذلت على أن تؤدّي ما تيسّر من الذهب والفضة والعَرْض ، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين ، وسُلِّمَت الأسارَى. وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً ، وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفاً ، وقتِل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً. ومما أفاء الله عليه من الدوابّ الذُّلل بأدراتها عشرون ألف دابّة ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس. وكانت المرتزقة سوى المطوّعة وأهل الأسواق مائة ألف ، وبيع البرذَوْن بدرهم ، والبغل بأقلّ من عشرة دراهم ، والدّرْع بأقلّ من درهم ، وعشرين سيفاً بدرهم ، فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك:

أطفْتَ بِقُسْطَنْطِينَةِ الروم مُسْنِداً إليها القَنَا حتى اكتسَى الذُّلَّ سورها
وما رِمْتَها حتى أَتَتك مُلوكُها بِجِزْيتها ، والحَرْبُ تغلِي قدورُها[١]

* * *

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

وفيها سخط المهديّ على يعقوب بن داود .

ذكر الخبر عن غضب المهديّ على يعقوب[٢]

ذكر عليّ بن محمد النوفليّ ، قال: سمعت أبي يذكر ، قال: كان داود بن طَهْمان ـ وهو أبو يعقوب بن داود ـ وإخوته كتّاباً لنصر بن سيّار ، وقد كتب داود قبله لبعض ولاة خراسان؛ فلما كانت أيام يحيى بن زيد كان يدسّ إليه وإلى أصحابه بما يسمع من نصر ، ويحذّرهم؛ فلما خرج أبو مسلم يطلب بدم يحيى بن زيد ويقتل قَتَلَتَه والمعيّنين عليه من أصحاب نصر ، أتاه داود بن طَهْمان مطمئنّاً لما كان يعلم ممّا جرى بينه وبينه ، فآمنه أبو مسلم ، ولم يعرِض له في نفسه ، وأخذ أمواله التي استفاد أيام نصر ، وترك منازله وضِيعَةَ التي كانت له ميراثاً بمرْو ، فلما مات داود خرج ولده أهلَ أدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ، ونظروا فإذا ليست لهم عند بني العباس منزلة ، فلم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر؛ فلما رأوا ذلك أظهروا مقالة الزيديّة ، ودنوْا من آل الحسين ، وطمعوا أن يكون لهم دَوْلة فيعيشوا فيها. فكان يعقوب يجول البلاد منفرداً بنفسه ، ومع إبراهيم بن عبد الله أحياناً ، في طلب البيعة لمحمد بن عبد الله ، فلما ظهر محمد وإبراهيم بن عبد الله كتب عليّ بن داود ـ وكان أسنّ من يعقوب ـ لإبراهيم بن عبد الله ، وخرج يعقوب مع عدّة من إخوته مع إبراهيم؛ فلما قتِل محمد وإبراهيم توارَوْا من المنصور ، فطلبهم ، فأخذ يعقوب وعليّاً فحبسهما في المطبَق أيّام حياته ، فلما تُوفِّيَ المنصور ، منّ عليهما المهديّ فيمن

---

(١) انظر لهذه التفاصيل: المنتظم (٨/ ٢٧٨).
(٢) انظر تعليقنا (٨/ ١٦٢/ ١).

منّ عليه بتخلية سبيله ، وأطلقهما . وكان معهما في المطبق إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن ـ وكانا لا يفارقانه ـ وإخوته الذين كانوا محتبسين معه ، فجرت بينهم بذلك الصداقة . وكان إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن يرى أنّ الخلافة قد تجوز في صالحي بني هاشم جميعاً ، فكان يقول : كانت الإمامة بعد رسول الله ﷺ لا تصلح إلا في بني هاشم؛ وهي في هذا الدهر لا تصلح إلا فيهم؛ وكان يكثر في قوله للأكبر من بني عبد المطلب؛ وكان هو ويعقوب بن داود يتجاريان ذلك؛ فلما خلَّى المهديّ سبيلَ يعقوب مكث المهديّ برهة من دهره يطلب عيسى بن زيد والحسن بن إبراهيم بن عبد الله بعد هرب الحسن من حبسه ، فقال المهديّ يوماً : لو وجدتُ رجلاً من الزيديّة له معرفة بآل حسن وبعيسى بن زيد ، وله فقه فأجتلبُه إليّ على طريق الفقه ، فيدخل بيني وبين آل حسن وعيسى بن زيد! فدُلّ على يعقوب بن داود ، فأُتِيَ به فأدخِل عليه ، وعليه يومئذ فَرْوٌ وخُفَّا كبْل وعمامة كَرابيس وكِساء أبيض غليظ . فكلّمه وفاتحه ، فوجده رجلاً كاملا ، فسأله عن عيسى بن زيد؛ فزعم النّاس أنه وعده الدخول بينه وبينه ، وكان يعقوب ينتفِي من ذلك؛ إلاّ أنّ الناس قد رَموْه بأن منزلته عند المهديّ إنما كانت للسعاية بآل عليّ . ولم يزل أمره يرتفع عند المهديّ ويعلو حتى استوزره ، وفوضّ إليه أمر الخلافة؛ فأرسل إلى الزيديّة ، فأتى بهم مِنْ كلّ أوب ، وولاهم من أمور الخلافة في المشرق والمغرب كلَّ جليل وعمل نفيس ، والدنيا كلها في يديه ، ولذلك يقول بشار بن برد :

بَني أُمَيَّةَ هُبُّوا طالَ نَومكُمُ ... إنَّ الخَليفَةَ يعقوبُ بن داودِ
ضاعَتْ خلافَتُكمْ يا قَوْمِ فاطَّلِبوا ... خَليفَةَ الله بَيْنَ الدُّفِّ والعود

قال : فحسده موالي المهديّ ، فسعوْا عليه[1] .

ومما حظِيَ به يعقوب عند المهديّ ، أنه استأمنه للحسن بن إبراهيم بن عبد الله ، ودخل بينه وبينه حتى جمع بينهما بمكّة . قال : ولما علم آل الحسن بن عليّ بصنيعِه استوحشوا منه ، وعلم يعقوب أنه إن كانت لهم دولة لم يعشْ فيها ، وعلم أن المهديّ لا يناظره لكثرة السعاية به إليه ، فمال يعقوب إلى إسحاق بن

---

(١) في إسناد هذا الخبر الطويل علي بن محمد النوفلي لم نجد له ترجمة . وفي متون بعض أخباره نكارة ، وانظر تعليقنا [٨/ ١٦٢/ ١] .

الفضل ، وأقبل يربّصُ له الأمور وأقبلت السعايات ترِدُ على المهديّ بإسحاق حتى قيل له : إن المشرق والمغرب في يد يعقوب وأصحابه ؛ وقد كاتبهم ؛ وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحدٍ على ميعاد ، فيأخذوا الدنيا لإسحاق بن الفضل ؛ فكان ذلك قد ملأ قلب المهديّ عليه[١] .

قال عليُّ بن محمد النوفليّ : فذكر لي بعض خدم المهديّ أنه كان قائماً على رأسه يوماً يذبّ عنه ، إذ دخل يعقوب ، فجثا بين يديه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد عرفت اضطراب أمر مصر ، وأمرتني أن ألتمس لها رجلاً يجمع أمرها فلم أزل أرتاد حتى أصبت لها رجلاً يصلح لذلك . قال : ومَنْ هو؟ قال : ابن عمّك إسحاق بن الفضل ، فرأى يعقوب في وجهه التغيّر ، فنهض فخرج ، وأتبعه المهديّ طرفه ، ثم قال : قتلني الله إن لم أقتلك! ثم رفع رأسه إليّ وقال : اكتم عليّ ويلك! قال : ولم يزل مواليه يحرِّضونه عليه ويُوحشونه منه ، حتى عزم على إزالة النعمة عنه[٢] .

وقال موسى بن إبراهيم المسعوديّ : قال المهديّ : وُصف لي يعقوب بن داود في منامي ، فقيل لي أن اتّخذْه وزيراً . فلما رآه ، قال : هذه والله الخلقة التي رأيتُها في منامي ، فاتخذه وزيراً ، وحَظِيَ عنده غاية الحظوة ، فمكث حيناً حتى بنى عيساباذ ، فأتاه خادم من خَدَمه ـ وكان حظيّاً عنده ـ فقال له : إن أحمد بن إسماعيل بن عليّ ، قال لي : قد بنى متنزَّهاً أنفق عليه خمسين ألف ألف من بيت مال المسلمين ، فحفظها عن الخادم ، ونسي أحمد بن إسماعيل ، وتوهّمها على يعقوب بن داود ، فبينا يعقوب بين يديه إذْ لببَه ، فضرب به الأرض ، فقال : مالي ولك يا أمير المؤمنين! قال : ألست القائل : إني أنفقت على متنزَّه لي خمسين ألف ألف! فقال يعقوب : والله ما سمعتْه أذناي ، ولا كتبه الكرام الكاتبون ؛ فكان هذا أول سبب أمره .

قال : وحدّثني أبي ، قال : كان يعقوب بن داود قد عرف عن المهديّ خلعاً واستهتاراً بذكر النساء و الجماع ، وكان يعقوب بن داود يصف من نفسه في ذلك

(١) انظر تعليقنا [٨/ ١٦٢/ ١] .
(٢) في إسناده النوفلي الآنف الذكر وهو يرويه عن مبهم (بعض خدم المهدي) وانظر تعليقنا [٨/ ١٦٢/ ١] .

شيئاً كثيراً، وكذلك كان المهديّ، فكانوا يخلُون بالمهديّ ليلاً فيقولون: هو على أن يصبح فيثور بيعقوب؛ فإذا أصبح غدا عليه يعقوب وقد بلغه الخبر، فإذا نظر إليه تبسّم، فيقول: إنّ عندك لخيراً! فيقول: نعم، فيقول: اقعد بجانبي فحدِّثني، فيقول: خلوت بجاريتي البارحة، فقالت وقلت، فيصنع لذلك حديثاً، فيحدّث المهديّ بمثل ذلك، ويفترقان على الرضا، فيبلغ ذلك مَنْ يسعى على يعقوب، فيتعجّب منه(١).

قال: وقال لي الموصليّ: قال يعقوب بن داود للمهديّ في أمر أراده: هذا والله السرف، فقال: ويلك! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف! ويْلك يا يعقوب، لولا السرف لم يعرَف المكثرون من المقترين(٢).

وقال عليّ بن يعقوب بن داود عن أبيه، قال: بعث إليّ المهدي يوماً، فدخلت عليه، فإذا هو في مجلس مفروش بفَرْش مُوَرّد متناهٍ في السرور على بستان فيه شجر، ورؤوس الشجر مع صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار من الخَوْخ والتفاح، فكلّ ذلك مورّد يشبه فرش المجلس الذي كان فيه، فما رأيت شيئاً أحسَن منه؛ وإذا عنده جارية ما رأيتُ أحسنَ منها، ولا أشطَّ قَواماً، ولا أحسن اعتدالاً، عليها نحو تلك الثياب، فما رأيت أحسن من جملة ذلك. فقال لي: يا يعقوب، كيف ترى مجلسنا هذا؟ قلت: على غاية الحسن، فمتّع الله أمير المؤمنين به، وهنّأه إياه فقال: هو لك، احمله بما فيه وهذه الجارية ليتمّ سرورك به. قال: فدعوت له بما يجب. قال: ثم قال: يا يعقوب، ولي إليك حاجة، قال: فوثبتُ قائماً ثم قلت: يا أميرَ المؤمنين، ما هذا إلا من موجدة، وأنا أستعيذ بالله من سخط أمير المؤمنين! قال: لا،

---

(١) موسى بن إبراهيم المسعودي وأبوه مجهولان ويعقوب متهم بوضع أشعار على لسان بشار بن برد فكيف يعتمد على إسناد هذا حاله وعلى تلك التهم التي لا تصح عن المهدي بل تخالف الأخبار الصحيحة في سيرته رحمه الله، والله أعلم.

(٢) الموصلي مغنّ لعّاب مترف ماجن، وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٩/ ٨٠/ تر ٨٨) والراوي عنه هو المسعودي وهو مجهول، بل المهدي رجل كان يروي الحديث ويحب الغزو وكان يناصب العداء لأهل البدع ويجلّ أهل العلم ويحترم القضاة، لين الجانب، كما أكدت الأخبار الصحاح، انظر تعليقنا عند الحديث عن سير المهدي وأخباره.

ولكن أحبّ أن تضمن لي قضاء هذه الحاجة فإني لم أسألكها من حيث تتوهّم ، وإنما قلت ذلك على الحقيقة ، فأحبّ أن تضمنَ لي هذه الحاجة وأن تقضيَها لي ، فقلت: الأمر لأمير المؤمنين وعليّ السمع والطاعة ، قال: والله ـ قلت والله ثلاثاً ـ قال: وحياة رأسي! قلت: وحياة رأسك ، قال: فضع يدك عليه واحلف به ، قال: فوضعت يدي عليه ، وحلفت له به لأعملنّ بما قال ، ولأقضينّ حاجته. قال: فلما استوثق مني في نفسه ، قال: هذا فلان بن فلان ، من ولد عليّ ، أحبّ أن تكفيَني مؤونته ، وتريحني منه ، وتعجِّل ذلك. قال: قلت: أفعل ، قال: فخذه إليك ، فحوّلته إليّ ، وحوّلت الجارية وجميع ما كان في البيت من فرش وغير ذلك ، وأمر لي معه بمائة ألف درهم(١).

قال: فحملت ذلك جملة ، ومضيتُ به ، فلشدّة سروري بالجارية صيّرتها في مجلس بيني وبينها ستر ، وبعثتُ إلى العلويّ ، فأدخلته على نفسي ، وسألته عن حاله ، فأخبرني بها ، وبجُمَلٍ منها ، وإذا هو ألبّ الناس وأحسنُهم إبانة.

قال: وقال لي في بعض ما يقول: وَيْحك يا يعقوب! تلقى الله بدمي ، وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد! قال: قلت: لا والله فهل فيك خير؟ قال: إن فعلتَ خيراً شكرتُ ولك عندي دعاء واستغفار. قال: فقلت له أيّ الطرق أحبُّ إليك؟ قال: طريق كذا وكذا ، قلتُ: فَمنْ هناك ممّن تأنس به وتثق بموضعه؟ قال: فلان وفلان ، قلت: فابعث إليهما ، وخُذْ هذا المال ، وامض معهما مصاحباً في ستر الله ، وموعدك وموعدهما للخروج من دارِي إلى موضع كذا وكذا ـ الذي اتفقوا عليه ـ في وقت كذا وكذا من الليل؛ وإذا الجاريةُ قد حفظت عليّ قولي؛ فبعثتْ به مع خادم لها إلى المهديّ ، وقالت: هذا جزاؤك من الذي آثرته على نفسك؛ صنع وفعل كذا وكذا؛ حتى ساقت الحديث كلّه ، قال: وبعث المهديّ من وقته ذلك ، فشحن تلك الطرق والمواضع التي وصفها يعقوب والعلوّي برجاله ، فلم يلبث أن جاءوه بالعلويّ بعينه وصاحبيه والمال ، على السجيّة التي حكتها الجارية. قال: وأصبحتُ من غدِ ذلك اليوم ، فإذا رسولُ المهديّ يستحضرني ـ قال: وكنتُ خاليَ الذرع غير مُلقٍ إلى أمر العَلويّ بالاً حتى

---

(١) هذا خبر منكر وفي إسناده مجهول. وانظر تعليقنا في آخر الخبر [٨/ ٦٠] وتعليقنا [٨/ ١٦٢/ ١].

أدخُل على المهديّ ، وأجده على كرسيّ بيده مخصرة ـ فقال: يا يعقوب ما حال الرجل؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين ، قد أراحك الله منه ، قال: مات؟ قلت: نعم ، قال: والله ، ثم قال: قم فضع يدَك على رأسي؛ قال: فوضعت يدي على رأسه ، وحلفتُ له به. قال: فقال: يا غلام ، أخرج إلينا ما في هذاالبيت ، قال: ففتح بابه على العلويّ وصاحبيه والمال بعينه. قال: فبقيتُ متحيّراً ، وسُقِط في يدي ، وامتنع مني الكلام ، فما أدري ما أقول! قال: فقال المهديّ: لقد حلَّ لي دمك لو آثرتُ إراقته ، ولكن احبسوه في المطبَق؛ ولا أذكَّر به ، فحبِستُ في المطبَق ، واتُّخذ لي فيه بئرٌ فدُلِّيت فيها ، فكنت كذلك أطولَ مدّة لا أعرف عدد الأيام وأصِبْتُ ببصري ، وطال شعري ، حتى استرسل كهيئة شعور البهائم. قال: فإني لكذلك ، إذ دُعي بي فمُضِيَ بي إلى حيث لا أعلم أين هو ، فلم أعْدُ أن قيل لي: سلّم على أمير المؤمنين ، فسلمت ، فقال: أيّ أمير المؤمنين أنا؟ قلت: المهدي، قال: رحم الله المهديّ ، قلت: فالهادي؟ قال: رحم الله الهادي ، قلت: فالرّشيد؟ قال: نعم؛ قلت: ما أشكّ في وقوف أمير المؤمنين على خبري وعلّتي وما تناهتْ إليه حالي ، قال: أجل ، كلُّ ذلك عندي قد عرف أمير المؤمنين ، فسَلْ حاجتَك ، قال: قلت: المقام بمكّة ، قال: نفعل ذلك ، فهل غير هذا؟ قال: قلت: ما بقي فيّ مستَمتع لشيء لا بلاغ ، قال: فراشداً. قال: فخرجتُ فكان وجهي إلى مكة. قال ابنه: ولم يزل بمكة فلم تطُل أيامه بها حتى مات[1].

قال محمد بن عبد الله: قال لي أبي: قال يعقوب بن داود: وكان المهديّ لا يشرب النّبيذَ إلا تحرّجاً؛ ولكنه كان لا يشتهيه؛ وكان أصحابه: عمر بن بَزيع والمعلّى مولاه والمفضّل ومواليه يشربون عنده بحيث يراهم ، قال: وكنت أعِظُه في سَقْيهم النبيذ وفي السماع ، وأقول: إنه ليس على هذا استوزرتَني ولا على

(١) علي بن يعقوب لم نجد له ترجمة فيما بين أيدينا من كتب التراجم ، ولم يوثقه أحد من أهل الحديث حتى ابن حبان المعروف بتساهله في التوثيق لم يذكره في الثقات ، وبعض كتب التأريخ الموثوقة تذكر أن أباه يعقوب كان يضع الشعر على لسان بشار بن برد في هجاء المهدي ليوقع به عند المهدي الخليفة (انظر: تأريخ بغداد/ ١٤/ ٢٦٢/ تر ٧٥٥٩) فكيف يعتمد على من اتهم بوضع الشعرِ على غيره في إثبات هذه الأخبار ، ولم تتأكد من مصادر أخرى متقدمة موثوقة غير محايدة؟!!.

هذا صحبتك؛ أبعْد الصّلوات الخمس في المسجد الجامع ، يُشرب عندك النبيذ وتسمع السماع! قال: فكان يقول: قد سمع عبدُ الله بن جعفر ، قال: قلت: ليس هذا من حسناته؛ لو أنّ رجلاً سمع في كلّ يوم كان ذلك يزيده قربة من الله أو بعداً![١].

وقال محمد بن عبد الله: حدّثني أبي ، قال: كان أبي يعقوب بن داود قد ألحّ على المهديّ في حَسْمِه عن السماع وإسقائه النبيذ حتى ضيّق عليه؛ وكان يعقوب قد ضجِر بموضعه ، فتاب إلى الله مما هو فيه؛ واستقبل وقدّم النيّة في تركه موضعه. قال: فكنت أقول للمهدي: يا أمير المؤمنين؛ والله لشربةُ خمر أشربها أتوب إلى الله منها أحبّ إليّ مما أنا فيه؛ وإني لأركب إليك فأتمنى يداً خاطئة تصيبني في الطريق ، فأعفني ووَلِّ غيري من شئت؛ فإني أحبّ أن أسلِّم عليك أنا وولدي؛ ووالله إني لأتفزّع في النوم؛ ولّيتَني أمور المسلمين وإعطاء الجند ، وليس دنياك عوضاً من آخرتي. قال: فكان يقول لي: اللهم غفراً! اللهم أصلح قلبه قال فقال شاعر له:

فَدَعْ عنك يعقوبَ بنَ داودَ جانباً ... وأَقبِلْ على صَهباءَ طَيّبةِ النَّشرِ[٢]

قال عبد الله بن عمر: وحدّثني جعفر بن أحمد بن زيد العلويّ، قال: قال ابن سلاّم: وهب المهديّ لبعض ولد يعقوب بن داود جارياً، وكان بِضَعف قال: فلمّا كان بعد أيام، سأله عنها، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ ما رأيتُ مثلها ، ما وضعتُ بيني وبين الأرض مطيّةً أوطأ منها حاشا سامع. فالتفت المهديّ إلى يعقوب، فقال له: من تراه يَعْني؟ يعنيني أو يعنيك؟ فقال له يعقوب: من كلّ شيء تحفظ الأحمقّ إلا من نفسه.

وقال عليّ بن محمد النوفليّ: حدّثني أبي ، قال: كان يعقوب بن داود يدخلُ

---

(١) هذا خبر منكر ، ومن له أدنى فهم يدرك أن الخبر ملفق موضوع؛ فإذا كان المهدي لا يسمع كلام وزيره المقرب الذي تهابه الناس ـ أي يعقوب ـ فمِمّن يتحرج إذاً وممن من البشر يستحي ويتحرج حتى يشرب النبيذ تحرجاً ، وإذا كان لا يشتهيه فمن الذي يُجبره على ذلك والكل يتودد إليه ويهابه؟!! ثم إن الشاهد الذي يقذف التهمة هكذا هو يعقوب نفسه أما المهدي فساكت لا يدافع عن نفسه ويعقوب هو الخصم والحكم ـ أضف إلى كل هذا فإننا لم نجد لمحمد بن عبد الله بن يعقوب هذا ترجمة في كتب الجرح والتعديل والخبر منكر ـ.

(٢) هذا خبر منكر كسابقه، وفيه من الآفات في السند والمتن كسابقه. وانظر تعليقنا [٨/ ١٦٢/ ١].

على المهديّ فيخلو به ليلاً يحادثه ويسامره؛ فبينما هو ليلةً عنده؛ وقد ذهب من الليل أكثره ، خرج يعقوب من عنده ، وعليه طيلسان مصبوغ هاشميّ؛ وهو الأزرق الخفيف؛ وكان الطَيْلسان قد دق دقّاً شديداً فهو يتقعقع ، وغلام آخذ بعنان دابّة له شهباء ، وقد نام الغلام ، فذهب يعقوب يسوّي طيلسانَه فتقعقع ، فنفر البِرْذونُ ، ودنا منه يعقوب ، فاستدبره فضربه ضربة على ساقه فكسرها ، وسمع المهديّ الوجبَةَ ، فخرج حافياً؛ فلما رأى ما به أظهر الجزع والفَزَع ، ثم أمر به فحمِل في كرسيّ إلى منزله ، ثم غدا عليه المهديّ مع الفجر؛ وبلغ ذلك الناس ، فغدَوْا عليه ، فعاده أياماً ثلاثة متتابعة ، ثم قعد عن عيادته ، وأقبل يرسل إليه يسأله عن حاله؛ فلما فَقد وجهه، تمكن السعاة من المهديّ، فلم تأتِ عليه عاشرة حتى أظهر السّخط عليه، فتركه في منزله يعالج ، ونادى في أصحابه: لا يوجد أحدٌ عليه طيلسان يعقوبيّ ، وقلنسوة يعقوبية إلاّ أخِذت ثيابُه. ثم أمر بيعقوب فحبِس في سجن نصر[١].

قال النوفليّ: وأمر المهديّ بعزْل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشَّرق والغرب ، وأمر أن يؤخذ أهلُ بيته ، وأن يُحبَسوا ففعل ذلك بهم.

وقال عليّ بن محمد: لما حبِس يعقوب بن داود وأهل بيته ، وتفرّق عماله واختفوْا وتشرّدوا ، أذكِر المهديّ قصّته وقصة إسحاق بن الفضل ، فأرسل إلى إسحاق ليلاً وإلى يعقوب ، فأتِيَ به من محبسه ، فقال: ألم تخبرني بأنّ هذا وأهل بيته يزعمون أنّهم أحق بالخلافة منا أهلَ البيت؛ وأن لهم الكبر علينا! فقال له يعقوب: ما قلتُ لك هذا قطّ ، قال: وتكذّبني وتردّ عليّ قولي! ثم دعا له بالسِّياط فضربه اثنتي عشر سوطاً ضرباً مبرّحاً ، وأمر به فرُدّ إلى الحبس.

قال: وأقبل إسحاق يحلِف أنه لم يقُلْ هذا قطّ ، وأنه ليس من شأنه. وقال فيما يقول: وكيف أقول هذا يا أمير المؤمنين ، وقد مات جدّي في الجاهليّة وأبوك الباقي بعد رسول الله ﷺ ووارثه! فقال: أخرجوه ، فلما كان من الغد دعا بيعقوب ، فعاوده الكلام الذي كلمه في ليلته ، فقال: يا أمير المؤمنين ،

---

(١) علي بن محمد النوفلي لم نجد له ترجمة وفي متون بعض مروياته نكارات وطامات. وانظر تعليقنا [٨/ ١٦٢/ ١]. وهل هذا الخبر المنكر يستحق أن تسوّد به صفحات التأريخ؟.

لا تعجل عليّ حتى أذكِّرك ، أتذكر وأنت في طارمة على النّهر؛ وأنت في البستان وأنا عندك؛ إذ دخل أبو الوزير ـ قال عليّ: وكان أبو الوزير خَتنَ يعقوب بن داود على ابنة صالح بن داود ـ فخبّرك هذا الخبر عن إسحاق؟ قال: صدَقت يا يعقوب ، قد ذكرتُ ذلك ، فاستحى المهديّ ، واعتذر إليه من ضربه ، ثم ردّه إلى الحبس ، فمكث محبوساً أيام المهديّ وأيام موسى كلّها حتى أخرجه الرّشيد بميله كان إليه في حياة أبيه(١).

* * *

(١) سامح الله الطبري تحدث عن قضية هامة (تغير العلاقة بين المهدي ووزيره يعقوب) فجاء بأخبار واهية وأسانيد مسلسلة بمجاهيل العين والحال ، ووقف بأعصاب باردة أمام متونها التي تتهم الخليفة الصالح المهدي بالمجون والشرب واللهو وكل ذلك مخالف تماماً للروايات الصحيحة التي جاءت في ذكر خوفه من الله عز وجل ، وروايته للحديث ، واحترامه للعلم والعلماء ، وعطفه على الرعية وانشغاله بمحاربة الزنادقة والمبتدعة ـ وهكذا حال كل خليفة ناصب العداء لأهل البدعة ـ لفّقوا له مثالب ومثالب. ولو نظرنا إلى أسانيد هذه المتون لوجدناها من طريق عليّ بن محمد النوفلي وليس له ذكر في كتب التراجم وفي متونه نكارات وطامات كما سنذكر عند تخريجنا لأخبار سيرة المهدي ضمن أحداث سنة (١٦٩ هـ) أو من طريق علي بن يعقوب (لم نجد له ترجمة) عن أبيه الذي يتهم المهدي دون أن نعرف ردّ المهدي لهذه التهم ، فالمهدي مُغيّب ويعقوب يكيل له التهم فهو الخصم والحكم ، وقد دأبنا عند تخريجنا لمرويات الطبري أن نقارنها بما ذكره خليفة والبسوي ، ولم نجد لذكر هذه التفاصيل أثراً عند خليفة ولا عند البسوي ، والشيء الوحيد الذي صحّ أنه عزله عن الوزارة أما هذه الأسباب فلم تصح ، ولولا الإسناد لوجّه الناس كيل الاتهامات لكل من يكرهون ولقبله الناس لولا أن أئمة الجرح والتعديل كرّسوا حياتهم لتمييز الصادق من الكاذب والوضاع والمتروك. والحمد لله على نعمة الإسناد.
ونقد آخر يوجه لمتون هذه الأخبار المنكرة وهو أن يعقوب كان كاتباً لخصم العباسيين فترة من الزمن (كان كاتباً لإبراهيم بن عبد الله بن حسن) الذي خرج على بني العباس، وكان أبوه داود كاتباً لنصر بن سيار الأموي، فكيف بمن هذه خلفيته وولاؤه يَعْدِل في وصف العباسيين ويؤخذ بشهادته في ذمّهم؟ علماً بأنه متهم بوضع الأبيات الشعرية والقصائد على لسان بشار بن برد في هجاء المهدي وما زال يسعى عليه عند المهدي [تأريخ بغداد/ ١٤/ ٢٦٢/ تر ٧٥٥٩] فكيف نقبل رواية رجلٍ اتهم بالوضع قبل أن يعزله المهدي؟ وعلى ما يبدو فإن يعقوب هذا تغيّر وسعى به الوشاة فعزله المهدي وكل ذلك ظن وتخمين. والله تعالى أعلم بالأسباب المؤدية إلى عزله.

وفيها أمر المهديّ بإقامة البَريد بين مدينة الرسول ﷺ وبين مكّة واليمن؛ بغالاً وإبلاً؛ ولم يُقَم هنالك بريدٌ قبل ذلك.

وفيها أخذ داود بن روح بن حاتم وإسماعيل بن سليمان بن مجالد ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفور في الزّندقة، فأقرّوا، فاستتابهم المهديّ وخلّى سبيلَهم، وبعث بداود بن روْح إلى أبيه روح؛ وهو يومئذ بالبَصْرة عاملاً عليها، فمنّ عليه، وأمره بتأديبه.

وفيها قدم الوضّاح الشَروي بعبد الله بن أبي عبيد الله الوزير ـ وهو معاوية بن عبيد الله الأشعريّ من أهل الشام ـ وكان الذي يسعى به ابن شَبَابة وقد رُمِيَ بالزندقة. وقد ذكرنا أمره ومقتله قبل.

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

ذكر الأحداث التي كانت فيها

وقيل إنّ عيسىٰ بن موسىٰ توفيَ وروح علىٰ الكوفة، لثلاث بقِين من ذي الحِجة، فحضر رَوْح جنازته، فقيل له: تقدّم فأنت الأمير، فقال: ما كان الله ليَرىٰ روحاً يصلِّي على عيسىٰ بن موسىٰ، فليتقدّم أكبر ولده، فأبوا عليه وأبى عليهم، فتقدم العباس بن عيسىٰ، فصلّى على أبيه. وبلغ ذلك المهديّ، فغضب علىٰ روح، وكتب إليه:

قد بلغني ما كان من نُكوصك عن الصّلاة على عيسىٰ، أبنفسك، أم بأبيك، أم بجدِّك كنت تصلي عليه! أوليس إنما ذلك مقامي لو حضرتُ. فإذا غبتُ كنتَ أنت أولىٰ به لموضعك من السلطان!.

وأمر بمحاسبته، وكان يلي الخراج مع الصّلاة والأحداث.

وتوفِّيَ عيسىٰ والمهديّ واجدٌ عليه وعلى ولده، وكان يكره التقدّم عليه لجلالته.

وفيها عزل المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل، وولاّه

الربيع الحاجب ، فاستخلف عليه سعيد بن واقد ، وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته.

وفيها فشا الموت ، وسعال شديد ووباء شديد ببغداد والبصرة.

وفيها تُوفِّيَ أبان بن صدقة بجُرجان ، وهو كاتب موسىٰ علىٰ رسائله ، فوجّه المهديّ مكانه أبا خالد الأحول يزيد خليفة أبي عبيد الله.

وفيها عزل يحيىٰ الحرشيّ عن طبرستان والرُّويان ، وما كان إليه من تلك الناحية ووليها عمر بن العلاء وولي جرجان فرَاشة مولىٰ المهديّ ، وعزل عنها يحيىٰ الحرشي.

وفيها أظلمت الدنيا لليالٍ بَقين من ذي الحجّة ، حتى تعالى النهار.

ولم يكن فيها صائفة ، للهدنة التي كانت بين المسلمين والرّوم.

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها وجّه المهديّ سعيداً الحرَشيّ إلىٰ طبرستان في أربعين ألف رجل.

وفيها مات عمر الكلواذيّ صاحب الزنادقة ، ووُلِّيَ مكانه حمدَوَيْه ، وهو محمد بن عيسىٰ من أهل مَيْسان.

وفيها قتل المهديّ الزنادقة ببغداد.

وفيها ردّ المهديّ ديوانه وديوان أهل بيته إلى المدينة ونقله من دمشق إليها.

وفيها خرج المهديّ إلى نهر الصّلة أسفل واسط ـ وإنما سُمِّي نهر الصِّلة فيما ذكر لأنه أراد أن يُقطِع أهل بيته وغيرهم غَلته ، يصلهم بذلك.

وفيها ولّى المهديّ عليّ بن يقطين ديوان زمام الأزمّة على عمر بن بزيع.

وذكر أحمد بن موسىٰ بن حمزة ، عن أبيه : قال : أوَل مَنْ عمل ديوان الزّمام عمر بن بزيع في خلافة المهديّ ، وذلك أنّه لمّا جُمعت له الدواوين تفكّر ، فإذا هو لا يضبطها إلاّ بزمام يكون له علىٰ كلّ ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمة ، وولّى

كل ديوان رجلاً ، فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صُبيح ، ولم يكن لبني أمية دواوين أزمَّة .

* * *

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة
ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

* * *

* ذكر الخبر عن خروجه إليها :

ذكر أن المهديّ كان في آخر أمره قد عزم على تقديم هارون ابنه على ابنِهِ موسى الهادي ، وبعث إليه وهو بجُرجان بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة ، ويقدّم الرّشيد فلم يفعل ، فبعث إليه المهديّ بعضَ الموالي ، فامتنع عليه موسىٰ من القدوم ، وضرب الرّسول ، فخرج المهديّ بسبب موسى وهو يريده بجُرجان فأصابه ما أصابه .

وذكر الباهليّ أن أبا شاكر أخبره ـ وكان من كتّاب المهديّ علىٰ بعض دواوينه ـ قال : سأل عليّ بن يقطين المهديَّ أن يتغدّى عنده ، فوعده أن يفعل ، ثم اعتزم على إتيان ماسَبَذان ، فوالله لقد أمرَ بالرحيل كأنه يُساق إليها سوقاً ، فقال له عليّ : يا أميرَ المؤمنين ، إنك قد وعدتني أن تتغدّى عندي غداً ، قال : فاحمل غَدَاءك إلىٰ النَّهروَان . قال : فحمله فتغدّى بالنَّهروان ، ثم انطلق .

وفيها توفّي المهديّ .

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة المهدي]

ذكر الخبر في سبب وفاته :

اختلف في ذلك ، فذكر عن واضح قَهرمان المهديّ ، قال : خرج المهدي يتصيد بقرية يقال لها الرذّ بماسَبَذان ، فلم أزل معه إلى بعد العصر ، وانصرفت إلى مضربي ـ وكان بعيداً من مضربه ـ فلما كان في السَّحَر الأكبر ركبت لإقامة

الوظائف ، فإني لأسير في بَرّيّة ، وقد انفردت عمَّن كان معي من غلماني وأصحابي ، إذ لقيني أسود عريان على قَتَد رَحْل ، فدنا مني ، ثم قال لي: أبا سهل ، عظّم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين! فهممتُ أن أعلوَه بالسّوط ، فغاب من بين يديّ ، فلما انتهيتُ إلى الرِّواق لقيني مسرور ، فقال لي: أبا سهل ، عظم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين! فدخلت فإذا أنا به مسجًّى في قبَّة ، فقلت: فارقتكم بعد صلاة العصر ، وهو أسرّ ما كان حالاً وأصحّه بدناً ، فما كان الخبر؟ قال: طردت الكلابُ ظبياً ، فلم يزل يتبعها ، فاقتحم الظبي باب خربة ، فاقتحمت الكلاب خلفه ، واقتحم الفرس خلف الكلاب ، فدُقّ ظهرُه في باب الخرِبة ، فمات من ساعته.

وذكر أن عليّ بن أبي نعيم المروزيّ ، قال: بعثتْ جارية من جواري المهديّ إلى ضَرة لها بلبَأ فيه سمّ ، وهو قاعد في البستان ، بعد خروجه من عيساباذ ، فدعا به فأكل منه ، ففرِقت الجارية أن تقول له: إنه مسموم.

وحدّثني أحمد بن محمد الرازيّ ، أن المهديّ كان جالساً في عُلِّيَة في قصر بماسبَذَان ، يُشرف من منظرةٍ فيها على سفله ، وكانت جاريته حسَنَة ، قد عمدت إلى كُمَّثراتين كبيرتين ، فجعلتهما في صِينيَّة ، وسمّت واحدة منهما وهي أحسنهما وأنضجهما في أسفلها ، وردّت القِمَع فيها ، ووضعتها في أعلى الصينيَّة ـ وكان المهديّ يعجبه الكُمثرىٰ ـ وأرسلت بذلك مع وصيفة لها إلى جارية للمهديّ ـ وكان يتحظَّاها ـ تريد بذلك قتلها ، فمرّت الوَصيفة بالصينيَّة التي فيها تلك الكُمّثرىٰ ، تريد دفعها إلىٰ الجارية التي أرسلتها حسَنَة إليها ، بحيث يراها المهديّ من المنظرة ، فلما رآها ورأىٰ معها الكمثرىٰ ، دعا بها ، فمدّ يده إلى الكُمّثراة التي في أعلى الصينيّة وهي المسمومة ، فأكلها ، فلما وصلت إلى جوفه صرخ: جوفي!! وسمعت حَسَنة الصوت ، وأخبرت الخبر ، فجاءت تلطُم وجهها وتبكي ، وتقول: أردت أن أنفرد بك ، فقتلتك يا سيّدي! فهلك من يومه.

وذكر عبد الله بن إسماعيل صاحب المراكب ، قال: لما صرنا إلى ماسَبَذان دنوتُ إلى عنانه ، فأمسكت بهوما به علّة ، فوالله ما أصبح إلا ميّتاً ، فرأيت حَسَنة وقد رجعت ، وإن على قُبتّها المسوح ، فقال أبو العتاهية في ذلك:

رُحْنَ في الوَشْي وأَصْبَحْـ ـنَ عليهنَّ المُسُوحُ

كـل نَطَّـاحٍ مِـنَ الـدَّهْـرِ لـه يـومٌ نَطـوحُ
لَسْـتَ بـالبـاقـي ولـو عُمِّـرْتَ مـا عُمِّـرَ نـوحُ
فَعَلـى نفسِـك نُـحْ إن كنـتَ لا بُـدَّ تَنُـوحُ

وذكر صالح القارىء أنّ عليّ بن يقطين ، قال: كنّا مع المهديّ بماسَبَذان فأصبح يوماً فقال: إني أصبحت جائعاً ، فأتِيَ بأرغفة ولحم بارد مطبوخ بالخل ، فأكل منه ثم قال: إني داخلٌ إلى البَهْو ونائم فيه ، فلا تنبِّهوني حتى أكون أنا الذي أنتبه ، ودخل البهو فنام ، ونمنا نحن في الدار في الرِّواق ، فانتبهنا ببكائه ، فقمنا إليه مسرعين ، فقال: أما رأيتم ما رأيت؟ قلنا: ما رأينا شيئاً ، قال: وقف علىٰ الباب رجل ، لو كان في ألف أو في مائة ألف رجل ما خفِيَ عليّ ، فأنشد يقول:

كـأنِّي بهـذا القَصْـرِ قـد بـادَ آهِلُـهْ وأَوحَـش منـه رَبْعُـهُ ومنـازلُـهْ
وصـار عميـدُ القـومِ مِنْ بعدِ بهجةٍ ومُلْـكٍ إلـى قبـر عليـه جنـادلـه
فلـم يَبْـقَ إلا ذكـرُهُ وحَـديثُـهُ تنـادي عليـه معْـوِلاتٍ حـلائلـهْ

قال: فما أتت عليه عاشرة حتى مات.

* * *

ذكر الخبر عن الموضع الذي دفن فيه ومَنْ صلّى عليه

ذُكر أن المهديّ توفِّيَ بقرية من قرى ماسَبَذان ، يقال لها الرُّذّ ، وفي ذلك يقول بَكّار بن رَبَاح:

أَلاَ رحمـةُ الـرحمـنِ في كـلِّ سـاعَـةٍ علـى رمَّـةٍ رَمَّـتْ بِمـاسَبَـذانِ
لقـد غَيَّـبَ القبـرُ الـذي تـمّ سُـودَدا وَكَفَّيـنِ بـالمعـروفِ تَبْتَـدِرانِ

وصلَّىٰ عليه ابنُه هارون ، ولم توجد له جنازة يُحمَل عليها ، فحُمل علىٰ باب ، ودفن تحت شجرة جَوْز كان يجلس تحتها.

وكان طويلاً مُضَمّر الخلْق ، جَعْداً. واختُلف في لونه فقال بعضهم: كان أسمر ، وقال بعضهم: كان أبيض.

وكان في عينه اليمنىٰ ـ في قول بعضهم ـ نُكتة بياض. وقال بعضهم: كان ذلك بعينه اليسرىٰ.

وكان وُلد بإيذَج.

ذكر بعض سِير المهديّ وأخباره

ذُكر عن هارون بن أبي عبيد الله، قال: كان المهديّ إذا جلس للمظالم، قال: أدخِلوا عليّ القضاة، فلو لم يكن ردِّي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى.

وذكر الحسن بن أبي سعيد، قال: حدّثني عليّ بن صالح، قال: جلس المهديّ ذات يوم يعطي جوائز تقسم بحضرته في خاصّته من أهل بيته والقوّاد، وكان يُقرأ عليه الأسماء، فيأمر بالزيادة، العشرة الآلاف والعشرين الألف، وما أشبه ذلك، فعُرِض عليه بعض القوّاد، فقال: يُحَطّ هذا خمسمائة، قال: لم حططتَنِي يا أمير المؤمنين؟ قال: لأني وجّهتُك إلىٰ عدوٍّ لنا فانهزمت. قال: كان يسرّك أن أقتل؟ قال: لا، قال: فوالذي أكرمك بما أكرمك به من الخلافة لو ثَبَت لقتِلت، فاستحيا المهديّ منه، وقال: زده خمسة آلاف.

قال الحسن: وحدّثني عليّ بن صالح، قال: غضب المهديّ على بعض القوّاد ـ وكان عَتَب عليه غير مرة ـ فقال له: إلى متى تذنب إليّ وأعفو؟ قال: إلى أبدٍ نسيء، ويبقيك الله فتعفو عنا، فكررها عليه مرات، فاستحيا منه ورضي عنه.

وذكر محمد بن عمر، عن حفص مولى مُزينة، عن أبيه، قال: كان هشام الكلبيّ صديقاً لي، فكنّا نتلاقىٰ فنتحدث ونتناشد، فكنت أراه في حالٍ رثّة وفي أخلاق على بغلة هزيل، والضُّر فيه بيِّن وعلى بغلته، فما راعني إلاّ وقد لقيني يوماً على بغلة شقراءَ من بغال الخلافة، وسَرْج ولجام من سروج الخلافة ولُجُمها، في ثياب جِياد ورائحة طيِّبة، فأظهرتُ السرور، ثم قلت له: أرى نعمة ظاهرةً، قال لي: نعم، أخبرك عنها، فاكتم، فبينما أنا في منزلي منذ أيام بين الظهر والعصر، إذ أتاني رسول المهديّ فسرت إليه، ودخلت عليه وهو جالس خالٍ ليس عنده أحد، وبين يديه كتاب، فقال: ادنُ يا هشام، فدنوتُ فجلست بين يديه، فقال: خذ هذا الكتاب فاقرأه. ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه. قال: فنظرت في الكتاب، فلما قرأت بعضَه استفظعتُه، فألقيته من يدي، ولعنت كاتبه، فقال لي: قد قلت لك: إن استفظعتَه فلا تُلقِه، اقرأه بحقي عليك

حتى تأتي على آخره! قال: فقرأته فإذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلْباً عجيباً ، لم يبقِ له فيه شيئاً ، فقلت: يا أمير المؤمنين ، مَنْ هذا الملعون الكذاب؟ قال: هذا صاحب الأندلس ، قال: قلت: فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وفي أمهاته. قال: ثم اندرأت أذكر مثالبهم ، قال: فسُرَّ بذلك ، وقال: أقسمت عليك لما أمللت مثالبهم كلها على كاتب. قال: ودعا بكاتب من كتاب السرّ ، فأمره فجلس ناحية ، وأمرني فصرت إليه ، فصدّر الكاتب من المهديّ جواباً ، وأمللتُ عليه مثالبهم فأكثرت ، فلم أبْقِ شيئاً حتىٰ فرغتُ من الكتاب ، ثم عرضتُه عليه ، فأظهر السرور ، ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فخُتِم ، وجُعل في خريطة ، ودُفع إلى صاحب البريد ، وأمر بتعجيله إلى الأندلس. قال: ثم دعا بمنديل فيه عشرة أثواب من جِياد الثياب وعشرة آلاف درهم ، وهذه البغلة بسرجها ولجامها ، فأعطاني ذلك ، وقال لي: اكتم ما سمعت.

قال الحسن: وحدّثني مِسوَر بن مساور ، قال: ظلمني وكيل للمهديّ وغصبَني ضَيْعةً لي فأتيت سلاَّماً صاحب المظالم ، فتظلمت منه وأعطيته رقعة مكتوبة ، فأوصل الرّقعة إلى المهديّ ، وعنده عمه العباس بن محمدّ وابن عُلاثة وعافية القاضي. قال: فقال لي المهديّ: ادنُهْ ، فدنوت ، فقال: ما تقول؟ قلت: ظلَمتَني ، قال: فترضى بأحد هذين؟ قال: قلت: نعم ، قال: فادنُ مني ، فدنوت منه حتى التزقت بالفراش ، قال: تكلّم ، قلت: أصلح الله القاضي! إنه ظلمني في ضيعتي هذه ، فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتي وفي يدي ، قال: قلت: أصلح الله القاضي! سَلْهُ ، صارت الضيعة إليه قبل الخلافة أو بعدها؟ قال: فسأله: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: صارت إليّ بعد الخلافة. قال: فأطلِقها له ، قال: قد فعلت ، فقال العبّاس بن محمد: والله يا أمير المؤمنين لَذا المجلس أحبّ إليّ من عشرين ألف ألف درهم.

قال: وحدّثني عبد الله بن الربيع ، قال: سمعتُ مجاهداً الشاعر يقول: خرج المهديّ متنزّهاً ، ومعه عمر بن بزيع مولاه ، قال: فانقطعنا عن العسكر ، والنّاس في الصيد ، فأصاب المهديّ جوع ، فقال: ويحك! هل من شيء؟ قال: ما من شيء ، قال: أرىٰ كوخاً وأظنّها مبقلة ، فقصدنا قصدَه ، فإذا نَبَطِيّ في كوخ ومبقلة ، فسلّمنا عليه ، فردّ السلام ، فقلنا له: هل عندك شيء نأكل؟ قال: نعم

عندي رُبَيْثاء وخبز وشعير ، فقال المهديّ : إن كان عندك زيت فقد أكملتَ ، قال : نعم ، قال : وكرّاث؟ قال : نعم ، ما شئت وتمر . قال : فعدا نحو المبقلة ، فأتاهم ببقْل وكُرّاث وبصل ، فأكلا أكلاً كثيراً ، وشبِعا ، فقال المهديّ لعمر بن بزيع : قل في هذا شعراً ، فقال :

إنَّ مَـنْ يُطْعِـمُ الـرُبَيْثـاءَ بـالـزَّيـ تِ وخُبـزَ الشعيـر بـالكُـرّاثِ
لحقيـقٌ بِصَفْعَـةٍ أَو بِثِنْتَيْـ نِ لِسـوء الصنيـعِ أَوْ بِثَـلاثِ

فقال المهديّ : بئس ما قلت ، ليس هكذا. . .

لحقيـقٌ بِبَـدْرَةٍ أَوْ بِثِنَتْيـ ن لحسْـنِ الصَّنِيـعِ أَوْ بِثَـلاثِ

قال : ووافى العسكر والخزائن والخدَم فأمر للنَّبَطيّ بثلاث بِدَر وانصرف .

وذكر محمد بن عبد الله ، قال : أخبرني أبو غانم ، قال : كان زيد الهلاليّ رجلاً شريفاً سخيّاً مشهوراً من بني هلال ، وكان نقشُ خاتَمه : «أفلح يا زيد مَنْ زَكَا عمله» ، فبلغ ذلك المهديّ ، فقال زيد الهلاليّ :

زَيْـدُ الهِـلاَلِـيّ نقـش خـاتمـه أفْلَـح يـا زيـدُ مـن زكـا عمَلُـهْ

قال : وقال الحسن الوصيف : أصابتنا ريح في أيام المهديّ حتى ظننّا أنها تسوقنا إلى المحْشر ، فخرجتُ أطلب أميرَ المؤمنين ، فوجدته واضعاً خدَّه على الأرض ، يقول : اللهمّ احفظ محمداً في أمتّه ، اللهمّ لا تُشمت بنا أعداءنا من الأمم ، اللهمّ إن كنت أخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك ، قال : فما لبثنا إلا يسيراً حتىٰ انكشفت الريح وانجلىٰ ما كنا فيه(١) .

وقال الموصلي : قال عبد الصمد بن عليّ : قلت للمهديّ : يا أميرَ المؤمنين ، إنا أهلَ بيت قد أشرب قلوبُنا حبَّ موالينا وتقديمهم ، وإنك قد صنعت من ذلك ما أفرطتَ فيه ، قد وليتَهم أمورك كلّها ، وخصصتهم في ليلك ونهارك ، ولا آمن تغيير قلوب جندك وقوّادك من أهل خُراسان ، قال : يا أبا محمد ، إنّ المواليَ يستحقّون ذلك ، وليسْ أحدٌ يجتمع لي فيه أن أجلس للعامّة فأدعُوَ به فأرفعه حتى تحكّ ركبتُه ركبتي ، ثم يقوم من ذلك المجلس ، فأستكفيه سياسةَ دابتي ، فيكفيها ، لا يرفع نفسهُ عن ذلك إلاّ مواليّ هؤلاء ، فإنهم لا يتعاظمهم ذلك ،

---

(١) الخبر أخرجه الخطيب البغدادي ، انظر [تأريخ بغداد/ ٥/ ٤٠٠] .

ولو أردت هذا من غيرهم لقال: ابن دولتِك والمتقدّم في دعوتك ، وأين مَنْ سبق إلى بيعتك ، لا أدفعه عن ذلك.

قال عليّ بن محمد: قال الفضل بن الربيع: قال المهديّ لعبد الله بن مالك: صارعْ مولاي هذا ، فصارَعه ، فأخذ بعنقه ، فقال المهديّ: شدّ ، فلما رأى ذلك عبدُ الله أخذ برجله فسقط على رأسه فصرعه. فقال عبد الله للمهديّ: يا أميرَ المؤمنين ، قمتُ من عندك وأنا أحب الناس إليك ، فلم تزَلْ عليّ مع مولاك. قال: أما سمعت قول الشاعر:

وَمَـوْلاَكَ لا يُهْضَـمْ لـديْـكَ فـإنمـا هضيمةُ مولى القوم جَدْعُ المناخِرِ

قال أبو الخطاب: لما حضرت القاسمَ بن مجاشع التميميّ ـ من أهل مَرْو بقرية يقال لها باران ـ الوفاةُ أوصىٰ إلى المهديّ ، فكتب: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾[1] ، إلىٰ آخر الآية ثم كتب: والقاسم بن مجاشع يشهدُ بذلك ، ويشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله ﷺ ، وأن عليّ بن أبي طالب وصيُّ رسول الله ﷺ ووارث الإمامة بعده. قال: فعُرِضت الوصيّة على المهديّ ، فلما بلغ هذا الموضع رمىٰ بها ولم ينظر فيها. قال أبو الخطاب: فلم يزل ذلك في قلب أبي عبيد الله الوزير ، فلما حضرته الوفاة كتب في وصيته هذه الآية.

قال: وقال الهيثم بن عديّ: دخل على المهديّ رجلٌ ، فقال: يا أمير المؤمنين ، إن المنصور شتمني وقذف أمِّي ، فإما أمرتني أن أحِلَّه ، وإلاّ عوّضتَني واستغفرت الله له. قال: ولم شتمك؟ قال: شتمتُ عدوّه بحضرته ، فغضب ، قال: ومَنْ عدوه الذي غضب لشتمه؟ قال: إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، قال: إن إبراهيم أمسّ به رَحِماً وأوجب عليه حقّاً ، فإن كان شتمك كما زعمتَ ، فعن رَحِمِهِ ذبّ ، وعن عِرْضه دفع ، وما أساء من انتصر لابن عمه. قال: إنه كان عدوّاً له ، قال: فلم ينتصر للعداوة ، وإنما انتصر للرَّحِم ، فأسكت الرجل ، فلما ذهب ليولّى ، قال: لعلك أردت أمراً فلم تجد له ذريعة عندك أبلغَ من هذه

(١) [آل عمران: ١٨ ـ ١٩].

الدعوى! قال: نعم، قال: فتبسّم وأمر له بخمسة آلاف درهم(١).

قال: وأتِيَ المهديّ برجل قد تنبَّأ، فلما رآه، قال: أنت نبيّ؟ قال: نعم، قال: وإلى مَنْ بُعثت؟ قال: وتركتموني أذهب إلى من بعثت إليه! وُجّهت بالغداة فأخذتموني بالعشيّ، ووضعتموني في الحبس! قال: فضحك المهديّ منه، وخلى سبيله.

وذكر أبو الأشعث الكنديّ، قال: حدّثني سليمان بن عبد الله، قال: قال الرّبيع: رأيتُ المهديّ يصلّي في بهوٍ له في ليلة مُقْمرة، فما أدري أهو أحسن، أم البهو، أم القمر، أم ثيابه! قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(٢)، قال: فتمّ صلاته والتفت إليّ فقال: يا ربيع، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: عليّ بموسىٰ، وقام إلى صلاته، قال: فقلت: مَنْ موسىٰ؟ ابنه موسىٰ، أو موسىٰ بن جعفر، وكان محبوساً عندي! قال: فجعلت أفكّر، قال: فقلت: ما هو إلا موسىٰ بن جعفر، قال: فأحضرته، قال: فقطع صلاته، وقال: يا موسىٰ، إني قرأت هذه الآية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(٣)، فخِفت أن أكون قد قطعتُ رَحِمَك، فوَثِّقْ لي أنك لا تخرج عليّ. قال: فقال: نعم، فوثّق له وخلاّه(٤).

وذكر إبراهيم بن أبي عليّ، قال: سمعت سليمان بن داود، يقول: سمعت المهديّ يحدثنا في محراب المسجد على اللحن اليتيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾(٥)، في سورة النساء.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان، قال: حدّثني أبي، قال: حضرتُ المهديّ

---

(١) الخبر أخرجه الخطيب من طريق الزبير بن بكار: حدثني المدائني قال: دخل على المهدي رجل (تأريخ بغداد / ٥/ ٣٩٤).

(٢) [محمد: ٢٤].

(٣) [محمد: ٢٤].

(٤) أخرج الخطيب من طريق محمد بن يحيى الصولي ثنا عون بن محمد قال: سمعت إسحاق الموصلي غير مرة يقول ثني الفضل بن الربيع عن أبيه أنه لما حبس المهدي موسى بن جعفر رأى في النوم علي بن أبي طالب. . . الخبر [تأريخ بغداد ١٣ / ٣٠].

(٥) [النساء: ٥١].

وقد جلس للمظالم فتقدّم إليه رجل من آل الزبير ، فذكر ضيعة اصطفاها عن أبيه بعضُ مُلوك بني أميَّة ، ولا أدري : الوليد ، أم سليمان! فأمر أبا عبيد الله أن يُخرِج ذِكْرَها من الديوان العتيق ، ففعل ، فقرأ ذكرها على المهديّ ، وكان ذلك أنها عُرضت على عِدّة منهم لم يروا ردّها ، منهم عمر بن عبد العزيز ، فقال المهديّ : يا زبيريّ ، هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو منكم معشر قريش كما علمتم لم يَرَ ردّها ، قال : وكلّ أفعال عمر تُرضَىٰ؟ قال : وأيّ أفعاله لا تُرضَى؟ قال : منها أنه كان يفرِض للسّقط من بني أمية في خِرَقِه في الشّرف من العطاء ، ويفرض للشيخ من بني هاشم في ستين . قال : يا معاوية أكذلك كان يفعل عمر؟ قال : نعم ، قال : اردُدْ على الزبيريّ ضيعتَه .

وذكر عمر بن شبّة أن أبا سلمة الغِفاريّ حدّثه ، قال : كتب المهديّ إلىٰ جعفر بن سليمان وهو عامل المدينة أن يحمل إليه جماعة اتُّهِموا بالقَدَر ، فحمل إليه رجالاً ، منهم عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمّار بن ياسر ، وعبد الله بن يزيد بن قيس الهذليّ ، وعيسىٰ بن يزيد بن دأب الليثيّ ، وإبراهيم بن محمد بن أبي بكر الأُساميّ ، فأدخِلوا علىٰ المهديّ ، فانبرىٰ له عبد الله بن أبي عبيدة من بينهم ، فقال : هذا دين أبيك ورأيه؟ قال : لا ، ذاك عمي داود . قال : لا ، إلا أبوك ، علىٰ هذا فارَقَنَا وبه كان يدين . فأطلقهم .

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ ، قال : حدّثني أبي ، عن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، قال : رأيتُ فيما يرىٰ النائم في آخر سلطان بني أمية ، كأني دخلت مسجدَ رسول الله ﷺ ، فرفعت رأسي ، فنظرت في الكتاب الذي في المسجد بالفسيفساء فإذا فيه : ممّا أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وإذا قائل يقول : يمحُو هذا الكتاب ويكتب مكانه اسمَ رجل من بني هاشم يقال له محمد . قال : قلت : أنا محمد ، وأنا من بني هاشم ، فابن مَنْ؟ قال : ابن عبد الله ، قلت : فأنا ابن عبد الله ، فابن مَنْ؟ قال : ابن محمد ، قلت فأنا ابنُ محمد ، فابن مَنْ؟ قال : ابن عليّ ، قلت : فأنا ابن عليّ ، فابن مَنْ؟ قال : ابن عبد الله ، قلت : فأنا ابن عبد الله ؛ فابن مَن؟ قال : عباس ، فلو لم أكن بلغت العبّاس ما شككت أني صاحب الأمر . قال : فتحدّثتُ بهذه الرؤيا في ذلك الدّهر ونحن لا نعرف المهديّ ، فتحدّث النّاس بها

حتى ولِيَ المهديّ ، فدخل مسجد رسول الله ﷺ ، فرفع رأسه فنظر فرأى اسم الوليد ، فقال: وإني لأرى اسم الوليد في مسجد رسول الله ﷺ إلى اليوم ، فدعا بكرسيّ فألقِيَ له في صحن المسجد وقال: ما أنا ببارح حتى يُمحى ويكتَب اسمي مكانَه. وأمر أن يحضر العُمّال والسلاليم وما يحتاج إليه ، فلم يبرح حتى غيّر وكتب اسمه.

وذكر أحمد بن الهيثم القُرَشيّ: قال: حدّثنا عبد الله بن محمد بن عطاء ، قال: خرج المهديّ بعد هَدْأةٍ من الليل يطوف بالبيت ، فسمع أعرابيّة من جانب المسجد وهي تقول: قومي مقْتِرون ، نبتْ عنهم العيون ، وفدحتهم الديون ، وعضّتهم السِّنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله ووصية الرسول ، فهل من آمرٍ لي بخير ، كلأه الله في سفره ، وخلَفه في أهله! قال: فأمر نُصيراً الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان ، قال: سمعتُ أبي يقول: كان أوّل مَن افترش الطبريّ المهديّ ، وذلك أنّ أباه كان أمره بالمقام بالرّيّ ، فأهْدِيَ إليه الطبريّ من طَبرِستان ، فافترشه ، وجعل الثلج والخلاف حوله ، حتى فُتح لهم الخَيْش ، فطاب لهم الطبريّ فيه.

وذكر محمد بن زياد ، قال: قال المفضّل: قال لي المهديّ: اجمع لي الأمثال ممّا سمعتَها من البدو ، وما صحَّ عندك. قال: فكتبت له الأمثال وحروبَ العرب مما كان فيها ، فوصلني وأحسن إليّ.

قال عليّ بن محمد: كان رجل من ولد عبد الرحمن بن سَمُرَة أراد الوثوب بالشأم ، فحمِل إلى المهديّ فخلى سبيلَه وأكرمه ، وقرّب مجلسه. فقال له يوماً: أنشِدْني قصيدة زُهير التي هي على الراء ، وهي:

* لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ *

فأنشده ، فقال السَّمُرِيّ: ذهب والله من يقال فيه مثل هذا الشعر ، فغضب المهديّ واستجهله ، ونحّاه ولم يعاقبه ، واستحمقه الناس.

وذكر أنّ أبا عون عبد الملك بن يزيد مرِض ، فعاده المهدّي ، فإذا منزل رثّ وبناء سوء ، وإذا طاق صُفّته التي هو فيها لَبِن. قال: وإذا مضربة ناعمة في

مجلسه، فجلس المهديّ على وسادة، وجلس أبو عون بين يدْيه، فبرّه المهديّ، وتوجَّع لعلَّته. وقال أبو عون: أرجو عافيةَ الله يا أمير المؤمنين، وألا يميتني على فراشِي حتى أقتَل في طاعتك، وإني لواثِق بألاّأموت حتى أبْلِيَ الله في طاعتك ما هو أهله، فإنا قد رُوّينا. قال: فأظهر له المهديّ رأياً جميلاً، وقال: أوصني بحاجتك، وسَلْني ما أردت، واحتكم في حياتك ومماتك، فوالله لئن عجز مالُك عن شيء توصي به لأحتملنّه كائناً ما كان، فقل وأوصِ. قال: فشكر أبو عون ودعا، وقال: يا أميرَ المؤمنين، حاجتي أن ترضى عن عبد الله بن أبي عون، وتدعوَ به، فقد طالت موجِدتك عليه. قال: فقال: يا أبا عون، إنه على غير الطريق، وعلى خلاف رأينا ورأيك، إنه يقَع في الشيْخَيْن أبي بكر وعمر، ويسيء القول فيهما. قال: فقال أبو عون: هو والله يا أميرَ المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه، ودعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمُرونا بما أحببتم حتى نُطيعَكم. قال: وانصرف المهديّ، فلما كان في الطريق قال لبعض مَنْ كان معه من ولده وأهله: مالكم لا تكونون مثل أبي عون! والله ما كنت أظنُّ منزله إلا مبنيّاً بالذهب والفضة، وأنتم إذا وجدتم درهماً بنيتم بالسّاج والذهب.

وذكر أبو عبد الله، قال: حدّثني أبي، قال: خطب المهديّ يوماً، فقال: عباد الله، اتقوا الله، فقام إليه رجل، فقال: وأنت فاتَّقِ الله، فإنك تعمل بغير الحق. قال: فأخِذ فحُمل فجعلوا يتلقَّونَه بنعال سيوفهم، فلما أدخِل عليه قال: يا بن الفاعلة، تقول لي وأنا على المنبر: اتق الله! قال: سوْءة لك! لو كان هذا من غيرك كنتُ المستعدِي بك عليه، قال: ما أراك إلا نَبطيّاً، قال: ذاك أوكد للحجّة عليك أن يكون نَبَطيّ يأمرك بتقوى الله. قال: فرئيَ الرّجل بعد ذلك، فكان يحدّث بما جرى بينه وبين المهديّ. قال: فقال أبي: وأنا حاضره، إلا أني لم أسمع الكلام.

وقال هارون بن ميمون الخُزاعيّ: حدّثنا أبو خزيمة البادغيسيّ، قال: قال المهديّ: ما توسَّل إليَّ أحد بوسيلة، ولا تذرّع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يداً سلفتْ مني إليه أتبعها أختها، فأحسن ربَّها، لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

قال: وذكر خالد بن يزيد بن وهب بن جرير، أن أباه حدّثه، قال: كان

بشار بن برد بن يَرْجُوخ هجا صالح بن داود بن طهمان ـ أخا يعقوب بن داود ـ حين وُلِّي البصرة ، فقال:

هُمُ حَمَلوا فوقَ المنابر صالحاً   أَخاكَ فَضَجَّت مِن أَخيك المنابرُ

فبلغ يعقوب بن داود هجاؤه ، فدخل على المهديّ ، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، إنّ هذا الأعمىٰ المشرِك قد هجا أمير المؤمنين ، قال: ويلك! وما قال؟ قال: يعفيني أمير المؤمنين من إنشاده ذلك ، قال: فأبى عليه إلا أن ينشده ، فأنشده:

خليفةٌ يَزْني بِعَمّاتِهِ   يَلعَبُ بالدَّبُّوق والصَّولجَانْ

أَبْدَلَنا اللهُ به غيرَه   وَدَسَّ موسىٰ في حِرِ الخيزُرانْ

قال: فوجّه في حمله ، فخاف يعقوب بن داود أن يقدم على المهديّ ، فيمتدحه فيعفو عنه ، فوجّه إليه من يلقيه في البَطِيحةِ في الخرّارة.

وذكر عبد الله بن عمر. حدّثني جدّي أبو الحيّ العبسيّ ، قال: لما دخل مَرْوان بن أبي حفصة على المهديّ ، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

أَنَّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ   لِبَني البناتِ وراثَةُ الأَعمامِ

فأجازه بسبعين ألف درهم ، فقال مروان:

بسبعين أَلفاً راشَني من حِبَائِهِ   وما نالها في الناس من شاعر قبلي

وذكر أحمد بن سليمان ، قال: أخبرني أبو عدنان السُّلميّ ، قال: قال المهديّ ، لعُمارة بن حمزة: من أرقّ الناس شعراً؟ قال: والبة بن الحُباب الأسديّ: وهو الذي يقول:

ولها وَلا ذَنبٌ لها   حُبٌّ كأَطْرافِ الرِّماحِ

في القلب يَقدَحُ والحشا   فالقلبُ مجروحُ النَّواحي

قال: صدقت والله ، قال: فما يمنعك من منادمته يا أمير المؤمنين ، وهو عربيٌّ شريف شاعر ظريف؟ قال: يمنعني والله من منادمته قوله:

قلتُ لساقينا على خَلْوةٍ   أدْنِ كذا رأسَكَ مِنْ راسي

وَنمْ على وجهك لي ساعةً   إني امرؤٌ أَنكِحُ جُلاَّسي

أفتريد أن يكون جُلاّسه على هذه الشريطة!

وذكر محمدٌ بن سلاّم أنه كان في زمان المهديّ إنسان ضعيف يقول الشعر إلى أن مدح المهديّ. قال: فأدخِل عليه فأنشده شعراً يقول فيه: «وَجَوَارٍ زَفَرَات»، فقال له المهديّ: أي شيء زفرات؟ قال: وما تعرفها أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: لا والله، قال: فأنت أميرُ المؤمنين وسيِّد المسلمين وابن عمّ رسول الله ﷺ لا تعرفها، أعرفها أنا! كلاّ والله.

قال ابن سلاّم: أخبرني غير واحد أن طُريح بن إسماعيل الثقفيّ دخل على المهدي فانتسب له، وسأله أن يسمع منه، فقال: ألست الذي يقول للوليد بن يزيد:

أَنـت ابـنُ مُسْلنطـح البِطـاحِ ولَـمْ ... تُطـرَقْ عليـك الحِنـيُّ والـولَـجُ

والله لا تقول لي في مثل هذا أبداً، ولا أسمع منك شعراً، وإن شئت وصلتك.

وذُكر أنّ المهديّ أمر بالصوم سنة ست وستين ليستسقي للناس في اليوم الرابع، فلما كان في الليلة الثالثة أصابهم الثلج، فقال لَقيط بنُ بُكيَر المحاربيّ في ذلك:

يـا إِمـامَ الهـدى سُقِينـا بـك الغَيْـ ... ـثَ وزالـتْ عَنَّـا بـك الـلأْوَاءُ
بِـتَّ تُعْنَـى بـالحفـظِ والنـاسُ نُـوَّا ... مُ عليهـم مِـنَ الظَّـلام غِطـاءُ
رَقَـدُوا حيـثُ طـال ليلُـكَ فيهـمْ ... لـك خـوفٌ تَضَـرعٌ وبكـاءُ
قـد عَنتكَ الأُمـورُ منهـم على الغفـ ... ـلة مِـنْ مَعْشَـرٍ عَصَـوا وأسـاءوا
وسُقِينـا وقـد قُحِطنـا وقلنـا ... سنـةٌ قـد تَنكَّـرَتْ حمـراءُ
بِـدُعـاءٍ أَخلصتَـهُ فـي سـوادِ اللـ ... ـيـلِ للهِ فـاستُجيـب الـدعـاءُ
بثلـوجٍ تُحيَـا بهـا الأرض حتـىٰ ... أَصبَحَـت وهْـيَ زهـرَةٌ خضـراءُ

وذكر أن الناس في أيام المهديّ صاموا شهر رمضان في صميم الصيف، وكان أبو دلامة إذ ذاك يطالب بجائزة وعدها إياه المهديّ، فكتب إلى المهديّ رقعة يشكو إليه فيها ما لقيَ من الحرّ والصوم، فقال في ذلك:

أَدْعُـوكَ بـالـرَّحِـم التي جَمَعَـتْ لنـا ... فـي القـربِ بيـن قـريبِنـا والأَبْعَـدِ
إلاَّ سمعـتَ وأَنـت أَكـرمُ مَـنْ مَشَـىٰ ... مِـنْ مُنشـدٍ يَـرجـو جـزاءَ المُنشَـدِ
حَـلَّ الصيـامُ فصمتُـهُ مُتعَبّـدا ... أرجـو ثـوابَ الصـائـم المُتعبّـدِ

وسَجَدتُ حتىٰ جَبْهَتِي مشجُوجةٌ ممّا أكلِّفُ مِنْ نطاح المسجد

قال: فلمّا قرأ المهدي الرُّقعة دعا به، فقال: أيّ قرابة بيني وبينك يا بن اللخناء! قال: رَحِم آدم وحوّاء. فضحك منه وأمر له بجائزة.

وذكر عليّ بن محمد، قال: حدّثني أبي، عن إبراهيم بن خالد المُعَيْطيّ قال: دخلت على المهديّ ـ وقد وُصف له غنائي ـ فسألني عن الغناء وعن علمي به، وقال لي: تُغنِّي النواقيس؟ قلت: نعم والصليب يا أمير المؤمنين! فصرفني، وبلغني أنه قال: مُعيطيّ، ولا حاجة لي إليه فيمن أدنيه من خلوتي ولا آنس به.

ولمعبد المغنى النواقيس في هذا الشعر:

سَلاَ دارَ لَيلى هل تُجيبُ فَتَنطقُ وأنَّى تَرُدُّ القولَ بَيْداءُ سَمْلَقُ
وأنَّى تَرُدُّ القول دارٌ كأنَها لِطُولِ بلاها والتَّقادُم مُهْرَقُ

وذكر قَعنْب بن محرز أبو عمرو الباهليّ أنّ الأصمعيّ حدّثه، قال: رأيتُ حَكماً الوادي حين مضى المهديّ إلى بيت المقدس، فعرض له في الطريق، وكان له شُعيرات، وأخرج دُفّاً له يضربه، وقال: أنا القائل:

فَمَتى تَخرُجُ العروسُ فقد طالَ حبْسُها
قد دنا الصبحُ أَو بدا وَهْيَ لَم تَقضِ لُبسَها

فتسرّع إليه الحرَس فصيَّح بهم: كُفُّوا، وسأل عنه فقيل: حكَم الوادي، فأدخله إليه ووصله.

وذكر عليّ بن محمد أنه سمع أباه يقول: دخل المهديّ بعضَ دوره يوماً فإذا جارية له نصرانيَّة، وإذا جيبُها واسع وقد انكشف عما بين ثدييها، وإذا صليب من ذهب معلَّق في ذلك الموضع، فاستحسنه، فمدّ يده إليه فجذبه، فأخذه، فولولت على الصليب، فقال المهديّ في ذلك:

يوم نازَعتُها الصّليبَ فقالتْ وَيْح نفسِي أَما تُحِلُّ الصليبا![1]

---

(١) هذا خبر منكر. وعلي النوفلي لم نجد له ترجمة، وفي مروياته نكارات وطامات، هذه واحدة منها.

قال: وأرسل إلى بعض الشعراء فأجازه، وأمر به فغنى فيه، وكان معجباً بهذا الصوت.

قال: وسمعت أبي يقول: إنّ المهدي نظر إلى جارية له عليها تاج فيه نرجس من ذهب وفضة، فاستحسنه فقال:

* يا حبّذا النرجس في التاج *

فأُرْتِجَ عليه، فقال: مَنْ بالحضرة؟ قالوا: عبد الله بن مالك، فدعاه، فقال: إني رأيت جارية لي فاستحسنتُ تاجاً عليها فقلت:

* يا حبذا النرجس في التاج *

فتستطيع أن تزيد فيه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ولكن دَعْني أخرج فأفكِّر، قال: شأنَك، فخرج وأرسل إلى مؤدّب لولده فسأله إجازته، فقال:

* على جَبينٍ لاحَ كالعاج *

وأتمها أبياتاً أربعة، فأرسل بها عبد الله إلى المهديّ، فأرسل إليه المهدي بأربعين ألفاً، فأعطى المؤدِّب منها أربعة آلاف، وأخذ الباقي لنفسه، وفيها غناء معروف.

وذكر أحمد بن موسىٰ بن مضر أبو علي، قال: أنشدني التوّزيّ في حسَنَة جاريته:

أَرى مـاءً وبِـي عَطَـشٌ شـديـدٌ وَلكِـنْ لا سبيـلَ إِلَـى الـورُودِ
أَمَـا يَكْفِيـك أَنَّـكِ تَملِكينـي وَأَنَّ النـاسَ كلَّهُـمُ عَبيـدي
وأَنَّـكِ لـو قطعْـتِ يَـدي ورِجْلِـي لَقُلْتُ مِنَ الرّضا: أَحسَنْتِ زيدي

وذكر عليّ بن محمد، عن أبيه، قال: رأيتُ المهديّ وقد دخل البَصْرة من قبَل سكّة قريش، فرأيته يسير والبانوقة بين يديه، بينه وبين صاحب الشُّرطة، عليها قَباء أسود، متقلدة سيفاً في هيئة الغلمان. قال: وإني لأرىٰ في صدرها شيئاً من ثدييها.

قال عليّ: وحدّثني أبي، قال: قدِم المهديّ إلى البصرة، فمرّ في سكّة قريش، وفيها منزلنا، وكانت الولاة لا تمرُّ فيها إذا قدم الوالي، كانوا يتشاءمون بها ـ قلّ والٍ مَرّ فيها فأقام في ولايته إلا يسيراً حتىٰ يُعزل ـ ولم يمرّ فيها خليفة قطّ

إلاّ المهديّ ، كانوا يمرُّون في سكّة عبد الرحمن بن سَمُرة ، وهي تساوي سِكَّة قريش ، فرأيت المهديّ يسير ، وعبد الله بن مالك على شُرَطه يسير أمامه ، في يده الحربة ، وابنته البانوقة تسير بينه وبين يديه وبين صاحب الشرطة في هيئة الفتيان ، عليها قَباء أسود ومنطقة وشاشيّة ، متقلدة السيف ، وإني لأرى ثدييها قد رفعا القَباء لنهودهما.

قال: وكانت البانوقة سمراء حَسَنة القدّ حلوة. فلما ماتت ـ وذلك ببغداد ـ أظهر عليها المهديّ جزعاً لم يُسمع بمثله ، فجلس للنّاس يعزّونه ، وأمر ألاَّ يحجب عنه أحَدٌ ، فأكثر النّاس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس مَنْ ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة ، فإنّه قال: يا أميرَ المؤمنين ، اللهُ خيرٌ لها منك ، وثوابُ الله خيرٌ لك منها ، وأنا أسأل الله ألاّ يحزُنَكَ ولا يفتنك[1].

وذكر صباح بن عبد الرحمن ، قال: حدّثني أبي ، قال: تُوفِّيت البانوقة بنت المهديّ ، فدخل عليه شبيب بن شيبة ، فقال: أعطاك الله يا أميرَ المؤمنين على ما رُزئت أجراً ، وأعقبك صبراً ، لا أجهد الله بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمةً ، ثوابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خير لها منك ، وأحقّ ما صُبِر عليه ما لا سبيلَ إلى رَدِّه.

* * *

(١) هذا خبر منكر ودليل على أن علي النوفلي هذا ليس ثقة وإلاّ كيف يصف مفاتن امرأة لا تحل له وينظر إليها ومن شروط الراوي أن يكون عدلاً متصفاً بالأخلاق الحسنة خالياً من مخارم المروءة ، وهل يكون ثقة عدلاً من يصف القد والنهد ـ وما إلى ذلك؟

خلافــة الهــادي

فذُكر أن الموالي والقُوّاد لما تُوفِّي المهديّ اجتمعوا إلى ابنه هارون ، وقالوا له : إن عَلِم الجند بوفاة المهديّ لم تأمن الشّغب ، والرّأي أن يُحمل ، وتُنادِي في الجند بالقَفَل حتى تواريَه ببغداد. فقال هارون : ادعوا إلي أبي يحيى بن خالد البرمكيّ ـ وكان المهديّ ولّى هارونَ المغرب كلَّه ، من الأنبار إلى إفريقية ، وأمر يحيى بن خالد أن يتولّى ذلك فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلُفه علىٰ ما يتولى منها إلى أن تُوُفِّيَ ـ قال : فصار يحيى بن خالد إلى هارون ، فقال له : يا أبتِ ، ما تقول فيما يقول عمر بن بزيع ونُصير والمفضّل؟ قال : وما قالوا ؟ فأخبره ، قال : ما أرىٰ ذلك ، قال : ولمَ؟ قال : لأن هذا ما لا يخفىٰ ، ولا آمن إذا علم الجند أن يتعلّقوا بمحمله ، ويقولوا : لا نُخلِّيه حتى نعطَىٰ لثلاث سنين وأكثر ، ويتحكّموا ويشتطُّوا ، ولكن أرىٰ أن يُوارىَ رحمه الله هاهنا ، وتوجِّهُ نُصيراً إلىٰ أمير المؤمنين الهادي بالخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية ، فإنّ البريد إلى نُصير ، فلا يُنكِر خروجه أحدٌ إذْ كان على بريد الناحية ، وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز ، مائتين مائتين ، وتنادي فيهم بالقُفول ، فإنهم إذا قبضوا الدّراهم لم يكن لهم همّه سوىٰ أهاليهم وأوطانهم ، ولا عَرْجة على شيء دون بغداد. قال : نفعل ذلك. وقال الجند لما قبضوا الدراهم : بغداد بغداد! يتبادرون إليها ، ويبعثون على الخروج من ماسَبَذان ، فلما وافوْا بغداد ، وعلموا خبر الخليفة ، ساروا إلى باب الرّبيع فأحرقوه ، وطالبوا بالأرزاق ، وضجُّوا. وقدم هارون بغداد ، فبعثت الخيزران إلى الرّبيع وإلى يحيىٰ بن خالد تشاورهما في ذلك ، فأما الرّبيع فدخل عليها ، وأما يحيىٰ فلم يفعل ذلك لعلمه بشدّة غَيْرة موسىٰ.

قال : وجُمِعت الأموال حتىٰ أُعْطِيَ الجند لسنتين ، فسكتوا ، وبلغ الخبر الهادي ، فكتب إلى الرّبيع كتاباً يتوعَّده فيه بالقتل ، وكتب إلىٰ يحيىٰ بن خالد

يجزيه الخير ، ويأمره أن يقوم من أمر هارون بما لم يزل يقوم به ، وأن يتولّى أموره وأعماله على ما لم يزل يتولاّه. قال: فبعث الرّبيع إلى يحيى بن خالد ـ وكان يودّه ، ويثق به ، ويعتمد على رأيه: يا أبا عليّ ، ما ترى؟ فإنه لا صبر لي على جرّ الحديد. قال: أرىٰ ألاَّ تبرح موضِعَكَ ، وأن توجِّه ابنك الفضل يستقبله ومعه من الهدايا والطرَف ما أمكنك ، فإني لأرجو ألاّ يرجع إلاّ وقد كفيت ماتخاف إن شاء الله. قال: وكانت أمّ الفضْل ابنه بحيث تسمع منهما مناجاتهما ، فقالت له: نصحك والله. قال: فإني أحبّ أن أوصي إليك ، فإني لا أدري ما يحدث. فقال: : لست أنفرد لك بشيء ، ولا أدع ما يجب ، وعندي في هذا وغيره ما تحبّ ، ولكن أشركْ معي في ذلك الفضل ابنَك وهذه المرأة، فإنها جَزْلة مستحقّة لذلك منك. ففعل الربيع ذلك ، وأوصىٰ إليهم.

قال الفضل بن سليمان: ولما شغَب الجند على الرّبيع ببغداد وأخرجوا مَنْ كان في حبسه ، وأحرقوا أبواب دوره في الميدان ، حضر العباس بن محمد وعبد الملك بن صالح ومحرز بن إبراهيم ذلك ، فرأى العبّاس أن يُرْضَوْا ، وتطيب أنفسهم ، وتفرّق جماعتهم بإعطائهم أرزاقهم ، فبذل ذلك لهم فلم يرضوْا ، ولم يثقوا مما ضُمِن لهم من ذلك، حتى ضمنه محرز بن إبراهيم، فقنعوا بضمانه وتفرّقوا، فوَفَى لهم بذلك ، وأعطوا رزق ثمانية عشر شهراً ، وذلك قبل قدوم هارون. فلما قدم ـ وكان هو خليفة موسى الهادي ـ ومعه الربيع وزيراً له ، وجَّه الوفود إلى الأمصار ، ونعى إليهم المهديّ ، وأخذ بيعتَهم لموسىٰ الهادي ، وله بولاية العهد من بعده ، وضبط أمر بغداد. وقد كان نُصير الوصيف شخص من ماسَبَذان من يومه إلى جُرجان بوفاة المهديّ والبيعة له ، فلما صار إليه نادىٰ بالرّحيل ، وخرج من فَوْره على البريد جواداً ومعه من أهل بيته إبراهيم وجعفر ، ومن الوزراء عبيد الله بن زياد الكاتب صاحب رسائله ، ومحمد بن جميل كاتب جنده. فلما شارف مدينةَ السلام استقبله النّاس من أهل بيته وغيرهم ، وقد كان احتمل على الربيع ما كان منه وما صنع من توجيه الوفود وإعطائه الجنود قبل قدومه ، وقد كان الرّبيع وجَّه ابنه الفضل ، فتلقّاه بما أعدّ له من الهدايا ، فاستقبله بهمَذَان ، فأدناه وقرّبه ، وقال: كيف خلَفْتَ مولاي؟ فكتب بذلك إلى أبيه ، فاستقبله الرّبيع ، فعاتبه الهادي ، فاعتذر إليه ، وأعلمه السبب الذي دعاه

إلى ذلك، فقبله ، وولاّه الوزارة مكان عبيد الله بن زياد بن أبي ليلَىٰ ، وضمّ إليه ما كان عمر بن بَزيع يتولاّه من الزِّمام ، وولّى محمد بن جميل ديوان خراج العراقين ، وولّى عبيد الله بن زياد خراج الشأم وما يليه ، وأقرّ على حَرَسه عليّ بن عيسىٰ بن هامان ، وضمّ إليه ديوان الجند ، وولى شُرَطه عبد الله بن مالك مكانَ عبد الله بن خازم ، وأقرّ الخاتم في يد عليّ بن يقطين .

وكانت موافاة موسىٰ الهادي بغداد عند منصرَفه من جُرجان لعشرٍ بقين من صفَر من هذه السنة ، سار ـ فيما ذكر عنه ـ من جرجان إلى بغداد في عشرين يوماً ، فلما قدمها نزل القصر الذي يسمىٰ الخُلْد ، فأقام به شهراً ، ثم تحوّل إلى بستان أبي جعفر ، ثم تحول إلى عيسابَاذ .

وقد ذكر عليّ بن محمد النوفليّ أن أباه حدثه أنه كانت لموسى الهادي جارية ، وكانت حظيّةً عنده ، وكانت تحبُّه وهو بجُرْجان حين وجّهه إليها المهديّ ، فقالت أبياتاً ، وكتبت إليه وهو مقيم بجرجان ، منها :

يا بَعيدَ المَحَلِّ أمسىٰ بجرجانَ نازلا

قال : فلما جاءته البَيعة وانصرف إلى بغداد ، لم تكن له همّة غيرها ، فدخل عليها وهي تغنّي بأبياتها ، فأقام عندها يومه وليلته قبل أن يظهر لأحد من الناس .

وفي هذه السنة اشتدّ طلب موسىٰ الزنادقة ، فقتل منهم فيها جماعة ، فكان ممَّن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين ، وابنه عليّ بن يقطين من أهل النَّهروان ، ذُكر عنه أنه حجّ فنظر إلى الناس في الطَّواف يُهَرْوِلون ، فقال : ما أشبّههم إلا ببقر تدوس في البَيْدَر . وله يقول العلاء بن الحداد الأعمىٰ :

أَيا أَمينَ اللهِ في خَلقِهِ ووارثَ الكعبةِ والمِنْبَرْ
ماذا تَرَى في رجلٍ كافرٍ يُشَبِّهُ الكعبةَ بالبَيْدَرْ
ويَجعلُ الناسَ إذا ما سَعَوْا حُمْراً تَدوسُ البُرَّ والدَّوْسَرْ!

فقتله موسىٰ ثم صلبه ، فسقطت خشبتُه على رجل من الحاجّ فقتلتْه وقتلتْ حماره . وقُتِل من بني هاشم يعقوب بن الفضل .

وذكر عن عليّ بن محمد الهاشميّ ، قال : كان المهديّ أُتِيَ بابنٍ لداود بن علي زنديقاً ، وأُتِيَ بيعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب زنديقاً ، في مجلسين متفرقين ، فقال لكل واحد منهما

كلاماً واحداً ، وذلك بعد أن أقرّا له بالزندقة ، أما يعقوب بن الفضل فقال له : أُقِرُّ بها بيني وبينك ، فأمّا أن أظهِر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض ، فقال له : ويلك! لو كُشفت لك السموات ، وكان الأمر كما تقول ، كنتَ حقيقاً أن تغضب لمحمد ، ولولا محمد ﷺ مَنْ كنت! هل كنت إلا إنساناً من الناس! أما والله لولا أني كنْت جعلت لله عليَّ عهداً إذا ولأني هذا الأمر ألاّ أقتل هاشميّاً لما ناظرتك ولقتلتُك . ثم التفت إلى موسى الهادي ، فقال : يا موسىٰ ، أقسمت عليك بحقي إن وليت هذا الأمر بعدي ألاّ تناظرهما ساعة واحدة . فمات ابن داود بن عليّ في الحبس قبل وفاة المهديّ ، وأما يعقوب فبقي حتى مات المهديّ . وقدم موسىٰ من جُرجان فساعة دخل ، ذكر وصيّة المهديّ ، فأرسل إلى يعقوب من ألقىٰ عليه فراشاً ، وأقعِدت الرجال عليه حتى مات . ثم لها عنه ببيعته وتشديد خلافته ، وكان ذلك في يوم شديد الحرّ ، فبقي يعقوب حتى مضى من الليل هدء ، فقيل لموسىٰ : يا أميرَ المؤمنين ، إن يعقوب قد انتفخ وأروَح . قال : ابعثوا به إلى أخيه إسحاق بن الفضل ، فخبَّروه أنه مات في السجن ، فجُعل في زورق وأُتِيَ به إسحاق ، فنظر فإذا ليس فيه موضع للغسل ، فدفنه في بستان له من ساعته ، وأصبح فأرسل إلى الهاشميِّين يخبرهم بموت يعقوب ويدعوهم إلى الجنازة ، وأمر بخشبة فعمِلت في قدّ الإنسان فغشيت قطنا ، وألبسها أكفاناً ، ثم حملها على السرير ، فلم يشكّ مَن حضرها أنه شيء مصنوع .

وكان ليعقوب ولد من صُلْبه : عبد الرحمن والفضل وأروى فاطمة ، فأمّا فاطمة فوجدت حُبلى منه ، وأقرّت بذلك .

قال عليّ بن محمد : قال أبي : فأدخِلت فاطمة وامرأة يعقوب بن الفضل ـ وليست بهاشمية ، يقال لها خديجة ـ على الهادي ـ أو على المهديّ من قبْل ـ فأقرّتا بالزندقة ، وأقرّت فاطمة أنها حامل من أبيها ، فأرسل بهما إلى رَيْطة بنت أبي العباس ، فرأتهما مكتحلتين مختضبِتين ، فعذلتْهما ، وأكثرت على الابنة خاصّة ، فقالت : أكرَهني ، قالت : فما بال الخضاب والكحل والسرور ، إن كنت مكرهة! ولعنتهما . قال : فخُبِّرت أنهما فَزِعتا فماتتا فزَعاً ، ضُرب على رَأَسَيهما بشيء يقال له الرعبوب . ففزعتا منه ، فماتتا . وأما أروى فبقِيَتْ فتزوّجها ابن عمها الفضل بن إسماعيل بن الفضل ، وكان رجلاً لا بأس به في دينه .

وفيها قدم وندا هرمز صاحب طَبَرستان إلى موسى بأمان ، فأحسن صلَته ، وردّه إلىٰ طَبَرِسْتان .

* * *

ذكر بقيّة الخبر
عن الأحداث التي كانت سنة تسع وستين ومائة

* ذكر الخبر عن خروجه ومقتله :

ذكر عن محمد بن موسى الخوارزميّ أنه قال : كان بين موت المهديّ وخلافة الهادي ثمانية أيام. قال : ووصل إليه الخبر وهو بجُرجان ، وإلى أن قدم مدينة السّلام إلى خروج الحسين بن عليّ بن الحسن ، وإلى أن قتل الحسين ، تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً .

وذكر محمد بن صالح ، أنّ أبا حفص السُّلمِيّ حدّثه ، قال : كان إسحاق بن عيسى بن عليّ على المدينة ، فلما مات المهديّ ، واستخلف موسىٰ ، شخص إسحاق وافداً إلى العراق إلى موسىٰ ، واستخلف على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشميّ أن إسحاق بن عيسىٰ بن عليّ استعفى الهاديَ وهو على المدينة ، واستأذنه في الشُّخوص إلى بغداد ، فأعفاه ، وولّى مكانَه عمر بن عبد العزيز وأن سبب خروج الحسين بن علي بن الحسن كان أن عمر بن عبد العزيز لما تولى المدينة ـ كما ذكر الحسين بن محمد عن أبي حفص السُّلمِيّ ـ أخذ أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندُب الشَاعر الهذليّ وعمر بن سلاّم مولى آل عمر على شراب لهم ، فأمر بهم فضربوا جميعاً ، ثم أمر بهم فجُعل في أعناقهم حبال وطِيف بهم في المدينة ، فكلِّم فيهم ، وصار إليه الحسين بن عليّ فكلمه ، وقال : ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ، ولم يكن لك أن تضربهم ، لأنّ أهل العراق لا يروْن به بأساً ، فلمَ تطوف بهم! فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردّهم ، وأمر بهم إلى الحَبْسِ ، فحبِسوا يوماً وليلة ، ثم كلِّم فيهم فأطلقهم جميعاً ، وكانوا يُعرَضون ، ففُقد الحسن بن محمد ، وكان الحسين بن عليّ كفيله .

قال محمد بن صالح: وحدّثني عبد الله بن محمد الأنصاريّ أن العُمَريّ كان كَفَّل بعضهم من بعض، فكان الحسين بن عليّ بن الحسن ويحيىٰ بن عبد الله بن الحسن كفيلين بالحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، وكان قد تزوّج مولاةً لهم سوداء ابنة أبي لَيث مولىٰ عبد الله بن الحسن، فكان يأتيها فيُقيم عندها، فغاب عن العرض يوم الأربعاء والخميس والجمعة، وعرضهم خليفةُ العمريّ عشيَّة الجمعة، فأخذ الحسين بن عليّ ويحيى بن عبد الله، فسألهما عن الحسن بن محمد، فغلَّظ عليهم بعضَ التغليظ، ثم انصرف إلى العمريّ فأخبره خبرهم، وقال له: أصلحك الله! الحسن بن محمد غائب مذ ثلاث، فقال: ائتني بالحسين ويحيىٰ، فذهب فدعاهما، فلما دخلا عليه، قال لهما: أين الحسن بن محمد؟ قالا: والله ما ندري، إنما غاب عنا يوم الأربعاء، ثم كان يوم الخميس، فبلغنا أنه اعتلّ، فكنّا نظن أنّ هذا اليوم لا يكون فيه عرْض، فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه، فحلف يحيى بن عبد الله ألاَّ ينام حتىٰ يأتيه به أو يضرب عليه باب داره، حتى يعلم أنه قد جاءه به. فلما خرجا قال له الحسين: سبحان الله! ما دعاك إلى هذا؟ ومن أين تجد حسناً! حلفتَ له بشيء لا تقدر عليه. قال: إنما حلفتُ على حسن، قال: سبحان الله! فعلى أيّ شيء حلفت! قال: والله لا نمتُ حتىٰ أضرب عليه باب داره بالسيف. قال: فقال حسين: تَكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة، قال: قد كان الذي كان فلا بدّ منه.

وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بِمنًى أو بمكة في الموسم ـ فيما ذكروا ـ وقد كان قوم من أهل الكوفة من شيعتهم ـ وممن كان بايع الحسين ـ مُتمكِّنين في دار، فانطلقوا فعملوا في ذلك من عشيَّتهم ومن ليلتهم، حتى إذا كان في آخر الليل خرجوا. وجاء يحيىٰ بن عبد الله حتى ضرب باب دار مَرْوان على العمريّ، فلم يجده فيها، فجاء إلى منزله في دار عبد الله بن عمر فلم يجده أيضاً فيها، وتوارى منهم، فجاءوا حتى اقتحموا المسجد حين أذّنوا بالصبح، فجلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء، وجعل الناس يأتون المسجد، فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلُّون، فلما صلّى الغداة جعل الناس يأتونه، ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد. وأقبل خالد البربريّ، وهو يومئذ على الصوافي بالمدينة قائد على مائتين من الجند مقيمين بالمدينة، وأقبل فيمَن

معه ، وجاء العمريّ ووزير ابن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد الشرويّ ، ومعهم ناس كثير ، فيهم الحسين بن جعفر بن الحسين بن الحسين على حِمار ، واقتحم خالد البربريِ الرّحبة ، وقد ظاهر بين درعين ، وبيده السيف وعمود في منطقته ، مصلِتاً سيفَه ، وهو يصيح بحسين: أنا كسكاس ، قتلني الله إن لم أقتلك! وحمل عليهم حتى دنا منهم ، فقام إليه ابنا عبد الله بن حسن: يحيىٰ وإدريس ، فضربه يحيىٰ علىٰ أنف البيْضة فقطعها وقطع أنفه ، وشرقت عيناه بالدّم فلم يبصر ، فبرك يذبّب عن نفسه بسيفه وهو لا يبصر ، واستدار له إدريس من خلفه فضربه وصرَعه ، وعَلَواه بأسيافهما حتى قتلاَه ، وشدّ أصحابهما على درعيْه فخلعوهما عنه ، وانتزعوا سيفه وعموده ، فجاءوا به. ثم أمروا به فجُرّ إلى البلاط ، وحملوا على أصحابه فانهزموا. قال عبد الله بن محمد: هذا كله بعيني.

وذكر عبد الله بن محمد أن خالداً ضرب يحيى بن عبد الله ، فقطع البُرْنس ، ووصلت ضربته إلى يد يحيى فأثّرت فيها ، وضربه يحيى على وجهه ، واستدار رجل أعور من أهل الجزيرة فأتاه من خَلْفه ، فضربه على رِجْليه ، واعتورُوه بأسيافهم فقتلوه.

قال عبد الله بن محمد: ودخل عليهم المسوّدة المسجد حين دخل الحسين ابن جعفر على حماره ، وشدَّت المبيّضة فأخرجوهم ، وصاح بهم الحسين: ارفقوا بالشيخ ـ يعني الحسين بن جعفر ـ وانتُهب بيت المال ، فأصيب فيه بضعة عشر ألف دينار ، فضلت من العطاء ـ وقيل: إن ذلك كان سبعين ألف دينار كان بعث بها عبد الله بن مالك ، يفرض بها من خُزاعة ـ قال: وتفرّق الناس ، وأغلق أهل المدينة عليهم أبوابَهم ، فلما كان من الغد اجتمعوا واجتمعت شيعة ولد العباس ، فقاتلوهم بالبلاط فيما بين رحبة دار الفضل والزّوراء ، وجعل المسوّدة يحملون على المبيّضة حتى يبلغوا بهم رحبة دار الفضل ، وتحمل المبيّضة عليهم حتى يُبلَغ بهم الزَّوراء. وفشت الجراحات بين الفريقين جميعاً ، فاقتتلوا إلى الظهر ، ثم افترقوا ، فلما كان في آخر النهار من اليوم الثاني يوم الأحَد ، جاء الخبر بأن مباركاً التركيّ ينزل بئر المطَّلب ، فنشط الناس ، فخرجوا إليه فكلّموه أن يجيء ، فجاء من الغد حتى أتى الثّنيَة ، واجتمع إليه شيعة بني العبس ومن أراد القتال ، فاقتتلوا بالبلاط أشدّ قتال إلى انتصاف النهار ، ثم تفرّقوا. وجاء هؤلاء

إلى المسجد ، ومضى الآخرون إلى مبارك التركيّ ، إلى دار عمر بن عبد العزيز بالثنيَّة يقيل فيها ، وواعد الناس الرّواح ، فلما غفلوا عنه ، جلس على رَوَاحله فانطلق ، وراح الناس فلم يجدوه ، فناوشوهم شيئاً من القتال إلى المغرب ، ثم تفرَّقوا ، وأقام حسين وأصحابه أياماً يتجهَّزون. وكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوماً ، ثم خرج يوم أربعة وعشرين لستّ بقِين من ذي القعدة ، فلما خرجوا من المدينة عاد المؤذنون فأذنوا ، وعاد النّاس إلى المسجد ، فوجدوا فيه العظام التي كانوا يأكلون وآثارهم ، فجعلوا يدعون الله عليهم ، ففعل الله بهم وفعل.

قال محمد بن صالح: فحدّثني نصير بن عبد الله بن إبراهيم الجُمَحيّ ، أنّ حسيناً لما انتهىٰ إلىٰ السوق متوجِّهاً إلى مكة التفت إلى أهل المدينة ، وقال: لا خلف الله عليكم بخير! فقال الناس وأهل السوق: لا بل أنت ، لا خلف الله عليك بخير ، ولا ردّك! وكان أصحابه يُحدِثون في المسجد ، فملؤوه قذراً وبولاً ، فلما خرجوا غسل الناس المسجد.

قال: وحدّثني ابن عبد الله بن إبراهيم ، قال: أخذ أصحاب الحسين ستورَ المسجد ، فجعلوها خَفاتِين لهم ، قال: ونادىٰ أصحابُ الحسين بمكة: أيما عبدٍ أتانا فهو حرّ ، فأتاه العبيد ، وأتاه عبد كان لأبي ، فكان معه ، فلما أراد الحسين أن يخرج أتاه أبِي فكلمه ، وقال له: عمدتَ إلى مماليك لم تملكْهم فأعتقتَهم ، بم تستحلّ ذلك! فقال حسين لأصحابه: اذهبوا به ، فأيّ عبد عرَفه فادفعوا إليه ، فذهبوا معه ، فأخذ غلامه وغلامين لجيران لنا.

وانتهىٰ خبر الحسين إلى الهادي ، وقد كان حجّ في تلك السنة رجال من أهل بيته ، منهم محمد بن سليمان بن عليّ والعباس بن محمد وموسىٰ بن عيسىٰ ، سوى من حجّ من الأحداث. وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر ، فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب ، فقيل له: عمّك العباس بن محمد! قال: دعوني ، لا والله لا أخدَع عن ملكي ، فنفذ الكتاب بولاية محمد بن سليمان بن عليّ على الحرب ، فلقيَهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحجّ. وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدّة من السلاح والرجال ، وذلك لأن الطريق كان مخوفاً معوِراً من الأعراب ، ولم يحتشد لهم حسين ، فأتاه خبرهم ، فهم بصوبه ، فخرج بخدَمه وإخوانه. وكان موسى بن عليّ بن موسى قد صار

ببطْن نخل ، على الثلاثين من المدينة ، فانتهى إليه الخبر ومعه إخوانه وجواريه ، وانتهى الخبر إلى العباس بن محمد بن سليمان وكاتبهم ، وساروا إلى مكة فدخلوا ، فأقبل محمد بن سليمان ، وكانوا أحرموا بعُمْرة ، ثم صاروا إلى ذي طُوًىٰ ، فعسكروا بها ، ومعهم سليمان بن أبي جعفر ، فانضمّ إليهم من وافَىٰ في تلك السنة من شيعة ولد العباس ومواليهم وقُوّادهم. وكان الناس قد اختلفوا في تلك السنة في الحجّ وكثروا جدّاً. ثم قدّم محمد بن سليمان قدامه تسعين حافراً ما بين فَرس إلى بغل ، وهو على نجيب عظيم ، وخلفه أربعون راكباً على النجائب عليها الرِّحال وخلْفهم مائتا راكب على الحمير ، سوىٰ مَنْ كان معهم من الرّجالة وغيرهم، وكثروا في أعين الناس جدّاً وملؤوا صدورهم فظنّوا أنهم أضعافهم ، فطافوا بالبيت ، وسعَوْا بين الصَّفا والمرْوة ، وأحلّوا من عمرتهم ، ثم مضوا فأتوا ذا طُوىً ونزلوا ، وذلك يوم الخميس. فوجَّه محمد بن سليمان أبا كامل ـ مولًى لإسماعيل بن عليّ ـ في نيِّف وعشرين فارساً ، وذلك يوم الجمعة فلقيهم. وكان في أصحابه رجل يقال له زيد ، كان انقطع إلى العبّاس ، فأخرجه معه حاجّاً لما رأى من عبادته ، فلما رأى القوم قلب ترسه وسيفه ، وانقلب إليهم ، وذلك ببطن مرّ ، ثم ظفروا به بعد ذلك مشدّخاً بالأعمدة ، فلما كان ليلة السبت وجّهوا خمسين فارساً ، كان أوّل مَنْ ندبوا صباح أبو الذّيال ، ثم آخر ثم آخر ، فكان أبو خلوة الخادم مولى محمد خامساً ، فأتوا المفضّل مولى المهديّ ، فأرادوا أن يصيِّروه عليهم ، فأبى وقال: لا ، ولكن صيِّروا عليهم غيري وأكون أنا معهم ، فصيّروا عليهم عبد الله بن حُميد بن رُزين السمرقنديّ ـ وهو يومئذ شابّ ابن ثلاثين سنة ـ فذهبوا وهم خمسون فارساً ، وذلك ليلة السبت. فدنا القوم ، وزحفت الخيل ، وتعبّأ الناس ، فكان العباس بن محمد وموسى بن عيسى في الميسرة ، ومحمد بن سليمان في الميمنة ، وكان معاذ بن مسلم فيما بين محمد بن سليمان والعباس بن محمد ، فلما كان قبل طلوع الفجر جاء حسين وأصحابه فشدّ ثلاثة من موالي سليمان بن عليّ ـ أحدهم زنجويه غلام حسان ـ فجاءوا برأس فطرحُوه قُدّام محمد بن سليمان ـ وقد كانوا قالوا: مَنْ جاء برأس فله خمسمائة درهم ـ وجاء أصحاب محمد فعَرْقَبوا الإبل ، فسقطت محاملها. فقتلوهم وهزموهم ، وكانوا خرجوا من تلك الثَّنايا ، فكان الذين خرجوا مِمَا يلي محمد بن سليمان أقلّهم ، وكان جلُّهم خرجوا مما يلي موسى بن عيسىٰ

وأصحابه ، فكانت الصدمة بهم ، فلما فرغ محمد بن سليمان ممّن يليه وأسْفروا ، نظروا إلى الذين يلون موسىٰ بن عيسىٰ ، فإذا هم مجتمعون كأنهم كبّة غَزْل ، والتفّت الميمنة والقلب عليهم ، وانصرفوا نحو مكّة لا يدرون ما حال الحسين ، فما شعروا وهم بذي طُوًى أو قريباً منها إلا برجل من أهل خراسان ، يقول: البشرى البشرىٰ! هذا رأس حُسين ، فأخرجه وبجبهته ضربة طولاً ، وعلى قفاه ضربة أخرىٰ ، وكان الناس نادوا بالأمان حين فرغوا ، فجاء الحسن بن محمد أبو الزّفت مغمِضاً إحدى عينيه ، قد أصابها شيء في الحرب ، فوقف خلف محمد والعباس ، واستدار به موسىٰ بن عيسىٰ وعبد الله بن العباس. فأمر به فقتِل ، فغضب محمد بن سليمان من ذلك غضباً شديداً. ودخل محمد بن سليمان مكة من طريق والعباس بن محمد من طريق ، واحتُزَّت الرؤوس ، فكانت مائة رأس ونيّفاً ، فيها رأس سليمان بن عبد الله بن حسن وذلك يوم التروية. وأخذت أخت الحسين ، وكانت معه فصيرت عند زينب بنت سليمان ، واختلطت المنهزمة بالحجاج ، فذهبوا ، وكان سليمان بن أبي جعفر شاكياً فلم يحضر القتال ، ووافى عيسى بن جعفر الحجّ تلك السنة ، وكان مع أصحاب حسين رجلٌ أعمى يقصّ عليهم فقتِل ، ولم يقتَل أحد منهم صبراً.

قال الحسين بن محمد بن عبد الله: وأسر موسى بن عيسىٰ أربعة نفر من أهل الكوفة ، ومولىٰ لبني عجْل وآخر.

قال محمد بن صالح: حدّثني محمد بن داود بن عليّ ، قال: حدّثنا موسى بن عيسىٰ ، قال: قدمتُ معي بستّة أسارى فقال لي الهادي ، هيه! تقتل أسيري! فقلت: يا أمير المؤمنين ، إني فكرت فيه فقلت ، تجيء عائشة وزينب إلى أمّ أمير المؤمنين ، فتبكيان عندها وتكلّمانها ، فتكلّم له أمير المؤمنين فيطلقه. ثم قال: هاتِ الأسرىٰ ، فقلت: إني جعلت لهم العهد والمواثيق بالطلاق والعَتاق ، فقال: ائتني بهم وأمر باثنين فقتلا ، وكان الثالث منكراً ، فقلت: يا أميرَ المؤمنين ، هذا أعلم الناس بآل أبي طالب، فإن استبقيتَه دَلّك على كل بغية لك، فقال: نعم والله يا أميرَ المؤمنين، إني أرجو أن يكون بقائي صنعاً لك، فأطرق ثم قال: والله لإفلاتُك من يدي بعد أن وقعتَ في يدي لشديد ، فلم يزل يكلمه حتى أمر به أن يؤخّر ، وأمره أن يكتب له طلبته ، وأمّا الآخر فصفح عنه ، وأمر بقتل

عذافر الصيرفي وعليّ بن السابق القلاس الكوفيّ ، وأن يصلبَا ، فصلبوهما بباب الجسر ، وكانا أُسِرا بفَخّ. وغضب على مبارك التركيّ ، وأمر بقبض أمواله وتصييره في ساسة الدوابّ ، وغضب على موسىٰ بن عيسىٰ لقتله الحسن بن محمد ، وأمر بقبض أمواله.

وقال عبد الله بن عمرو الثلجيّ: حدّثني محمد بن يوسف بن يعقوب الهاشميّ ، قال: حدثّني عبد الله بن عبد الرحمن بن عيسىٰ ، قال: أفلت إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب ، من وقعة فَخّ في خلافة الهادي ، فوقع إلى مصر ، وعلى بريد مصر واضح مولى لصالح بن أمير المؤمنين المنصور ، وكان رافضياً خبيثاً ، فحمله على البريد إلى أرض المغرب ، فوقع بأرض طَنْجة بمدينة يقال لها وَليلة ، فاستجاب له مَنْ به وبأعراضها من البربر ، فضرب الهادي عنق واضح وصلَبه.

ويقال: إنّ الرّشيد الذي ضرب عنقه ، وأنه دس إلى إدريس الشماخ اليماميّ مولى المهديّ ، وكتب له كتاباً إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقيَّة ، فخرج حتى وصل إلى وليلة وذكر أنه متطبِّب ، وأنه من أوليائهم ، ودخل على إدريس فأنِس به واطمأنّ إليه ، وأقبل الشمّاخ يريه الإعظام له والميل إليه والإيثار له فنزل عنده بكلّ منزلة. ثم إنه شكا إليه علّةً في أسنانه ، فأعطاه سنوناً مسموماً قاتلاً ، وأمره أن يستنّ به عند طلوع الفجر لليلته ، فلما طلع الفجر استنّ إدريس بالسنون ، وجعل يردّه في فيه ، ويكثِّر منه ، فقتله. وطُلِب الشمّاخ فلم يُظفر به ، وقدم على إبراهيم بن الأغلب فأخبره بما كان منه ، وجاءته بعد مقدمة الأخبار بموت إدريس ، فكتب ابن الأغلب إلى الرّشيد بذلك ، فولّى الشمّاخ بريد مصر وأجاره ، فقال في ذلك بعض الشعراء ـ أظنه الهنازيّ:

أَتَظـنّ يـا إِدْريـسُ أَنَّـكَ مُفْلِـتٌ ... كيْـدَ الخليفـةِ أَوْ يُفيـدُ فِـرارُ
فَلْيُـدْرِكنَّـكَ أَوْ تحِـلَّ بِبَلْـدَةٍ ... لا يَهْتَـدِي فيهـا إِلَيـك نهـارُ
إنَّ السُيـوفَ إذا انتضـاهـا سُخْطُـهُ ... طـالـتْ وقَصَّـرَ دُونهـا الأَعمـارُ
مَلِـكٌ كـأَنَّ المَـوْتَ يَتْبَـعُ أَمْـرَهُ ... حتـى يقـال: تُطيعُـهُ الأَقـدارُ

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشميّ أن الحسين بن عليّ لما خرج بالمدينة وعليها العُمَريّ لم يزل العمري متخفِّياً مقامَ الحسين بالمدينة ، حتى خرج إلى

مكة. وكان الهادي وجّه سليمان بن أبي جعفر لولاية الموسم ، وشخص معه من أهل بيته ممن أراد الحجّ العباس بن محمد وموسىٰ بن عيسىٰ وإسماعيل بن عيسى ابن موسى في طريق الكوفة ، ومحمد بن سليمان وعدّة من ولد جعفر بن سليمان على طريق البصرة ، ومن الموالي مبارك التركي والمفضل الوصيف وصاعد مولى الهادي ـ وكان صاحب الأمر سليمان ـ ومن الوجوه المعروف يقطين بن موسى وعبيد ابن يقطين وأبو الوزير عمر بن مطرّف ، فاجتمعوا عند الذي بلغهم من توجّه الحسين ومَنْ معه إلى مكة ، ورأّسوا عليهم سليمان بن أبي جعفر لولايته ، وكان قد جُعل أبو كامل مولى إسماعيل على الطلائع ، فلقوه بفخّ ، وخلّفوا عبيد الله بن قُثَم بمكة للقيام بأمرها وأمر أهلها ، وقد كان العباس بن محمد أعطاهم الأمان على ما أحدثوا ، وضمن لهم الإحسان إليهم والصلة لأرحامهم ، وكان رسولهم في ذلك المفضّل الخادم ، فأبوْا قبول ذلك ، فكانت الوقعة ، فقتل مَنْ قتل ، وانهزم الناس ، ونودي فيهم بالأمان ، ولم يُتْبَع هارب ، وكان فيمن هرب يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن حسن ، فأما إدريس فلحق بتاهَرْت من بلاد المغرب ، فلجأ إليهم فأعظموه ، فلم يزل عندهم إلى أن تُلُطِّف له ، واحتِيل عليه ، فهلك ، وخلفه ابنه إدريس بن إدريس ، فهم إلى اليوم بتلك الناحية مالكين لها ، وانقطعت عنهم البعوث.

قال المفضل بن سليمان: لما بلغ العمريَّ وهو بالمدينة مقتلُ الحسين بفخّ وثب على دار الحسين ودور جماعة من أهل بيته وغيرهم ممنّ خرج مع الحسين ، فهدمها وحرَّق النخل ، وقبض ما لم يحرقه ، وجعله في الصوافي المقبوضة. قال: وغضب الهادي على مبارك التركيّ لِما بلغه من صدوده عن لقاء الحسين بعد أن شارف المدينة ، وأمر بقبض أمواله وتصييره في سياسة دوابه ، فلم يزل كذلك إلى وفاة الهادي ، وسخط على موسىٰ بن عيسىٰ لقتله الحسن بن محمد بن عبد الله أبي الزفت ، وتَرْكه أن يقدم به أسيراً ، فيكون المحكّم في أمره ، وأمَرَ بقبض أمواله ، فلم تزل مقبوضة إلى أن تُوفِّيَ موسى. وقدم على موسىٰ ممن أسِر بفَخ الجماعة ، وكان فيهم عذافر الصيرفيّ وعليّ بن سابق القلاّس الكوفيّ ، فأمر بضرب أعناقهما وصلْبهما بباب الجسر ببغداد ، ففُعِل ذلك. قال: ووجّه مهرويه مولاه إلى الكوفة ، وأمره بالتغليظ عليهم لخروج مَنْ خَرج منهم مع الحسين.

وذكر عليّ بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، قال: حدّثني يوسف البَرْم مولى آل الحسن ـ وكانت أمّه مولاة فاطمة بنت حسن ـ قال: كنت مع حسين أيام قدم على المهديّ ، فأعطاه أربعين ألف دينار ، ففرّقها في الناس ببغداد والكوفة ، ووالله ما خرج من الكوفة وهو يملك شيئاً يلبسه إلا فرواً ما تحته قميص وإزار الفراش ، ولقد كان في طريقه إلى المدينة ، إذا نزل استقرض من مواليه ما يقوم بمؤونتهم في يومهم.

قال عليّ: وحدثني السريّ أبو بشر ، وهو حليف بني زهرة ، قال: صلَّيتُ الغداة في اليوم الذي خرج فيه الحسين بن عليّ بن الحسن صاحب فخّ ، فصلَّى بنا حسين ، وصعد المنبر منبر رسول الله ﷺ ، فجلس وعليه قميص وعمامة بيضاء قد سدَلها من بين يديه ومن خلْفه ، وسيفه مسلول قد وضعه بين رجليه ، إذ أقبل خالد البربريّ في أصحابه ، فلما أراد أن يدخل المسجد بَدَره يحيى بن عبد الله ، فشدّ عليه البربريّ ، وإني لأنظر إليه ، فبدرَه يحيىٰ بن عبد الله ، فضربه على وجهه ، فأصاب عينيه وأنفه ، فقطع البيضة والقلنسوة ، حتى نظرتُ إلى قحفْه طائراً عن موضعه ، وحمل على أصحابه فانهزموا. ثم رجع إلى حسين ، فقام بين يديه وسيفه مسلول يقطر دماً ، فتكلّم حسين ، فحمد الله وأثنى عليه ، وخطب الناس ، فقال في آخر كلامه: يا أيها النَاس ، أنا ابن رسول الله في حرم رسول الله ، وفي مسجد رسول الله ، وعلى منبر نبيّ الله ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فإن لم أفِ لكم بذلك فلا بيعةَ لي في أعناقكم. قال: وكان أهل الزيارة في عامهم ذلك كثيراً ، فكانوا قد ملؤوا المسجد ، فإذا رجل قد نهض ، حسن الوجه ، طويل القامة ، عليه رداءٌ ممشّق ، أخذ بيد ابن له شابّ جميل جَلْد ، فتخطَّىٰ رقاب الناس ، حتى انتهى إلى المنبر ، فدنا من حسين ، وقال: يا بنَ رسول الله ، خرجتُ من بلد بعيد وابني هذا معي ، وأنا أريد حجّ بيت الله وزيارة قبر نبيه ﷺ ، وما يخطر ببالي هذا الأمر الّذي حدث منك ، وقد سمعتُ ما قلتَ ، فعندك وفاء بما جعلت على نفسك؟. قال: نعم ، قال: ابسط يدَك فأبايعك ، قال: فبايعه ، ثم قال لابنه: ادن فبايعْ. قال: فرأيتُ والله رؤوسهما في الرؤوس بمنىً ، وذلك أني حججت في ذلك العام.

قال: وحدّثني جماعة من أهل المدينة أنّ مباركاً التركيّ أرسل إلى حسين بن

عليّ: والله لأن أسقط من السماء فتخطفني الطير ، أو تهوي بي الريح في مكان سحيق ، أيسر عليّ من أن أشوكك بشوكة ، أو أقطع من رأسك شعرة ، ولكن لابدّ من الإعذار ، فبَيِّتْني فإني منهزم عنك. فأعطاه بذلك عهدَ الله وميثاقه. قال: فوجَّه إليه الحسين ـ أو خرج إليه ـ في نفر يسير ، فلما دنوْا من عسكره صاحوا وكَبَّرُوا ، فانهزم أصحابه حتىٰ لحق بموسىٰ بن عيسىٰ.

وذكر أبو المِضْرَحيّ الكلابيّ ، قال: أخبرني المفضّل بن محمد بن المفضّل ابن حسين بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب ، أنّ الحسين بن عليّ بن حسن بن حسن ، قال يومئذ في قوم لم يخرجوا معه ـ وكان قد وعدوه أن يوافوه ، فتخلّفوا عنه ـ متمثِّلاً:

من عاذَ بالسّيفِ لاَقَى فُرْصَةً عجَباً ... مَوْتاً على عجلٍ أو عاش منتصِفا
لا تَقرَبوا السَّهلَ إنَّ السَّهلَ يُفسِدُكم ... لَن تُدْركوا المجدَ حتى تضربُوا عُنفا

وذكر الفضل بن العباس الهاشميّ أن عبد الله بن محمد المنقريّ حدّثه عن أبيه ، قال: دخل عيسىٰ بن دأب علىٰ موسىٰ بن عيسىٰ عند منصرَفه من فَخّ ، فوجده خائفاً يلتمس عذراً مِن قتل مَن قتل ، فقال له: أصلح الله الأمير! أنشدك شعراً كتبَ به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه؟ قال: أنشدني ، فأنشده ، فقال:

يا أيّها الراكبُ الغادِي لِطَيّتِهِ ... على عُذافِرَةٍ في سَيْرِها قُحَمُ
أَبلغْ قرَيشاً على شَحْط المَزارِ بها ... بيْني وبيْنَ الحُسينِ اللهُ والرَّحِمُ
وَمَوْقِفٍ بِفناءِ البيْتِ أنْشُدُهُ ... عهْدَ الإلهِ وَمَا تُرْعَى له الذِّمَمُ
عنَّفتمُ قَومكم فَخْراً بأُمِّكُمُ ... أمٌّ حَصَانٌ لعَمْري بَرَّةٌ كرَمُ
هي التي لا يُداني فَضلَها أَحَدٌ ... بنتُ النبيِّ وَخَيْرِ الناسِ قَدْ علموا
وفَضلها لكمُ فضلٌ وغيرُكمُ ... مِنْ قَومكمْ لَهُمُ مِن فضلها قِسَمُ
إنـي لأعلَمُ أو ظنًّا كعالِمِهِ ... والظنّ يَصْدُقُ أحياناً فَيَنْتَظِمُ
أَن سوفَ يَتْرُككمْ ما تطلبونَ بها ... قتْلَى تهاداكمُ العِقبان والرّخَمُ
يا قَومَنا لا تُشبّوا الحَربَ إذ خَمَدَت ... ومَسِّكوا بحِبالِ السِّلْمِ واعْتَصِموا
لا ترْكبوا البَغْي إنَّ البغْيَ مَصْرَعَةٌ ... وَإنَّ شاربَ كأْسِ البَغْيِ يَتَّخِمُ
قَدْ جرَّبَ الحَرْبَ من قَدْ كان قبلكمُ ... مِنَ القرونِ وقَد بادتْ بها الأُمَمُ

فأَنْصفوا قومكم لا تهلَكوا بذَخاً فَرُبَّ ذي بَذخٍ زَلَّتْ بِهِ القَدَمُ

قال: فسرِّيَ عن موسىٰ بن عيسىٰ بعض ماكان فيه.

وذكر عبد الله بن عبد الرحمن بن عيسىٰ بن موسىٰ أنّ العلاء حدّثه أن الهاديَ أمير المؤمنين لمّا ورد عليه خلعُ أهل فخّ خَلا ليله يكتب كتاباً بخطّه، فاغتمّ بخلوته مواليه وخاصّته، فدسُّوا غلاماً له، فقالوا: اذهب حتى تنظر إلىٰ أي شيء انتهىٰ الخبر، قال: فدنا من موسىٰ، فلما رآه قال: مالك؟ فاعتلّ عليه، قال: فأطرق ثم رفع رأسه إليه، فقال:

رَقَدَ الأُلَى ليس السُّرَى مِنْ شَأْنِهِمْ وكفَاهُمُ الإِدْلاجَ من لم يَرْقُدِ

وذكر أحمد بن معاوية بن بكر الباهليّ، قال: حدثّنا الأصمعيّ، قال: قال محمد بن سليمان ليلة فخّ لعمرو بن أبي عمرو المدنيّ ـ وكان يرمي بين يديه بين الهدفين: ارمِ، قال: لا والله لا أرمي ولدَ رسول الله ﷺ، إني إنّما صحِبتك لأرمي بين يديك بين الهدَفيْن، ولم أصحبك لأرمي المسلمين.

قال: فقال المخزوميّ: ارمِ، فرمىٰ فما مات إلا بالبَرَص[1].

قال: ولما قتِل الحسين بن عليّ وجاء برأسه يقطين بن موسىٰ، فوُضِع بين يدي الهادي، قال: كأنكم والله جئتم برأس طاغوت من الطواغيت! إن أقلّ ما أجزيكم به أن أحرمكم جوائزكم. قال: فحرمهم ولم يعطهم شيئاً.

وقال موسىٰ الهادي: لما قُتل الحسين متمثّلاً:

قدْ أَنصَف القارَةَ مَنْ راماها إنا إذا ما فِئةً نلقاها

* نَرُدُّ أولاها على أخراها *

ثم دخلت سنة سبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وفاة يزيد بن حاتم بإفريقيّة فيها، ووليَها بعده رَوْح بن حاتم.

وفيها مات عبد الله بن مروان بن محمد في المطبَق.

---

(١) في إسناده أحمد بن معاوية بن بكر الباهلي قال ابن عدي في ترجمته: حدّث عن الثقات بالبواطيل وكان يسرق الحديث [الكامل في الضعفاء / تر١٢] و[ميزان الاعتدال / تر٦٢٣].

[ذكر الخبر عن وفاة موسىٰ الهادي]

وفيها توفِّيَ موسىٰ الهادي بعيساباذ ، واختُلف في السبب الذي كان به وفاته ، فقال بعضهم: كانت وفاته من قُرْحة كانت في جوفه. وقال آخرون: كانت وفاته من قِبَل جوارٍ لأمِّه الخيزُران ، كانت أمرتهنّ بقتله لأسباب نذكر بعضها.

* ذكرالخبر عن السبب الذي من أجله كانت أمرتهنّ بقتله:

* ذكر يحيىٰ بن الحسن أن الهاديَ نابذَ أمه ونافرها ، لمّا صارت إليه الخلافة ، فصارت خالصةُ إليه يوماً ، فقالت: إن أمّك تستكسيك ، فأمر لها بخزانة مملوءة كسوة. قال: ووُجِد للخيزران في منزلها من قراقر الوشي ثمانية عشر ألف قَرْقر. قال: وكانت الخيزران في أوّل خلافة موسى تفتات عليه في أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي ، فأرسل إليها ألا تخرجِي من خفَر الكفاية إلى بذاذة التبذُّل ، فإنه ليس من قَدْر النساء الاعتراض في أمر الملك ، وعليكِ بصلاتك وتسبيحك وتبتُّلك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك. قال: وكانت الخيزُران في خلافة موسىٰ كثيراً ما تكلّمه في الحوائج ، فكان يجيبها إلى كلِّ ما تسأله حتىٰ مضىٰ لذلك أربعة أشهر من خلافته ، وانثال النَّاس عليها ، وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلىٰ بابها ، قال: فكلَّمتْه يوماً في أمرٍ لم يجد إلىٰ إجابتها إليه سبيلاً ، فاعتلّ بعلة ، فقالت: لابدّ من إجابتي ، قال: لا أفعل ، قالت: فإني قد تضمّنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك. قال: فغضب موسىٰ ، وقال: ويل على ابن الفاعلة!! قد علمتُ أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك ، قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال: إذاً والله لا أبالي. وحمِيَ وغضب. فقامت مغضَبة ، فقال: مكانك تستوعي كلامي والله ، وإلاّ فأنا نفيّ من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قُوّادي أو أحد من خاصّتي أو خدمي لأَضربنّ عنقه ، ولأقبضنّ ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كلّ يوم! أما لكِ مغزل يشغلك ، أو مصحف يُذكرك ، أو بيت يصونك! إياك ثم إياك ، ما فتحتِ بابك لمليّ أو لذميّ ، فانصرفت ما تعقل ما تطأ ، فلم تنطق عنده بحُلْوة ولاَمُرّة بعدها.

قال يحيىٰ بن الحسن: وحدّثني أبي، قال: سمعت خالصة تقول للعباس ابن الفضل بن الربيع: بعث موسىٰ إلىٰ أمّه الخيزُران بأرزَّةٍ، وقال: استطبتُها فأكلتُ منها، فَكلي منها. قالت خالصة: فقلت لها: أمسكي حتىٰ تنظري، فإني أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه، فجاءوا بكلب فأكل منها، فتساقط لحمه، فأرسل إليها بعد ذلك، كيف رأيت الأرزّة؟ فقالت: وجدتها طيّبة، فقال: لم تأكلي، ولو أكلتِ لكنتُ قد استرحتُ منك، متىٰ أفلح خليفة له أمّ!.

قال وحدّثني بعضُ الهاشميين، أنَّ سبب موت الهادي كان أنه لمَّا جدّ في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر، وخافت الخيزُران على هارون منه، دسّت إليه من جواريها لمَّا مرض مَنْ قتله بالغمّ والجلوس علىٰ وجهه، ووجّهت إلىٰ يحيىٰ بن خالد: إنّ الرجُلَ قد تُوُفِّي، فاجدْد في أمرك ولا تقصِّر.

وذكر محمد بن عبد الرحمن بن بشار أنّ الفضل بن سعيد حدّثه، عن أبيه، قال: كان يتصل بموسىٰ وصولُ القوّاد إلى أمّه الخيزُران، يؤمّلون بكلامها في قضاء حوائجهم عنده، قال: وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلَبت على أمر المهديّ، فكان يمنعها من ذلك ويقول: ما للنساء والكلام في أمر الرجال! فلما كثر عليه مصيرُ من يصير إليها من قواده، قال يوماً وقد جمعهم: أيما خير؟ أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين، قال: فأيما خيرٌ، أمِّي أو أمهاتكم؟ قالوا: بل أمّك يا أمير المؤمنين، قال: فأيكم يحبّ أن يتحدّث الرجال بخبر أمه، فيقولوا: فعلتْ أمّ فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منا يحبّ ذلك، قال: فما بالُ الرجال يأتون أمي فيتحدّثون بحديثها! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ألبتَّةَ، فشقّ ذلك عليها فاعتزلتْه، وحلفتْ ألاّ تكلمه، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة.

* * *

[ذكر الخبر عما كان من خلع الهادي للرشيد]

وكان السبب في إرادة موسىٰ الهادي خلْع أخيه هارون حتى اشتدّ عليه في ذلك وجدّ ـ فيما ذكر صالح بن سليمان ـ أنّ الهاديَ لما أفضت إليه الخلافة أقرّ يحيىٰ ابن خالد علىٰ ما كان يلي هارون من عمل المغرب، فأراد الهادي خلعَ هارون

الرشيد والبيْعة لابنه جعفر بن موسىٰ الهادي ، وتابعه على ذلك القوّاد ، منهم يزيد بن مزيد وعبد الله بن مالك وعليّ بن عيسىٰ ومَنْ أشبههم ، فخلعوا هارون ، وبايعوا لجعفر بن موسىٰ ، ودسُّوا إلى الشيعة ، فتكلموا في أمره ، وتنقَّصوه في مجلس الجماعة ، وقالوا : لا نرضى به ، وصعب أمرهم حتى ظهر ، وأمر الهادي ألاَّ يسارَ قدّامَ الرشيد بحربة ، فاجتنبه الناس وتركوه ، فلم يكن أحدٌ يجترىء أن يسلِّم عليه ولا يقربه .

وكان يحيىٰ بن خالد يقوم بإنزال الرّشيد ولا يفارقه هو وولده ـ فيما ذكر ـ . قال صالح : وكان إسماعيل بن صُبيح كاتب يحيىٰ بن خالد ، فأحبّ أن يضعه موضعاً يستعلم له فيه الأخبار ، وكان إبراهيم الحرّانيّ في موضع الوزارة لموسىٰ ، فاستكتب إسماعيل ورفع الخبر إلى الهادي ، وبلغ ذلك يحيىٰ بن خالد ، فأمر إسماعيل أن يشخص إلى حرَّان ، فسار إليها ، فلما كان بعد أشهر سأل الهادي إبراهيم الحرانيّ : مَن كاتبك؟ قال : فلان كاتب ، وسمّاه ، فقال : أليس بلغني أن إسماعيل بن صُبيح كاتبك؟ قال : باطلٌ يا أمير المؤمنين ، إسماعيل بحرّان .

قال : وسُعِيَ إلى الهادي بيحيىٰ بن خالد ، وقيل له : إنه ليس عليك من هارون خلاف ، وإنما يفسده يحيىٰ بن خالد ، فابعث إلى يحيىٰ ، وتهدَّدْه بالقتل ، وارمِه بالكفر ، فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى بن خالد .

وذكر أبو حفص الكرمانيّ أن محمد بن يحيى بن خالد حدّثه ، قال : بعث الهادي إلى يحيى ليلاً ، فأيِس من نفسه ، وودَّع أهله ، وتحنَّط وجدّد ثيابه ، ولم يشكّ أنه يقتله ، فلمّا أدخِل عليه ، قال : يا يحيى ، مالي ولك! قال : أنا عبدُك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته . قال : فلمَ تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليّ! قال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ أنا حتىٰ أدخل بينكما! إنما صيرني المهديّ معه ، وأمرني بالقيام بأمره ، فقمت بما أمرني به ، ثم أمرتَني بذلك فانتهيت إلى أمرك . قال : فما الذي صنع هارون؟ قال : ما صنع شيئاً ، ولا ذلك فيه ولا عنده . قال : فسكن غضبُه . وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع ، فقال له يحيىٰ : لا تفعل ، فقال : أليس يترك لي الهنيء والمريء ، فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي! وكان هارون يجدُ بأمّ جعفر وجْداً شديداً ، فقال له يحيىٰ :

وأين هذا من الخلافة! ولعلك ألا يُتْرَكَ هذا في يدك حتى يخرج أجمَع ، ومنعه من الإجابة.

قال الكرمانيّ: فحدّثني صالح بن سليمان ، قال: بعث الهادي إلى يحيىٰ بن خالد وهو بعيساباذ ليلاً ، فراعه ذلك ، فدخل عليه وهو في خَلْوة ، فأمِر بطلب رجل كان أخافه ، فتغيّب عنه ، وكان الهادي يريد أن ينادمه ويمنعه مكانه من هارون ، فنادمه وكلّمه يحيى فيه ، فآمنه وأعطاه خاتم ياقوت أحمر في يده ، وقال: هذا أمانة ، وخرج يحيىٰ فطلب الرّجل ، وأتىٰ الهادي به فسرّ بذلك.

قال: وحدّثني غير واحد أنّ الرجل الذي طلبه كان إبراهيم الموصليّ.

قال صالح بن سليمان: قال الهادي يوماً للربيع: لا يدخل عليّ يحيىٰ بن خالد إلا آخر الناس. قال: فبعث إليه الرّبيع ، وتفرّغ له. قال: فلما جلس من غد أذن حتى لم يبق أحد ، ودخل عليه يحيىٰ ، وعنده عبد الصمد بن عليّ والعبّاس بن محمد وجِلّةُ أهله وقُوّاده ، فما زال يُدنِيه حتى أجلسه بين يديه ، وقال له: إني كنت أظلمك وأكفرك ، فاجعلني في حلّ ، فتعجب الناس من إكرامه إياه وقوله ، فقبّل يحيىٰ يده وشكر له ، فقال له الهادي: مَنِ الذي يقول فيك يا يحيىٰ:

لو يَمَسُّ البَخِيلُ راحةَ يحيىٰ ... لَسَخَتْ نَفْسُه بِبَذْلِ النَّوالِ

قال: تلك راحتُك يا أمير المؤمنين لا راحة عبدك!

قال: وقال يحيىٰ للهادي في خلع الرّشيد لما كلمه فيه: يا أميرَ المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكْث الأيمان هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتَهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر مِنْ بعده كان ذلك أوكدَ لبيعته ، فقال: صدقت ونصحت ، ولي في هذا تدبير.

قال الكِرمانيّ: وحدثني خزيمة بن عبد الله ، أمر الهادي بحبس يحيىٰ بن خالد على ما أراده عليه من خلْع الرشيد ، فرفع إليه يحيىٰ رقعة: إنّ عندي نصيحة ، فدعا به ، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، أخْلِني ، فأخلاه ، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، أرأيت إن كان الأمر ـ أسأل الله ألاّ: نبلغه ، وأن يقدّمنا قبله ـ أتظنّ أنّ الناس يسلِمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحُلُم ، ويرْضَوْن به لصلاتهم وحَجِّهم وغزوهم! قال: والله ما أظنّ ذلك ، قال: يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمَو إليها

أهلك وجِلَّتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك؟ فقال له: نبَّهتَني يا يحيىٰ ـ قال: وكان يقول: ما كلمَّتُ أحداً من الخلفاء كان أعقلَ من موسىٰ ـ قال: وقال له: لو أن هذا الأمر لم يعقَد لأخيك ، أما كان ينبغي أن تعقِده له ، فكيف بأن تحلّه عنه ، وقد عقده المهديّ له! ولكن أرىٰ أن تُقِرّ هذا الأمر يا أميرَ المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر ، وبلغ الله به ، أتيتَه بالرّشيد فخلع نفسه ، وكان أول مَنْ يبايعه ويعطيه صفقة يده. قال: فقبل الهادي قوله ورأيَه ، وأمر بإطلاقه.

وذكر الموصليّ عن محمد بن يحيىٰ ، قال: عزم الهادي بعد كلام أبي له على خلْع الرشيد ، وحمَله عليه جماعة من مواليه وقوّاده ، أجابه إلى الخلع أو لم يُجِبْه ، واشتد غضبه منه ، وضيّق عليه. وقال يحيى لهارون: استأذنه في الخروج إلى الصَّيْد ، فإذا خرجتَ فاستبعد ودافع الأيام ، فرفع هارون رقعة يستأذن فيها ، فأذن له ، فمضىٰ إلىٰ قصر مقاتل ، فأقام به أربعين يوماً حتىٰ أنكر الهادي أمرَه وَغمّه احتباسُه ، وجعل يكتب إليه ويصرفُه ، فتعلّل عليه حتىٰ تفاقم الأمر ، وأظهر شتمه ، وبسط مواليه وقوّادُه ألسنتَهم فيه ، والفضل بن يحيىٰ إذ ذاك خليفة أبيه ، والرّشيد بالباب ، فكان يكتب إليه بذلك ، وانصرف وطال الأمر.

قال الكرمانيّ: فحدّثني يزيد مولى يحيىٰ بن خالد ، قال: بعثت الخيزران عاتكة ـ ظئراً كانت لهارون ـ إلى يحيىٰ ، فشقّت جيبها بين يديه ، وتبكي إليه وتقول له: قالت لك السيدة: اللهَ اللهَ في ابني لا تقتله ، ودعه يجيب أخاه إلىٰ ما يسأله ويريده منه ، فبقاؤه أحبّ إليّ من الدنيا بجُمْع ما فيها. قال: فصاح بها ، وقال لها: وما أنت وهذا! إن لم يكن ما تقولين فإني وولدي وأهلي سنقْتَلُ قبله ، فإن اتُّهمت عليه فلست بمتَّهم علىٰ نفسي ولا عليهم. قال: ولمَّا لم ير الهادي يحيىٰ بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذَل له من إكرام وإقطاع وصلة ، بعث إليه يتهدّده بالقتل إن لم يكفّ عنه. قال: فلم تزل تلك الحال من الخوْف والخطر ، وماتت أم يحيى وهو في الخُلْد ببغداد ، لأن هارون كان ينزل الخُلْد ، ويحيى معه ، وهو وليّ العهد ، نازل في داره يلقاه في ليله ونهاره.

وذكر محمد بن القاسم بن الرّبيع ، قال: أخبرني محمد بن عمرو الروميّ ، قال: حدّثني أبي ، قال: جلس موسى الهادي بعد ما ملك في أوّل خلافته جلوساً

خاصّاً ، ودعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلْم بن قُتيبة والحرّانيّ ، فجلسوا عن يساره ، ومعهم خادم له أسود يقال له أسلَم ، ويكنىٰ أبا سليمان ، وكان يثِق به ويقدّمه ، فبينا هو كذلك ، إذ دخل صالح صاحب المصلّى ، فقال : هارون بن المهديّ ، فقال : ائذن له ، فدخل فسلم عليه ، وقبّل يديْه ، وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية ، فأطرق موسى ينظر إليه ، وأدمن ذلك ، ثم التفت إليه ، فقال : يا هارون ، كأني بك تحدِّث نفسك بتمام الرؤيا ، وتؤمِّل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خَرْط القتاد ، تؤمِّل الخلافة! قال : فبرك هارون على ركبتيه ، وقال : يا موسىٰ ، إنك إن تجبرتَ وُضعتَ ، وإن تواضعتَ رُفعتَ ، وإن ظَلَمْت خُتِلت ، وإني لأرجو أن يفضي الأمر إليّ ، فأُنْصِف مَنْ ظلمتَ ، وأصِل مَنْ قطعتَ ، وأصيِّر أولادك أعلى من أولادي ، وأزوّجهم بناتي ، وأبلغ ما يجب من حقّ الإمام المهديّ . قال : فقال له موسىٰ : ذلك الظنّ بك يا أبا جعفر ، ادن مني ، فدنا منه ، فقبَّل يديه ، ثم ذهب يعود إلى مجلسه ، فقال له : لا والشيخ الجليل ، والملك النبيل ـ أعني أباك المنصور ـ لا جلستَ إلاّ معي ، وأجلسه في صدر المجلس معه ، ثم قال : يا حَرّانيّ ، احمل إلى أخي ألف ألف دينار ، وإذا افتتح الخراج فاحْمِل إليه النصف منه ، واعرضْ عليه ما في الخزائن من مالنا ، وما أخِذ من أهل بيت اللعنة ، فيأخذ جميع ما أراد . قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصالح : أدنِ دابته إلى البساط . قال عمرو الروميّ : وكان هارون يأنس بي ، فقمت إليه فقلت : ياسيّدي ، ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين؟ قال : قال المهديّ : أرِيت في منامي كأني دفعت إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً ، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً ، فأما هارون فأورق قضيبه من أوله إلى آخرِه . فدعا المهديّ الحكَم بن موسىٰ الضمريّ ـ وكان يكنى أبا سفيان ـ فقال له : عبِّر هذه الرؤيا ، فقال : يملّكان جميعاً ، فأما موسىٰ فتقلّ أيامه ، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفة ، وتكون أيامُه أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر . قال : ولم يلبث إلاّ أياماً يسيرة ، ثم اعتل موسىٰ ومات ، وكانت علّته ثلاثة أيام .

قال عمرو الروميّ : أفضت الخلافة إلى هارون ، فزوّج حمدونة من جعفر ابن موسىٰ ، وفاطمة من إسماعيل بن موسىٰ ، ووَفَّىٰ بكلّ ما قال ، وكان دهرُه أحسن الدهور .

وذُكر أنّ الهاديَ كان قد خرج إلىٰ الحديثة ، حديثة الموصل ، فمرض بها ، واشتدّ مرضُه ، فانصرف. فذكر عمرو اليشكريّ ـ وكان في الخدم ـ قال : انصرف الهادي من الحديثة بعدما كتب إلى جميع عمّاله شرقاً وغرباً بالقدوم عليه ، فلما ثقُل اجتمع القوم الذين كانوا بايعوا لجعفر ابنه ، فقالوا : إن صار الأمر إلى يحيى قتَلَنا ولم يستبقنا ، فتآمروا على أن يذهب بعضهم إلى يحيىٰ بأمر الهادي ، فيضرب عنقه. ثم قالوا : لعلّ أمير المؤمنين يُفيق من مرضه ، فما عُذْرنا عنده! فأمسكوا. ثم بعثت الخيزُران إلى يحيى تعلِمه أنّ الرجل لمآبِه ، وتأمره بالاستعداد لما ينبغي ، وكانت المستوليةَ على أمر الرشيد وتدبير الخلافة إلى أن هلك ، فأحضِر الكتَّاب وجُمعوا في منزل الفضل بن يحيىٰ ، فكتبوا لليلتهم كتباً من الرشيد إلى العمَّال بوفاة الهادي ، وأنهم قد ولاّهم الرشيد ما كانوا يلُون ، فلما مات الهادي أنْفذوها علىٰ البُرُد.

وذكر الفضل بن سعيد ، أنّ أباه حدّثه أنَّ الخيزُران كانت قد حلفتْ ألاّ تكلم موسىٰ الهادي ، وانتقلت عنه ، فلما حضرتْه الوفاة ، وأتاها الرّسول فأخبرها بذلك ، فقالت : وما أصنع به؟ فقالت لها خالصةُ : قومي إلى ابنك أيتها الحرّة ، فليس هذا وقت تعتُّب ولا تغضّب. فقالت : أعطوني ماءً أتوضّأ للصلاة ، ثم قالت : أما إنَّا كنا نتحدّث أنه يموت في هذه الليلة خليفةٌ ، ويملك خليفة ، ويولَد خليفة ، قال : فمات موسىٰ ، وملَك هارون ، وولد المأمون.

قال الفضل : فحَدّثت بهذا الحديث عبد الله بن عبيد الله ، فساقه لي مثل ما حدثنيه أبي ، فقلت : فمن أين كان للخيزُران هذا العلم؟ قال : إنها كانت قد سمعت من الأوزاعيّ.

ذكر يحيى بن الحسن أنّ محمد بن سليمان بن عليّ حدثه ، قال : حدثتْني عمّتي زينب ابنة سليمان ، قالت : لما مات موسى بعيساباذ ، أخبرتْنا الخيزُران الخبر ، ونحن أربع نسوة ، أنا وأختي وأمّ الحسن وعائشة ، بُنيّات سليمان ، ومعنا رَيْطة أمّ عليّ ، فجاءت خالصة ، فقالت لها : ما فعل الناس؟ قالت : يا سيدتي ، مات موسىٰ ودفنوه ، قالت : إن كان مات موسىٰ ، فقد بقي هارون ، هات لي سَويقاً ، فجاءت بسَويق ، فشربت وسقتنا ، ثم قالت : هات لساداتي أربعمائة ألف دينار ، ثم قالت : ما فعل ابني هارون؟ قالت : حلف ألاّ يُصلِّيَ

الظهرَ إلا ببغداد. قالت: هاتوا الرّحائل ، فما جلوسي ها هنا ، وقد مضىٰ! فلحقته ببغداد.

* * *

وذكر الفضل بن إسحاق أنه كان طويلاً جسيماً جميلاً أبيض ، مشرَباً حُمرة ، وكان بشفته العليا تقلُّص، وكان يلقب موسىٰ أطبَق، وكان ولد بالسِّيروان من الريّ.

* * *

ذكر أولاده

وكان له من الأولاد تسعة ، سبعة ذكور وابنتان. فأما الذكور فأحدهم جعفر ـ وهو الذي كان يرشحه للخلافة ـ والعباس وعبد الله وإسحاق وإسماعيل وسليمان وموسىٰ بن موسىٰ الأعمى ، كلهم من أمهات أولاد. وكان الأعمى ـ وهو موسىٰ ـ ولد بعد موت أبيه. والابنتان ، إحداهما أم عيسىٰ كانت عند المأمون ، والأخرىٰ أمّ العباس بنت موسىٰ ، تلقَّب نُوتة.

* * *

ذكر بعض أخباره وسِيَره

ذكر إبراهيم بن عبد السلام ، ابن أخي السنديّ أبو طوطة ، قال: حدّثني السِّندي بن شاهك ، قال: كنت مع موسىٰ بجُرجان ، فأتاه نعيّ المهديّ والخلافة ، فركب البريد إلى بغداد ، ومعه سعيد بن سَلْم ، ووجَّهني إلى خُراسان ، فحدثني سعيد بن سَلْم ، قال: سرْنَا بين أبيات جُرجان وبساتينها ، قال: فسمع صوتاً من بعض تلك البساتين من رَجُل يتغنَّىٰ ، فقال لصاحب شرطته ، عليَّ بالرّجل الساعة ، قال: فقلت يا أمير المؤمنين، ما أشبه قصّة هذا الخائن بقصّة سليمان بن عبد الملك! قال: وكيف؟ قال: قلت له: كان سليمان بن عبد الملك في متنزَّهٍ له ومعه حُرَمه ، فسمع من بستان آخرِ صوت رجل يتغنَّى ، فدعا صاحبَ شرطته ، فقال: عليّ بصاحب الصوت ، فأُتِيَ به ،

فلما مثل بين يديه ، قال له : ما حَمَلك على الغناء وأنت إلى جنبي ومعي حُرَمي! أما علمت أن الرِّماك إذا سمعت صوت الفحل حنَّت إليه! يا غُلام جُبَّه ، فجُبَّ الرجل. فلما كان في العام المقبل رجعَ سليمان إلى ذلك المتنزه ، فجلس مجلسه الذي فيه ، فذكر الرجل وما صنع به ، فقال لصاحب شُرطته : عليّ بالرجل الذي كُنا جببناه ، فأحضره ، فلما مَثَل بين يديه قال له : إمّا بِعْتَ فوفَّيناك ، وإما وهبتَ فكافأناك ، قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ، ولكنَّه قال له : يا سليمان ، الله اللهَ! إنك قطعت نسلي ، فذهبت بماء وجهي ، وحرمتَني لذّتي ، ثم تقول : إمَّا وهبتَ فكافأناك ، وإما بعت فوفَّيْناك! لا والله حتى أقف بين يدي الله. قال : فقال موسىٰ : يا غلام ، ردّ صاحب الشرطة ، فردّه ، فقال : لا تعرض للرجل.

وذكر أبو موسى هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي ، أنّ عليّ ابن صالح حدّثه ، أنه كان يوماً على رأس الهادي وهو غلام ـ وقد كان جفا المظالم عامَّةً ثلاثة أيام ـ فدخل عليه الحَرّانيّ ، فقال له : يا أميرَ المؤمنين ، إن العامة لا تنقاد على ما أنتَ عليه ، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام ، فالتفت إليّ ، وقال : يا عليّ ، ائذن للناس ، عليّ بالجفَلى لا بالنّقَرَى ، فخرجت من عنده أطير على وجهي. ثم وقفت فلم أدر ما قال لي، فقلت : أراجع أميرَ المؤمنين، فيقول : أتحجبني ولا تعلم كلامي! ثم أدركني ذهني، فبعثت إلى أعرابي كان قد وفد، وسألته عن الجَفَلى والنَّقَرى، فقال : الجَفَلى جُفالة، والنقري ينقِّر خواصّهم. فأمرت بالستور فرفِعت وبالأبواب ففتِحت ، فدخل الناس على بَكْرَة أبيهم ، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل ، فلما تقوَّض المجلس مثلت بين يديه ، فقال : كأنك تريد أن تذكر شيئاً يا عليّ ، قلت : نعم يا أميرَ المؤمنين ، كلّمتني بكلام لم أسمعه قبل يومي هذا ، وخفت مراجعتَك ، فتقول : أتحجبني وأنت لم تعلم كلامي! فبعثت إلى أعرابيّ كان عندنا ، ففسّر لي الكلام ، فكافئه عني يا أميرَ المؤمنين ، قال : نعم مائة ألف درهم تحمَل إليه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إنه أعرابيّ جِلْف ، وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه ، فقال : ويلك يا عليّ! أجود وتَبْخَل! .

قال : وحدّثني عليّ بن صالح ، قال : ركب الهادي يوماً يريد عيادة أمِّه الخيزُران من علَّة كانت وجدتْها ، فاعترضه عمر بن بزيع ، فقال له : يا أميرَ

المؤمنين ، ألا أدلك على وجه هو أعوَد عليك من هذا؟ فقال: وما هو يا عمر؟ قال: المظالم لم تَنظر فيها منذ ثلاث ، قال: فأومأ إلى المطرِّقة أن يميلوا إلى دار المظالم ، ثم بعث إلى الخيزران بخادم من خدمه يعتذر إليها من تخلُّفه ، وقال: قل لها إن عمر بن بزيع أخبرنا منْ حقّ الله بما هو أوجب علينا من حقِّك ، فملنا إليه ونحن عائدون إليك في غدٍ إن شاء الله.

وذكر عن عبد الله بن مالك ، أنه قال: كنتُ أتولّىٰ الشُّرْطة للمهديّ ، وكان المهديّ يبعث إلى ندماء الهادي ومغنّيه ، ويأمرني بضربهم ، وكان الهادي يسألني الرّفْق بهم والترفيهَ لهم ، ولا ألتفت إلى ذلك ، وأمضي لما أمرني به المهديّ. قال: فلمَّا ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلَف ، فبعث إليّ يوماً ، فدخلت عليه متكفناً متحنِّطاً ، وإذا هو على كرسيّ ، والسيف والنِّطَع بين يديه ، فسلّمت ، فقال: لا سلم الله على الآخر! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحَرَّانيّ ، وما أمر أمير المؤمنين به من ضَرْبه وحبسه فلم تجبني ، وفي فلان وفلان ـ وجعل يعدد ندماءه ـ فلم تلتفت إلى قولي ، ولا أمري! قلت: نعم يا أمير المؤمنين ، أفتأذن [لي] في استيفاء الحجَّة؟ قال: نعم ، قلت: ناشدتك بالله يا أمير المؤمنين ، أيسرّك أنك ولّيتَني ما ولاّني أبوك ، فأمرتَني بأمر ، فبعث إليّ بعضُ بنيك بأمر يخالف به أمرك ، فاتّبعت أمرَه وعصيتُ أمرك؟ قال: لا ، قلت: فكذلك أنا لك ، وكذا كنت لأبيك. فاستدناني ، فقبّلت يديه ، فأمر بخِلَع فصبَّت عليّ ، وقال: قد ولَّيتُك ما كنتَ تتولاه ، فامض راشداً. فخرجت من عنده فصرت إلى منزلي مفكراً في أمري وأمره ، وقلت: حَدَثٌ يشرب ، والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتَّابه ، فكأني بهم حين يغلب عليهم الشراب قد أزالوا رأيَه فيّ ، وحملوه من أمري على ما كنت أكره وأتخوّفه. قال: فإنّي لجالس وبين يديّ بنيّةٌ لي في وقتي ذلك ، والكانون بين يديّ ، ورقاق أشطُره بكامخ وأسخّنه وأضعه للصِّبْية ، وإذا ضجة عظيمة ، حتىٰ توهمت أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت بوقع الحوافر وكثرة الضوضاء ، فقلت: هاه! كان والله ما ظننتُ ، ووافاني من أمره ما تخوّفت ، فإذا الباب قد فتح ، وإذا الخدم قد دخلوا ، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم ، فلمَّا رأيته وثبتُ عن مجلسي مبادراً ، فقبّلت يده ورجله وحافرَ حماره ، فقال لي: يا عبد الله ، إني

فكرت في أمرك ، فقلت : يسبق إلى قلبك أنّي إذا شربت وحولي أعداؤك ، أزالوا ما حسُن من رأيي فيك ، فأقلقَك وأوحشَك ، فصرتُ إلى منزلك لأونسَك وأعلِمك أنّ السخيمة قد زالت عن قلبي لك ، فهات فأطعمني مما كنتَ تأكل ، وافعل فيه ما كنت تفعل ، لتعلم أنّي قد تحرّمت بطعامك ، وأنست بمنزلك ، فيزول خوفُك ووحشتُك. فأدنيت إليه ذلك الرّقاق والسكُرَّجة التي فيها الكامخ ، فأكل منها ثم قال : هاتوا الزُّلَّة التي أزللتها لعبد الله من مجلسي. فأدخلت إليّ أربعمائة بغْل مُوقرة دراهم ، وقال : هذه زُلّتُكَ ، فاستعِنْ بها على أمرك ، واحفظ لي هذه البغال عندك ، لعلي أحتاج إليها يوماً لبعض أسفاري ، ثم قال : أظلك الله بخير ، وانصرف راجعاً.

فذكر موسىٰ بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره ، ثم بنى حوله معالف لتلك البغال ، وكان هو يتولّى النظر إليها والقيام عليها أيام حياة الهادي كلها.

وذكر محمد بن عبد الله بن يعقوب بن داود بن طهمان السُّلميّ. قال : أخبرني أبي ، قال : كان عليّ بن عيسىٰ بن هامان يغضب غضب الخليفة ، ويرضىٰ رضا الخليفة ، وكان أبي يقول : ما لعربيّ ولا لعجميّ عندي ما لعليّ بن عيسىٰ ، فإنه دخل إلىٰ الحبس وفي يده سوط ، فقال : أمرني أمير المؤمنين موسىٰ الهادي أن أضربَك مائة سوط ، قال : فأقبل يضعه على يدي ومنكبي ، يمسني به مسًّا إلىٰ أن عدّ مائة ، وخرج. فقال له : ما صنعت بالرّجل؟ قال : صنعتُ به ما أمرتَ. قال : فما حاله؟ قال : مات ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون! ويلك! فضحتَني والله عند الناس ، هذا رجل صالح ، يقول الناس : قتَل يعقوب بن داود! قال : فلما رأى شدّة جزعه ، قال : هو حيّ يا أمير المؤمنين لم يمُتْ ، قال : الحمد لله على ذلك.

قال : وكان الهادي قد استخلف على حجابته بعد الربيع ابنَه الفضل ، فقال له : لا تحجب عني الناس ، فإن ذلك يزيل عنّي البركة ، ولا تُلق إليّ أمراً إذا كشفتُه أصبتُه باطلاً ، فإن ذلك يوقع الملك ، ويضرّ بالرّعيَّة.

وقال موسىٰ بن عبد الله : أُتِيَ موسىٰ برجل ، فجعل يقرّعه بذُنوبه ويتهدده ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين ، اعتذاري مما تُقرّعُني به ردٌّ عليك ، وإقراري يوجب عليّ ذنباً ، ولكني أقول :

فإن كنتَ ترجو في العُقوبةِ رحمةً فلا تَزْهَدَنْ عندَ المُعافاة في الأَجر

قال: فأمر بإطلاقه.

وذكر عمر بن شبّة أن سعيد بن سلم كان عند موسى الهادي، فدخل عليه وفد الرّوم وعلى سعيد بن سلم قَلَنْسُوة ـ وكان قد صَلَع وهو حدَث ـ فقال له موسىٰ: ضع قلنسُوتك حتى تتشايخ بصلعتك.

وذكر يحيىٰ بن الحسن بن عبد الخالق أنّ أباه حدّثه، قال: خرجت إلى عيساباذ أريد الفَضْل بن الربيع، فلقيتُ موسىٰ أمير المؤمنين وهو خليفة، وأنا لا أعرفه، فإذا هو في غُلالة على فرس، وبيده قناة لا يدرك أحداً إلا طعنه، فقال لي: يا بن الفاعلة! قال: فرأيت إنساناً كأنّه صم، وكنت رأيته بالشام، وكان فخِذاه كفخذيْ بعير، فضربت يدي إلى قائم السيف، فقال لي رجل: ويلك! أمير المؤمنين، فحرّكت دابتي ـ وكان شِهْريًّا حملني عليه الفضل بن الربيع، وكان اشتراه بأربعة آلاف درهم ـ فدخلت دار محمد بن القاسم صاحب الحرس، فوقف على الباب، وبيده القناة، وقال: اخرج يا بن الفاعلة! فلم أخرج، ومرّ فمضى. قلت للفضل: فإني رأيتُ أمير المؤمنين، وكان من القصّة كذا وكذا، فقال: لا أرى لك وجهاً إلا ببغداد، إذا جئتُ أصلِّي الجمعة فالقَنِي، قال: فما دخلت عيساباذ حتى هلك الهادي.

وذكر الهيثم بن عروة الأنصاريّ أن الحسين بن معاذ بن مسلم ـ وكان رضيع موسى الهادي ـ قال: لقد رأيتُني أخلو مع موسىٰ، فلا أجد له هيبةً في قلبي عند الخلوة، لما كان يبسطني. وربّما صارعني فأصرعه غير هائب له، وأضرب به الأرض، فإذا تلبّس لبسة الخلافة ثم جلس مجلس الأمر والنهي قمتُ على رأسه، فوالله ما أملِكُ نفسي من الرِّعدة والهَيْبَة له.

وذكر يحيىٰ بن الحسن بن عبد الخالق أنّ محمد بن سعيد بن عمر بن مِهْرَان، حدّثه عن أبيه، عن جدّه، قال: كانت المرتبة لإبراهيم بن سلْم بن قتيبة عند الهادي، فمات ابنٌ لإبراهيم يقال له سلم، فأتاه موسى الهادي يعزِّيه عنه على حمار أشهب، لا يُمنع مُقبلٌ ولا يُردّ عنه مُسَلِّم، حتى نزل في رِواقه، فقال له: يا إبراهيم، سَرّك وهو عدوّ وفتنة، وحَزَنك وهو صلاة ورحمة. فقال: يا أميرَ

المؤمنين ، ما بقي منِّي جزء كان فيه حزن إلاَّ وقد امتلأ عزاء. قال: فلما مات إبراهيم صارت المرتبة لسعيد بن سلْم بعده.

وذكر عمر بن شبّة أن عليّ بن الحسين بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب كان يلقب بالجزريّ ، تزوج رُقيّة بنت عمرو العثمانية ـ وكانت تحت المهديّ ـ فبلغ ذلك موسىٰ الهادي في أوّل خلافته ، فأرسل إليه فجهَّله وقال: أعياك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين ، فقال: ما حرّم الله علىٰ خلقه إلاّ نساء جدّي ﷺ ، فأما غيرُهنّ فلا ولا كرامة. فشجّه بمخْصَرة كانت في يده ، وأمر بضربه خمسمائة سوط ، فضُرب ، وأراده أن يطلّقَها فلم يفعل ، فحمِل من بين يديه في نِطَع فألقِيَ ناحية ، وكان في يده خاتم سريّ فرآه بعضُ الخدم وقد غشي عليه من الضرب فأهوى إلى الخاتم فقبض على يد الخادم فدقَّها ، فصاح. وأتىٰ موسىٰ فأراه يدَه ، فاستشاط وقال: يُفعل هذا بخادمي ، مع استخفافه بأبي ، وقوله لي! وبعث إليه: ما حملك علىٰ ما فعلت؟ قال: قلْ له وسَلْه ، ومُرْه أن يضع يده علىٰ رأسك وليصدُقك. ففعل ذلك موسىٰ ، فصدقه الخادمُ ، فقال: أحسن والله ، أنا أشهدُ أنه ابنُ عمّي ، لو لم يفعل لانتفيتُ منه ، وأمر بإطلاقه.

وذكر أبو إبراهيم المؤذّن ، أنّ الهاديَ كان يثب علىٰ الدابّة وعليه درعان ، وكان المهديّ يسمّيه رَيْحانتي.

وذكر محمد بن عطاء بن مقدَّم الواسطيّ ، أن أباه حدّثه أنّ المهديّ قال لموسىٰ يوماً ـ وقد قُدِّم إليه زنديق ، فاستتابه ، فأبى أن يتوب ، فضرب عُنُقه وأمر بصلْبه: يا بنيَّ ، إن صار لك هذا الأمر فتجرّد لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهرٍ حسن ، كاجتناب الفواحش والزّهد في الدنيا والعمل للآخرة. ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطَّهور وترك قتل الهوامّ تحرّجاً وتحوُّباً ، ثم تخرجها من هذه إلىٰ عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تُبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبوْل وسرقة الأطفال من الطرُق ، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلىٰ هداية النُّور ، فارْفع فيها الخشب ، وجَرِّد فيها السيف ، وتقرّب بأمرها إلىٰ الله لا شريك له ، فإني رأيتُ جدَّك العباس في المنام قلَّدنِي بسيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين. قال: فقال موسىٰ بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر: أما والله لئن عشتُ لأقتلنّ

هذه الفرقة كلَّها حتىٰ لا أترك منها عيناً تطرُف.

ويقال: إنه أمر أن يهيّأ له ألف جِذْع، فقال: هذا في شهر كذا، ومات بعد شهرين.

وذكر أيوب بن عنابة أن موسىٰ بن صالح بن شيخ، حدّثه أن عيسىٰ بن دأب كان أكثرَ أهلِ الحجاز أدباً وأعذَبهم ألفاظاً، وكان قد حَظِيَ عند الهادي حُظوةً لم تكن عنده لأحد، وكان يدعو له بمتّكأ، وما كان يفعل ذلك بأحدٍ غيره في مجلسه. وكان يقول: ما استطلتُ بك يوماً ولا ليلة، ولا غبت عن عيني إلاّ تمنّيتُ ألا أرى غيرَك. وكان لذيذ المفاكهة طيّب المسامرة، كثير النادرة، جيد الشعر حسن الانتزاع له. قال: فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار، فلما أصبح ابنُ دأب وجّه قَهْرمانه إلى باب موسىٰ، وقال له: الْقَ الحاجب، وقُلْ له: يوجّه إلينا بهذا المال، فلقي الحاجب، فأبلغه رسالته، فتبسم وقال: هذا ليس إليّ، فانطلقْ إلى صاحب التوقيع ليُخرج له كتاباً إلى الديوان، فتدّبرُه هناك ثم تفعلُ فيه كذا وكذا. فرجع إلى ابن دأب فأخبره، فقال: دعْها ولا تعرض لها، ولا تسأل عنها. قال: فبينا موسىٰ في مستشرَف له ببغداد، إذْ نظر إلىٰ ابن دأب قد أقبل، وليس معه إلاّ غلام واحد! فقال لإبراهيم الحرّاني: أما ترىٰ ابن دأب، ما غيَّر من حاله، ولا تزين لنا، وقد بَرَرْناه بالأمس ليُرَى أثرُنا عليه! فقال له إبراهيم: فإن أمرني أميرُ المؤمنين عرضت له بشيء من هذا، قال: لا، هو أعلم بأمره، ودخل ابن دأب، فأخذ في حديثه إلىٰ أن عرّض له موسىٰ بشيء من أمره، فقال: أرىٰ ثوبك غسيلاً، وهذا شتاء يُحتاج فيه إلىٰ الجديد الليّن، فقال: يا أميرَ المؤمنين، باعي قصير عمّا أحتاج إليه، قال: وكيف وقد صرفنا إليك من برّنا ما ظننا أن فيه صلاح شأنك! قال: ما وصل إليّ ولا قبضتُه، فدعا صاحب بيت مال الخاصة، فقال: عجّل له الساعة ثلاثين ألف دينار، فأحضِرتْ وحُمِلت بين يديْه.

وذكر عليّ بن محمد، أنّ أباه حدّثه عن عليّ بن يقطين، قال: إني لعند موسى ليلة مع جماعة من أصحابه، إذ أتاه خادم فسارَّه بشيء، فنهض سريعاً، وقال: لا تبرحُوا، ومضىٰ فأبطأ، ثم جاء وهو يتنفّس، فألقى بنفسه علىٰ فِراشه يتنفَّس ساعة حتى استراح، ومعه خادم يحمل طبقاً مغطًّىٰ بمنديل، فقام بين

يديه ، فأقبل يُرعَد ، فعجبنا من ذلك. ثم جلس وقال للخادم: ضَعْ ما معك ، فوضع الطَّبَق ، وقال: ارفع المِنْديل ، فرفعه فإذا في الطَّبق رأسَا جاريتين ، لم أر والله أحسن من وجوههما قطّ ولا من شعورهما ، وإذا على رءوسهما الجوهر منظوم على الشعر ، وإذا رائحة طيِّبة تفوح ، فأعظمنا ذلك ، فقال: أتدرون ما شأنهما؟ قلنا: لا ، قال: بلغنا أنهما تتحابّان قد اجتمعتَا على الفاحشة ، فوكلتُ هذا الخادم بهما يُنهي إليّ أخبارهما ، فجاءني فأخبرني أنهما قد اجتمعتَا ، فجئت فوجدتهما في لحافٍ واحد على الفاحشة فقتلتهما ، ثم قال: يا غلامُ ، ارفع الرأسين قال: ثم رجع في حديثه كأن لم يصنع شيئاً.

وذكر أبو العباس بن أبي مالك اليماميّ أنّ عبد الله بن محمد البواب ، قال: كنت أحجب الهادي خليفةً للفضل بن الربيع ، قال: فإنه ذات يوم جالسٌ وأنا في داره ، وقد تغدّىٰ ودعا بالنبيذ ، وقد كان قبل ذلك دخل علىٰ أمه الخيزُران ، فسألته أن يولِّيَ خاله الغِطريف اليمن ، فقال: اذكريني به قبل أن أشرب ، قال: فلما عزم على الشرب وجّهَتْ إليه منيرةَ ـ أو زهرةَ ـ تذْكِره ، فقال: ارجعي فقولي: اختاري له طلاَق ابنته عُبيدة أو ولاية اليمن ، فلم تفهم إلا قوله: «اختاري له» فمرّت ، فقالت: قد اخترتُ له ولاية اليمن ، فطلّق ابنته عُبيدة ، فسمِع الصياح ، فقال: ما لكم؟ فأعلمْته الخبر ، فقال: أنت اخترت له ، فقال: ما هكذا أدّيَتْ إليّ الرسالة عنك. قال: فأمر صالحاً صاحب المصلى أن يقف بالسيف على رؤوس الندماء ليطلقوا نساءهم ، فخرج إليّ بذلك الخدَم ليعلموني ألاّ آذن لأحد. قال: وعلى الباب رجل واقف متلفع بطيلسانه ، يراوح بين قدميه ، فعنّ لي بيتان ، فأنشدتهما وهما:

خليلَــيَّ مِــنْ سَعْــدٍ أَلِمَّــا فَسَلِّمــا   على مــريــمٍ ، لا يُبْعِــدِ اللهُ مَــرْيمــا

وقُــولا لهــا: هَــذا الفِــراقُ عَــزَمْتِــهِ   فهــلْ مِــنْ نــوالٍ بَعــد ذاك فيُعلَمــا!

قال: فقال لي الرجل المتلفع بطليسانه: فنَعلما ، فقلت: ما الفرق بين «يعلما» و«نعلما»؟ فقال: إن الشعر يصلحه معناه ويفسده معناه ، ما حاجتنا إلى أن يعلم الناس أسرارنا! فقلت له: أنا أعلم بالشعر منك ، قال: فلمن الشعر؟ قلت: للأسود بن عُمارة النوفليّ ، فقال لي: فأنا هو ، فدنوتُ منه فأخبرته خبرَ

موسىٰ ، واعتذرت إليه من مراجعتي إياه. قال: فصرف دابَّته ، وقال: هذا أحقّ منزل بأن يترك.

قال مصعب الزبيريّ: قال أبو المعافى: أنشدت العباس بن محمد مديحاً في موسىٰ وهارون:

يـا خَيْـزُرانُ هَنـاكِ ثـمَّ هَنـاكِ إنَّ العبـادَ يَسـوسُهُـمْ إبنـاك

قال: فقال لي: إني أنصحك ، قال اليمانيّ: لا تذكر أمي بخير ولا بشرّ.

وذكر أحمد بن صالح بن أبي فنن ، قال: حدّثني يوسف الصيقل الشاعر الواسطيّ ، قال: كنا عند الهادي بجُرجان قبل الخلافة ودخوله بغداد ، فصعد مستشرفاً له حسناً ، فغُنِّيَ بهذا الشعر:

واسْتَقَلَّـتْ رجـالُهُـمْ بـالـرُّدَيْنـيِّ شُـرَّعـا

فقال: كيف هذا الشعر؟ فأنشدوه ، فقال: كنت أشتهي أن يكون هذا الغناء في شعر أرقَّ من هذا ، اذهبوا إلى يوسف الصيقل حتى يقول فيه ، قال: فأتوني فأخبروني الخبر ، فقلت:

لا تَلُمْنـي أَنَ أجـزَعـا سيِّـدِي قَـدْ تَمَنَّعـا
وابَـلائـي إن كـان مـا بَيْنَنَـا قَـدْ تَقَطَّعـا
إنَّ مُـوسـىٰ بفضلِـه جَمَـعَ الفَضْـلَ أَجمَعـا

قال: فنظر فإذا بعير أمامه ، فقال: أوقِروا هذا دراهم ودنانير ، واذهبوا بها إليه. قال: فأتوني بالبعير مُوقَراً.

وذكر محمد بن سعد ، قال: حدّثني أبو زهير ، قال: كان ابن دأب أحظىٰ الناس عند الهادي ، فخرج الفضلُ بن الربيع يوماً ، فقال: إنّ أمير المؤمنين يأمر مَن ببابه بالانصراف ، فأما أنتَ يابنَ دأب فادخل ، قال ابن دأب: فدخلت عليه وهو منبطح على فراشه ، وإن عَيْنَيْه لحمراوان من السَّهر وشرب الليل ، فقال لي: حدثني بحديث في الشراب ، فقلت: نعم يا أميرَ المؤمنين ، خرجتْ رَجْلة من كنانة ينتجعون الخمر من الشأم ، فمات أخ لأحدهم ، فجلسوا عند قبره يشربون ، فقال أحدهم:

لا تُصَـرِّدْ هـامَـةً مِـن شَـرْبِهـا أَسِقِـهِ الخمـرَ وإنْ كـان قُبِـرْ

أَسقِ أوصالاً وهاماً وصَدًى ... قاشعاً يَقْشَعُ قَشْعَ المُبْتَكِرْ
كان حُرًّا فهوى فيمن هَوَىٰ ... كُلّ عُودٍ وفُنونٍ منكسِرْ

قال: فدعا بدواة فكتبها، ثم كتب إلى الحرّاني بأربعين ألفَ درهم، وقال: عشرة آلاف لك، وثلاثون ألفاً للثلاثة الأبيات. قال: فأتيت الحرّانيّ، فقال: صالحْنا على عشرة آلاف، على أنّك تحلف لنا ألا تذكرها لأمير المؤمنين، فحلفت ألاّ أذكرَها لأمير المؤمنين حتى يبدأني، فمات ولم يذكرها حتى أفضت الخلافة إلى الرشيد.

وذكر أبو دِعامة أن سَلْم بن عمرو الخاسر مدح موسى الهادي، فقال:

بعيساباذَ حُرٌّ مِن قريشٍ ... على جَنباتِهِ الشَّرْبُ الرِّواءُ
يَعوذُ المُسلمونَ بِحَقْوتَيْهِ ... إذا ما كان خَوفٌ أَو رجاءُ
وبالمَيْدانِ دُورٌ مُشْرِفات ... يُشَيِّدهُنَّ قَوم أَدعياءُ
وكم من قائلٍ إني صحيحٌ ... وتأْباهُ الخلائقُ والرُّواءُ
له حسبٌ يَضَنّ به ليبقَىٰ ... وليس لِمَا يضَنُّ به بَقَاءُ
علىٰ الضبيِّ لُؤْمٌ ليس يَخْفَىٰ ... يُغَطِّيهِ فَيَنْكَشِفُ الغطاءُ
لَعَمْرِي لَوْ أَقامَ أَبو خَدِيجٍ ... بِناءَ الدَّارِ ما انهَدَمَ البِناءُ

قال: وقال سَلْم الخاسر لما تولّىٰ الهادي الخلافة بعد المهديّ:

لَقَدْ فَازَ مُوسَى بالْخِلافَةِ والْهُدَىٰ ... وَماتَ أَميرُ المؤمنينَ مُحَمَّدُ
فماتَ الَّذي عمَّ البريَّةَ فقْدُهُ ... وَقَامَ الَّذِي يكفيكَ مَنْ يُتَفَقَّدُ

وقال أيضاً:

تَخفَىٰ المُلوكُ لموسى عندَ طلعتِهِ ... مثلَ النُّجومِ لقَرنِ الشمسِ إِذْ طَلَعَا
وليس خَلقٌ يَرَىٰ بدراً وطلعتَهُ ... مِنَ البَريَّةِ إِلاَّ ذَلَّ أَو خَضَعا

وقال أيضاً:

لولا الخليفةُ مُوسَى بَعْدَ والِدِهِ ... مَا كَانَ للنَّاسِ مِنْ مَهْدِيِّهِمْ خلَفُ
أَلا تَرَىٰ أمّةَ الأُمّيِّ وَارِدَةً ... كأَنَّهَا من نَوَاحِي البَحْرِ تَغترِفُ
مِنْ راحَتَيْ مَلِكٍ قد عَمَّ نائلُهُ ... كأَنَّ نائلَه مِنْ جودِهِ سَرَفُ

وذكر إدريس بن أبي حفصة أن مَرْوان بن أبي حفصة حدّثه ، قال : لما ملك موسى الهادي دخلتُ عليه فأنشدته :

إنْ خُلِّدَتْ بعد الإمامِ مُحَمّدٍ نَفْسِي لمَا فَرِحَتْ بِطُولِ بَقَائِهَا

قال : ومدحت فقلت فيه :

بِسَبْعِينَ أَلفاً شدَّ ظَهْرِي وَرَاشَنِي أبُوكَ وَقَدْ عايَنتُ مِنْ ذاك مَشْهَدا
وَإنِّي أَميرَ المؤمنينَ لَوَاثِقٌ بألاَّ يُرَى شرْبي لَدَيْكَ مُصَرَّدا

فلما أنشدته قال : ومَنْ يبلغ مدى المهديّ! ولكنا سنبلغ رضاك . قال : وعاجلتْهُ المنيّة فلم يعطني شيئاً ، ولا أخذتُ من أحد دِرْهماً حتى قام الرشيد .

وذكر هارون بن موسى الفَرَويّ ، قال : حدّثني أبو غُزِّية ، عن الضحاك بن معن السُّلَميّ ، قال : دخلت على موسى فأنشدته :

يا مَنزِلَيْ شَجْوِ الْفؤادِ تكلَّمَا فلَقَدْ أَرَى بِكما الرَّبابَ وكُلْثُما
ما منزلانِ على التَّقادُم والبِلىٰ أبكَى لِما تَحْتَ الجوانِح مِنْكُمَا
رُدَّا السَّلامَ على كَبِيرٍ شاقَهُ طلَلانِ قَدْ دَرَسا فهاجَ فسَلِّمَا

قال : ومدحته فيها ، فلما بلغت :

سَبْطِ الأَنامِلِ بالفَعالِ أَخالُه أنْ لَيْسَ يَتْرُكُ في الخزائنِ دِرْهَمَا

التفت إلى أحمد الخازن ، فقال : ويحك يا أحمد! كأنّه نظر إلينا البارحة ، قال : وكان قد أخرج تلك الليلة مالاً كثيراً ففرّقه .

وذُكِر عن إسحاق الموصليّ ـ أو غيره ـ عن إبراهيم ، قال : كنّا يوماً عند موسى ، وعنده ابن جامع ومُعاذ بن الطيب ـ وكان أوّل يوم دخل علينا مُعاذ ، وكان مُعاذ حاذقاً بالأغاني ، عارفاً بقدِيمها ـ فقال : مَنْ أطربني منكم فله حُكمه ، فغنّاه ابنُ جامع غِنَاءً فلم يحرّكه ، وفهمتُ غرضه في الأغاني ، فقال هات يا إبراهيم ، فغنيتُه :

سُليمَىٰ أَجْمَعَتْ بينَا فأَينَ نقُولُها أَيْنَا!

فطرب حتى قام من مجلسه ، ورفع صوته ، وقال : أعِد ، فأعدتُ ، فقال : هذا غرضي فاحْتَكِمْ ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، حائط عبد الملك وعينه الخرّارة ، فدارت عيناه في رأسه حتىٰ صارتا كأنهما جَمْرتان ، ثم قال : يا بن

اللّخناء ، أردت أن تُسمع العامة أنك أطربتَني وأنّي حكّمتك فأقطعتك! أما والله لولا بادرةُ جهلك التي غلبتْ على صحيح عقلك لضربتُ الذي فيه عيناك. ثم أطرق هُنيهة ، فرأيت ملَك الموت بيني وبينه ينتظر أمرَه. ثم دعا إبراهيم الحرّانيّ فقال: خذ بيَد هذا الجاهل فأدخله بيت المال ، فليأخذ منه ما شاء ، فأدخلني الحَرّانِيّ بيتَ المال ، فقال: كم تأخذ؟ قلت: مائة بَدْرة ، قال: دعني أؤامره ، قال: قلت: فثمانين ، قال: حتى أؤامره ، فعملت ما أراد ، فقلت: سبعين بدرةً لي ، وثلاثين لك ، قال: الآن جئت بالحق ، فشأنَك. فانصرفتُ بسبعمائة ألف وانصرف ملك الموت عن وجهي.

وذكر عليّ بن محمد ، قال: حدّثني صالح بن عليّ بن عطيّة الأضخم عن حَكَم الواديّ ، قال كان الهادي يشتهي من الغناء الوسَط الذي يقلّ ترجيعُه ، ولا يبلغ أن يستخفّ به جدّاً. قال: فبينا نحن ليلة عنده ، وعنده ابنُ جامع والموصليّ والزبير بن دَحْمان والغَنويّ إذ دعا بثلاثِ بُدور وأمرَ بهنّ فوُضِعن في وسط المجلس ، ثم ضمَّ بعْضَهُنّ إلى بعض ، وقال: مَنْ غناني صوتاً في طريقي الذي أشتهيه ، فهنّ له كلهنّ. قال: وكان فيه خُلُق حسن ، كان إذا كره شيئاً لم يوقِّفْ عليه ، وأعرض عنه. فغناه ابنُ جامع ، فأعرض عنه ، وغنّى القوم كلهم ، فأقبل يعرض حتى تغنّيت ، فوافقت ما يشتهي ، فصاح: أحسنت أحسنت! اسقوني ، فشرب وطرب ، فقمت فجلست على البُدور ، وعلمت أني قد حَويتها ، فحضر ابنُ جامع ، فأحسن المحضر ، وقال: يا أميرَ المؤمنين ، هووالله كما قلتَ ، وما منّا أحد إلا وقد ذهب عن طريقك غيرُه، قال: هي لك، وشرب حتى بلغ حاجَته على الصوت ، ونهض ، فقال: مُروا ثلاثة من الفرّاشين يحملونها معه ، فدخل وخرجنا نمشي في الصحن منصرفين ، فلحقني ابنُ جامع ، فقلت: جُعلت فداك يا أبا القاسم! فعلتَ ما يفعل مثلُك في نسبك، فانظر فيها بما شئت. فقال: هنأك الله ، وَدِدْنا أنا زِدناك. ولحقَنا الموصليّ ، فقال: أجزنا ، فقلت: ولِمَ لمْ تحسن محضرك! لا والله ولا درهماً واحداً.

وذكر محمد بن عبد الله ، قال: قال لي سعيد القارىء العلاّف ـ وكان صاحبَ أبان القارىء: إنه كان عند موسى جلساؤه ، فيهم الحرّاني وسعيد ابن سلم وغيرُهما ، وكانت جارية لموسىٰ تسقيهم ، وكانت ماجنةً ، فكانت تقول لهذا:

يا جلفِيّ ، وتعبث بهذا وهذا ، ودخل يزيد بن مزيد فسمع ما تقول لهم ، فقال لها: والله الكبير ، لئن قلتِ لي مثل ما تقولين لهم لأضربنّك ضربة بالسيف ، فقال لها موسىٰ: ويلك! إنه والله يفعل ما يقول ، فإياكِ. قال: فأمسكت عنه ولم تعابثْه قطّ. قال: وكان سعيد العلاّف وأبان القارىء إباضيين.

وذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود الكاتب ، قال: حدّثني ابن القداح ، قال: كانت للربيع جارية يقال لها أمَة العزيز ، فائقة الجمال ، ناهدة الثَّدييْن ، حسنة القوام ، فأهداها إلى المهديّ ، فلما رأى جمالها وهيئتها ، قال: هذه لموسىٰ أصلح ، فوهبها له ، فكانت أحبَّ الخلق إليه ، وولدت له بنيه الأكابر. ثم إنّ بعض أعداء الربيع قال لموسىٰ: إنه سمع الرَّبيع يقول: ما وضعتُ بيني وبين الأرض مثل أمَة العزيز ، فغار موسى من ذلك غَيْرَةً شديدة ، وحلف لَيَقْتُلن الربيع ، فلما استخلف دعا الرَّبيع في بعض الأيام ، فتغدَّىٰ معه وأكرمه ، وناوله كأساً فيها شراب عسل ، قال: فقال الربيع: فعلمت أنّ نفسي فيها ، وأنّي إن رددتُ الكأس ضَرب عنقي ، مع ما قد علمت أن في قلبه عليّ من دخولي على أمهِ ، وما بلغه عني ، ولم يسمع مني عذراً. فشربتها. وانصرف الرَّبيع إلى منزله ، فجمع ولده ، وقال لهم: إني ميِّت في يومي هذا أو من غد ، فقال له ابنه الفضل: ولم تقول هذا جعلت فداك! فقال: إنّ موسىٰ سقاني شربة سمّ بيده ، فأنا أجد عملَها في بدني ، ثم أوصىٰ بما أراد ، ومات في يومه أو من غده. ثمّ تزوج الرشيد أمة العزيز بعد موت موسى الهادي ، فأولدها عليّ بن الرشيد.

وزعم الفضل بن سليمان بن إسحاق الهاشميّ أنّ الهادي لما تحوّل إلى عيساباذ في أوّل السنة التي ولي الخلافة فيها ، عزل الرَّبيع عما كان يتولاّه من الوزارة وديوان الرسائل ، وولى مكانه عمر بن بزيع ، وأقرّ الربيع على الزمام ، فلم يزل عليه إلى أن تُوُفِّيَ الربيع ، وكانت وفاته بعد ولاية الهادي بأشهر ، وأوذن بموته فلم يحضر جِنازته ، وصلىٰ عليه هارون الرشيد ، وهو يومئذ وليّ عهد ، وولّي موسى مكان الربيع إبراهيم بن ذاكوان الحرانيّ ، واستخلف على ما تولاه إسماعيل بن صُبيح ، ثم عزله واستخلف يحيى بن سليم ، وولّى إسماعيل زمام ديوان الشأم وما يليها.

وذكر يحيىٰ بن الحسن بن عبد الخالق ، خال الفضْل بن الربيع ، أنّ أباه

حدّثه ، أن موسىٰ الهادي قال : أريد قتل الربيع ، فما أدري كيف أفعل به! فقال له سعيد بن سلم : تأمر رجلاً باتّخاذ سكين مسموم ، وتأمره بقتله ، ثم تأمر بقتل ذلك الرجل. قال : هذا الرّأي ، فأمر رجلاً فجلس له في الطريق ، وأمره بذلك ، فخرج بعض خلفاء الربيع ، فقال له : إنّه قد أمر فيك بكذا وكذا ، فأخذ في غير ذلك الطريق ، فدخل منزله ، فتمارض ، فمرِض بعد ذلك ثمانية أيام ، فمات مِيتة نفسه. وكانت وفاته سنة تسع وستين ومائة ، وهو الربيع بن يونس.

* * *

خلافـــة هـــارون الرشيـــد

وأما البرامكة فإنها ـ فيما ذُكِر ـ تزعم أنّ الرشيد وُلِد أول يوم من المحرم سنة تسع وأربعين ومائة ، وكان الفضل بن يحيىٰ ولد قبله بسبعة أيام ، وكان مولد الفضل لسبع بقين من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين ومائة ، فجعِلت أمّ الفضل ظئراً للرشيد ، وهي زينب بنت منير ، فأرضعت الرّشيد بلِبان الفضل ، وأرضعت الخيزُران الفضل بلِبان الرّشيد .

وذكر سليمان بن أبي شيخ أنه لمّا كان الليلة التي تُوفِّيَ فيها موسى الهادي أخرج هَرْثمةُ بن أعين هارون الرشيد ليلاً فأقعده للخلافة ، فدعا هارونُ يحيىٰ بن خالد بن برمك ـ وكان محبوساً ، وقد كان عزم موسىٰ علىٰ قتله وقَتْل هارون الرشيد في تلك الليلة ـ قال : فحضر يحيىٰ ، وتقلّد الوزارة ، ووجّه إلى يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فأحضره ، وأمره بإنشاء الكتُب ، فلما كان غداةَ تلك الليلة ، وحضر القوّاد قام يوسف بن القاسم ، فحمِد الله وأثنىٰ عليه وصلىٰ علىٰ محمدﷺ ، ثم تكلم بكلام أبلغ فيه ، وذكر موت موسى وقيام هارون بالأمر من بعده ، وما أمر به للنّاس من الأعطيات .

وذكر أحمد بن القاسم ، أنه حدّثه عمّه عليّ بن يوسف بن القاسم هذا الحديث ، فقال : حدّثني يزيد الطبريّ مولانا أنه كان حاضراً يحمل دواة أبي يوسف ابن القاسم ، فحفِظ الكلام . قال : قال بعد الحمد لله عزّ وجل والصلاة علىٰ النبيّﷺ :

إن الله بمنّه ولطفه منَّ عليكم معاشر أهل بيت نبيّه بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وآتاكم أهل الطاعة من أنصار الدّوْلة وأعوان الدّعوة ، من نِعَمِهِ التي لا تحصىٰ بالعدد ، ولا تنقضي مدىٰ الأبد ، وأياديه التامّة ، أنْ جمع أُلفتكم وأعلى أمركم ، وشدّ عَضُدكم ، وأوهن عدوّكم ، وأظهر كلمة الحقّ ، وكنتم

أوْلى بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان قويّاً عزيزاً ، فكنتم أنصارَ دين الله المرتضىٰ والذابِّين بسيفه المنتضَىٰ ، عن أهل بيت نبيِّه ﷺ. وبكم استنقذهم من أيدي الظَّلمة ، أئمة الجوْر ، والناقضين عهد الله ، والسافكين الدّمَ الحرام ، والآكلين الفيء ، والمستأثرين به ، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النِّعمة ، واحذروا أن تغيّروا فيغيِّر بكم. وإن الله جل وعزّ استأثر بخليفته موسىٰ الهادي الإمام ، فقبضه إليه ، وولّىٰ بعده رَشيداً مرضيّاً أمير المؤمنين رؤوفاً بكم رحيماً ، من محسنكم قبولاً ، وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً ، وهو ـ أمتَعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولاّه بما تولى به أولياءه وأهلَ طاعته ـ يعِدُكم من نفسه الرّأفة بكم ، والرحمة لكم ، وقسْم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم ، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً ، غير مقاصّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحاملٌ باقِي ذلك ، للدّفْع عن حريمكم ، وما لعلّه أن يحدث في النواحي والأقطار من العُصاة المارقين إلى بيوت الأموال ، حتى تعودَ الأموال إلى جِمامها وكثرتها ، والحال التي كانت عليها ، فاحمدوا الله وجدِّدوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم ، بما جدّد لكم من رأي أمير المؤمنين ، وتفضّل به عليكم ، أيّده الله بطاعته. وارغبوا إلى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامة النعماء ، لعلكم ترحمون. وأعطُوا صَفْقة أيمانكم ، وقوموا إلىٰ بَيْعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاّكم ولاية عباده الصالحين.

وذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق ، قال: حدثني محمد بن هشام المخزوميّ ، قال: جاء يحيىٰ بن خالد إلى الرّشيد وهو نائم في لِحاف بلا إزار ، لمّا تُوفِّيَ موسىٰ ، فقال: قمْ يا أمير المؤمنين ، فقال له الرّشيد: كم تروِّعني إعجاباً منك بخلافتي! وأنت تعلم حالي عند هذا الرجل ، فإنْ بلغه هذا ، فما تكون حالي! فقال له: هذا الحرّانيّ وزير موسى وهذا خاتمه. قال: فقعد في فراشه ، فقال: أشرْ عليّ ، قال: فبينما هو يكلِّمه إذ طلع رسول آخر ، فقال: قد وُلد لك غلام ، فقال: قد سمَّيْتُه عبد الله، ثم قال ليحيىٰ: أشر عليّ، فقال: أشير عليك أن تقعد لحالك على إرمينيَة ، قال: قد فعلت ، ولا والله لا صليت بعيساباذ إلاّ عليها ، ولا صلّيت الظهر إلا ببغداد ، وإلا ورأس أبي عصمة بين

يديّ. قال: ثم لبس ثيابه، وخرج فصلّى عليه ، وقدَّم أبا عصمة ، فضرب عنقه ، وشَدّ جُمَّته في رأس قناة ، ودخل بها بغداد ، وذلك أنه كان مضى هو وجعفر بن موسى الهادي راكبين. فبلغا إلىٰ قنطرة من قناطر عيساباذ ، فالتفت أبو عصمة إلى هارون ، فقال له: مكانك حتى يجوز وليّ العهد ، فقال هارون: السمع والطاعة للأمير ، فوقف حتى جاز جعفر ، فكان هذا سبب قتل أبي عصمة.

قال: ولما صار الرشيد إلى كرسيّ الجسر دعا بالغوّاصين ، فقال: كان المهديّ وهَب لي خاتماً شراؤه مائة ألف دينار يسمّى الجبَل، فدخلتُ على أخي وهو في يدي، فلما انصرفتُ لحقني سليم الأسود على الكرسيّ. فقال: يأمرُك أمير المؤمنين أن تعطيني الخاتم، فرميت به في هذا الموضع، فغاصوا، فأخرجوه، فسُرّ به غاية السرور.

قال محمد بن إسحاق الهاشميّ: حدّثني غير واحد من أصحابنا ، منهم صبّاح بن خاقان التميميّ ، أن موسى الهادي كان خلع الرشيد وبايع لابنه جعفر ، وكان عبدُ الله بن مالك على الشُّرَط ، فلما تُوُفِّيَ الهادي هجم خزيمة بن خازم في تلك الليلة ، فأخذ جعفراً من فراشه ، وكان خزيمة في خمسة آلاف من مواليهم معهم السلاح ، فقال: والله لأضربنَّ عنقك أو تخلعها ، فلما كان من الغدِ ، ركب الناس إلى باب جعفر ، فأتى به خزيمة ، فأقامه على باب الدار في العُلوّ ، والأبواب مغلقة ، فأقبل جعفر ينادي: يا معشرَ المسلمين ، منْ كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللتُه منها ، والخلافة لعمِّي هارون ، ولا حقّ لي فيها.

وكان سببُ مشي عبد الله بن ملك الخُزاعيّ إلى مكّة على اللّبود ، لأنه كان شاور الفقهاء في أيْمانه التي حلَف بها لبيعة جعفر ، فقالوا له: كلُّ يمين لك تخرج منها إلا المشي إلى بيت الله ، ليس فيه حيلة. فحجّ ماشياً. وحظيَ خزيمة بذلك عند الرّشيد.

وذُكر أن الرشيد كان ساخطاً على إبراهيم الحرانيّ وسلاّم الأبرش يوم مات موسىٰ ، فأمر بحبسهما وقبْض أموالهما ، فحبِس إبراهيم عند يحيىٰ بن خالد في دارِه ، فكلّم فيه محمدُ بن سليمان هارونَ ، وسأله الرضا عنه وتخليةَ سبيله ، والإذن له في الانحدار معه إلى البصرة ، فأجابه إلى ذلك.

* * *

وفيها قلَّد الرشيد يحيى بن خالد الوزارةَ ، وقال له : قد قلّدتُك أمر الرّعيّة ، وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعملْ مَنْ رأيتَ، واعزل مَنْ رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. ودفع إليه خاتمه[1] ففي ذلك يقول إبراهيم الموصليّ :

أَلَمْ تَرَ أَن الشَّمْس كانتْ سَقيمةً فلمَا ولِي هارونُ أَشْرَقَ نُورُها
بيُمنِ أَمين اللهِ هارونَ ذي النَّدَىٰ فهارونُ وَاليها وَيَحْيىٰ وزيرُها[2]

وكانت الخيزُران هي الناظرة في الأمور ، وكان يحيىٰ يعرض عليها ويصدُر عن رأيها .

وفيها أمر هارون بسهْم ذوي القربىٰ ، فقسّم بين بني هاشم بالسّوِيّة .

وفيها آمن مَنْ كان هارباً أو مستخفياً ، غير نفر من الزنادقة ، منهم يونس بن فروة ويزيد بن الفيض .

وكان ممّن ظهر من الطالبيين طبَاطبَا ، وهو إبراهيم بن إسماعيل ، وعليّ بن الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن .

وفيها عزل الرّشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنَّسرين ، وجعلها حيّزاً واحداً وسميت العواصم .

* * *

ثم دخلت سنة إحدىٰ وسبعين ومائة
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك قدوم أبي العباس الفضل بن سليمان الطوسيّ مدينةَ السلام منصرِفاً عن خُراسان ، وكان خاتمُ الخلافة حين قدم مع جعفر بن

---

(١) هذه مسألة جدُّ خطيرة ولابد من إسناد للخبر أو اتفاق مؤرخين أو ثلاثة من الثقات المتقدمين (على الأقل) لإثبات هذا القول والتفويض والله أعلم .

(٢) الموصلي مغن لعّاب مترف (سير أعلام / ٩ / ٨٠ / تر ٨٨) فلا يعتمد على شعره في توثيق الخبر .

محمد بن الأشعث ، فلما قدم أبو العباس الطوسي أخذه الرّشيد منه ، فدفعه إلى أبي العباس ، ثمّ لم يلبث أبو العباس إلاّ يسيراً حتى تُوُفِّيَ. فدفع الخاتم إلى يحيىٰ بن خالد ، فاجتمعت ليحيىٰ الوزارتان.

وفيها قتل هارون أبا هُرَيرة محمد بن فرّوخ ـ وكان على الجزيرة ـ فوجّه إليه هارون أبا حنيفة حَرْب بن قيس ، فقدم به عليه مدينة السَّلام ، فضرب عنقه في قصر الخُلْد.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك شخوص الرّشيد فيها إلىٰ مَرْج القلعة مرتاداً بها منزلاً ينزله.

* ذكر السبب في ذلك:

ذكر أن الذي دعاه إلى الشخوص إليها أنه استثقل مدينة السلام ، فكان يسميها البُخار ، فخرج إلى مَرْج القلعة ، فاعتلّ بها ، فانصرف ، وسُمّيت تلك السفرة سَفْرة المرتاد(١).

وفيها وضع هارون عن أهل السواد العُشْر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف(٢).

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

[ذكر خبر وفاة محمد بن سليمان]

فمن ذلك وفاة محمد بن سليمان بالبصرة، لليال بقين من جمادى الآخرة منها(٣).

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨ / ٩٧].
(٢) انظر البداية والنهاية [٨ / ٩٧].
(٣) انظر البداية والنهاية [٨ / ٩٧].

وذُكِر أنّه لما مات محمد بن سليمان وجّه الرشيد إلى كلّ ماخلّفه رجلاً أمره باصطفائه ، فأرسل إلىٰ ما خلّف من الصّامت من قبَل صاحب بيت ماله رجلاً ، وإلى الكسوة بمثل ذلك ، وإلى الفُرُش والرّقيق والدوابّ من الخيل والإبل ، وإلى الطيّب والجوهر وكلّ آلة برجلٍ من قِبَل الذي يتولّى كلّ صنف من الأصناف ، فقدِموا البَصْرة ، فأخذوا جميعَ ما كان لمحمد ممّا يصلح للخلافة ، ولم يتركوا شيئاً إلا الخُرْثِيّ الذي لا يصلح للخلفاء ، وأصابوا له ستّين ألف ألف ، فحملوها مع ما حُمِل ، فلما صارت في السُّفنُ أخبِر الرشيد بمكان السُّفن التي حملت ذلك ، فأمر أن يُدْخَل جميعُ ذلك خزائنه إلا المال ، فإنه أمر بصكاك فكُتبت للنُّدماء ، وكتبت للمغنّين صِكاك صغار لم تُدَرْ في الديوان ، ثم دفع إلى كلّ رجل صَكّاً بما رأى أن يَهَب له ، فأرسلوا وكلاءهم إلى السفن ، فأخذوا المال على ما أمر لهم به في الصِّكاك أجمع ، لم يدخل منه بيتَ ماله دينار ولا درهم ، واصطفىٰ ضياعه ، وفيها ضيعة يقال لها بَرَشيد بالأهواز لها غلّة كثيرة.

وذكر عليّ بن محمد ، عن أبيه ، قال : لما مات محمد بن سليمان أصيب في خِزانة لباسه مذ كان صبيّاً في الكُتّاب إلى أن مات مقادير السنين ، فكان من ذلك ما عليه آثار النِّقْس. قال : وأخرج من خِزانته ما كان يُهدَى له من بلاد السِّند ومُكران وكِرْمان وفارسَ والأهواز واليمامة والرّيّ وعُمان ، من الألطاف والأدْهان والسّمك والحبوب والجبن ، وما أشبه ذلك ، ووجِد أكثره فاسداً. وكان من ذلك خمسمائة كَنْعَدَة ألقيَتْ من دار جعفر ومحمد في الطريق ، فكانت بلاءً. قال : فمكثنا حيناً لا نستطيع أن نمرّ بالمِرْبَد من نَتْنها[١].

* * *

ذكر الخبر عن وقت وفاتها (الخيزُران)

ذكر يحيىٰ بن الحسن أن أباه حدّثه ، قال : رأيتُ الرّشيد يوم ماتت الخيزُران ، وذلك في سنة ثلاث وسبعين ومائة ، وعليه جُبة سعيديّة وطيلسان خَرِقٌ أزرق ، قد شُدّ به وسطُه ، وهو آخذ بقائمة السرير حافياً يعدُو في الطين ، حتى أتى مقابر قُريش فغسل رجليه ، ثم دعا بخُفّ وصلّى عليها ، ودخل قبرها ، فلما خرج من

---

(١) علي بن محمد هو النوفلي لم نجد له ترجمة وفي متون بعض مروياته نكارة.

المقبرةُ وُضع له كرسيّ فجلس عليه ، ودعا الفضل بن الربيع ، فقال له: وحق المهديّ ـ وكان لا يحلف بها إلا إذا اجتهد ـ إني لأهمّ لك من الليل بالشيء من التولية وغيره ، فتمنعني أمي فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر. فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صُبَيح: أنا أجلّ أبا الفضل عن ذلك ، بأن أكتب إليه وآخذه ، ولكن إن رأى أن يبعث به[١] .

قالَ: وولي الفضل نفقات العامة والخاصة وبادُوريا والكُوفة ، وهي خمسة طساسيج ، فأقْبَلَتْ حاله تنمى إلى سنة سبع وثمانين ومائة.

وقيل إن وفاة محمد بن سليمان والخيزُران كانت في يوم واحد.

* * *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان بالشأم من العصبيَّة فيها[٢] .

وفيها هلك رَوْح بن حاتم.

وفيها خرج الرشيد إلى باقِرْدَى وبازَبْدَى ، وبنى بباقِرْدَى قصراً ، فقال الشاعر في ذلك:

بِقـردَى وبَـازَبْـدَى مَصيـفٌ ومَـرْبَـعٌ ... وعَـذْبٌ يُحـاكِـي السلسبيـلَ بَـرودُ
وبَغـدادُ ، مـا بَغـدادُ ، أَمّـا تُـرابُهـا ... فَخُـرْءٌ ، وأمـا حَـرّهـا فَشَـديـدُ

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

[ذكر الخبر عن البيعة للأمين][٣]

فمن ذلك عقْد الرشيد لابنه محمد بمدينة السلام من بعده ولايةَ عهد

---

(١) هذا خبر منكر، ولم يكن الرشيد جاهلاً بالحلال والحرام إلى هذه الدرجة بحيث يقسم بحياة أبيه المهدي ، ومن حوله وفي رعيته ذلك العدد الهائل من العلماء العاملين.

(٢) انظر البداية والنهاية [٨ / ٩٩].

(٣) انظر الخبر والأبيات في المنتظم (٩ / ١٠)، والبداية والنهاية (٨/ ٩٩).

المسلمين وأخذه له بذلك بيعة القوّاد والجند ، وتسميته إياه الأمين ، وله يومئذ خمس سنين ، فقال سلْم الخاسر :

قَـد وفَّـقَ اللهُ الخليفـةَ إذ بنـى بيْـتَ الخليفِـةِ لِلْهجَـانِ الأزهَـرِ
فهـو الخليفـةُ عـن أَبيـه وجـدِّهِ شَهـداً عليـه بِمَنظـرٍ وبمخبـرِ
قـد بـايَعَ الثقـلان فـي مهْـدِ الهُـدىٰ لمحمَّـدِ بـن زُبَيْـدَةَ ابنَـةِ جعفـر[1]

* ذكر الخبر عن سبب بيعة الرشيد له :

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر رَوْح مولى الفضل بن يحيىٰ بن خالد ـ أنه رأى عيسىٰ بن جعفر قد صار إلى الفضْل بن يحيى ، فقال له : أنشِدك الله لما عملت في البيعة لابن أختي ـ يعني محمد بن زبيدة بنت جعفر بن المنصور ـ فإنه ولدٌ لك وخلافته لك ، فوعده أن يفعل ، وتوجّه الفضل على ذلك ، وكانت جماعة من بني العباس قد مدّوا أعناقَهم إلى الخلافة بعد الرشيد ، لأنه لم يكن له وليّ عهد ، فلما بايع له ، أنكروا بيعتَه لصغر سنّه .

قال : وقد كان الفضل لما تولّى خُراسان أجمع على البيعة لمحمد ، فذكر محمد بن الحسين بن مصعب أن الفضْل بن يحيى لمّا صار إلى خُراسان ، فرّق فيهم أموالاً ، وأعطى الجند أعطياتٍ متتابعات ، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد ، فبايع الناس له وسماه الأمين ، فقال في ذلك النَّمري :

أَمسَتْ بمروَ على التوفيقِ قد صَفَقَتْ على يدِ الفضل أيدِي العُجْم والعربِ
ببيعـةٍ لِـولـيّ العهـد أحكَمَهـا بـالنّصح منه وبـالإشفـاقِ والحدَبِ
قَدْ وكّد الفضلُ عقداً لا انتقاض له لمصطفى من بني العباس مُنتَخَبِ

قال : فلما تناهى الخبرُ إلىٰ الرّشيد بذلك ، وبايع له أهل المشرق ، بايع لمحمدٍ، وكتب إلى الآفاق، فبويع له في جميع الأمصار، فقال أبان اللاحقيّ في ذلك :

عَزَمْتَ أَمير المؤمنين على الرُّشْدِ برَأيِ هُدًى ، فالحمدُ للهِ ذِي الحمدِ

* * *

(١) المصدر السابق نفسه .

وقال الواقديّ: الذي غزا الصائفة في هذه السنة عبد الملك بن صالح ، قال: وأصابهم في هذه الغزاة برد قَطَع أيديَهم وأرجُلهم[(١)] . .

* * *

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

ذكر الخبر عن مخرج يحيىٰ بن عبد الله وما كان من أمره[(٢)] .

ذكر أبو حفص الكِرمانيّ ، قال: كان أوّل خبر يحيىٰ بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب أنه ظهر بالدّيْلم ، واشتدّت شوكته ، وقويَ أَمرُه ، ونزع إليه الناس من الأمصار والكُور ، فاغتمّ لذلك الرّشيد ، ولم يكن في تلك الأيام يشرب النّبيذ ، فندب إليه الفضلَ بن يحيى في خمسين ألف رجل ، ومعه صناديد القوّاد ، وولاّه كور الجبال والرَّيّ وجُرجان وطَبَرِستان وقومِس ودُنْبَاوند والرُّويان ، وحُملت معه الأموال، ففرّق الكور على قوّاده ، فولّى المثنّى بن الحجاج بن قتيبة بن مسلم طَبَرِستان ، وولّى عليّ بن الحجاج الخُزاعيّ جُرجان ، وأمر له بخمسمائة ألف درهم ، وعسكر بالنَّهرين ، وامتدحه الشعراء ، فأعطاهم فأكثر ، وتوسل إليه الناس بالشعر ، ففرَّق فيهم أموالاً كثيرة . وشخص الفضلُ بن يحيىٰ ، واستخلف منصور بن زياد بباب أمير المؤمنين ، تجرِي كتبه على يديه ، وتنفذ الجوابات عنها إليه ، وكانوا يثقون بمنصور وابنه في جميع أمورهم ، لقديم صحبته لهم ، وحرمته بهم. ثُمّ مضى من معسكره ، فلم تزل كتب الرشيد تتابع إليه بالبِرّ واللطف والجوائز والخِلَع ، فكاتب يحيىٰ ورفَق به واستماله ، وناشده وحذَّره ، وأشار عليه ، وبسط أملَه ، ونزل الفضل بطالَقان الريّ وَدسْتَبى بموضع يقال له أشبّ ، وكان شديدَ البرد كثير الثلوج ، ففي ذلك يقول أبان بن عبد الحميد اللاحقيّ:

لَـــــدُورُ أَمْـــسَ بـــــالـــــدُولا ... بِ حيـــــثُ السِّيـــــبُ يَنعـــــرجُ

(١) انظر: البداية والنهاية [٨ / ٩٩].

(٢) انظر: المنتظم (٩ / ١٧)، والبداية والنهاية [٨ / ١٠٠].

أحـــبُّ إلـــيَّ مِـــنْ دور أَشَـــبَّ إذا هـــمُ ثَلَجُـــوا

قال: فأقام الفضل بهذا الموضع، وواترَ كتبه على يحيى، وكاتب صاحب الدّيْلم، وجعل له ألف ألف درهم، على أن يسهّل له خروج يحيى إلى ما قبله، وحملت إليه، فأجاب يحيىٰ إلىٰ الصّلح والخروج على يديه، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطِّه على نسخة يبعث بها إليه. فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد، فسَرّه وعظُم موقعه عنده، وكتب أماناً ليحيىٰ بن عبد الله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجِلّة بني هاشم ومشايخهم، منهم عبد الصمد بن عليّ والعباس بن محمد ومحمد بن إبراهيم وموسىٰ بن عيسىٰ ومَنْ أشبههم، ووجَّه به مع جوائز وكَرامات وهدايا، فوجّه الفضل بذلك إليه، فقدم يحيى بن عبد الله عليه، وورد به الفضل بغداد، فلقيه الرّشيد بكلّ ما أحبّ، وأمر له بمال كثير، وأجرى له أرزاقاً سنيّة، وأنزله منزلاً سريّاً بعد أن أقام في منزل يحيىٰ بن خالد أياماً، وكان يتولَّى أمرَه بنفسه، ولا يَكِلُ ذلك إلى غيره، وأمر الناس بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه، وبلغ الرشيد الغايَة في إكرام الفضل، ففي ذلك يقول مَرْوان بن أبي حفصة:

ظَفِـرتَ فـلا شَلَّـتْ يـدٌ بَـرْمَكيَّـةٌ رَتَقْتَ بها الفَتْقَ الذي بين هاشِمِ
علـى حيـن أَعْيَـا الـراتقيـنَ التِئـامُـهُ فكَفُّـوا وقَـالُـوا لَيـس بـالمتـلائـم
فـأَصْبَحْـتَ قَـد فـازَتْ يـداك بخُطَّـةٍ من المجدِ باقٍ ذكرها في الْمَوَاسِمِ
ومـا زالَ قِـدْحُ المُـلك يَخْـرُجُ فـائـزاً لكـمْ كلَّمـا ضُمَّـتْ قِـداحُ المُسـاهِـمِ

قال: وأنشدني أبو ثُمامة الخطيب لنفسه فيه:

للفضـــل يـــومُ الطَّـــالَقَـــانِ وقبلـــهُ يـــومٌ أَنـــاخَ بـــهِ علـــى خـــاقـــانِ
مـــا مثـــلُ يَـــوْمَيْـــهِ اللَّـــذيْـــن تَـــواليَـــا فـــي غَـــزْوَتَيْـــن تَـــوَالَتَـــا يَـــوْمَـــان
سَـــدَّ الثغُـــور وَردَّ أُلفَـــةَ هـــاشِـــمٍ بعـــدَ الشَّتـــاتِ، فَشَعْبُهـــا مُتَـــدَان
عصمَـــتْ حكـــومَتُـــهُ جَمَـــاعَـــةَ هـــاشِـــمٍ مِـــنْ أَنْ يُجَـــرَّد بينهـــا سَيْفَـــان
تِلْـــكَ الْحكـــومـــةُ لاَ التـــي عـــن لَبْسهـــا عَظُـــمَ النَّبَـــا وتفـــرّقَ الحكَمـــانِ

فأعطاه الفضل مائة ألف درهم، وخلع عليه، وتغنّى إبراهيم به.

وذكر أحمد بن محمد بن جعفر، عن عبد الله بن موسىٰ بن عبد الله بن حسن بن حسن، قال: لما قدِم يحيى بن عبد الله من الدّيْلم أتيتُه، وهو في دار

عليّ بن أبي طالب ، فقلت : يا عمّ ، ما بعدك مُخْبِر ولا بعدي مخْبَر ، فأخبِرْني خبرَك ، فقال : يا بن أخي ، والله إن كنت إلاَ كما قال حُيَيّ بن أخطب :

لعمْـركَ مـا لام ابـنُ أَخطَـب نفسَـهُ ولكنّـهُ مـن يَخـذُلِ اللهُ يُخـذَل

لجَاهَـدَ حتى أَبلغَ النفس حَمْدَهـا وقلقـلَ يَبْغـي العِـزَّ كـلَّ مقلقَـل

وذكر الضّبيّ أن شيخاً من النوفليّين ، قال : دخلنا علىٰ عيسىٰ بن جعفر ، وقد وُضِعت له وسائد بعضها فوق بعض ، وهو قائم متّكيء عليها ، وإذا هو يضحك من شيء في نفسه ، متعجِّباً منه ، فقلنا : ما الذي يُضحك الأمير أدام الله سروره! قال : لقد دخلني اليوم سرورٌ ما دخلني مثله قطّ ، فقلنا : تمم الله للأمير سروره ، وزاده سروراً. فقال : والله لا أحدّثكم به إلا قائماً ـ واتكأ على الفرش وهو قائم ـ فقال : كنت اليومَ عند أمير المؤمنين الرّشيد ، فدعا بيحيىٰ بن عبد الله ، فأُخْرِج من السجن مكبَّلاً في الحديد ، وعنده بكَّار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ـ وكان بكّار شديدَ البغض لآل أبي طالب ، وكان يبلّغ هارون عنهم ، ويسيء بأخبارهم ، وكان الرّشيد ولاه المدينة ، وأمره بالتضييق عليهم ـ قال : فلما دُعِيَ بيحيى قال له الرّشيد : هيهْ هيهْ! متضاحكاً ، وهذا يزعم أيضاً أنا سممناه! فقال يحيىٰ : ما معنى يزعم؟ ها هُو ذا لساني ـ قال : وأخرج لسانه أخضرَ مثل السِّلق ـ قال : فتربّد هارون! واشتدّ غضبُه ، فقال يحيى : يا أميرَ المؤمنين ، إن لنا قرابة ورحِماً ، ولسنا بتُرْكٍ ولا ديْلم ، يا أمير المؤمنين ، إنّا وأنتم أهلُ بيت واحد ، فأذكِّرك اللهَ وقرابتَنا من رسول الله ﷺ ! علام تَحْبِسني وتعذّبني؟ قال : فرقّ له هارون ، وأقبل الزُّبيري على الرّشيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغرّك كلام هذا ، فإنه شاقٌّ عاصٍ ، وإنما هذا منه مكر وخُبث ، إنّ هذا أفسد علينا مدينتنا ، وأظهر فيها العصيان. قال : فأقبل يحيى عليه ، فوالله ما استأذن أمير المؤمنين في الكلام حتى قال : أفسِد عليكم مدينتَكم! ومَنْ أَنتم عافاكم الله! قال الزّبيريّ : هذا كلامه قدّامك ، فكيف إذا غاب عنك! يقول : ومَنْ أنتم! استخفافاً بنا. قال : فأقبل عليه يحيىٰ ، فقال : نعم ، ومَنْ أنتم عافاكم الله! المدينة كانت مهاجرَ عبد الله بن الزّبير أمْ مهاجَر رسول الله ﷺ ؟ ومَنْ أنت حتىٰ تقول : أفسد علينا مدينتنا! وإنما بآبائي وآباء هذا هاجر أبوك إلى المدينة. ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ، إنما الناس نحن وأنتم ، فإن خرجنا عليكم قلنا : أكلتم وأجعتمونا ،

ولبستم وأعريتمونا ، وركبتم وأرجلتمونا ، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا ، فتكافأ فيه القول ، ويعود أمير المؤمنين علىٰ أهله بالفَضْل. يا أمير المؤمنين ، فلمَ يجترىء هذا وضرباؤه على أهل بيتك ، يسعىٰ بهم عندك! إنه والله ما يَسعىٰ بنا إليك نصيحةً منه لك ، وإنه يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا ، إنما يريد أن يباعِد بيننا ، ويشتفي من بعض ببعض. والله يا أميرَ المؤمنين ، لقد جاء إليّ هذا حيث قُتِل أخي محمد بن عبد الله ، فقال: لعن الله قاتله! وأنشدني فيه مرثيةً قالها نحواً من عشرين بيتاً ، وقال: إن تحرَّكتَ في هذا الأمر فأنا أوّل مَنْ يبايعك ، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة ، فأيدينا مع يدك!

قال: فتغيّر وجه الزّبيريّ واسودّ ، فأقبل عليه هارون ، فقال: أيّ شيء يقول هذا؟ قال: كاذب يا أميرَ المؤمنين ، ما كان ممّا قال حرف. قال: فأقبل على يحيىٰ بن عبد الله ، فقال: تروِي القصيدةَ التي رثاه بها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ، أصلحك الله! قال: فأنشدها إياه ، فقال الزّبيريّ: والله يا أميرَ المؤمنين الذي لا إله إلا هو ـ حتى أتى على آخر اليمين الغَمْوس ـ ما كان مما قال شيء ، ولقد تقوّل عليّ ما لم أقل. قال: فأقبل الرّشيد على يحيىٰ بن عبد الله ، فقال: قد حلَف ، فهل من بيّنة سمعوا هذه المرثية منه؟ قال: لا يا أمير المؤمنين ، ولكن أستحلفه بما أريد ، قال: فاستحلفْه ، قال: فأقبل علىٰ الزبيريّ ، فقال: قل: أنا بريء من حوْل الله وقوّته موكّل إلى حولي وقوّتي ، إن كنت قلتُه. فقال الزبيريّ: يا أميرَ المؤمنين ، أيّ شيء هذا من الحلف! أحلف له بالله الذي لا إله إلا هو ، ويستحلفني بشيء لا أدري ما هو! قال يحيىٰ بن عبد الله: يا أميرَ المؤمنين ، إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به! فقال له هارون: احلِفْ له ويلك! قال: فقال: أنا بريء من حول الله وقوّته موكّل إلى حولِي وقوّتي ، قال: فاضطرب منها وأرعِد ، فقال يا أميرَ المؤمنين ، ما أدري أيّ شيء هذه اليمين التي يستحلفني بها ، وقد حلفت له بالعظيم أعظم الأشياء! قال: فقال هارون له: لتحلفنّ له أو لأصدّقنّ عليك ولأعاقبنَّك ، قال: فقال: أنا بريء من حول الله وقوته ، موكّل إلى حولِي وقوّتي إن كنت قلته. قال: فخرج من عند هارون فضربه الله بالفالج ، فمات من ساعته.

قال: فقال عيسىٰ بن جعفر: والله ما يسرّني أن يحيى نقصه حرفاً ممّا كان جرى بينهما، ولا قصّر في شيء من مخاطبته إياه.

قال: وأما الزبيريّون فيزعمون أن امرأته قتلته، وهي من ولد عبد الرحمن ابن عوف[1].

وذكر إسحاق بن محمد النَّخعيّ أنّ الزبير بن هشام حدّثه عن أبيه، أن بكّار بن عبد الله تزوّج امرأةً من ولد عبد الرحمن بن عوف، وكان له من قلبها موضِع، فاتّخذ عليها جارية، وأغارها، فقالت لغلامين له زِنجيّين: إنه قد أراد قتلكما هذا الفاسق - ولاطَفْتهما - فتعاونانى على قتله؟ قالا: نعم، فدخلتْ عليه وهو نائم، وهما جميعاً معها، فقعدا على وجهه حتى مات. قال: ثم إنها سقتهما نبيذاً حتى تهوّعا حول الفراش، ثم أخرجتهما ووضعت عند رأسه قنِّينة، فلما أصبح اجتمع أهلُه، فقالت: سكر فقاء فشرِق فمات. فأخِذ الغلامان، فضُرِبا ضرباً مبرّحاً، فأقرّا بقتله، وأنّها أمرتهما بذلك، فَأخرِجت من الدار ولم تُوَرّثْ.

وذكر أبو الخطاب أنّ جعفر بن يحيىٰ بن خالد حدّثه ليلة وهو في سَمَرِه، قال: دعا الرّشيد اليومَ بيحيىٰ بن عبد الله بن حسن، وقد حضره أبو البختريّ القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف، وأحضر الأمان الذي كان أعطاه يحيىٰ، فقال لمحمد بن الحسن: ما تقول في هذا الأمان؟ أصحيح هو؟ قال: هو صحيح، فحاجّه في ذلك الرشيد، فقال له محمد بن الحسن: ما تصنع بالأمان؟ لو كان محارباً ثم وُلِّيَ كان آمناً. فاحتملها الرشيد على محمد بن الحسن، ثم سأل أبا البختريّ أن ينظر في الأمان، فقال أبو البختريّ: هذا منتقَض من وجه كذا وكذا، فقال الرشيد: أنت قاضي القضاة، وأنت أعلم بذلك، فمزّق الأمان، وتفل فيه أبو البختريّ - وكان بكّار بن عبد الله بن مصعب حاضراً المجلس - فأقبل على يحيىٰ بن عبد الله بوجْهِه، فقال: شققتَ العصا، وفارقت الجماعة، وخالفت كلمتنا، وأردت خليفتنا، وفعلت بنا وفعلت. فقال يحيىٰ: ومَنْ أنتم رحمكم الله! قال جعفر: فوالله ما تمالَك الرشيد أن ضحك ضحكاً شديداً. قال: وقام يحيىٰ ليمضي إلى الحبس، فقال له الرّشيد: انصرف،

(١) لا تثبت هذه الأمور بمثل هذه الأسانيد.

أما تروْن به أثر علة! هذا الآن إن مات قال الناس : سَمّوه. قال يحيىٰ: كلاّ ما زلتُ عليلاً منذ كنت في الحبس، وقبل ذلك أيضاً كنت عليلاً. قال أبو الخطاب: فما مكث يحيى بعد هذا إلا شهراً حتى مات[١].

وذكر أبو يونس إسحاق بن إسماعيل، قال: سمعتُ عبد الله بن العباس بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن عليّ، الذي يعرف بالخطيب، قال كنتُ يوماً علىٰ باب الرّشيد أنا وأبي، وحضر ذلك اليوم من الجُنْد والقُوّاد ما لم أر مثلهم على باب خليفة قبله ولا بعده، قال: فخرج الفضل بن الربيع إلى أبي، فقال له: ادخل، ومكث ساعة ثم خرج إليّ، فقال: ادخل، فدخلتُ فإذا أنا بالرّشيد معه امرأة يكلمها، فأومأ إليّ أبي أنه لا يريد أن يدخل اليوم أحد، فاستأذنتُ لك لكثرةِ مَنْ رأيتُ حضر الباب، فإذا دخلتَ هذا المدخل زادك ذلك نُبْلاً عند الناس. فما مكثنا إلا قليلاً حتى جاء الفضل بن الربيع، فقال: إن عبد الله بن مصعب الزبيريّ يستأذن في الدخول، فقال: إنّي لا أريد أن أدخِل اليوم أحداً، فقال: قال: إنّ عندي شيئاً أذكره. فقال: قل له يَقُلْهُ لك، قال: قد قلت له ذلك، فزعم أنه لا يقوله إلاّ لك، وقال: أدخِلْه. وخرج ليُدخله، وعادت المرأة وشغل بكلامها، وأقبل عليّ أبي، فقال: إنّه ليس عنده شيء يذكره، وإنما أراد الفضل بهذا ليوهم مَنْ علىٰ الباب أنّ أمير المؤمنين لم يدخلنا لخاصّة خُصِصنا بها، وإنما أدخلنا لأمرٍ نُسأل عنه كما دخل هذا الزبيريّ.

وطلع الزّبيريّ، فقال: يا أمير المؤمنين، ها هنا شيء أذكره، فقال له: قل، فقال له: إنه سرٌّ، فقال: ما من العباس سِرّ، فنهضت، فقال: ولا منك يا حبيبي، فجلست، فقال: قُلْ، فقال: إني والله قد خفت على أمير المؤمنين من امرأته وبنته وجاريته التي تنام معه، وخادمه الذي يناوله ثيَابه وأخصّ خلق الله به من قوّاده، وأبعدهم منه. قال: فرأيتُه قد تغيّر لونه، وقال: مماذا؟ قال: جاءتني دعوة يحيى بن عبد الله بن حسن، فعلمت أنها لم تبلغني مع العداوة بيننا وبينهم، حتى لم يُبْقِ على بابك أحداً إلا وقد أدخله في الخلاف عليك. قال: فتقول له هذا في وجهه! قال: نعم، قال الرشيد: أدخِلْه، فدخل، فأعاد القول

(١) لا تثبت هذه المحاورة بإسناد فتكون في شخص واحد لم يلق الطبري ولم يحضر هو هذه الجلسة. والحمد لله على نعمة الإسناد.

الذي قاله له ، فقال يحيى بن عبد الله : والله يا أمير المؤمنين لقد جاء بشيء لو قيل لمن هو أقلّ منك فيمن هو أكبر مني ، وهو مقتدر عليه لما أفلت منه أبداً ، ولي رحِم وقرابة ، فلم لا تؤخّر هذا الأمر ولا تعجّل ، فلعلك أن تكفىٰ مؤنتي بغير يدك ولسانك ، وعسى بك أن تقطع رحِمك من حيث لا تعلمه! أباهِلُهُ بين يديك وتصبر قليلاً . فقال : يا عبد الله ، قم فصلِّ إن رأيت ذلك ، وقام يحيى فاستقبل القبلة ، فصلَّى ركعتين خفيفتين ، وصلىٰ عبد الله ركعتين ، ثم برَكَ يحيىٰ ، ثم قال : ابْرُك ، ثم شبّك يمينَه في يمينه ، وقال : اللهمّ إن كنت تعلم أني دعوتُ عبد الله بن مصعب إلى الخلاف على هذا ـ ووضع يده عليه ، وأشار إليه ـ فاسحتْني بعذاب من عندك وكِلْني إلى حوْلي وقوّتي ، وإلا فكِله إلى حَوْله وقوّته ، واسحته بعذاب من قبلك ، آمين ربّ العالمين . فقال عبد الله : آمين ربّ العالمين ، فقال يحيىٰ بن عبد الله لعبد الله بن مصعب : قل كما قلت ، فقال عبدُ الله : اللهمّ إن كنت تعلم أن يحيى بن عبد الله لم يدعُني إلى الخلاف على هذا فكِلْني إلى حولي وقوّتي واسحتني بعذاب من عندك ، وإلا فكله إلى حوله وقوته ، واسحته بعذاب من عندك . آمين رب العالمين! .

وتفرّقا ، فأمر بيحيىٰ فحبِس في ناحية من الدار ، فلما خرج وخرج عبد الله ابن مصعب أقبل الرشيد على أبي ، فقال : فعلتُ به كذا وكذا ، وفعلتُ به كذا وكذا ، فعدد أياديه عليه ، فكلّمه أبي بكلمتين لا يدفع بهما عن عصفور ، خوفاً على نفسه ، وأمرنا بالانصراف فانصرفنا . فدخلت مع أبي أنزعُ عنه لباسَه من السواد ـ وكان ذلك من عادتي ـ فبينما أنا أحلّ عنه منطقته ، إذ دخل عليه الغلام ، فقال : رسولُ عبد الله بن مصعب ، فقال أدخِلْه ، فلما دخل قال له : ما وراءك؟ قال : يقول لك مولاي ، أنشدك الله إلاّ بلغتَ إليّ! فقال أبي للغلام : قل له : لم أزل عند أمير المؤمنين إلى هذا الوقت ، وقد وجّهتُ إليك بعبد الله ، فما أردتَ أن تلقيَه إليّ فألقه إليه ، وقال للغلام : اخرج فإنه يخرج في أثرك ، وقال لي : إنّما دعاني ليستعين بي على ما جاء به من الإفك ، فإن أعَنْتُه قطعت رحِمي من رسول الله ﷺ ، وإن خالفَته سعىٰ بي ، وإنما يتدرّق الناس بأولادهم ، ويتّقون بهم المكاره ، فاذهب إليه ، فكلّ ما قال لك فليكنْ جوابك له أخْبِرُ أبي ، فقد وجّهتك وما آمن عليك ، وقد كان قال لي أبي حين انصرفنا ـ وذاك أنا احتبسنا

عند الرّشيد: أمَا رأيتَ الغلام المعترض في الدّار! لا والله ما صُرِفْنا حتى فرغ منه ـ يعني يحيىٰ ـ إنا لله وإنا إليه راجعون! وعند الله نحتسب أنفسنا. فخرجت مع الرسول، فلما صِرْتُ في بعض الطريق وأنا مغموم بما أقدُم عليه، قلت للرسول: ويحك! ما أمْرُه! وما أزعجه بالإرسال إلى أبي في هذا الوقت! فقال: إنّه لما جاء من الدار، فساعة نزل عن الدابة صاح: بطني بطني!!.

قال عبد الله بن عباس: فما حفلتُ بهذا الكلام من قول الغلام، ولا التفت إليه، فلما صرنا على باب الدرب ـ وكان في درب لا منفذَ له ـ فتح البابين، فإذا النِّساء قد خرجْنَ منشوراتِ الشعور مخْتزمات بالحبال، يلطمن وجوههنّ وينادين بالوَيْل، وقد مات الرجل، فقلت: والله ما رأيتُ أمراً أعجبَ من هذا! وعطفت دابَتي راجعاً أركض ركضاً لم أركض مثله قبله ولا بعده إلى هذه الغاية، والغلمان والحشَم ينتظرونني لتعلُّق قلب الشيخ بي، فلما رأوْني دخلوا يتعادَوْن، فاستقبلني مرعوباً في قميصٍ ومنديل، ينادي: ما وراءك يا بني؟ قلت: إنه قد مات، قال: الحمد لله الذي قتله وأراحك وإيّانا منه، فما قطع كلامه حتى ورد خادم الرّشيد يأمر أبي بالركوب وإيّاي معه. فقال أبي ونحن في الطريق نسير: لو جاز أن يُدَّعى ليحيى نبوّة لادّعاها أهلُه، رحمة الله عليه، وعند الله نحتسبه! ولا والله ما نشكّ في أنه قد قتل. فمضينا حتىٰ دخلنا علىٰ الرّشيد، فلما نظر إلينا قال: يا عباس بن الحسن، أما علمت بالخبر؟ فقال أبي: بلَى يا أمير المؤمنين، فالحمد لله الذي صرعه بلسانه، ووَقاك الله يا أمير المؤمنين قَطْع أرحامِك. فقال الرّشيد: الرجل والله سليم على ما يحبّ، ورفع الستر، فدخل يحيى، وأنا والله أتبينُ الارتياع في الشيّخ، فلما نظر إليه الرشيد صاح به: يا أبا محمد، أما علمت أن الله قد قتل عدّوك الجبار! قال: الحمدُ لله الذي أبان لأمير المؤمنين كذب عدوّه عليّ، وأعفاه من قطع رحمه، والله يا أميرَ المؤمنين، لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلحُ له وأريده فكيف ولَسْتُ بطالب له ولا مُريده، ولو لم يكن الظفر به إلاّ بالاستعانة به، ثم لم يبق في الدنيا غيري وغيرك وغيره ما تقوّيت به عليك أبداً! وهذا والله من إحدىٰ آفاتك ـ وأشار إلى الفضل بن الربيع ـ والله لو وهبتَ له عشرة آلاف درهم، ثم طمع منّي في زيادة تمرة لباعَك بها. فقال: أمّا العباسيّ فلا تقل له إلا خيراً، وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار، وكان حبسه بعض يوم.

قال أبو يونس: كان هارون حبَسه ثلاث حبسات مع هذه الحبسة، وأوصل إليه أربعمائة ألف دينار.

* * *

[ذكر الفتنة بين اليمانية والنزارية](١)

وفي هذه السنة، هاجت العصبيّة بالشأم بين النزاريّة واليمانية، ورأس النزاريّة يومئذ أبو الهيذام.

* ذكر الخبر عن هذه الفتنة:

ذُكر أن هذه الفتنة هاجت بالشأم وعامل السلطان بها موسىٰ بن عيسىٰ، فقتِل بين النزاريّة واليمانية على العصبيّة من بعضهم لبعض بشرٌ كثير، فولّى الرشيدُ موسىٰ بن يحيىٰ بن خالد الشأم، وضمّ إليه من القوّاد والأجناد ومشايخ الكتّاب جماعة. فلما ورد الشأم أحِلَّتْ لدخوله إلى صالح بن عليّ الهاشمي، فأقام موسىٰ بها حتى أصلح بين أهلها، وسكنت الفتنة، واستقام أمرُها، فانتهىٰ الخبر إلى الرّشيد بمدينة السلام، وردّ الرّشيد الحكم فيها إلى يحيىٰ، فعفا عنهم، وعمّا كان بينهم، وأقدمهم بغداد، وفي ذلك يقول إسحاق بن حسان الخُزيميّ:

مَنْ مُبْلِغٌ يحيى ودون لقائهِ ... زأراتُ كلِّ خنابِسٍ هَمْهامِ
يا راعيَ الإسْلام غيرَ مُفَرِّطٍ ... في لِين مُغْتَبَطٍ وَطِيبِ مَشامِ
تَعذَى مَشارِبهُ وتُسْقَىٰ شربةً ... وَيَبيتُ بالرَّبَوات والأعلام
حتى تَنخَنَخَ ضارباً بجِرَانهِ ... ورَسَتْ مَراسيهِ بدار سلام
فلكلّ ثَغر حارِسٌ من قلبهِ ... وَشُعاعُ طَرفٍ ما يُفَتَّرُ سام

وقال في موسىٰ غيرُ أبي يعقوب:

قد هاجَتِ الشأمُ هَيْجاً ... يُشيب راسَ وَليدهْ
فَصُبَّ موسى عليها ... بخيلهِ وجُنُودِهْ
فَدانَتِ الشأمُ لمّا ... أَتى نسيجَ وَحيدهْ
هو الجوادُ الذي ... بُذَّ كلُّ جُودٍ بجودِهْ

---

(١) انظر المنتظم (٩/ ١٨)، والبداية والنهاية [٨/ ١٠٠].

أَعــــداهُ جــــودُ أَبيــــه يحيــــى وجــــودُ جُــــدوده
فجــادَ مُــوسَــىٰ بــن يحيــىٰ بطــــارفٍ وتَليــــدِه
وَنــالَ مــوســى ذرا المجـ ـدِ وَهــوَ حَشــوُ مُهُــودِه
خصصْتُــهُ بمَــديحــي مَنثــورِه وقَصيــدِهْ
مِــنَ البــرامــك عــودٌ لــه فــأَكــرِمْ بِعُــودِهْ
حــووْا علــى الشعــر طُــرّاً خفيفِــهِ ومَــديــدِهْ

وفيها عزل الرشيد الغطريف بن عطاء عن خُراسان ، وولاّها حمزة بن مالك بن الهيثم الخُزاعيّ ، وكان حمزة يلقب بالعروس .

* * *

وفيها ولّى الرشيد جعفر بن يحيىٰ بن خالد بن برمك مصر ، فولاّها عمر بن مِهران .

ذكر الخبر عن سبب تولية الرشيد جعفراً مصر وتولية جعفر عمر بن مهران إياها [(١)]

ذكر محمد بن عمر أنّ أحمد بن مهران حدّثه أنّ الرّشيد بلغه أن موسىٰ بن عيسىٰ عازم على الخلْع ـ وكان على مصر ـ فقال: والله لا أعزله إلا بأخسّ مَنْ على بابي. انظروا لي رجلاً ، فذكر عمر بن مِهْران ـ وكان إذ ذاك يكتب للخيزران ، ولم يكتب لغيرها ، وكان رجلاً أحوَل مشوَّه الوجه ، وكان لباسه لباساً خسيساً ، أرفعُ ثيابه طيلسانُه ، وكانت قيمته ثلاثين درهماً ، وكان يشمِّر ثيابه ويقصّر أكمامه ، ويركب بغلاً وعليه رَسَنٌ ولجام حديد ، ويُردف غلامه خلفه ـ فدعا به ، فولاّه مصر ، خراجَها وضياعَها وحَرْبَها. فقال: يا أمير المؤمنين أتولاّها على شريطة ، قال: وما هي؟ قال: يكون إذني إليّ ، إذا أصلحتُ البلاد انصرفتُ. فجعل ذلك له ، فمضى إلى مصر ، واتصلت ولاية عمر بن مهران بموسىٰ بن عيسىٰ ، فكان يتوقع قدومه ، فدخل عمر بن مهران

(١) انظر تعليقنا (٨/ ٥٤ ٢/ ١).

مصرَ على بغل ، وغلامه أبو دُرّة على بغل ثقل ، فقصد دار موسىٰ بن عيسىٰ والنّاسُ عنده ، فدخل فجلس في أخْرَيات الناس ، فلما تفرّق أهلُ المجلس ، قال موسىٰ بن عيسىٰ لعمر : ألك حاجة يا شيخ؟ قال : نعم ، أصلح الله الأمير! ثم قام بالكتب فدفعها إليه ، فقال : يقدم أبو حفص ، أبقاه الله! قال : فأنا أبو حفص ، قال : أنت عمر بن مهران؟ قال : نعم ، قال : لعن الله فرعون حين يقول : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[1] ، ثم سلّم له العمل ورحَل ، فتقدّم عمر بن مهران إلىٰ أبي دُرّة غلامه ، فقال له : لا تقبل من الهدايا إلاّ ما يدخل في الجِراب ، لا تقبل دابّة ولا جارية ولا غلاماً ، فجعل الناس يبعثون بهداياهم ، فجعل يردّ ما كان من الألطاف ، ويقبل المال والثياب ، ويأتي بها عمر ، فيوقّع عليها أسماء مَنْ بعث بها ، ثم وضع الجباية ، وكان بمصر قومٌ قد اعتادوا المطْل وكَسْر الخراج ، فبدأ برجل منهم ، فلوَاه ، فقال : والله لا تؤدي ما عليك من الخراج إلاّ في بيت المال بمدينة السلام إن سلمت ، قال : فأنا أؤدي ، فتحمّل عليه ، فقال : قد حلفتُ ولا أحنث ، فأشخصه مع رجلين من الجند ـ وكان العمّال إذ ذاك يكاتبون الخليفة ـ فكتب معهم إلى الرشيد : إنّي دعوت بفلان بن فلان ، وطالبته بما عليه من الخراج ، فلواني واستنظرني ، فأنظرته ثم دعوته ، فدافع ومال إلى الإلطاط ، فآليت ألا يؤدِّيَه إلا في بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذته مع فلان بن فلان وفلان بن فلان ، من جند أمير المؤمنين ، من قيادة فلان بن فلان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إليّ بوصوله فعل إن شاء الله تعالى .

قال : فلم يلوه أحدٌ بشيء من الخراج ، فاستأدى الخراج ، النّجم الأول والنجم الثاني ، فلما كان في النّجم الثالث ، وقعت المطالبة والمطْل ، فأحضر أهل الخراج والتّجار فطالبهم ، فدافعوه وشكوْا الضِّيقة ، فأمر بإحضار تلك الهدايا التي بُعث بها إليه ، ونظر في الأكياس وأحضر الجِهبْذ ، فوزن ما فيها وأجزاها عن أهلها ، ثم دعا بالأسفاط ، فنادى على ما فيها ، فباعها وأجزى أثمانها عن أهلها . ثم قال : يا قوم ، حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم إليها ، فأدُّوا إلينا ما لنا ، فأدّوْا إليه حتى أغلق مال مصر ، فانصرف ولا يُعلم أنه

---

(١) [الزخرف : ١].

أغلق مال مصر غيره ، وانصرف ، فخرج علىٰ بغل ، وأبو درّة على بغل ـ وكان إذنه إليه[١] .

* * *

وغزا الصائفةَ في هذه السنة عبدُ الرحمن بن عبد الملك ، فافتتح حصناً[٢] .

* * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وكان فيها ـ فيما ذكر الواقديّ ـ ريح وظلمة وحُمرة ليلة الأحد لأربع ليالٍ بقين من المحرّم ، ثم كانت ظلمة ليلة الأربعاء ، لليلتين بقيَتا من المحرَّم من هذه السنة ، ثم كانت ريح وظلمة شديدة يوم الجمعة لليلة خلت من صفر[٣] .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك وثوب الحوْفيّة بمصر؛ من قيس وقضاعة وغيرهم بعامل الرشيد عليهم إسحاقَ بن سليمان ، وقتالهم إياه ، وتوجيه الرّشيد إليه هرثمَة ابن أعيَن في عدّة من القواد المضمومين إليه مدداً لإسحاق بن سليمان؛ حتى أذعن أهل الحَوْف ، ودخلوا في الطاعة ، وأدّوْا ما كان عليهم من وظائف السّلطان ـ وكان هرثمة إذ ذاك عامِلَ الرشيد على فِلسطين ـ فلما انقضى أمر الحَوْفيّة صرف هارون إسحاق بن سليمان عن مصر ، وولاّها هرثمة نحواً من شهر ، ثم صَرفه وولاّها عبد الملك بن صالح[٤] .

---

(١) هذا الخبر الطويل ذكره الطبري من طريق الواقدي (محمد بن عمر وهو متروك على سعة علمه ، ولم نجد لهذه التفاصيل ما يؤيدها من مصدر متقدم ثقة ، والله أعلم .

(٢) بينما قال خليفة : ولم تك صائفة (تأريخ خليفة) .

(٣) وقد ذكر ابن كثير هذا الخبر مختصراً ونسبه إلى الواقدي [البداية والنهاية ٨ / ١٠٣] .

(٤) انظر المنتظم (٩/ ٣٥) .

وفيها كان وثوب أهل إفريقيّة بعبدويه الأنباريّ ومَنْ معه من الجند هنالك ، فقتِل الفضل بن رَوْح بن حاتم ، وأُخرِج مَن كان بها من آل المهلّب ، فوجه الرشيد إليهم هرثمة بن أعين ، فرجعوا إلى الطاعة .

وقد ذكر أن عبدويه هذا لمَّا غلب على إفريقيّة ، وخلع السلطان ، عظم شأنه وكثر تبعُه ، ونزع إليه الناس من النواحي ، وكان وزير الرشيد يومئذ يحيى بن خالد بن برمك ، فوجَّه إليه يحيى بن خالد بن برمك يقطين بن موسى ومنصور بن زيَّاد كاتبه؛ فلم يزل يحيى بن خالد يتابع على عبدويه الكتب بالترغيب في الطاعة والتخويف للمعصية والإعذار إليه والإطماع والعِدَة حتى قبل الأمان ، وعاد إلى الطاعة وقدم بغداد ، فوفى له يحيى بما ضمِن له وأحسن إليه ، وأخذ له أماناً من الرشيد ، ووصله ورأّسه .

وفي هذه السنة فوّض الرشيد أمورَه كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك[١] .

[ولاية الفضل بن يحيى على خراسان وسيرته بها]

وفيها شخص الفضل بن يحيى إلى خُراسان والياً عليها ، فأحسنَ السيرة بها ، وبنى بها المساجد والرِّباطات. وغزا ما وراء النهر ، فخرج إليه خاراخره ملك أشروسَنة؛ وكان ممتنعاً[٢] .

وذكر أن الفضل بن يحيى اتّخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسيّة ، وجعل ولاءهم لهم ، وأن عدّتهم بلغت خمسمائة ألف رجل ، وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل ، فسمُّوا ببغداد الكرَنبيَّة ، وخلّف الباقي منهم بخُراسان على أسمائهم ودفاترهم؛ وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

مـا الفضـلُ إلا شهـابٌ لا أُفـولَ لـه ... عنـدَ الحـروب إذا مـا تَـأفُـلُ الشُّهُـبُ
حَـامٍ علـى مُلـكِ قـومٍ عـزّ سَهْمُهُـمُ ... مـنَ الـوراثـةِ فـي أَيـديهـمُ سبـبُ
أَمستْ يَدٌ لبني ساقِي الحجيج بِها ... كتـائـبٌ مـا لهـا فـي غيـرهـم أَرَبُ

---

(١) هذا أمر جدّ خطير ومبالغ فيه ولا بُدَّ من ذكره بإسناد على الأقل يتفق عليه مؤرخان ثقتان من المتقدمين ولم يحصل ذلك فيما نعلم، والله تعالى أعلم.

(٢) انظر: البداية والنهاية [٨/ ١٠٣].

كتـائـبٌ لبنـي العبـاسِ قـد عَـرَفَـت ... ما أَلَّفَ الفضلُ منها العجْمُ والعرَب
أَثبـتَّ خمسَ مئيـن فـي عِـدادهـم ... من الألُوفِ التي أَحْصَت لك الكتب
يُقـارعـون عـن القـومِ الـذيـن هُـمُ ... أَولى بأحمَدَ في الفرقان إِن نُسِبوا
إِن الجوادَ ابن يحيى الفضلَ لا ورِقٌ ... يبقـى علـى جُـود كفَّيْـهِ ولا ذهـبُ
مـا مـرّ يـوم لـه مُـذ شـد مِئـزَرَهُ ... إِلاّ تَمَـوّلَ أَقـوام بمـا يَهَـبُ
كم غايةٍ في الندى والبأْسِ أحرَزَها ... للطّـالبيـنَ مـدَاهـا دونهـا تَعَـبُ
يعطِي اللُّهَى حِينَ لا يُعطِي الجَوادُ وَلا ... يَنْبـو إِذا سُلَّـتِ الْهِنْـدِيَّةُ القُضُـب
وَلا الـرِّضـا والـرِّضَـا لله غـايَتُـه ... إِلى سِوى الحَقِّ يَدْعوهُ وَلا الغَضَبُ
قَـدْفـاضَ عُـرْفُـك حتـى مـا يُعـادِلـهُ ... غَيْـثٌ مُغيـث وَلا بَحـرٌ لـه حَـدَبُ

قال: وكان مرْوان بن أبي حفصة قد أنشد الفضلَ في معسكره قبل خروجه إلى خراسان:

أَلَـم تَـرَ أَنَّ الجـودَ مِـنْ لَـدُن آدَمٍ ... تَحَدَّرَ حَتى صارَ في راحَةِ الفَضلِ
إِذا مـا أَبـو العَبّـاسِ راحـت سَمـاؤُه ... فيـا لـكَ مِـنْ هَطْـل ويَـا لـكَ مِـنْ وَبْـل
إِذا أُمُّ طِفـلٍ راعَهـا جـوعُ طِفلِهـا ... دَعَتُهُ بِإِسْمِ الفَضلِ فاستَعصَمَ الطفل
ليحْيَـا بِـكَ الإِسـلامُ إِنَّـكَ عِـزُّهُ ... وَإِنَّـكَ مِـن قَـومٍ صغيـرُهُـمُ كهْـلُ

وذكر محمد بن العباس أن الفضل بن يحيى أمر له بمائة ألف درهم، وكساه وحمله على بغلة. قال: وسمعته يقول: أَصبتُ في قَدْمَتي هذه سبعمائة ألف درهم. وفيه يقول:

تخَيَّرْتُ للمدْح ابنَ يحيى بْن خالدِ ... فحَسْبـي وَلـم أَظلِـمْ بِـأَنْ أَتَخيَّـرا
لـه عـادَةٌ أَنْ يَبْسُـطَ العَـدْلَ والنَّـدَى ... لِمَن ساسَ من قحطانَ أَوْ مَنْ تَنَزّرا
إِلى المِنبَرِ الشرقيِّ سارَ وَلم يزَلْ ... لـه وَالـدٌ يَعلـو سَـريـراً وَمِنبَـرَا
يُعَـدُّ ويَحيـى البَـرْمكـيّ وَلا يُـرَى ... لَـدَى الـدَّهْـرِ إِلا قـائـداً أَو مُـومَّـرا

ومدحه سلْم الخاسر، فقال:

وَكَيـفَ تخـافُ مِـن بـؤسٍ بـدارٍ ... تَكَنَّفَهـا البَـرامكَـةُ البُحُـورُ
وقَـوْمٌ مِنهُـمُ الفَضـلُ بْـنُ يحيـى ... نَفيـرٌ مَـا يُـوازنُـهُ نَفيـرُ
لـهُ يـومـانِ: يَـوْم نـدىً وبـأْسٍ ... كـأَنَّ الـدَّهْـرَ بَينَهُمـا أَسيـرُ
إِذا مـا البَـرْمَكِـيُّ غـدَا ابـنَ عَشـرٍ ... فَهِمَّتُـهُ وَزيـرٌ أَوْ أَميـرُ

وذكر الفضل بن إسحاق الهاشميّ أن إبراهيم بن جبريل خرج مع الفضل ابن يحيى إلى خُراسان وهو كاره للخروج ، فأحفظ ذلك الفضلَ عليه. قال إبراهيم: فدعاني يوماً بعد ما أغفلني حيناً ، فدخلت عليه؛ فلما صرت بين يديْه سلّمت ، فما ردّ عليّ ، فقلت في نفسي: شَرّ والله ـ وكان مضطجعاً ، فاستوى جالساً ـ ثم قال: ليفرخْ روْعك يا إبراهيم ، فإنّ قدرتي عليك تمنعني منك؛ قال: ثم عقد لي على سجِسْتان ، فلمّا حملت خراجها ، وهبه لي وزادني خمسمائة ألف درهم. قال: وكان إبراهيم على شُرَطه وحَرَسه ، فوجّهه إلى كابُل ، فافتتحها وغنم غنائم كثيرة.

قال: وحدّثني الفضل بن العباس بن جبريل ـ وكان مع عمه إبراهيم ـ قال: وصل إلى إبراهيم في ذلك الوجه سبعة آلاف ألف ، وكان عنده من مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم ، فلما قدم بغداد وبنى داره في البغيّين استزار الفضلَ ليريَه نعمته عليه ، وأعدّ له الهدايا والطُّرَف وآنية الذهب والفضة ، وأمر بوضع الأربعة الآلاف ألف في ناحية من الدار.

قال: فلما قعد الفضل بن يحيى قدّم إليه الهدايا والطُّرَف ، فأبى أن يقبل منها شيئاً ، وقال له: لم آتك لأسلُبَك ، فقال: إنها نعمتك أيها الأمير ، قال: ولك عندنا مزيد ، قال: فلم يأخذ من جميع ذلك إلا سوطاً سِجزيّاً ، وقال: هذا من آلة الفرسان ، فقال له: هذا المال من مال الخراج ، فقال: هو لك ، فأعاد عليه ، فقال: أما لك بيت يسعه! فسوّغه ذلك ، وانصرف.

قال: ولما قدم الفضل بن يحيى من خُراسان خَرج الرّشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله ، وتلقّاه بنو هاشم والناس من القوّاد والكتّاب والأشراف ، فجعل يصلُ الرجل بالألف ألف وبالخمسمائة ألف ، ومدحه مرْوان بن أبي حفصة ، فقال:

حَمِدنا الذي أَدَّى ابْنُ يَحيىَ فأَصْبَحَتْ ... بِمَقَدمِهِ تجري لنا الطَّيْرُ أَسْعُدا
وما هَجَعَتْ حتى رَأَتْهُ عُيونُنا ... ومَا زِلنَ حتى آبَ بالدَّمْع حُشَّدا
لقَدْ صَبَحَتْنا خَيلُهُ وَرجالُهُ ... بأَرْوَعَ بَذَّ الناسَ بأْساً وَسُودَدا
نفَى عَن خُراسانَ العَدُوَّ كما نَفى ... ضُحَى الصبْح جِلْبابَ الدجَى فتَعَرَّدَا
لقَدْ راعَ مَن أَمسَى بمَرْوَ مسيرُهُ ... إِلَينا ، وقالوا شَعْبُنا قد تبَدّدا

عَلَى حِينَ أَلْقَى قُفْلَ كُلِّ ظَلامَةٍ وَأَطْلَقَ بِالعَفْوِ الأَسِيرَ المقَيَّدَا
وأَفْشَى بِلاَ مَنٍّ مع العَدْلِ فيهِمُ أَيادِيَ عُرْفٍ باقِياتٍ وَعَوَّدَا
فأَذْهَبَ رَوْعاتِ المخاوفِ عنْهُمُ وَأَصْدَرَ باغي الأَمْنِ فيهِمْ وَأَوْرَدَا
وَأَجْدَى على الأَيتام فيهمْ بِعُرفِهِ فكانَ مِنَ الآباء أَحْنَى وَأَعْوَدَا
إذا الناسُ رَامُوا غايَةَ الفَضل في النَّدَى وَفِي البأْس أَلْفَوْها مِنَ النَّجْم أَبْعَدا
سما صاعِداً بِالفَضل يحيى وخالدٌ إلَى كُلِّ أَمر كانَ أَسْنَى وَأَمْجَدا
يَلِينَ لِمَنْ أَعطى الخَليفَةَ طاعَةً ويُسْقِي دمَ العاصِي الحسامَ المهنّدَا
أَذلَّتْ معَ الشِّرْكِ النّفاقَ سُيوفُهُ وَكانَتْ لأَهلِ الدّينِ عزّاً مُؤَبَّدا
وَشدَّ القُوَى مِن بَيْعةِ المُصْطَفى الذي علَى فضلِهِ عَهْدَ الخليفَةِ قُلِّدَا
سميُّ النَّبيِّ الفاتحِ الخاتِم الذي بِهِ اللهُ أَعطى كُلَّ خَيْرٍ وَسَدَّدا
أَبَحْتَ جِبالَ الكابُلِيّ ولم تَدَعْ بِهِنَّ لِنيرانِ الضَّلالَةِ مُوقَدا
فأَطْلَعتَها خَيْلاً وطِئْنَ جُموعَهُ قتِيلاً ومَأْسُوراً وَفَلاًّ مُشَرَّدا
وعادَت على ابنْ البَرْم نَعمَاكَ بعدَما تحَوَّبَ مخذولاً يَرَى المَوتَ مُفردا

وذكر العباس بن جرير ، أن حفص بن مسلم ـ وهو أخو رزام بن مسلم ، مولى خالد بن عبد الله القسريّ ـ حدّثه أنه قال: دخلت على الفضل بن يحيى مقدَمه خُراسان ، وبين يديه بِدَرٌ تُفرّق بخواتيهما ، فما فُضَّت بَدْرة منها ، فقلت:

كفى اللهُ بِالفضل بن يحيى بن خالدٍ وَجُودِ يدَيهِ بَخْلَ كلِّ بخيل

قال: فقال لي مرْوان بن أبي حفصة: وددتُ أنِّي سبقتك إلى هذا البيت ، وأن عليّ غرم عشرة آلاف درهم.

* * *

وغزا فيها الصّائفة معاوية بن زُفَر بن عاصم ، وغَزا الشَّاتية فيها سليمان ابن راشد ، ومعه البيد بِطْريق صِقِلّيّة[1] .

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ١٠٣).

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها شَرِيَ بخُراسان حمزة بن أترك السجستانيّ[١] .

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن العصبية التي هاجت بالشام]

فمما كان فيها من ذلك ، العصبيّة التي هاجت بالشأم بين أهلها[٢] .

*** ذكر الخبر عما صار إليه أمرها :**

ذُكر أن هذه العصبيَّة لما حدثت بالشأم بين أهلها ، وتفاقم أمرُها ، اغتمّ بذلك من أمرهم الرّشيد ، فعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أَقِيك بنفسي؛ فشخص في جِلَّة القوّاد والكُراع والسِّلاح ، وجعل على شُرَطه العباس بن محمد بن المسيّب بن زهير ، وعلى حَرَسه شبيب بن حُميد بن قحطبة ، فأتاهم فأصلح بينهم؛ وقتل زواقيلهم ، والمتلصّصة منهم ، ولم يَدَعْ بها رُمحاً ولا فرساً ، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة؛ وأطفأ تلك النائرة ، فقال منصور النمَريّ لما شخص جعفر :

لقَدْ أُوقِدَت بِالشأم نيران فِتْنَةٍ ... فهذَا أَوانُ الشأْم تُخْمدُ نارُها
إذا جاشَ مَوْجُ البحر مِنْ آل بَرْمكٍ ... عليها ، خَبَتْ شُهْبانها وشَرَارُها
رماها أَميرُ المؤمنينَ بجعفرٍ ... وَفيهِ تَلاقَى صَدْعها وانجبارُها
رَماها بميمونِ النَّقيبةِ ماجد ... تَراضَى به قَحْطانُها وَنِزارُها

(١) لم يذكر الخبر خليفة ولا البسوي وانظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٤] وشري : أي صار من الشُّراة (الخوارج) .
(٢) انظر المنتظم [٩/ ٤٦] .

تَــدَلَّــتْ عَليهــمْ صَخْــرة بَــرْمكيَّــةٌ دَمــوعٌ لهــام النــاكِثيــنَ انحــدارُهــا
غَــدوْتَ تُــزجِّي غــابَــةً فــي رُؤوسهــا نجــومُ الثــرَيَّــا والمنــايــا ثِمــارُهــا
إذا خَفقَــتْ رَايــاتهــا وتجَــرَّسَــتْ بها الرِّيحُ هال السَّامعينَ انْبهارُها
فقــولــوا لأَهــلِ الشــأمِ: لا يَسْلُبَنَّكُــم حجاكُمْ طَويلاتُ المُنَى وَقِصارها
فـــإِنَّ أَميـــرَ المُـــؤمنيـــنَ بنفسِـــه أَتـــاكُـــمْ وإلا نَفْسَـــهُ فَخِيـــارُهـــا
هــو المَلِــكُ المــأْمــولُ لِلْبــرِّ والتُّقَى وَصَــوْلاتُــه لا يُسْتَطــاعُ خِطــارُهــا
وزيــرُ أَميــرِ المــؤمنيــنَ وسَيْفُــهُ وَصَعْدَتُه والحَرْبُ تَدْمى شِفارُها
وَمَــنْ تُطْــوَ أَسْــرَارُ الخَليفَــةِ دونَــهُ فَعِنْــدَكَ مَــأْواهــا وَأَنْــتَ قَــرارُهــا
وَفَيْــتَ فلَــمْ تَغــدِرْ لقَــوْمٍ بِــذِمَّــةٍ وَلَــمْ تَــدْنُ مِــنْ حــالٍ يَنالُك عــارُها
طَبيــبٌ بــإِحيــاءِ الأُمــورِ إِذا التــوت مِنَ الدَّهْر أعناقٌ ، فأَنتَ جُبارُها
إذا ما ابنُ يحْيى جعفرٌ قَصَدَت لَهُ مُلِمّــاتُ خَطْــبٍ لــم تَــرُعْــهُ كِبــارُهــا
لقَــدْ نَشَــأَت بــالشَّــأْمِ مِنــك غمــامــةٌ يُــؤمَّــلُ جَــدواهــا وَيُخشَــى دَمــارُهــا
فطــوبَــى لأَهــلِ الشــأْمِ يــا وَيــلَ أُمِّهــا أَتــاهــا حَيــاهــا ، أَو أَتــاهــا بَــوارُهــا
فــإن ســالمــوا كــانَــتْ غمــامَــةَ نــائــلٍ وغَيــثٍ ، وإلا فــالــدِّمــاءُ قِطــارُهــا
أَبــوكَ أَبــو الأَمــلاك يَحيْــى بــنُ خــالــد أَخو الجُود والنُّعْمى الكِبارِ صغارُها
كأَيِّنْ تَرَى في البَرمكيِّينَ مِنْ نَدىً وَمِــنْ ســابقــاتٍ مــا يُشَــقُّ غِبــارُهــا
غَــدا بنجــومِ السَّعْــدِ مَــنْ حــلَّ رَحلَــهُ إِلَيْك ، وَعزَّتْ عصْبَةٌ أَنْتَ جارُها
عَذيــري مِــنَ الأَقــدارِ هــلْ عَــزَمــاتُهــا مُخَلِّفَتِــي عــن جعفــرٍ وَاقتســارُهــا
فعيْــنُ الأَسَــى مَطــروفَــةٌ لفــراقِــهِ ونَفســي إِلَيــه مــا يَنــامُ ادِّكــارُهــا[١]

وولّى جعفر بن يحيى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها ، واستخلف على الشأم عيسى بن العكيّ وانصرف ، فازداد الرشيد له إكراماً. فلما قدم على الرّشيد دخل عليه ـ فيما ذُكر ـ فقبَّل يديه ورجليه ، ثم مَثَل بين يديه ، فقال: الحمدُ لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحم تضرّعي ، وأَنْسأ في أجلِي ، حتى أراني وجه سيِّدي ، وأكرمني بقربه ، وامتنّ علي بتقبيل يده ، وردّني إلى خدمته؛ فو الله إن كنت لأذكر غيبتي عنه ومخرجي ، والمقادير التي أزعجتني؛ فأَعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتْني وخطايا أحاطت بي؛ ولو طال مُقامي

(١) انظر: البداية والنهاية [٨/ ١١٧].

عنك يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك ـ لخفت أن يذهب عقلي إشفاقاً على قربك ، وأسفاً على فراقك ، وأن يعجل بي عن إذنك الاشتياقُ إلى رؤيتك ، والحمد لله الذي عصمني في حالِ الغيبة ، وأمتعني بالعافية ، وعرّفني الإجابة ومسَّكني بالطاعة ، وحال بيني وبين استعمال المعصية؛ فلم أشخص إلاّ عن رأيك ، ولم أقدم إلاّ عن إذنك وأمرك؛ ولم يخترمْني أجل دونك. والله يا أميرَ المؤمنين ـ ولا أعظم من اليمين بالله ـ لقد عاينتُ ما لو تُعرَض لي الدنيا كلُّها لاخترت عليها قربَك ، ولما رأيتها عوضاً من المقام معك. ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام: إنّ الله يا أمير المؤمنين ـ لم يزل يبليك في خلافتك بقدْر ما يعلم من نيتك ، ويريك في رعيّتك غاية أمنيّتك ، فيصلح لك جماعتَهم ، ويجمع ألفتهم ، ويلمّ شَعثَهم ، حفظاً لك فيهم ، ورحمةً لهم؛ وإنما هذا للتمسُّك بطاعتك ، والاعتصام بحبل مرضاتك؛ والله المحمود على ذلك وهو مستحقُّه. وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهل كور الشأم وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسّكون بحبلك ، نازلون على حُكمك ، طالبون لعفوِك ، واثقون بحلْمك ، مؤمّلون فضْلك ، آمنون بادرتَك ، حالُهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالُهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمُّده لهم سابق لمعذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم ، وعطفه عليهم متقدّم عنده لمسألتهم.

وايم الله يا أميرَ المؤمنين لئن كنتُ قد شخصتُ عنهم ، وقد أخمد الله شرارهم وأطفأ نارهم ، ونفى مُرّاقهم ، وأصلح دهماءهم ، وأولاني الجميلَ فيهم ، ورزقني الانتصار منهم؛ فما ذلك كله إلا ببركتك ويُمْنك ، وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوّفِهم منك ، ورجائهم لك. والله يا أمير المؤمنين ما تقدّمتُ إليهم إلاّ بوصيتك ، وما عاملتهم إلا بأمركَ ، ولا سرت فيهم إلا على حدِّ ما مثّلتَه لي ورسمتَه ، ووقفتَنِي عليه؛ ووالله ما انقادوا إلاّ لدعوتك ، وتوحّدِ الله بالصنّع لك ، وتخوّفهم من سطوتك. وما كان الذي كان مني ـ وإن كنت بذلت جهدي ، وبلغت مجهودي ـ قاضياً ببعض حقك علي؛ بل ما ازدادت نعمتُك عليّ عظماً؛ إلا ازددتُ عن شكرك عجزاً وضعفاً، وما خلق الله أحداً من رعيّتك أبعدَ من أن يُطمع نفسه في قضاء حقكِ مني، وما ذلك إلاّ أن أكون باذلاً

مهجتي في طاعتك، وكلّ ما يقرّب إلى موافقتك؛ ولكني أعرف من أياديك عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري؛ فكيف بشكري وقد أصبحتُ واحدَ أهل دهري فيما صنعتَه فيَّ وبي! أم كيف بشكري، وإنما أقوى على شكري بإكرامك إياي! وكيف بشكري ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلكَ عدّي، وكيف بشكري وأنت كهفي دون كلّ كهف لي! وكيف بشكري وأنت لا ترضَى لي ما أرضاه لي! وكيف بشكري وأنت تجدّد من نعمتك عندي ما يستغرق كلّ ما سلف عندك لي! أم كيف بشكرِي وأنت تُنسيني ما تقدّم من إحسانك إليّ بما تجدده لي! أم كيف بشكري وأنت تقدمني بطوْلك على جميع أكفائي! أم كيف بشكري وأنت وليِّي! أم كيف بشكري وأنت المكرِم لي! وأنا أسأل الله الذي رزَقني ذلك منك من غير استحقاق له؛ إذا كان الشكْر مقصّراً على بلوغ تأدية بعضه، بل دون شقص من عُشر عشيره، أن يتولى مكافأتك عنِّي بما هو أوسعُ له، وأقدرُ عليه، وأن يَقضيَ عني حقَّك، وجليل مِنَّتِك؛ فإن ذلك بيده، وهو القادر عليه!

* * *

وفي هذه السنة أخذ الرّشيد الخاتم من جعفر بن يحيى، فدفعه إلى أبيه يحيى بن خالد.

وفيها ولّى جعفر بن يحيى خراسان وسِجستان، واستعمل جعفرٌ عليهما محمد بن الحسن بن قحطبة[١].

وفيها شخص الرّشيد من مدينة السلام مريداً الرَّقة على طريق الموصل، فلما نزل البَرَدان، ولّى عيسى بن جعفر خُراسان، وعزل عنها جعفر بن يحيى؛ فكانت ولاية جعفر بن يحيى إياها عشرين ليلة.

وفيها وُلِّيَ جعفر بن يحيى الحرَس[٢].

(١) انظر: البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].
(٢) انظر: البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].

وفيها هدَم الرّشيد سُور الموْصل بسبب الخوارج الذين خرجوا منها ، ثم مضى إلى الرّقة فنزَلها واتّخذها وطناً[١] .

وفيها عُزل هَرْثمة بن أعيَن عن إفريقيّة ، وأقفله إلى مدينة السلام[٢] فاستخلفه جعفر بن يحيى على الحرَس[٣] .

وفيها كانت بأرض مصر زلزلة شديدة ، فسقط رأسُ منارة الإسكندرية[٤] .

وفيها حكم خُراشة الشيبانيّ وشَرِيَ بالجزيرة ، فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العُقيليّ[٥] .

وفيها خرجت المحمّرة بجُرجان ، فكتب عليّ بن عيسى بن ماهان أنّ الذي هيّج ذلك عليه عمرو بن محمد العمركيّ ، وأنه زنديق ، فأمر الرشيد بقتله ، فقتِل بمَرْو[٦] .

وفيها عَزَل الفضل بن يحيى عن طبرستان والرُّويان ، وولَّى ذلك عبد الله ابن خازم. وعزلَ الفضل أيضاً عن الرّيّ ، ووليَها محمد بن يحيى بن الحارث بن شخّير ، وولّى سعيد بن سلْم الجزيرة.

وغزا الصائفة فيها معاوية بن زفر بن عاصم[٧] .

* * *

(١) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].

(٢) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].

(٣) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].

(٤) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].

(٥) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].

(٦) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].

(٧) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٥].

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فكان فيها غزو الرشيد أرضَ الروم ، فافتتح بها عنوةً حصن الصّفْصاف[١] فقال مَرْوان بن أبي حفصة :

إنَّ أَميــرَ المــؤمنيــنَ المصطَفــى قد ترك الصَّفصافَ قاعاً صَفصفا

وفيها غزا عبد الملك بن صالح الرّوم ، فبلغ أنقرة وافتتح مَطْمورة[٢] .

وفيها غلبت المحمّرة على جُرجان[٣] .

وفيها أحدث الرشيد عند نزوله الرَّقة في صدور كتبه الصّلاةَ على محمد ﷺ[٤] .

* * *

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها حُملت ابنة خاقان ملك الخَزر إلى الفَضْل بن يحيى ، فماتت بِبَرْذعة ، وعلى إرمينيَة يومئذ سعيد بن سلْم بن قُتيبة الباهليّ ، فرجع مَنْ كان فيها من الطراخنة إلى أبيها ، فأخبروه أن ابنته قُتلت غِيلة ، فحنق لذلك ، وأخذ في الأهبْة لحرب المسلمين .

وانصرف فيها يحيى بن خالد إلى مدينة السّلام[٥] .

---

(١) انظر : المنتظم (٩/ ٥٧).

(٢) انظر : البداية والنهاية (٨/ ١٠٦)

(٣) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٦]

(٤) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٦].

(٥) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٨].

وغزا فيها الصائفةَ عبدُ الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، فبلغ دفسوس مدينة أصحاب الكهف(١) .

وفيها سَملت الرّوم عينيْ ملكِهم قسطنطين بن أليون ، وأقرّوا أمه ريني ، وتلقّب أُغَسْطة(٢) .

* * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك خروج الخَزر بسبب ابنة خاقان من باب الأبواب وإيقاعهم بالمسلمين هنالك وأهل الذّمة ، وسبيُهم ـ فيما ذكر ـ أكثر من مائة ألف . فانتهكوا أمراً عظيماً لم يُسمع في الإسلام بمثِله ، فولّى الرشيد إرمينيَة يزيد بن مزيد مع أذْرَبيجان ، وقوّاه بالجند؛ ووجّهه ، وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءاً لأهل إرمينيَة(٣) .

وقد قيل في سبب دخول الخزر إرمينيَة غيرُ هذا القول؛ وذلك ما ذكره محمد بن عبد الله أن أباه حدثه ، أنّ سبب دخول الخَزر إرمينيَة في زمان هارون كان أن سعيد بن سلْم ضرب عُنق المنجم السُّلمي بفأس ، فدخل ابنه بلاد الخَزَر ، واستجاشهم على سعيد، فدخلوا إرمينيةَ من الثلْمة، فانهزم سعيد، ونكحوا المسلمات، وأقاموا فيها ـ أظنُّ ـ سبعين يوماً، فوجّه هارون خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد إلى إرمينيَة حتى أصلحا ما أفسد سعيد، وأخرجا الخزر، وسُدّت الثُّلْمة.

وفيها كتب الرّشيد إلى عليّ بن عيسى بن ماهان وهو بخُراسان بالمصير إليه؛ وكان سبب كتابه إليه بذلك؛ أنه كان حُمل عليه ، وقيل له : إنه قد أجمع على الخلاف ، فاستخلف عليّ بن عيسى ابنَه يحيى على خُراسان ، فأقرّه الرّشيد ،

---

(١) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٨].

(٢) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١٠٨].

(٣) انظر : المنتظم [٩/ ٨٣].

فوافاه عليّ ، وحمل إليه مالاً عظيماً ، فردّه الرّشيد إلى خُراسان من قِبَل ابنه المأمون لحرب أبي الخصيب ، فرجع .

وفيها خرج بنَسَا من خُراسان أبو الخصيب وُهيب بن عبد الله النسائيّ مولَى الحرِيش .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة
ذكر الخبر عما كا فيها من الأحداث

وولي استخراج ذلك ـ فيما ذكر ـ عبد الله بن الهيثم بن سام بالحبس ولضرب وولي حماد البربري مكة واليمن، وولي داود بن يزيد بن حاتم المهلبي السند ويحيىٰ الحرشي الجبل، ومهدويه الرازي طبرستان، وقام بأمر إفريقية إبرهيم الأغلب، فولاها إياه الرشيد.

وفيها خرج أبو عمرو والشاري فوجه إليه زهير القصاب فقتله بشهرزور[(١)] وفيها طلب أبو الخصيب الأمان، فأعطاه ذلك عليّ بن عيسى، فوافاه بمدد فأكرمه.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من قتل أهل طبرستان مهروية الرازي وهو واليها، فولّى الرشيد مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي[(٢)] .

وفيها قتل عبد الرحمن الأبناوي أبان بن قحطبة الخارجي بمرج القلعة.

وفيها عاش حمزه الشاري بباذ غيس من خراسان، فوثب عيسىٰ بن علي بن عيسىٰ على عشرة آلاف من أصحاب حمزة فقتلهم، وبلغ كابُل وزابلستان والقندهار، فقال أبو العذافر في ذلك[(٣)] :

---

(١) انظر : البداية والنهاية [٨/ ١١١].

(٢) انظر : المنتظم (٩/ ١٠٣).

(٣) انظر : المنتظم (٩/ ١٠٣).

كاد عيسىٰ يكون ذا القرنين بلغ المشرقين والمغربين
لم يدع كابُلاً ولا زابلستا ن فما حولها إلى الرخجين

وفيها خرج أبو الخصيب ثانية بنسا، وغلب عليها وعلى أبيورد وطوس ونيسابور، وزحف إلى مرو، فأحاط بها، فهزم، ومضىٰ نحو سرخس، وقوي أمره[١].

وفيها مات يزيد بن مزيد ببرذعة، فوُلِّيَ مكانه أسد بن يزيد[٢] وفيها مات يقطين بن موسىٰ ببغداد.

وشخص فيها الرشيد إلى الرقة على طريق الموصل.

واستأذنه فيها يحيىٰ بن خالد في العمرة والجوار، فأذن له، فخرج في شعبان، واعتمر عمرة شهر رمضان، ثم رابط بجدة إلى وقت الحج، ثم حج.

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

وفيها حبس الرّشيد ثُمامة بن أشرس لوقوفه على كذبه في أمر أحمد بن عيسى بن زيد.

وفيها مات جعفر بن أبي جعفر المنصور عند هَرْثمة. وتُوُفي العباس بن محمد ببغداد[٣].

* * *

[ذكر حجّ الرشيد ثمّ كتابته العهد لأبنائه][٤]

وحجّ بالناس فيها هارون الرشيد؛ وكان شخوصه من الرّقة للحجّ في شهر رمضان من هذه السنة ، فمرّ بالأنبار ، ولم يدخل مدينة السلام؛ ولكنه نزل منزلاً

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١١١).
(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ١١١).
(٣) انظر: تاريخ بغداد [١٢/ ١٢٤].
(٤) أصل الخبر في صحيح تاريخ الطبري أما هذه التفاصيل فلم يؤيدها خليفة ولا البسوي.

على شاطىء الفرات يدعى الدّارَات ، بينه وبين مدينة السلام سبعة فراسخ ، وخلّف بالرّقة إبراهيم بن عثمان بن نَهيك ، وأخرج معه ابنيه : محمداً الأمين وعبد الله المأمون ؛ وليّيْ عهده ؛ فبدأ بالمدينة ، فأعطى أهلها ثلاثة أعطية ؛ كانوا يقدمون إليه فيعطيهم عطاء ، ثم إلى محمد فيعطيهم عطاءً ثانياً ، ثم إلى المأمون فيعطيهم عطاء ثالثاً ، ثم صار إلى مكة فأعطى أهلَها ، فبلغ ذلك ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار.

وكان الرّشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد ـ فيما ذكر محمد بن يزيد عن إبراهيم بن محمد الحجَبِيّ ـ يوم الخميس في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة ، وسماه الأمين بالرّقة في سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وولاّه من حدّ همَذان إلى آخر المشرق ، فقال في ذلك سَلم بن عمرو الخاسر :

بايَعَ هارونُ الهُدَى لِذِي الحِجى والخُلُقِ الفاضِلِ
المخلِف المُتلفِ أَموالَهُ والضامِن الأثقالَ للحامِلِ
والعالِم النافِذ في علمِهِ والحاكِم الفاضل والعادل
والرَّاتِق الفاتِقِ حلفَ الهدى والقائِل الصادِقِ والفاعِلِ
لِخَير عباس إذا حُصِّلوا والمفْضِل المجدي على العائلِ
أَبَرُّهمْ برّاً وأَولاهُمُ بالعُرفِ عند الحدثِ النازل
لِمُشبهِ المنصورِ في ملكه إذا تدَجَّتْ ظُلمَةُ الباطل
فَتَمَّ بالمأمونِ نورُ الهدى وانكشَفَ الجَهلُ عن الجاهِل

وذكر الحسن بن قريش أن القاسم بن الرشيد ، كان في حِجْر عبد الملك ابن صالح ، فلما بايع الرشيدُ لمحمد والمأمون ، كتب إليه عبد الملك بن صالح :

يا أيها الملِكُ الّذي لو كان نجماً كانَ سَعْدا
اعْقِدْ لقاسِمَ بيْعةً واقدَحْ له في المُلكِ زَنْدا
اللهُ فرْدٌ واحدٌ فاجعل ولاةَ العهدِ فرْدَا[1]

فكان ذلك أول ما حضّ الرشيد على البيعة للقاسم. ثم بايع للقاسم ابنه ،

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١١٢).

وسماه المؤتمن ، وولاّه الجزيرة والثغور والعواصم ، فقال في ذلك :

حُبّ الخليفةِ حُبٌّ لا يَدينُ بِهِ ... مَنْ كان لله عاصٍ يَعْمَلُ الفِتَنا
اللهُ قَلَّدَ هاروناً سِياسَتَنا ... لَمَّا اصطفاهُ فأَحْيَا الدِّينَ والسنَنَا
وَقلَّدَ الأَرضَ هارونٌ لرأفَتِهِ ... بنَا أَميناً ومأمُوناً ومؤتمَنا

قال: ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة ، قال بعض العامة: قد أحكم أمر الملك ، وقال بعضهم: بل ألقىٰ بأسَهُم بينهم ، وعاقبةُ ما صنع في ذلك مخوفةٌ على الرّعية ، وقالت الشعراء في ذلك ، فقال بعضهم:

أَقولُ لغمَّةٍ في النفسِ مني ... وَدَمْعُ العَينِ يَطَّردُ اطِّرادَا
خُذِي لِلْهَوْلِ عُدّتَهُ بحزْمٍ ... سنَلْقَى ما سَيَمْنَعُكِ الرُّقَادا
فإنَّكِ إنْ بَقيتِ رأَيتِ أَمراً ... يُطِيلُ لكِ الكآبةَ والسهادا
رَأى الملكُ المَهذَّبُ شَرَّ رأيٍ ... بقِسْمَتِهِ الخلافةَ والبِلادا
رأى ما لوْ تعقَّبَهُ بعِلمٍ ... لبَيَّضَ من مَفارِقِهِ السَّوادا
أَرادَ به ليَقطَعَ عن بَنيه ... خلافَهُمُ ويَبتذِلوا الودادا
فقد غَرَسَ العداوةَ غيرَ آلٍ ... وأَورثَ شَملَ أُلفتِهمْ بَدادا
وَأَلقَحَ بَيْنَهُمْ حرْباً عَواناً ... وَسلَّس لاجتنابِهمُ القيادا
فوَيلٌ لِلرَّعيّةِ عن قليلٍ ... لقد أَهدى لها الكُرَبَ الشّدادا
وأَلبَسَها بلاءً غيرَ فانٍ ... وأَلزمها التَّضَعْضُعَ والفسادا
سَتجْري من دِمائُهم بحُورٌ ... زواخِرُ لا يَروْنَ لها نفادَا
فوِزْرُ بلائِهمْ أَبداً عليه ... أَغيّاً كانَ ذلك أَمْ رشادا

وكانت الشهادة بالبَيْعة والكتاب في البيت الحرام ، وتقدّم إلى الحَجَبَة في حفظهما ، ومنْع من أراد إخراجهما والذهاب بهما ، فذكر عبدُ الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميميّ وإبراهيم الحجبيّ ، أنّ الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقُوّاد والفقهاء ، وأدخلوا البيت الحرام ، وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد ، وأشهد عليهما جماعة مَنْ حضر ، ثم رأى أن يعلّق الكتاب في الكعبة ، فلما رُفع ليُعلّق وقع ، فقيل إنّ هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه. وكانت نسخة الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه

محمد بن هارون أمير المؤمنين ، في صحة من عقله ، وجواز من أمره ، طائعاً غير مكرَه. إن أمير المؤمنين ولاَني العهدَ من بعده ، وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً ، وولّى عبدَ الله بن هارون العهدَ والخلافةَ وجميع أمور المسلمين بعدي ، برضاً مني وتسليم ، طائعاً غير مكرَه ، وولاّه خُراسان وثغورَها وكُورَها وحربَها وجندَها وخراجَها وطرزها وبَريدها ، وبيُوت أموالها ، وصدقاتها وعُشْرها وعشورها ، وجميع أعمالها ، في حياته وبعده. وشرطتُ لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضاً مني وطيب نفسي ، أنْ لأخي عبد الله بن هارون عليّ الوفاء بما عَقَد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي ، وتسليمَ ذلك له؛ وما جعل له من ولاية خُراسان وأعمالها كلّها ، ومَا أقطعه أمير المؤمنين من قَطعية ، أو جعل له من عُقدة أو ضيْعة من ضياعه ، أو ابتاع من الضيّاع والعُقَد ، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلْي أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو منزل أو دوابّ ، أو قليل أو كثير؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موفَّراً مسلّماً إليه. وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً.

فإن حدث بأمير المؤمنين حدَثُ الموت ، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين ، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خُراسان وثغورها ومَنْ ضمّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرَمَاسين؛ وأن يمضِي عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خُراسان والرّيّ والكُور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من مُعسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع مَنْ ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحبّ ، من لدُن الريّ إلى أقصى عمل خُراسان. فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضمّهم إلى أمير المؤمنين ، ولا يحوّل عبدَ الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاّها إياها هارون أمير المؤمنين من ثُغور خُراسان وأعمالها كلِّها ، ما بين عمل الرّيّ مما يلي هَمذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها؛ وما هو منسوب إليها ، ولا يشخِصه إليه ، ولا يفرق أحداً من أصحابه وقوّاده عنه ، ولا يولي عليه أحداً ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عُمّاله وولاة أموره بُنداراً ، ولا محاسباً ولا عاملاً ، ولا يدخل عليه في صغيرٍ من أمره ولا كبير ضرراً ،

ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يَعرض لأحد ممن ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقُضاته وعمّاله وكتابه وقُوّاده وخدَمه ومواليه وجنده؛ بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا مواليهم ، ولا أحد بسبيل منهم ، ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابّهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً ، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه ، وبترخيصٍ له في ذلك وإدهانٍ منه فيه لأحد من ولد آدم ، ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله وممّن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته.

وإن نزع إليه أحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصَحابته وقوّاده وعماله وكتّابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفض اسمه ومكْتبَه ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً عليه؛ فعلى محمد بن أمير المؤمنين ردّه إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصغَرٍ له وقَماء حتى ينفذ فيه رأيَه وأمرَه.

فإن أراد محمد بن أمير المؤمنين خلعَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عزلَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خُراسان وثُغورها وأعمالها ، والذي من حدّ عملها مما يلي هَمَذان والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرْف أحد من قواده الذين ضمَّهم أمير المؤمنين إليه ممن قدِم قَرْماسين ، أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجهٍ من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل؛ صغرت أو كبرت؛ فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدّم على محمد ابن أمير المؤمنين ، وهو وليّ الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خُراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، والقيامُ معه ، والمجاهدةُ لمَنْ خالفه ، والنصر له والذبّ عنه؛ ما كانت الحياة في أبدانهم. وليس لأحدٍ منهم جميعاً من كانوا ، أو حيث كانوا ، أن يخالفَه ولا يعصيه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين

وصرْف العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته ، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب. وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدّق في قوله ، وأنتم في حلٍّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون إن نقض شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقادَ لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ويسلِّم له الخلافة.

وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن يخلعَا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدّما عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البريّة؛ فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف ذلك عنه إلى مَنْ رأى من ولده وإخوته ، وتقديم مَنْ أراد أن يقدم قبله ، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد مَن يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحبّ ورأى.

فعليكم معشرَ المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ، وعليكم السّمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، وعهد الله وذمّته وذمّة رسوله ﷺ وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقرّبين والنبيين والمرسلين ، ووكّدَها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتَفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمّى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمّى وكتب في كتابه هذا ، واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم؛ فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئاً ، أو غيّرتم ، أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، واشترط عليكم في كتابه هذا ، فبرئت منكم ذمّة الله وذمّة رسوله محمد ﷺ وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكلُّ مالٍ هو اليوم لكلِّ رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجَّة ، نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك؛ وكلّ مملوك لأحد منكم ـ أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة ـ حرّ ، وكلّ امرأة له

فهي طالق ثلاثاً ألبتة طلاق الحرَج ، لا مثنويّة فيها. والله عليكم بذلك كفيل وراعٍ ، وكفى بالله حسيباً.

* * *

نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله ابن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في صحّةٍ من عقله ، وجوازٍ من أمر ، وصدقِ نيّة فيما كتب في كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين. إن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون ، وولاّني في حياته ثغورَ خُراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاءَ بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ، أو ابتاع لي من الضياع والعُقَد والرّباع أو ابتعت منه من ذلك ، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدوابّ والرّقيق وغير ذلك ، ولا يعرض لي ولا لأحد من عمّالي وكتّابي بسبب محاسبة ، ولا يتَّبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً ، ولا يُدخل عليّ ولا عليهم ولا على مَنْ كان معي ومن استعنتُ به من جميع الناس مكروهاً؛ في نفس ولا دمٍ ولا شعر ولا بشر ولا مال ، ولا صغير من الأمور ولا كبير. فأجابه إلى ذلك ، وأقرّ به وكتب له كتاباً ، أكّد فيه على نفسه ورضيَ به أميرُ المؤمنين هارون وقبِله ، وعرف صدق نيّته فيه. فشرطتُ لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشّه ، وأوفي بيعته وولايته ، ولا أغدر ، ولا أنكُث ، وأنفِذُ كتبَه وأموره ، وأحسن موازرته وجهاد عدوّه في ناحيتي ، ما وفَى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري ، وسمَّى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين ، ورضي به أميرُ المؤمنين ، ولمْ يتّبعني بشيء من ذلك ، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه.

فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جندٍ ، وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه

إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدوٍّ من أعدائه؛ خالفه أو أراد نقصَ شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنَده أمير المؤمنين إلينا وولاّنا إياه؛ فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصّر في شيء كتب به إليّ. وإن أراد محمد أن يوَلِّيَ رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي؛ فذلك له ما وفّى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه ، وشرط على نفسه في أمري ، وعليّ إنفاذ ذلك والوفاء له به؛ ولا أنقص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدِّله ، ولا أقدّم قبله أحداً من ولَدي ، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلاّ أن يولِّيَ أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي؛ فيلزمني ومحمداً الوفاء له.

وجعلتُ لأمير المؤمنين ومحمد علي الوفاء بما شرطت وسمّيت في كتابي هذا ، ما وفّى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي ، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسمّاة في هذا الكتاب الذي كتبه لي ، وعليّ عهد الله وميثاقه وذمّة أمير المؤمنين وذمّتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشدّ ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكّدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها؛ فإن أنا نقضتُ شيئاً مما شرطت وسمّيت في كتابي هذا أو غيّرت أو بدّلت، أو نكثت أو غدرت، فبرئتُ من الله عزَّ وجلَّ ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله ﷺ ، ولقيتُ الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكلّ امرأة هي لي اليوم أو أتزوّجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً ألبتة طلاق الحرَج؛ وكلّ مملوك هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وعليّ المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكّة ثلاثين حِجّة، نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً راجلاً؛ لا يقبل الله منّي إلا الوفاء بذلك، وكلّ مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هَدْي بالغ الكعبة؛ وكلّ ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره.

وشهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

* * *

نسخة كتاب هارون بن محمد الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعد فإنّ الله وليّ أمير المؤمنين ووليّ ما ولاّه، والحافظ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدّم وأخّر من أموره، والمنعم عليه بالنّصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكالىء والحافظ والكافي من جميع خلْقه؛ وهو المحمود على جميع آلائه، المسؤول تمامَ حُسْنِ ما أمضىٰ من قضائه لأمير المؤمنين وعادته الجميلة عنده وإلهام ما يرضىٰ به ويوجب له عليه أحسن المزيد من فضله وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولىٰ الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسنَ ما أمّلت الأمة، ومدّت إليه أعناقها، وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبّة والمودّة والسكون إليهما والثّقة بهما، لعماد دينهم، وقِوام أمورهم؛ وجمع ألفَتهم، وصلاح دَهْمائهم، ودفع المحذور والمكروه من الشّتَات والفرقة عنهم؛ حتى ألقَوْا إليهما أزمَّتهم، وأعطوْهما بيعتَهم وصفَقات أيمانهم، بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلّظة عليهم. أراد الله فلم يكن له مردّ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صَرْفٍ له عن محبّته ومشيئته، وما سبق في علمه منه. وأميرُ المؤمنين يرجو تمامَ النّعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمّة كافة؛ لا عاقبَ لأمر الله ولا رادَّ لقضائه، ولا معقِّبَ لحكمه.

ولم يزل أميرُ المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عَقْد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين ولعبد الله ابنِ أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين، يُعمِل فكرَه ورأيه ونظرَه ورؤيتَه فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعيّة والجمع للكَلمة، واللمّ للشعث، والدّفْع للشتات والفرقة، والحسْم لكيْد أعداء النِّعَم؛ من أهل الكفر والنفاق والغلّ والشِّقاق، والقطع لآمالهم من كلّ فرصة يرجـون إدراكَها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما. ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك، ويسأله العزيمةَ له على ما فيه الخِيرَة لهما ولجميع الأمة، والقوّة في أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كَيْد أعداء النِّعم، وردّ حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما.

فعزم الله لأمير المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله ، وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره ، واكتتاب الشّرْط على كلّ واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود ، وأغلظ الأيمان والتّوكيد ، والأخذ لكلّ واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماعَ ألفتهما ومودّتهما وتواصلهما وموازرتهما ومكانفتهما على حسنِ النظر لأنفسهما ولرعيّة أمير المؤمنين التي استرعاهما ، والجماعة لدين الله عزَّ وجلَّ وكتابه وسنن نبيِّه ﷺ ، والجهاد لعدوّ المسلمين؛ من كانوا وحيث كانوا ، وقطْع طمع كل عدوٍّ مظهر للعداوة ، ومسرّ لها ، وكلّ منافق ومارق ، وأهل الأهواء الضالّة المضلّة من تكيد بكيْد تُوقعه بينهما ، وبدَحْس يُدحس به لهما ، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة ، والسّعي بالفساد في الأرض ، والدعاء إلى البدَع والضّلالة؛ نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمّة نبيه محمد ﷺ ومناصحةً لله ولجميع المسلمين ، وذبّاً عن سلطان الله الذي قدّره ، وتوحّد فيه للذي حمّله إياه ، والاجتهاد في كلِّ ما فيه قُرْبة إلى الله ، وما ينال به رضوانَه ، والوسيلة عنده.

فلما قدِم مكّة أظهر لمحمد وعبد الله رأيَه في ذلك ، وما نظر فيه لهما ، فقبلا كلَّ ما دعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله ، وكتَبا لأمير المؤمنين في بَطْن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما ، بمحْضَر ممَّن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقوّاده وصحابته وقضاته وحَجَبَة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحَجَبة ، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة.

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كلّه في داخل بيت الله الحرام وبطْن الكعبة ، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما ، وحضروا كتابهما ، أن يعلموا جميع مَنْ حضر الموسم من الحاجّ والعُمّار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرْطهما وكتابهما ، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعُوه ، ويعرفوه ويحفظوه ، ويؤدُّوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك ، وقرِىء عليهم الشّرْطان جميعاً في المسجد الحرام ، فانصرفوا. وقد اشتهر ذلك عندهم ، وأثبتوا الشهادة عليه ، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم ، ولمِّ شعثِهم وإطفاء جَمْرة أعداء الله؛ أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم ، وأظهروا الدعاء

لأمير المؤمنين والشّكر لما كان منه في ذلك.

وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبهما لأمير المؤمنينِ ابناه محمد وعبد الله في بطْن الكعبة في أسفل كتابه؛ هذا فاحمَدِ الله عزَّ وجلَّ على ما صنع لمحمد وعبد الله وليَّيْ عهد المسلمين حمداً كثيراً، واشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليّي عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد ﷺ كثيراً.

واقرأ كتاب أميرِ المؤمنين على مَن قِبلك من المسلمين، وأفهمهم إيّاه وقُمْ به بينهم، وأثبته في الديوان قِبلك وقبَلَ قوّاد أمير المؤمنين ورعيته قِبلَك واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك، إن شاء الله وحسبنا الله ونعم الوكيل وبه الحول والقوّة والطول.

وكتب إسماعيل بن صَبِيح يوم السبت لسبع ليال بَقِين من المحرّم سنة ست وثمانين ومائة[١].

قال: وأمر هارون الرشيد لعبد الله المأمون بمائة ألف دينار، وحملت له إلى بغداد من الرّقة.

* * *

قال وكان الرّشيد بعد مقتل جعفر بن يحيى بالعُمْر، صار إلى الرّقة، ثم قدم بغداد؛ وقد كانت توالتْ عليه الشكاية من عليّ بن عيسى بن ماهان من خُراسان وكثر عليه القوْل عنده، فأجمع على عَزْله من خُراسان، وأحبّ أن يكون قريباً منه. فلما صار إلى بغداد شخص بعد مدّة منها إلى قَرْمَاسِين، وذلك في سنة تسع وثمانين ومائة، وأشخص إليها عدّة رجال من القضاة وغيرهم، وأشهدهم أنّ جميع ما له في عسكره من الأموال والخزائن والسّلاح والكُراع وما سواه أجمع لعبد الله المأمون، وأنه ليس فيه قليل ولا كثير بوجْه ولا سبب، وجدّد البيعة له علَى مَنْ كان معه، ووجّه هَرثمة بن أَعْيَن صاحب حَرَسه إلى بغداد، فأعاد أخذ

(١) علّق ابن كثير على هذه التفاصيل بقوله وقد أطال القول في هذا المقام الإمام أبو جعفر بن جرير وتبعه ابن الجوزي في كتاب المنتظم أيضاً [البداية والنهاية ٨/ ١١٢].

البيعة على محمد بن هارون أمير المؤمنين وعلى مَنْ كان بحضرته لعبد الله والقاسم على النّسخة التي كان أخذها عليه الرّشيد بمكة؛ وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبد الله إذا أفضت إليه الخلافة؛ فقال إبراهيم الموصليّ في بيعة هارون لابنيه في الكعبة:

خيْرُ الأُمورِ مَغَبّةً وأَحَقُّ أَمرٍ بالتّمامِ
أمرٌ قضى إِحكامه الرّحمانُ في البيْت الحَرَامِ

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن إيقاع الرشيد بالبرامكة](1)

* ذكر الخبر عن سبب قتله إياه وكيف كان قتله وما فعل به وبأهل بيته:

أما سبب غضبه عليه الذي قتله عنده، فإنه مختلَف فيه، فمن ذلك ما ذكر عن بختيشوع بن جبريل، عن أبيه أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد ـ وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ـ فلما دخل وصار بالقُرْب من الرّشيد وسلَّم ردّ عليه ردّاً ضعيفاً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر.

قال: ثم أقبل عليَّ الرشيد، فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحدٌ بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: فما بالُنا يُدْخَل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قدّمني الله قبلَك؛ والله ما ابتدأتُ ذلك الساعة، وما هو إلاّ شيء كان خصّنِي به أمير المؤمنين، ورفَع به ذكري؛ حتى أنْ كنتُ لأدخل وهو في فراشه مجرّداً حيناً، وحيناً في بعض إزاره؛ وما علمتُ أنّ أمير المؤمنين كرِه ما كان يحبّ؛ وإذْ قد علمتُ فإنّي أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا

(١) أصل الخبر في صحيح التأريخ دون التفاصيل. وانظر: المنتظم [٩/ ١٢٦ ـ ١٣٥]، والبداية والنهاية [٨/ ١١٣] إلى [٨/ ١١٦].

ـ قال: وكان من أرقّ الخلفاء وجهاً ـ وعيناه في الأرض، ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردتُ ما تكره؛ ولكنّ الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه، وخرج يحيى.

وذُكر عن **أحمد بن يوسف** أنَّ **ثُمامة بن أشرس**؛ قال: أوّل ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغنِي عنك من الله شيئاً، وقد جعلتَه فيما بينك وبين الله؛ فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عمّا عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا ربّ إني استكفيتُ يحيى أمورَ عبادك! أتراك تحتجّ بحجّة يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع. فدعا الرّشيد يحيى ـ وقد تقدم إليه خبر الرسالة ـ فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأيّ الرجال هو؟ قال: متّهم على الإسلام، فأمر به فوضع في المطبَق دهراً؛ فلمّا تنكّر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأحضِر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبّني؟ قال: لا والله يا أميرَ المؤمنين، قال: تقول هذا! قال: نعم، وضعتَ في رجلي الأكبال، وحُلتَ بيني وبينِ العِيال بلا ذنب أتيت، ولا حدث أحدثت، سوى قولِ حاسد يكيد الإسلام وأهلَه، ويحب الإلحادَ وأهله؛ فكيف أحبُّك! قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثم قال: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين؛ ولكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر أن يعطى مائة ألف درهم، فأحضِرَت، فقال: يا محمد، أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم؛ قد أنعمت عليّ، وأحسنت إليّ. قال: انتقم الله ممّن ظلمك، وأخذ لك بحقِّك ممّن بعثني عليك. قال: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أوّل ما ظهر من تغيّر حالهم[1].

قال: وحدّثني محمد بن الفضْل بن سفيان، مولى سليمان بن أبي جعفر، قال: دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرّشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرّشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان ألاّ يقوموا ليحيى إذا دخل الدار. قال: فدخل فلم يقم إليه أحدٌ، فاربدّ لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوْه أعرضوا عنه. قال: فكان ربّما استسقى الشربة من الماء أو غيره، فلا يسقونه،

(١) ثمامة بن أشرس من رؤوس الضلالة وهو كذاب [لسان الميزان] (تر/ ٨٧٥).

وبالحَرى إن سقوْه أن يكون ذلك بعد أن يدعوَ بها مراراً.

وذكر أبو محمد اليزيديّ ـ وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم ـ قال: مَنْ قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدّقه؛ وذلك أنّ الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره، فأجابه، إلى أن قال: اتَّق الله في أمري، ولا تتعرَّض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ؛ فو الله ما أحدثتُ حدثاً، ولا أويت محدثاً. فرقّ عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذَ بعد قليل فأردّ إليك أو إلى غيرك! فَوجّه معه مَنْ أدّاه إلى مأمنه. وبلغ الخبرُ الفضلَ بن الربيع، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه، فعلا الأمرَ، فوجده حقّاً، وانكشف عنده؛ فدخل على الرّشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره. وقال: وما أنت وهذا لا أمّ لك! فلعلّ ذلك عن أمري؛ فانكسر الفضل؛ وجاءه جعفر فدعا بالغدَاء فأكلا، وجعل يلقّمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أميرَ المؤمنين في الحبْس الضيِّق والأكبال. قال: بحياتي! فأحجَم جعفر ـ وكان من أدقّ الخلْق ذهناً، وأصحِّهم فكراً ـ وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتِك يا سيِّدي ولكن أطلقته وعلمْتُ أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. قال: نَعِمَ ما فعلتَ؛ ما عدوتَ ما كانَ في نفسي. فلما خرج أتبعه بصرَه حتى كاد أن يتوارَى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان.

وحدّث إدريس بن بدر، قال: عرض رجل للرشيد وهو يناظر يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، نصيحة؛ فادعُ بي إليك، فقال لهرثمة: خذ الرجل إليك، وسلْه عن نصيحته هذه، فسأله، فأبَى أن يخبرَه وقال: هي سرّ من أسرار الخليفة، فأخبر هرثمَة الرشيد بقوله، قال: فقل له لا يبرح الباب حتى أفرغ له، قال: فلما كان في الهاجرة انصرف مَنْ كان عنده، ودعا به، فقال: أخْلِني، فالتفت هارون إلى بنيه، فقال: انصرفوا يا فتيان؛ فوثبوا وبقي خاقان وحُسين على رأسه؛ فنظر إليهما الرّجُل، فقال الرّشيد: تَنَحّيا عنّي، ففعلا، ثم أقبل على الرّجل، فقال: هات ما عندك، فقال: على أن تؤمّني! قال: على أن أؤمنك

وأحسن إليك. قال: كنت بحلوان في خانٍ من خاناتها، فإذا أنا بيحيى بن عبد الله في دُرّاعة صوف غليظة وكساء صوف أخضر غليظ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل، ويرحلون إذا رحل، ويكونون منه بصدد يوهمون مَنْ رآهم أنهم لا يعرفونه وهم من أعوانه، ومع كلّ واحد منهم منشور يأمن به إن عُرِض له، قال: أوَ تعرف يحيى بن عبد الله؟ قال: أعرفه قديماً، وذلك الذي حقّق معرفتي به بالأمس، قال: فصِفه لي، قال: مربوع أسمر رقيق السمرة، أجلح، حسن العينين، عظيم البطن. قال: صدقتَ؛ هو ذاك. قال: فما سمعتَه يقول؟ قال: ما سمعتُه يقول شيئاً؛ غير أني رأيته يصلّي، ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالساً على باب الخان، فلمّا فرغ من صلاته أتاه بثوبٍ غسيل، فألقاه في عنقه ونزع جبّة الصوف، فلما كان بعد الزّوال صلى صلاة ظننتُها العصر، وأنا أرمقه؛ أطال في الأوليَيْن، وخفف في الأخريَيْن، فقال: لله أبوك! لجاد ما حفظت عليه، نعم تلك صلاة العصر؛ وذاك وقتُها عند القوم، أحسن الله جزاءك، وشكر سعيَك! فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدّوْلة، وأصْلي من مَرْو، ومولدي مدينة السلام، قال: فمنزلك بها؟ قال: نعم؛ فأطرق مليّاً، ثم قال: كَيف احتمالُك لمكروه تُمتحن به في طاعتي! قال: أبلغُ من ذلك حيث أحبّ أمير المؤمنين، قال: كن بمكانك حتى أرجعَ. فطفرَ في حجرة كانت خلف ظهره، فأخرج كيساً فيه ألفا دينار، فقال: خذ هذه، ودعني وما أدبّر فيك، فأخذها، وضمّ عليها ثيابه، ثم قال: يا غلام، فأجابه خاقان وحسين، فقال: اصفعا ابنَ اللخناء، فصفَعاه نحواً من مائة صَفْعة، ثم قال: أخرِجاه إلى مَنْ بقيَ في الدار، وعمامتُه في عنقه، وقولا: هذا جزاء من يسعى بباطنة أمير المؤمنين وأوليائه! ففعلا ذلك؛ وتحدّثوا بخبره؛ ولم يعلم بحال الرجل أحد، ولا بما كان ألقى إلى الرشيد؛ حتى كان من أمر البرامكة ما كان.

وذكر يعقوب بن إسحاق أنّ إبراهيم بن المهديّ حدثه. قال: أتيتُ جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها، فقال لي: أمَا تعجب من منصور بن زياد؟ قال: قلت فبماذا؟ قال: سألتُه: هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم؛ ليس فيها لَبِنَة ولا صُنوبرة، قال إبراهيم: فقلت: الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين، قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك، سوى ما عرّضني له.

قال: قلت: إن العدوّ إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول: يا أميرَ المؤمنين، إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم، فأين نفقاته! وأين صِلاته! وأين النوائب التي تنوبه! وما ظنّك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك! وهذه جملة سريعة إلى القلب، والموقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع منِّي قلتُ: إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالسَّتر لها أو بإظهار القليل من كثيرها؛ وأنا رجلٌ نظرت إلى نعمته عندي، فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوْا فانظروا.

وذكر زيد بن عليّ بن حسين بن زيد أنّ إبراهيم بن المهديّ حدثه أن جعفر بن يحيى، قال له يوماً ـ وكان جعفر بن يحيى صاحبَه عند الرشيد، وهو الذي قرّبه منه: إني قد استربت بأمر هذا الرجل ـ يعني الرشيد ـ وقد ظننتُ أن ذلك لسابق سبق في نفسي منه، فأردتُ أن أعتبر ذلك بغيري، فكنت أنت، فارمق ذلك في يومك هذا، وأعلمني ما ترى منه. قال: ففعلتُ ذلك في يومي؛ فلما نهض الرّشيد من مجلسه كنتُ أوّل أصحابه نهض عنه، حتى صرت إلى شجرٍ في طريقي، فدخلتها ومَنْ معي، وأمرتهم بإطفاء الشمع، وأقبل الندماء يمرُّون بي واحداً واحداً، فأراهم ولا يروْني؛ حتى إذا لم يبق منهم أحد؛ إذا أنا بجعفر قد طلع، فلما جاوز الشجر قال: اخرج يا حبيبي، قال: فخرجت، فقال: ما عندك؟ فقلت: حتى تعلمني كيف علمتَ أني ها هنا؛ قال: عرفت عنايتَك بما أعنى به، وأنك لم تكن لتنصرف أو تعلمني ما رأيت منه؛ وعلمتُ أنك تكره أن تُرى واقفاً في مثل هذا الوقت، وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع، فقضيتُ بأنك فيه، قلت: نعم؛ قال: فهاتِ ما عندك، قلت: رأيت الرّجل يهزل إذا جددتَ، ويجدّ إذا هزلتَ. قال: كذا هو عندي، فانصرف يا حبيبي. قال: فانصرفت.

قال: وحدّثني عليّ بن سليمان أنه سمع جعفر بن يحيى يوماً يقول: ليس لدارنا هذه عيب؛ إلا أن صاحبها فيها قليل البقاء ـ يعني نفسه.

وذكر عن موسى بن يحيى، قال: خرج أبي إلى الطواف في السنة التي أصيب فيها، وأنا معه من بين ولده، فجعل يتعلّق بأستار الكعبة، ويردّد الدعاء، ويقول: اللهمّ ذنوبي جمّة عظيمة لا يحصيها غيرُك، ولا يعرفها سواك. اللهمّ إن

كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي في الدنيا؛ وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري ، ومالي وولدي ، حتى تبلغ رضاك ، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة .

قال: وحدّثني أحمد بن الحسن بن حرب ، قال: رأيتُ يحيى وقد قابل البيت ، وتعلق بأستار الكعبة ، وهو يقول: اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلبَني نعمتك عندي فاسلبني ، اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلبَني أهلي وولدي فاسلبني؛ اللّهمّ إلا الفضل. قال: ثم ولّى ليمضي؛ فلما قرب من باب المسجد كرّ مسرعاً ، ففعل مثَل ذلك ، وجعل يقولُ: اللهمّ إنه سمِجٌ بمثلي أن يرغب إليك ثم يستثني عليك. . . اللهم والفضل. قال: فلما انصرفوا من الحجّ نزلوا الأنبار ، ونزل الرشيد بالعُمْر ومعه وليّا العهد؛ الأمين والمأمون ، ونزل الفضل مع الأمين ، وجعفر مع المأمون ، ويحيى في منزل خالد بن عيسى كاتبه ، ومحمد بن يحيى في منزل ابن نوح صاحب الطِّراز ، ونزل محمد بن خالد مع المأمون بالعُمر مع الرشيد ، قال: وخلا الرشيد بالفضل ليلاً ، ثم خلع عليه وقلّده ، وأمره أن ينصرف مع محـمد الأمين ، ودعا بموسى بن يحيى فرضِيَ عنه وكان غضب عليه بالحيرة في بدأته ، لأن عليّ بن عيسى بن ماهان اتهمه عند الرشيد في أمر خُراسان وأعلمه طاعة أهلها له ، ومحبتهم إياه ، وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم والوثوب به معهم؛ فوقر ذلك في نفس الرّشيد عليه وأوحشه منه؛ وكان موسى أحد الفرسان الشجعان ، فلما قدح عليّ بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد ، وعمل فيها القليل منه ، ثم ركب موسى دَيْنٌ ، واختفى من غرمائه ، فتوهّم الرشيد أنه صار إلى خراسان؛ كما قيل له ، فلما صار إلى الحيرة في هذه الحجّة وافاه موسى من بغداد ، فحبسه الرشيد عند العباس بن موسى بالكوفة؛ فكان ذلك أول ثلمة ثُلموا بها؛ فركبت أمّ الفضل بن يحيى في أمره ، ولم يكن يردّها في شيء ، فقال: يضمنه أبوه فقد رُفع إليّ فيه ، فضمنه يحيى ودفعه إليه ، ثم رضي عنه ، وخلع عليه ، وكان الرشيد قد عتب على الفضل بن يحيى ، وثقل مكانه عليه لتركه الشّرب معه؛ فكان الفضل يقول: لو علمتُ أن الماء ينقص من مروءتي ما شربته؛ وكان مشغوفاً بالسماع. قال: وكان جعفر يدخل في منادمة الرشيد؛ حتى كان أبوه ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأنس به ، فيترك أمرَ أبيه ، ويدخل معه فيما يدعوه إليه .

وذكر عن سعيد بن هريم أنّ يحيى كتب إلى جعفر حين أعيته حيلته فيه: إني إنما أهملتك ليعثر الزّمان بك عثرة تعرف بها أمرك؛ وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوَى لها. قال: وقد كان يحيى قال للرشيد: يا أمير المؤمنينَ، أنا والله أكره مداخلة جعفر معك؛ ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك، فلو أعقبته واقتصرت به على ما يتولاّه من جسيم أعمالك، كان ذلك واقعاً بموافقتي، وآمن لك عليّ. قال الرّشيد: يا أبت ليس بك هذا؛ ولكنك إنما تريد أن تقدّم عليه الفضل.

وقد حدثني أحمد بن زبير ـ أحسِبه عن عمّه زاهر بن حرب ـ أنّ سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرّشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهديّ، وكان يُحضرهما إذا جلس للشرب؛ وذلك بعد أن أعلم جعفراً قلّةَ صبره عنه وعنها، وقال لجعفر: أزوّجكُها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي، وتقدّم إليه ألا يمسَّها، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته؛ فزوّجها منه على ذلك، فكان يُحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويُخليها، فيثْمُلان من الشراب، وهما شابّان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت غلاماً، فخافت على نفسها من الرّشيد إن علم بذلك، فوَجّهت بالمولود مع حَواضِنَ له من مماليكها إلى مكّة، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون، حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواريها شرّ، فأنهت أمرَها وأمر الصبيّ إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه؛ ومع مَن هو من جواريها، وما معه من الحلْي الذي كانت زيَّنته به أمه؛ فلما حجّ هارون هذه الحَجْة، أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبيّ به مَنْ يأتيه بالصبيّ وبمَنْ معه من حواضنه، فلمَّا أحضِروا سأل اللواتي معهنّ الصبيّ، فأخبرنَه بمثل القصة التي أخبرتْه بها الرافعة على عبَّاسة، فأراد ـ فيما زُعم ـ قتلَ الصبيّ، ثم تحوّب من ذلك[1].

---

(١) هذا خبر منكر قال ابن خلدون: وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده. والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبي ﷺ، ابنة خليفة وأخت =

وكان جعفر يتَّخذ للرشيد طعاماً كلما حجّ بعُسفان فيقربه إذا انصرف شاخصاً من مكة إلى العراق ، فلما كان في هذا العام ، اتّخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه هنالك ، ثم استزاره فاعتلّ عليه الرشيد ، ولم يحضر طعامه ، ولم يزل جعفر معه حتّى نزل منزله من الأنبار؛ فكان من أمره وأمر أبيه ما أنا ذاكر إن شاء الله تعالى.

* * *

ذكر الخبر عن مقتل جعفر

ذكر الفضل بن سليمان بن عليّ أن الرشيد حجّ في سنة ست وثمانين ومائة.

وأنه انصرف من مكة ، فوافى الحِيرة في المحرّم من سنة سبع وثمانين ومائة عند انصرافه من الحجّ ، فأقام في قصر عون العِباديّ أياماً ، ثم شخص في السّفن حتى نزل العُمْر الذي بناحية الأنبار ، فلما كان ليلة السبت لانسلاخ المحرّم ، أرسل مسروراً الخادم ومعه حمّاد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند ،

= خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والزّكاء ، إذا فقد من بيتها؟

يقول ابن خلدون أيضاً: وغايته إن جذبت دولتهم في ضَبْعه وَضَبْع أبيه ، واستخلصتهم ورقّتهم إلى منازل الأشراف وكيف يسوغ من الرّشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم (إبائه)؟ ولو نظر المتأمّل في ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من (أعاظم) ملوك زمانه ، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها ، وفي سلطان قومها ، واستنكره ولجّ في تكذيبه. وأين قدر العبّاسة والرّشيد من النّاس؟ [مقدمة ابن خلدون/ ٤٤]

قلت: وإضافة إلى ما قاله ابن خلدون فإن الطرف الآخر كذلك كان لا يسمح لنفسه ارتكاب هذا القبح فالوزير البرمكي (جعفر بن يحيى) تعلّم عند قاضي القضاة أبي يوسف وكان رجلاً شهماً ذا خلق رفيع ينفق سراً على علماء أهل السنة والجماعة كسفيان بن عيينة فكيف لمثل هذا الرجل أن يرتكب ما ذكرته هذه الرواية المنكرة؟! وسامح الله الطبري كيف ينقل هذه التهمة والقذف بسندٍ يظنه ظناً ويشك فيه بقوله (أحسبه عن عمه زاهر بن حرب) وزاهر هذا مجهول ـ والله أعلم ـ.

فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلاً ، ودخل عليه مسرور وعنده ابن بختيشوع المتطبّب وأبو زكّار الأعمى المغنّي الكلوذانيّ ، وهو في لهوه ، فأخرجه إخراجاً عنيفاً يقوده ، حتى أتى به المنزل الذي فيه الرّشيد ، فحبسه وقيّده بقيد حمار ، وأخبر الرشيد بأخذه إياه ومجيئه به ، فأمر بضرب عنقه ، ففعل ذلك .

وذكر عن عليّ بن أبي سعيد أن مسروراً الخادم ، حدثه قال : أرسلني الرشيد لآتيه بجعفر بن يحيى لَمَّا أراد قتله ، فأتيته وعنده أبو زكّار الأعمى المغنّي وهو يغنّيه :

فــلا تَبْعَــد فكــلُّ فتــىً سيــأْتــي عليــه المــوتُ يَطــرُق أَو يُغــادِي

قال : فقلت له : يا أبا الفضل ، الذي جئتُ له من ذلك قد والله طرقك ، أجبْ أمير المؤمنين . قال : فرفع يديْه ، ووقع على رجليّ يقبلهما ، وقال : حتى أدخل فأوصي ، قلت : أما الدّخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوْصِ بما شئت ، فتقدّم في وصيَّته بما أراد ، وأعتق مماليكه ، ثم أتتني رسلُ أمير المؤمنين تستحثُّني به ، قال : فمضيتُ به إليه فأعلمته ، فقال لي وهو في فراشه : ائتني برأسه ، فأتيت جعفراً فأخبرته ، فقال : يا أبا هاشم ، الله الله! والله ما أمرك بما أمرك به إلا وهو سكران؛ فدافعْ بأمري حتى أصبح أوْامِره فيّ ثانية ، فعدت لأؤامره ، فلما سمع حسّي ، قال : يا ماصّ بَظْر أمّه ، ائتني برأس جعفر! فعدتُ إلى جعفر ، فأخبرته ، فقال : عاوده فيّ ثالثة ، فأتيته ، فحذفني بعمود ثم قال : نُفيت من المهديّ إن أنت جئتَني ولم تأتني برأسه ، لأرسلنّ إليك مَنْ يأتيني برأسك أولاً ، ثم برأسه آخراً . قال : فخرجت فأتيته برأسه .

قال : وأمر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه من أحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه ، ومن كان منهم بسبيل ، فلم يفلت منهم أحد كان حاضراً ، وحوّل الفضل بن يحيى ليلاً فحُبس في ناحية من منازل الرّشيد ، وحُبس يحيى بن خالد في منزله ، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها ، ووجّه من ليلته رَجَاء الخادم إلى الرَّقة في قبض أموالهم وما كان لهم؛ وأخذ كل ما كان من رقيقهم وحشمهم ، وولاه أمورهم ، وفرّق الكتب من ليلته إلى جميع العمَّال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم ، وأخذ وكلائهم . فلمّا أصبح بعث بجُثَّة

جعفر بن يحيى مع شعبة الخفتانيّ وهَرْثَمَة بن أعْيَن وإبراهيم بن حميد المَرْوَرُّوذيّ ، وأتبعهم عدّةً من خدمه وثقاته؛ منهم مسرور الخادم إلى منزل جعفر بن يحيى ، وإبراهيم بن حميد وحسين الخادم إلى منزل الفضل بن يحيى ، ويحيى بن عبد الرحمن ورشيد الخادم إلى منزل يحيى ومحمد بن يحيى ، وجعل معه هرثمة بن أعين ، وأمر بقبض جميع ما لهم ، وكتب إلى السنديّ الحرشي بتوجيه جيفة جعفر إلى مدينة السلام ، ونصْب رأسه على الجسر الأوسط وقطْع جثّته ، وصلْب كلّ قطعة منها على الجسر الأعلى والجسر الأسفل . ففعل السنديّ ذلك ، وأمضى الخدم ما كانُوا وجّهوا فيه ، وحمل عدة من أولاد الفضل وجعفر ومحمد الأصاغر إلى الرّشيد ، فأمر بإطلاقهم ، وأمر بالنداء في جميع البرامكة : ألاّ أمان لمن آواهم إلا محمد بن خالد وولده وأهله وحشمه؛ فإنه استثناهم؛ لما ظهر من نصيحة محمد له ، وعَرَفَ براءته ممَّا دخل فيه غيره من البرامكة . وخلّى سبيل يحيى قبل شخوصه من العُمْر ، ووكَّل بالفضل ومحمد وموسى بني يحيى ، وبأبي المهديّ صهرهم حَفظةً من قِبل هَرْثَمَة بن أعين ، إلى أن وافَى بهم الرّقة ، فأمر الرشيد بقتل أنس بن أبي شيْخ يوم قدِم الرّقة ، وتولَّى قتله إبراهيم بن عثمان بن نهيك ، ثم صلب . وحُبِس يحيى بن خالد مع الفضل ومحمد في دَير القائم ، وجعل عليهم حفظة من قِبل مسرور الخادم وهَرْثمة بن أعين ، ولم يفرّق بينهم وبين عدّة من خدمهم ، ولا ما يحتاجون إليه ، وصيّر معهم زُبيدة بنت مُنير أمّ الفضل ودَنانير جارية يحيى وعدّة من خَدَمهم وجواريهم . ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح ، فعمّهم بالتثقيف بسخطه ، وجُدّد له ولهم التّهمة عند الرّشيد ، فضيّق عليهم .

وذكر الزبير بن بكار أنّ جعفر بن الحسين اللِّهبيّ حدثه أن الرشيد أُتِيَ بأنس بن أبي شيخ صبح الليلة التي قتل فيها جعفر بن يحيى ، فدار بينه وبينه كلام ، فأخرج الرشيد سيفاً من تحت فراشه ، وأمر أن تضرَب عنقه ، وجعل يتمثَّل ببيت قيل في قتل أنس قبل ذلك :

تَلَمَّظَ السَّيْفُ من شوْق إلى أَنسٍ ... فَالسيف يَلحَظُ وَالأَقدارُ تَنْتَظِرُ

قال : فضرب عنقه ، فسبق السيف الدم ، فقال الرشيد : رحم الله عبد الله بن مصعب . وقال الناس : إن السيف كان سيف الزبير بن العوام .

وذكر بعضهم أن عبد الله بن مُصعب كان على خَبر الناس للرشيد، فكان خبره عن أنس أنه على الزندقة، فقتله لذلك، وكان أحد أصحاب البرامكة.

وذكر محمد بن إسحاق أنّ جعفر بن محمد بن حكيم الكوفيّ، حدّثه قال: حدّثني السنديّ بن شاهك، قال: إني لجالسٌ يوماً، فإذا أنا بخادم قد قدم على البريد، ودفع إليَّ كتاباً صغيراً، ففضضته، فإذا كتاب الرشيد بخطه فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: يا سنديّ، إذا نظرت في كتابي هذا، فإن كنت قاعداً فقم، وإن كنت قائماً فلا تقعد حتى تصير إليّ. قال السنديّ: فدعوت بدوابي، ومضيت، وكان الرشيد بالعُمر؛ فحدّثني العباس بن الفضل بن الربيع، قال: جلس الرّشيد في الزوّ في الفرات ينتظرك، وارتفعت غبرةٌ، فقال لي: يا عباس، ينبغي أن يكون هذا السنديّ وأصحابه! قلت: يا أمير المؤمنين، ما أشبهه أن يكون هو! قال: فطلعت. قال: السنديّ: فنزلت عن دابتي، ووقفت، فأرسل إليّ الرشيد فصرت إليه، ووقفت ساعة بين يديه، فقال لمن كان عنده من الخدم: قوموا، فقاموا فلم يبقَ إلاّ العباس بن الفضل وأنا، ومكث ساعة، ثم قال للعباس: اخرج ومُرْ برفع التخاتج المطروحة على الزّوّ، ففعل ذلك، فقال لي: ادنُ مني: فدنوت منه، فقال لي: تدري فيمَ أرسلت إليك؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: قد بعثت إليك في أمر لو علم به زرّ قميصي رميتُ به في الفرات، يا سندي مَنْ أوثق قوّادي عندي؟ قلت: هرثمة، قال: صدقت، فمن أوثق خدمي عندي؟ قلت: مسرور الكبير، قال: صدقت، امض من ساعتك هذه وجدّ في سيرك حتى توافي مدينةَ السلام، فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك، ومُرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبةفإذا انقطعت الرِّجَل، فصر إلى دور البرامكة، فوكل بكلّ باب من أبوابهم صاحب ربع، ومرْه أن يمنع مَنْ يدخل ويخرج ـ خلا باب محمد بن خالد ـ حتى يأتيَك أمري. قال: ولم يكن حرّك البرامكة في ذلك الوقت. قال السنديّ: فجئت أركض، حتى أتيت مدينة السلام، فجمعت أصحابي، وفعلت ما أمرني به. قال: فلم ألبث أن أقدم عليّ هرثمة بن أعين، ومعه جعفر بن يحيى على بغلٍ بلا أكاف، مضروب العنق، وإذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني أن أشطره باثنين؛ وأن أصلبه على ثلاثة جسور. قال: ففعلت ما أمرني به.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل جعفر مصلوباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خُراسان، فمضيت فنظرت إليه، فلما صار بالجانب الشرقيّ على باب خزيمة بن خازم، دعا بالوليد بن جُشم الشاري من الحبْس، وأمر أحمد بن الجنيد الخُتّليّ ـ وكان سيّافه ـ فضرب عنقه، ثم التفت إلى السنديّ، فقال: ينبغي أن يحرق هذا ـ يعني جعفراً ـ فلما مضى، جمع السنديّ له شوكاً وحطباً وأحرقه.

وقال محمد بن إسحاق: لما قتل الرّشيد جعفر بن يحيى، قيل ليحيى بن خالد: قتل أمير المؤمنين ابنَك جعفراً، قال: كذلك يُقتَل ابنُه، قال: فقيل له: خربت ديارك، قال: كذلك تُخرَب دورهم.

وذكر الكرمانيّ أن بشاراً التركيّ حدّثه أن الرشيد خرج إلى الصيد وهو بالعُمْر في اليوم الذي قتل جعفراً في آخره؛ فكان ذلك اليوم يوم جمعة، وجعفر بن يحيى معه، قد خلاَ به دون ولاة العهد؛ وهو يسير معه، وقد وضع يده على عاتقه؛ وقبل ذلك ما غلَّفه بالغالية بيد نفسه؛ ولم يزل معه ما يفارقه حتى انصرف مع المغرب، فلما أراد الدخول ضمّه إليه، وقال له: لولا أني على الجلوس الليلة مع النّساء لم أفارقك، فأقم أنت في منزلك، واشرب أيضاً واطرب؛ لتكون أنت في مثل حالي، فقال: لا والله ما أشتهي ذلك إلاّ معك، فقال له: بحياتي لما شربت؛ فانصرف عنه إلى منزله؛ فلم تزل رسُل الرشيد عنده ساعة بعد ساعة تأتيه بالأنفال والأبخرة والرياحين؛ حتى ذهب الليل. ثم بعث إليه مسروراً فحبس عنده، وأمر بقتله وحَبْس الفضل ومحمد وموسى، ووكَّل سلاماً الأبرش بباب يحيى بن خالد، ولم يعرض لمحمد بن خالد ولا لأحدٍ من ولده وحَشمه.

قال: فحدثني العباس بن بزيع عن سلاّم، قال: لمّا دخلت على يحيى في ذلك الوقت ـ وقد هُتكت الستور وجُمع المتاع ـ قال لي: يا أبا سلمة؛ هكذا تقوم الساعة! قال سلاّم: فحدثت بذلك الرشيد بعد ما انصرفت إليه؛ فأطرق مفكّراً[١].

قال: وحدثني أيوب بن هارون بن سليمان بن عليّ، قال: كان سكني إلى يحيى، فلما نزلوا الأنبار خرجت إليه فأنا معه في تلك العشيّة التي كان آخر أمره،

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١١٤).

وقد صار إلى أمير المؤمنين في حَرّاقته ، فدخل إليه من باب صاحب الخاصّة ، فكلَّمه في حوائج الناس وغيرها من إصلاح الثغور وغزو البحر ، ثم خرج ، فقال للناس: قد أمر أمير المؤمنين بقضاء حوائجكم ، وبعث إلى أبي صالح يحيى بن عبد الرحمن يأمره بإنفاذ ذلك ، ثم لم يزل يحدّثنا عن أبي مسلم وتوجيه معاذ بن مسلم حتى دخل منزله بعد المغرب ، ووافانا في وقت السّحَر خبرُ مقتل جعفر وزوال أمرهم. قال: فكتبت إلى يحيى أعزّيه ، فكتب إليّ: أنا بقضاء الله راض ، وبالخيار منه عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد. وما يعفو الله أكثر ، ولله الحمد.

وفي ذلك يقول الرّقاشيّ:

أَيـا سَبْـتُ يـا شـرّ السُّبـوتِ صَبيحـةً ... ويا صفَرُ المَشْؤُوم ما جئتَ أَشأَما

أَتى السَّبْتُ بالأَمْرِ الَّذي هَدَّ ركنَنا ... وفـي صَفَـرٍ جـاءَ البـلاءُ مُصَمّمـا

قال: وذُكر عن مسرور أنه أعلم الرّشيد أن جعفراً سأله أن تقع عينه عليه ، فقال: لا ، لأنه يعلم إن وقعت عيني عليه لم أقتله.

* * *

[ما قيل في البرامكة من الشعر بعد زوال أمرهم]

قال: وفيهم يقول الرّقاشيّ ، وقد ذكر أن هذا الشعر لأبي نواس:

الآنَ استـرحنـا واستـراحـت ركـابُنـا ... وأَمسَكَ من يُجْدِي ومن كانَ يَجْتَدِي

فَقُلْ لِلمَطَايا قد أَمِنتِ من السُّرَى ... وطَـيِّ الفيـافي فَـدْفَـداً بعـدَ فَـدفَـدِ

وقُـلْ للمَنـايـا: قـد ظَفِـرتِ بجَعْفـرٍ ... ولـن تَظفَـري مـن بعـدهِ بمُسَـوَّدِ

وقُـلْ للعطـايـا بَعـدَ فضـلٍ تَعَطَّلِـي ... وقُـلْ للـرزايـا كـلَّ يـومٍ تجَـدَّدى

ودُونَـكِ سيفـاً بـرمكيّـاً مُهَنَّـداً ... أُصيـبَ بسيـفٍ هـاشمـيٍّ مُهَنَّـدِ

وفيهم يقول في شعر له طويل:

إن يغـدُر الـزَّمَـنُ الخَـؤون بنـا فَقـدْ ... غَـدَرَ الـزَّمَـان بجعفـرٍ ومُحَمَّـدِ

حَتَّـى إذا وضـح النهـارُ تكشَّفَـتْ ... عـن قتـلِ أَكْـرَم هَـالـك لـم يُلحَـدِ

والبِيـضُ لـوْلا أَنَّهَـا مـأْمُـورةٌ ... مـا فُـلَّ حـدُّ مُهَنَّـدٍ بمهنَّـد

يـا آلَ بـرمَـكَ كَـمْ لكُـمْ مـن نـائِـلٍ ... ونَـدىً ، كَعَـدِّ الـرَّمـلِ غيْـرَ مُصَـرَّدِ

إنَّ الخليفةَ ـ لا يُشكُّ ـ أخوكُمُ لكنَّه في برمَكٍ لم يُولَدِ
نازعتموه رضاعَ أكرم حُرَّةٍ مخلوقةٍ من جَوْهرٍ وزبرجدِ
مَلكٌ له كانت يدٌ فيَّاضَةٌ أبداً تَجودُ بطارفٍ وبمُتلدِ
كانت يداً للجودِ حتى غلَّها قَدَرٌ فأَضحى الجود مغلولَ اليدِ

وفيهم يقول سيف بن إبراهيم :

هوَت أَنجُمُ الجَدوَى وشَلَّت يدُ النَّدَى وغاضَت بُحورُ الجودِ بعدَ البرامِكِ
هوت أَنجمٌ كانت لأَبناءِ برمكٍ بها يعرِفُ الحادي طريقَ المسالكِ

وقال ابن أبي كريمة :

كلُّ مُعيرٍ أُعِيرَ مَرتَبَةً بعدَ فتى برمكٍ على غَرَرِ
صالَت عليه من الزمان يدٌ كان بها صائلاً على البَشَرِ

وقال العطويّ أبو عبد الرحمن :

أَمَا والله لولاَ قولُ واشٍ وعَينٌ للخليفة لا تنامُ
لطُفْنَا حَوْلَ جِذعكَ واستلَمْنا كما للنَّاس بالحَجَر اسْتلامُ
علَى الدنيا وَساكِنِها جميعاً وَدَوْلَةِ آل برمكٍ السّلامُ

وفي قتل جعفر قال أبو العتاهة :

قُولا لمنْ يَرْتَجِي الحياةَ أمَا في جَعْفَرٍ عِبرَةٌ وَيَحياهُ!
كانَا وَزيرَيْ خليفة الله ها رونَ هما ما هما خليلاَهُ
فذاكُم جعفرٌ برُمَّتِهِ في حالق رَأسُهُ ونصفاهُ
والشيخُ يحيى الوزيرُ أَصبحَ قد نحَّاهُ عن نفسِه وَأَقصاهُ
شُتِّتَ بعدَ التجميع شملُهُمُ فأَصْبَحُوا في البلاد قد تاهُوا
كذاكَ مَن يُسْخِطِ الإلَه بما يُرضِي به العبدَ يَجزِهِ اللهُ
سبْحانَ من دانَتِ الملوك له أَشهدُ أَن لا إلَه إلا هُو
طُوبَى لمن تابَ بعدَ غِرَّتِه فتابَ قبلَ المماتِ ، طُوبَاهُ!

* * *

قال : وفي هذه السنة هاجت العصبيّة بدمشق بين المضريّة واليمانية ، فوجَّه الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم.

وفيها زُلزلت المَصِّيصة فانهدم بعض سورها ، ونضب ماؤهم ساعة الليل.

وفيها خرج عبد السلام بآمِد ، فحكّم ، فقتله يحيى بن سعيد العُقَيْليّ .

وفيها مات يعقوب بن داود بالرّقّة .

* * *

وفيها غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح وحبسه .

*** ذكر الخبر عن سبب غضبه عليه وما أوجب حبسه :**

ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أنّ عبد الملك بن صالح كان له ابن يقال له عبد الرحمن ، كان من رجال الناس ، وكان عبد الملك يكنى به؛ وكان لابنه عبد الرحمن لسان ، على فأفأة فيه ، فنصب لأبيه عبد الملك وقُمامة ، فسعيا به إلى الرشيد ، وقالا له : إنه يطلب الخلافة ويطمع فيها ، فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع؛ فذُكر أن عبد الملك بن صالح أدخل على الرشيد حين سخط عليه ، فقال له الرّشيد : أكفراً بالنعمة ، وجحوداً لجليل المنّة والتكرمة! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لقد بؤتُ إذاً بالندم ، وتعرّضت لاستحلال النِّقم؛ وماذاك إلا بغيُ حاسد نافسني فيك مودّة القرابة وتقديم الولاية . إنّك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ في أمّته ، وأمينُه على عِترته ، لك فيها فرض الطاعة وأداء النصيحة ، ولها عليك العدْل في حكمها والتثبّت في حادثها ، والغفران لذنوبها . فقال له الرشيد : أتَضع لي من لسانك ، وترفع لي من جنانك! هذا كاتبك قُمامة يخبر بغلّك ، وفساد نيتك ، فاسمع كلامه . فقال عبد الملك : أعطاك ما ليس في عقده؛ ولعله لا يقدر أن يعضهني ولا يبهتني بما لم يعرفه مني . وأحضِر قُمامة ، فقال له الرشيد : تكلَّم غير هائب ولا خائف ، قال : أقول : إنه عازم على الغدْر بك والخلاف عليك ، فقال عبد الملك : أهو كذاك يا قمامة! قال قمامة : نعم ، لقد أردتَ ختْل أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك : كيف لا يكذِب عليّ من خلفي وهو يبهتني في وجهي! فقال له الرّشيد : وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعتوّك وفساد نيّتك ، ولو أردتُ أن أحتجّ عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك ، فبم تدفعهما عنك؟ فقال عبد الملك بن صالح : هو مأمور ، أو عاقّ مجبور؛ فإن كان مأموراً فمعذور ، وإن كان عاقّاً ففاجر كفور؛ أخبر الله عزَّ وجلَّ بعداوته ، وحذّر

منه بقوله: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾[1].

قال: فنهضَ الرشيد، وهو يقول: أمّا أمرك فقد وَضح؛ ولكني لا أعجَل حتى أعلم الذي يُرضي الله فيك؛ فإنه الحكم بيني وبينك. فقال عبد الملك: رضيتُ بالله حكَماً، وبأمير المؤمنين حاكماً؛ فإني أعلم أنه يُؤثر كتابَ الله على هواه، وأمرَ الله على رضاه.

قال: فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر، فسلَّم لما دخل، فلم يردّ عليه، فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتجّ فيه، ولا أجاذب منازعاً وخصماً. قال: ولِمَ؟ قال: لأنّ أوله جرى على غير السنَّة؛ فأنا أخاف آخره. قال: وما ذاك؟ قال: لم تردّ عليّ السلام، أنصفْ نَصفة العوام. قال: السلام عليكم؛ اقتداء بالسنة، وإيثاراً للعدل، واستعمالاً للتحية. ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر، فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك:

أريدُ حيَاتَهُ ويُريدُ قتلي. . . . البيت.

ثم قال: أما والله لكأني أنظرُ إلى شؤبوبها قد همع، وعارضها قد لمع؛ وكأني بالوعيد قد أورى ناراً تَسْطع، فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم؛ فمهلاً؛ فَبِي والله سُهِّل لكم الوعْر، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمورُ أثناء أزمَّتها، فنذارِ لكم نذار، قبل حلول داهية خَبوط باليد، لبوط بالرِّجْل. فقال عبد الملك: اتقّ الله يا أمير المؤمنين فيما ولاّك، وفي رعيته التي استرعاك، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب، فقد نخلتُ لك النصيحة، ومحضتُ لك الطاعة، وشددت أواخِيَ ملكك بأثقل من رُكْنيْ يَلَمْلَم، وتركتُ عدوّك مشتغلاً فالله اللهَ في ذي رحِمك أن تقطَعه، بعد أن بللته بظنّ أفصح الكتابُ لي بعضَه، أو ببغي باغ ينهس اللحم، ويالَغُ الدم، فقد والله سهّلتُ لك الوعور، وذَلّلت لك الأمور، وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور؛ فكم من ليلِ تمام فيك كابدْتُه، ومقام ضيّق قمته؛ كنت كما قال أخو بني جعفر بن كلاب:

وَمَقَامٍ ضَيِّقٍ فَرَجْتُهُ ... بِبَنَانِي وَلِسَانِي وَجَدَلْ

---

(١) سورة التغابن: ١٤.

لـــو يقـــومُ الفيـــلُ أَو فَيَّـــالـــهُ زَلَّ عـــن مِثـــلِ مقـــامـــي وزَحَـــلْ

قال: فقال له الرّشيد: أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقَك.

وذكر زيد بن عليّ بن الحسين العلويّ، قال: لمّا حبس الرشيد عبد الملك بن صالح، دخل عليه عبد الله بن مالك ـ وهو يومئذ على شُرطه ـ فقال: أفي إذن أنا فأتكلم؟ قال: تكلم، قال: لا، والله العظيم يا أمير المؤمنين، ما علمتُ عبدَ الملك إلا ناصحاً، فعلام حبستَه! قال: ويحك! بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابنيَّ هذين ـ يعني الأمين والمأمون ـ فإن كنتَ ترى أن نطلِقه من الحبس أطلقناه. قال: أمّا إذْ حبستَه يا أمير المؤمنين، فلست أرى في قرب المدة أن تطلقه؛ ولكن أرى أن تحبسه محبساً كريماً يشبه محبس مثلِك مثله. قال: فإني أفعل. قال: فدعا الرّشيد الفضلَ بن الربيع، فقال: امضِ إلى عبد الملك بن صالح إلى محبسِه، فقل له: انظر ما تحتاج إليه في محبسك فأمُرْ به حتى يقام لك؛ فذكر قصته وما سأل.

قال: وقال الرّشيد يوماً لعبد الملك بن صالح في بعض ما كلّمه: ما أنت لصالح! قال: فلمن أنا؟ قال: لمروان الجعديّ، قال: ما أبالي أيّ الفحْلين غلب عليّ؛ فحبسه الرّشيد عند الفضل بن الربيع؛ فلم يزل محبوساً حتى تُوُفّي الرشيد، فأطلقه محمد، وعقد له على الشأم؛ فكان مقيماً بالرّقة، وجعل لمحمد عهد الله وميثاقه: لئن قتِل وهو حيّ لا يعطي المأمون طاعةً أبداً. فمات قبل محمد، فدُفن في دار من دور الإمارة، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له: حوّل أباك من داري، فنُبشَتْ عظامه وحُوّلت، وكان قال لمحمد: إن خفتَ فالجأ إليّ، فو الله لأصوننَّك.

وذكر أن الرشيد بعث في بعض أيامه إلى يحيى بن خالد: إن عبد الملك بن صالح أراد الخروج ومنازعتي في الملك، وقد علمتَ ذلك، فأعلمني ما عندك فيه، فإنك إن صدقتني أعدتُك إلى حالك، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما اطّلعت من عبد الملك على شيء من هذا؛ ولو اطّلعت عليه لكنت صاحبه دونك؛ لأن ملكك كان ملكي، وسلطانك كان سلطاني، والخير والشرّ كان فيه عليّ ولي؛ فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمَع في ذلك مني! وهل كنتُ إذا فعلْتُ ذلك به يَفعل بي أكثر من فعلك! أعيذك بالله أن تظنّ بي هذا الظنّ؛ ولكنّه كان

رجلاً محتملاً ، يسرّني أن يكون في أهلك مثله ، فوليتَه ، لما أحمدت من مذهبه ، وملت إليه لأدبه واحتماله. قال: فلما أتاه الرسول بهذا أعاد إليه ، فقال: إن أنت لم تقرّ عليه قتلتَ الفضل ابنك ، فقال له: أنت مسلّط علينا فافعل ما أردت؛ على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لي ، فبمَ يدخل الفضل في ذلك! فقال الرسول للفضل: قم؛ فإنه لا بدّ لي من إنفاذ أمير المؤمنين فيكَ؛ فلم يشكّ أنه قاتله ، فودّع أباه ، وقال له: ألستَ راضياً عني؟ قال: بلى ، فرضي الله عنك. ففرّق بينهما ثلاثة أيام؛ فلما لم يجد عنده من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا.

وكان يأتيهم منه أغلظ رسائل ، لمَا كان أعداؤهم يقرِفونهم به عنده ، فلما أخذ مسرور بيد الفضل كما أعلمه ، بلغ من يحيى ، فأخرج ما في نفسه ، فقال له: قل له: يُقتَل ابنُك مثله. قال مسرور: فلما سكن عن الرشيد الغضب ، قال: كيف قال؟ فأعدت عليه القول ، قال: قد خفت والله قولَه؛ لأنه قلَّما قال لي شيئاً إلا رأيتُ تأويله.

وقيل: بينما الرّشيد يسير وفي موكبه عبد الملك بن صالح ، إذ هتف به هاتف وهو يُساير عبد الملك ، فقال: يا أمير المؤمنين ، طأطىء من إشرافه وقصِّر من عنانه ، واشدُدْ من شكائمه؛ وإلاّ أفسد عليك ناحيته. فالتفت إلى عبد الملك ، فقال: ما يقول هذا يا عبد الملك؟ فقال عبد الملك: مقال باغٍ ودسيس حاسد؛ فقال له هارون: صدقت ، نَقَصَ القوم ففضلتَهم ، وتَخَلَّفُوا وتقدّمتَهم؛ حتى برز شأوك ، فقصّر عنه غيرُك؛ ففي صدورهم جَمرات التخلّف ، وحزازات النقص. فقال عبد الملك: لا أطفأها الله وأضرمها عليهم حتى تورثهم كمداً دائماً أبداً.

وقال الرشيد لعبد الملك بن صالح وقد مرّ بمنبج وبها مستقر عبد الملك:

هذا منزلك؟ قال: هو لك يا أمير المؤمنين! ولي بك. قال: كيف هو؟ ، قال: دون بناء أهلي وفوق منازل منبج ، قال: فكيف ليلها؟ قال: سحرو كله.

وفي ذلك يقول إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية:

إمامَ الهُدَى أَصْبَحْتَ بالدِّينِ مَعْنِيّاً ... وأَصبَحتَ تسْقِي كلَّ مُسْتمطِرٍ رِيّا
لك اسْمانِ شُقَّا مِنْ رَشادٍ وَمِنْ هُدىً ... فأَنْتَ الذِي تدعى رَشيداً ومَهْدِيّاً
إذا ما سَخِطْتَ الشَّيءَ كانَ مُسَخَّطاً ... وإنْ تَرْضَ شيئاً كانَ في الناس مَرْضِيّاً

بَسَطتَ لنا شَرْقاً وَغَرْباً يَدَ العُلا فأَوْسَعْتَ شَرقِيّاً وَأَوْسعْتَ غَرْبِياً
ووشَّيتَ وجه الأَرضِ بالجُودِ والنَّدَى فأصبح وجْهُ الأَرضِ بالجودِ مَوْشيًّا
قَضَى اللهُ أَنْ يَصْفُو لهارونَ مُلكُهُ وكَانَ قَضاءُ اللهِ في الخَلق مَقضِيّا
تحَلَّبَتِ الدنيا لهارونَ بالرِّضا فأَصْبَحَ نِقْفُورٌ لهارونَ ذِمَيّا[١]

* ذكر الخبر عن سبب مقتله[٢].

ذُكر عن صالح الأعمى ـ وكان في ناحية إبراهيم بن عثمان بن نَهيك ـ قال: كان إبراهيم بن عثمان كثيراً ما يذكر جعفر بن يحيى والبرامكة، فيبكي جزعاً عليهم، وحبّاً لهم، إلى أن خَرج من حدّ البكاء، ودخل في باب طالبي الثأر والإِحَن، فكان إذا خلا بجواريه وشرب وقوي عليه النبيذ، قال: يا غلام، سيفي ذا المنيّة ـ وكان قد سمى سيفه ذا المنيَّة ـ فيجيئه غلامه بالسيف فينتضيه، ثم يقول: واجعفراه! واسيّداه! والله لأقتلنّ قاتلك، ولأثأرنّ بدمك عن قليل! فلما كثر هذا من فعله، جاء ابنه عُثمان إلى الفضل بن الربيع، فأخبره بقوله، فدخل الفضل فأخبر الرشيد، فقال: أدخله، فدخل، فقال: ما الذي قال الفضل عنك؟ فأخبره بقول أبيه وفعله، فقال الرشيد: فهل سمع هذا أحدٌ معك؟ قال: نعم خادمه نوال، فدعا خادمه سرّاً فسأله، فقال: لقد قال ذاك غير مرّة ولا مرتيْن، فقال الرّشيد: ما يحلّ لي أن أقتل وليّاً من أوليائي بقول غلام وخَصِيّ، لعلهما تواصَيا على هذه المنافسة؛ الابن على المرتبة، ومعاداة الخادم لطول الصحبة، فترك ذلك أياماً، ثم أراد أن يمتحن إبراهيم بن عثمان بمحنة تُزيل الشكَّ عن قلبه، والخاطر عن وهمِه، فدعا الفضلَ بن الربيع، فقال: إني أريد محنَةَ إبراهيم بن عثمان فيما رفع ابنه عليه؛ فإذا رُفع الطعام فادع بالشراب، وقل له: أجب أميرَ المؤمنين فينادمك؛ إذْ كنت منه بالمحلّ الذي أنت به، فإذا

---

(١) هذه الأبيات مقحمة هنا وهي منسوبة لأبي العتاهيةً زوراً فالمعروف عن أبي العتاهية أنه شاعر زاهد ناسك والوعظ ظاهر في شعره وما كان يخشىٰ أن يعظ الخليفة في مجلس نعيمه وعلى مائدة طعامه فكيف يقول في الرشيد هذه الأبيات التي تصفه بصفات تكاد تخرجه من البشرية والعياذ بالله راجع ما ذكر في سيرة المنصور وما كان الرشيد ليقبل بهذا التملق والمدح الخارج عن الحد ومن قرأ لأبي العتاهية يعلم أن هذه الأبيات ليست له. والله تعالى أعلم.

(٢) أي مقتل إبراهيم بن عثمان بن نهيك، وأصل الخبر مذكور في القسم الصحيح.

شرب فاخرج وخلِّني وإياه، ففعل ذلك الفضل بن الربيع؛ وقعد إبراهيم للشراب، ثم وثب حين وثب الفضل بن الربيع للقيام، فقال له الرشيد: مكانك يا إبراهيم، فقعد، فلما طابت نفسه، أومأ الرّشيد إلى الغلمان فتنحّوْا عنه، ثم قال: يا إبراهيم ، كيف أنت وموضع السرّ منك؟ قال: يا سيّدي إنما أنا كأخصّ عبيدك ، وأطوع خدمك؛ قال: إنّ في نفسي أمراً أريد أن أودعَكه ، وقد ضاق صدري به ، وأسهرتُ به ليلي ، قال: يا سيدي إذاً لا يرجع عني إليك أبداً ، وأخفيه عن جنبي أن يَعلمه ، ونفسي أن تذيعه. قال: ويحك! إني ندمت على قتل جعفر بن يحيى ندامةً ما أحسن أن أصفَها ، فوددت أني خرجت من مُلْكِي وأنه كان بقي لي؛ فما وجدت طعم النوم منذ فارقتُه ، ولا لذّة العيش منذ قتلته! قال: فلما سمعها إبراهيم أسبل دمعه ، وأذرى عبرته ، وقال: رحم الله أبا الفضل ، وتجاوز عنه! والله يا سيدي لقد أخطأتَ في قتله ، وأوطِئت العَشْوة في أمره! وأين يوجد في الدنيا مثله! وقد كان منقطع القرين في الناس أجمعين ديناً. فقال الرشيد: قم عليك لعنة الله يا بن اللخناء! فقام ما يعقل ما يطأ ، فانصرف إلى أمه ، فقال: يا أمّ ، ذهبت والله نفسي ، قالت: كلاّ إن شاء الله ، وما ذاك يا بنيّ؟ قال: ذاك أنّ الرشيد امتحنني بمحنة والله ، ولو كان لي ألف نفسي لم أنجُ بواحدة منها. فما كان بين هذا وبين أن دخل عليه ابنه ـ فضربه بسيفه حتى مات ـ إلا ليالٍ قلائل.

وحج بالناس في هذه السنة عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي.

* * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك غزو إبراهيم بن جبريل الصائفة ، ودخوله أرض الروم من درب الصفصاف فخرج للقائه نقفور ، فورد عليه من ورائه أمر صرفه عن لقائه

فانصرف ، ومر بقوم من المسلمين فجرح ثلاث جراحات ، وانهزم ، وقتل من الروم ـ فيما ذكر أربعون ألفاً وسبعمائة وأخذ أربعة آلاف دابة .

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بدابق .

وحج بالناس فيها الرشيد ، فجعل طريقه إلى المدينة ، فأعطى أهلها نصف العطاء ؛ وهذه الحجَّة هي آخر حجة حجها الرشيد ؛ فيما زعم الواقدي وغيره .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

فمن ذلك ما كان من شخوص هارون الرشيد أمير المؤمنين فيها إلى الرّيّ[١] .

ذكر الخبر عن سبب شخوصه إليها وما أحدث في خرجته تلك في سفره .

ذُكر أنّ الرشيد كان استشار يحيى بن خالد في تولية خُراسان عليّ بن عيسى بن ماهان ؛ فأشار عليه ألاّ يفعل ، فخالفه الرّشيد في أمره ، وولاّه إياها ، فلما شَخَص عليّ بن عيسى إليها ظلم الناس ، وعسَر عليهم ، وجمع مالاً جليلاً ، ووجّه إلى هارون منها هدايا لم يُرَ مثلها قطّ من الخيل والرقيق والثياب والمسك والأموال ، فقعد هارون بالشمَّاسيَّة على دكان مرتفع حين وصل ما بعث به عليّ إليه ، وأحضرِت تلك الهدايا فعرِضْت عليه ، فعظمت في عينه ، وجلّ عنده قدرُها ، وإلى جانبه يحيى بن خالد ، فقال له : يا أبا عليّ ؛ هذا الذي أشَرْتَ علينا ألا نولِّيه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه ، فكان في خلافك البركة ـ وهو كالمازح معه إذ ذاك ـ فقد ترى ما أنتج رأينا فيه ، وما كان من رأيك! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، جعلني الله فداك! أنا وإن كنت أحبّ أن أصيب في رأيي وأوفّق في مشورتي ، فأنا أحبّ من ذلك أن يكون رأي أمير المؤمنين أعْلى ، وفراسته أثقب ، وعلمه أكثر من علمي ، ومعرفته فوق معرفتي ؛ وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن وراءه ما يكره أمير المؤمنين ، وما أسأل الله أن يعيذه ويُعفيه من سوء

---

(١) انظر المنتظم (٩/ ١٦١) وتاريخ بغداد (١١/ ٤١٤) .

عاقبته ونتائج مكروهه ، قال: وما ذاك؟ فأعلمه ، قال: ذاك أني أحسب أنّ هذه الهدايا ما اجتمعتْ له حتى ظلم فيها الأشراف ، وأخذ أكثرها ظلماً وتعدّياً؛ ولو أمرني أمير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرْخ ، قال: وكيف ذاك؟ قال: قد ساومْنا عوناً على السّفَط الذي جاءنا به من الجوهر ، وأعطيناه به سبعة آلاف ألف ، فأبى أن يبيعه ، فأبعثُ إليه الساعة بحاجتي فآمره أن يردّه إلينا؛ لنعيد فيه نظرنا؛ فإذا جاء به جَحدْناه ، وربحنا سبعة آلاف ألف ، ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك. وعلى أنّ هذا أسلمُ عاقبة ، وأستر أمراً من فعل عليّ بن عيسى في هذه الهدايا بأصحابها ، فأجمعُ لأمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثرَ من قيمة هذه الهدايا بأهْون سعي ، وأيسر أمر ، وأجمل جباية؛ ممَّا جمع عليّ في ثلاث سنين.

فوقرت في نفس الرشيد وحفظها ، وأمسك عن ذكر عليّ بن عيسى عنده ، فلما عاث عليّ بن عيسى بخُراسان ووتر أشرافها ، وأخذ أموالهم ، واستخفّ برجالهم ، كتب رجال من كبرائهم ووجوهها إلى الرشيد ، وكتبتْ جماعة من كورها إلى قرَاباتها وأصحابها ، تشكو سوءَ سيرته ، وخبْث طعمته ، ورداءة مذهبه ، وتسأل أميرَ المؤمنين أن يبدّلها به من أحبّ من كفاته وأنصاره وأبناء دولته وقوّاده. فدعا يحيى بن خالد ، فشاوره في أمر عليّ بن عيسى وفي صرفه ، وقال له: أشر عليّ برجل ترضاه لذلك الثغر يُصلح ما أفسد الفاسق ، ويرتَق ما فتق. فأشار عليه بيزيد بن مَزْيد ، فلم يقبل مشورته.

وكان قيل للرشيد: إن عليّ بن عيسى قد أجمع على خلافِك ، فشخص إلى الريّ من أجل ذلكَ ، منصرفَه من مكة ، فعسكر بالنّهروان لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، ومعه ابناه عبد الله المأمون والقاسم ، ثم سار إلى الرّيّ ، فلما صار بقَرْمَاسِين أشخص إليه جماعة من القُضاة وغيرهم ، وأشهدهم أنّ جميع ما له في عسكره ذلك من الأموال والخزائن والسلاح والكُراع وما سوى ذلك لعبد الله المأمون ، وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير. وجدّد البيعة له على مَنْ كان معه ، ووجّه هَرْثمة بن أعَين صاحب حرسه إلى بغداد ، فأعاد أخذَ البَيْعة على محمد بن هارون الرشيد وعلى مَنْ بحضرته لعبد الله والقاسم ، وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبد الله؛ إذا أفضت الخلافة إليه. ثم مضى الرشيد عند

انصراف هرثمة إليه إلى الريّ ، فأقام بها نحواً من أربعة أشهر؛ حتى قدم عليه عليّ بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطُّرف ، من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح والدوابّ ، وأهدى بعد ذلك إلى جميع مَنْ كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدَمه وقوّاده على قَدْر طبقاتهم ومراتبهم ، ورأى منه خلاف ما كان ظنّ به وغير ما كان يقال فيه. فرضي عنه ، وردّه إلى خراسان ، وخرج وهو مشيّع له؛ فذُكر أن البيعة أخذت للمأمون والقاسم بولاية العهد بعد أخويْه محمد وعبد الله ، وسُمِّيَ المؤتمن حينَ وجّه هارون هرثمة لذلك بمدينة السلام يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلتْ من رجب من هذه السنة ، فقال الحسن بن هانىء في ذلك:

تبارَكَ مَنْ سَاسَ الأُمورَ بِعِلْمِهِ ... وفَضّلَ هاروناً على الخُلفاء
نزالُ بخَيْرٍ ما انطَويْنا على التُّقَى ... وَما سَاسَ دنيانا أَبو الأُمناء

وفي هذه السنة ـ حين صار الرّشيد إلى الريّ ـ بعث حسيناً الخادم إلى طَبْرِستان ، فكتب له ثلاثة كتب؛ من ذلك كتاب فيه أمان لشَرْوين أبي قارن ، والآخر فيه أمان لونْداهرمز ، جدّ مازيار ، والثالث فيه أمان لمرزبان ابن جستان ، صاحب الدَّيْلم ، فقدِم عليه صاحبُ الدَّيْلَم ، فوهب له وكساه وردّه. وقدم عليه سعيد الحَرَشيّ بأربعمائة بطل من طبرستان ، فأسلموا على يد الرشيد ، وقدم ونداهرمز ، وقبل الأمان ، وضمن السمع والطاعة وأداء الخراج ، وضمن على شَرْوين مثل ذلك ، فقبل ذلك منه الرشيد وصرفه ، ووجَّه معه هرثمة فأخذ ابنه وابن شَرْوين رهينة. وقدم عليه الرَّيّ أيضاً خزيمة بن خازم ، وكان والي إرمينيَة ، فأهدى هدايا كثيرة.

* * *

وفي هذه السنة ولّى هارون عبد الله بن مالِك طبرِستان والريّ والرُّويان ودُنْباوند وقُومِس وهَمَذَان. وقال أبو العتاهية في خَرْجة هارون هذه ـ وكان هارون وُلِد بالريّ:

إنَّ أَمينَ اللهِ في خلْقِهِ ... حَنَّ به البِرُّ إلى مَوْلِده
لِيُصْلِحَ الرَّيَّ وأَقطارَها ... وَيُمطِرَ الخيْرَ بِها مِنْ يَدِهْ

* * *

وذُكر عن بعض قوّاد الرشيد أنّ الرشيد قال لما ورد بغداد: والله إنّي لأطوي مدينةً ما وُضِعَتْ بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها؛ وإنها لوطني ووطن آبائي ، ودار مملكة بني العباس ما بقُوا وحافظوا عليها؛ وما رأى أحدٌ من آبائي سوءاً ولا نكبة منها ، ولا سيء بها أحد منهم قطّ ، ولنعم الدّار هي! ولكنّي أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحبّ لشجرة اللعنة ـ بني أمية ـ مع ما فيها من المارقة والمتلصّصة ومخيفي السبيل؛ ولولا ذلك ما فارقتُ بغداد ما حييت ولا خرجت عنها أبداً.

وقال العباس بن الأحنف في طيّ الرشيد بغداد:

مـا أَنخنـا حتـى ارْتَحَلنـا فمـا نَفْـ ـــرِقُ بيْـنَ المنـاخ والارْتحـالِ
سـاءَلـونَـا عـن حـالِنـا إِذْ قَـدِمْنَـا فَقَـرَنَّـا وداعَهُـمْ بـالسـؤال

* * *

وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والرّوم ، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به ـ فيما ذكر ـ فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك:

وفُكَّتْ بِكَ الأَسرَى التي شُيِّدَتْ لها محـابِسُ مـا فيها حَمِيـمٌ يَـزورُهـا
علـى حِيـن أَعيَـا المسلميـنَ فِكـاكُهـا وقالوا: سُجُونُ المُشرِكينَ قبورُها[1]

* * *

ورابطَ فيها القاسم بدَابِق.

ثم دخلت سنة تسعين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

*** ذكر الخبر عن سبب ذلك[2].**

وكان سبب ذلك ـ فيما ذُكر لنا ـ أنْ يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائيّ تزوّج

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ١٢٨].
(٢) أي ظهور دافع بن ليث ونزعه بيده من الطاعة وانظر المنتظم (٩/ ١٧٨ ـ ١٨٤).

ابنة لعمّه أبي النعمان ، وكانت ذاتَ يسار ، فأقام بمدينة السلام ، وتركها بسَمَرْقَنْد ، فلما طال مقامه بها ، وبلغها أنه قد اتخذ أمهاتِ أولاد ، التمست سبباً للتخلص منه ، فعيّ عليها ، وبلغ رافعاً خبرُها ، فطَمع فيها وفي مالها ، فدسّ إليها مَنْ قال لها : إنه لا سبيل لَها إلى التخلص من صاحبها ؛ إلا أن تشرك بالله ، وتحضر لذلك قوماً عدولاً ، وتكشف شعرَها بين أيديهم ، ثم تتوب فتحلّ للأزواج ؛ ففعلت ذلك وتزّوجها رافع . وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث ، فرُفع ذلك إلى الرّشيد ، فكتب إلى عليّ بن عيسى يأمره أن يفرّق بينهما ، وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحدّ ، ويقيّده ويطوف به في مدينة سَمَرْقند مقيَّداً على حمار ؛ حتى يكون عظةً لغيره . فدرأ سليمان بن حميد الأزدي عنه الحدّ ، وحمَله على حمار مقيّداً حتى طلقها ، ثم حبسه في سجن سَمرْقنْد ، فهرب من الحبْس ليلاً من عند حُميد بن المسيح ـ وهو يومئذ على شُرَط سَمَرْقند ـ فلحق بعليّ بن عيسى ببلْخ ، فطلب الأمان فلم يجبه عليّ إليه ، وهمّ بضرب عُنقه ، فكلَّمه فيه ابنه عيسى بن عليّ ، وجدّد طلاق المرأة ، وأذن له في الانصراف إلى سَمَرْقند ، فانصرف إليها ، فوثب بسليمان بن حميد؛ عامل علي بن عيسى فقتله ، فوجّه عليّ بن عيسى إليه ابنه ، فمال الناس إلى سباع بن مسعدة ، فرأّسوه عليهم ، فوثب على رافع فقيّده ، فوثبوا على سباع ، فقيّدُوه ورأسوا رافعاً وبايعوه ، وطابَقه مَنْ وراء النهر ، ووافاه عيسى بن عليّ ، فلقيه رافع فهزمه ، فأخذ عليّ بن عيسى في فَرْض الرجال والتأهب للحرب .

* * *

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدِ المأمون .

وفيها خرجت الروم إلى عين زَرْبة وكنيسة السّوْداء ، فأغارت وأسرت ، فاستنقذ أهل المصّيصة ما كان في أيديهم .

* * *

وخرج في هذه السنة خارجيّ من عبد القيس يقال له سيف بن بكر ، فوجّه إليه الرشيد محمد بن يزيد بن مَزْيد ، فقتله بعين النُّورَة .

ونقض أهل قُبرس العَهد ، فغزاهم معيوف بن يحيى فسبى أهلَها .

* * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها خرج أبو النداء بالشام فوجّه الرشيد في طلبه يحيى بن معاذ ، وعقدَ له على الشأم .

وفيها وقع الثلج بمدينة السلام[١] .

وفيها ظفر حماد البربريّ بهيصم اليمانيّ .

وفيها ولّى الرشيد حمّوَيه الخادم بريد خُراسان .

وفيها ولّى الرشيد غزو الصائفة هرثمةَ بن أعْين ، وضمّ إليه ثلاثين ألفاً من جند خُراسان ، ومعه مسرور الخادم ، إليه النفقات وجميع الأمور ، خلا الرياسة ومضى الرّشيد إلى دَرْب الحَدَث ، فرتّب هنالك عبد الله بن مالك ، ورتّب سعيد بن سلم بن قتيبة بمَرْعَش ، فأغارت الروم عليها ، وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد بن سلم مقيم بها ، وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طَرَسوس فأقام الرشيد بدرْب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ، ثم انصرف إلى الرّقة .

وفيها أمر الرّشيد بهدم الكنائس بالثغور ، وكتب إلى السنديّ بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذّمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم .

* * *

ذكر الخبر عن سبب عزل الرشيد
عليّ بن عيسى وسخطه عليه

قال أبو جعفر: قد ذكر قبلُ سبب هلاك ابن عليّ بن عيسى وكيف قُتل .

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٢٣).

ولمَّا قتل ابنه عيسى خرج عليّ عن بلّخ حتى أتى مَرْو مخافةَ أن يسير إليها رافع بن الليث ، فيستولي عليها . وكان ابنه عيسى دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة ـ قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف ـ ولم يعلم بها عليّ بن عيسى ولا اطلع على ذلك إلا جارية كانت له ، فلما شخص عليّ عن بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعضَ الخدم ، وتحدّث به الناس ، فاجتمع قُرّاء أهل بلْخ ووجوهها ، فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة ، فبلغ الرّشيد الخبر ، فقال : خرج عليّ من بلْخ عن غير أمرِي ، وخلَّف مثل هذا المال؛ وهو يزعم أنه قد أفْضَى إلى حَلْيِ نسائه فيما أنفق على محاربة رافع! فعزله عند ذلك ، وولّى هرثمة بن أعيَن ، واستصفى أموال عليّ بن عيسى ، فبلغت أمواله ثمانين ألف ألف .

وذكر عن بعض الموالي أنه قال : كنا بجُرْجان مع الرشيد وهو يريد خُراسان ، فوردت خزائن عليّ بن عيسى التي أخذت له على ألف وخمسمائة بعير ، وكان عليّ مع ذلك قد أذلّ الأعالي من أهل خُراسان وأشرافهم .

وذكر أنه دخل عليه يوماً هشام بن فرخسرو والحسين بن مصعب ، فسلَّما عليه ، فقال للحسين : لا سلَّم الله عليك يا ملحد يا بن الملحد! والله إنيّ لأعرف ما أنتَ عليه من عداوتك للإسلام وطعنك في الدين ، وما أنتظر بقتلك إلا إذن الخليفة فيه ، فقد أباح الله دمَك ، وأرجو أن يسفكه الله على يدي عن قريب ، ويعجلك إلى عذابه . ألستَ المرجف بي في منزلي هذا بعد ما ثملتَ من الخمر ، وزعمت أنه جاءتك كتب من مدينة السلام بعزلي! اخرج إلى سخط الله ، لعنك الله ، فعن قريب ما تكون من أهلها! فقال له الحسين : أعيذ بالله الأميرَ أن يقبل قول واشٍ ، أو سعاية باغٍ ، فإني بريء مما قُرفت به . قال : كذبت لا أمّ لك! قد صحّ عندي أنك ثملت منَ الخمر ، وقلت ما وجب عليكَ به أغلظ الأدب؛ ولعلّ الله أن يعاجلَك ببأسه ونقمته؛ اخرج عني غير مستور ولا مصاحَب . فجاء الحاجب فأخذ بيده فأخرجه ، وقال لهشام بن فرخسرو : صارت دارك دار الندوة؛ يجتمع فيه إليك السفهاء ، وتطعن على الولاة! سفك الله دمي إن لم أسفك دمك! فقال هشام : جُعلت فداء الأمير! أنا والله مظلوم مرحوم؛ والله ما أدَعُ في تقريظ الأمير جهداً ، وفي وصفه قولاً إلاّ خصصتُه به وقلته فيه؛ فإن كنت إذا قلت خيراً نقل إليك شرّاً فما حيلتي! قال : كذبت لا أمّ لك؛ لأَنا أعلم بما تنطوي

عليه جوانحك من ولدك وأهلك، فاخرج فعن قريب أريح منك نفسي. فخرج. فلمّا كان في آخر الليل دعا ابنتَه عالية ـ وكانت من أكبر ولده ـ فقال لها: أيْ بنيّة، إني أريد أن أفضيَ إليك بأمر إن أنت أظهرته قُتلتُ؛ وإن حفظته سلمتُ، فاختاري بقاء أبيك على موته، قالت: وماذاك جُعلت فداك! قال: إني أخاف هذا الفاجر عليّ بن عيسى على دمي، وقد عزمت على أن أظهر أنّ الفالج أصابني، فإذا كان في السّحَر فاجمعي جواريك، وتعالي إلى فراشي وحرّكيني؛ فإذا رأيت حركتي قد ثقلت، فصيحي أنت وجواريك، وابعثي إلى إخوتك فأعلميهم علّتي. وإياك ثم إياك أن تطلعي[1] على صحة بدني أحداً من خلْق الله من قريب أو بعيد. ففعلتْ ـ وكانت عاقلة حازمة ـ فأقام مطروحاً على فراشه حيناً لا يتحرّك إلا إن حُرّك، فيقال إنه لم يعلم من أهل خُراسان أحدٌ من عزل عليّ بن عيسى بخبر ولا أثر غيرُ هشام؛ فإنه توهم عزله، فصحّ توهمه.

ويقال: إنه خرج في اليوم الذي قدم فيه هَرْثمة لتلقّيه. فرآه في الطريق رجل من قوّاد عليّ بن عيسى، فقال: صحّ الجسم؟ فقال: ما زال صحيحاً بحمد الله! وقال بعضهم: بل رآه عليّ بن عيسى، فقال: أين بك؟ فقال: أتلقّى أميرنا أبا حاتم، قال: ألم تكن عليلاً؟ قال: بلى؛ فوهب الله العافية، وعزل الله الطاغية في ليلة واحدة.

وأما الحسين بن مصعب فإنه خرج إلى مكّة مستجيراً بالرّشيد من عليّ بن عيسى، فأجاره.

ولما عزم الرشيد على عزل عليّ بن عيسى دعا ـ فيما بلغني ـ هرثمة بن أعين مستخلياً به فقال: إني لم أشاور فيك أحداً، ولم أطلعه على سرّي فيك، وقد اضطرب عليّ ثغور المشرق، وأنكر أهل خراسان أمْرَ عليّ بن عيسى؛ إذ خالف عهدي ونبذه وراء ظهره؛ وقد كتب يستمدّ ويستجيش، وأنا كاتب إليه، فأخبره أني أمدّه بك، وأوجّه إليه معك من الأموال والسّلاح والقوّة والعدّة ما يطمئن إليه

(١) لم يكن من أدب الرشيد أن يقذف المسلمات بكل بساطة ويكتب في رسائله هذه الكلمات النابية ـ وكيف نعتمد على وجود حوار سرّي بن الخليفة وهرثمة ثم رسالة أرسلها لم يعلم به إلا الله سبحانه والحفظة من ملائكته ـ وكل ذلك وصل إلى الطبري من طريق (فيما بلغني)؟!!.

قلبه ، وتتطلع إليه نفسه ، وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضَّنّه ، ولا تطلعنّ فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور؛ فإذا نزلتَها فاعمل بما فيه ، وامتثله ولا تجاوزه ، إن شاء الله ، وأنا موجّه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى عليّ بن عيسى بخطي؛ ليتعرّف ما يكون منك ومنه ، وهوّنْ عليه أمْرَ عليّ فلا تظهرنَّه عليه ، ولا تعلمنَّه ما عزمتُ عليه ، وتأهَّب للمسير ، وأظهر لخاصَّتك وعامّتك أني أوجّهك مدداً لعليّ بن عيسى وعوناً له. قال: ثم كتب إلى عليّ بن عيسى بن ماهان كتاباً بخطه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم. يا بن الزانية ، رفعتُ من قدرك ، ونوّهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عَقِبَك ، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خوَلَكَ وأتباعك؛ فكان جزائي أن خالفتَ عهدي ، ونبذتَ وراء ظهرك أمري؛ حتى عِثت في الأرض ، وظلمت الرّعية ، وأسخطت الله وخليفته؛ بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك ، وقد ولَّيت هَرثمة بن أعيْن مولاَي ثغر خُراسان ، وأمرتُه أن يشدّ وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ، ولا حقّاً لمسلم ولا مُعاهد إلا أخذكم به؛ حتى تردّه إلى أهله؛ فإن أبَيْتَ ذلك وأباه ولدُك وعُمَّالك فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصبّ عليكم السياط ، ويُحلّ بكم ما يحلّ بمن نكثَ وغيَّر ، وبدَّل وخالف ، وظلم وتعدَّى وغشم ، انتقاماً لله عزَّ وجلَّ بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً؛ فلا تعرض نفسك للتي لا شَوَى لها ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً[١].

وكتب عهد هرثمة بخطه:

هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعيَن حين ولاّه ثَغْر خُراسان وأعماله وخراجه؛ أمَرَه بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله، فيحلّ حلالَه ويحرّم حرّامه، ويقف عند متشابهه؛ ويسأل عنه أولِي الفقه في دين الله وأولِي العلم بكتاب الله، أو يردّه

(١) لم يكن من أدب الرشيد أن يقذف المسلمات بكل بساطة ويكتب في رسائله هذه الكلمات النابية وكيف نعتمد على وجود حوار سري بين الخليفة وهرثمة تحت رسالة أرسلها لم يعلم به إلا الله سبحانه والحفظة من ملائكته وكل ذلك وصل إلى الطبري من طريق (فيما بلغني).

إلى إمامه ليريَه الله عز وجلَّ فيه رأيه، ويعزم له على رشده، وأمره أن يستوثق من الفاسق عليّ بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشدّ عليهم وطأتَه ، ويُحلّ بهم سطوتَه ، ويستخرج منهم كلّ مال يصحّ عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين؛ فإذا استنظف ما عندهم وقِبَلهم من ذلك ، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين ، وأخذهم بحقّ كلّ ذي حقّ حتى يردُّوه إليهم؛ فإن ثبتت قبَلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق للمسلمين؛ فدافَعوا بها وجحدوها ، أن يصبّ عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته؛ حتى يبلغ بهم الحال التي إنْ تخطَّاها بأدنى أدب ، تلفتْ أنفسُهم ، وبطلت أرواحهم؛ فإذا خرجوا من حقّ كلّ ذي حق ، أشخصهم كما تشخص العصاة من خُشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس ، مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين ، إن شاء الله. فاعمل يا أبا حاتم بما عهدتُ إليك ، فإني آثرتُ الله وديني على هوايَ وإرادتي ، فكذلك فليكن عملُك ، وعليه فليكن أمرك ، ودبِّر في عمال الكُور الذين تمرّ بهم في صُعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمرٍ يريبهم وظنّ يرعبُهم. وابسطُ من آمال أهل ذلك الثغْر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفته ، ومَنْ ولاك الله أمره إن شاء الله. هذا عهدي وكتابي بخطِّي ، وأنا أشهد الله وملائكته وحملةَ عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً.

وكتب أمير المؤمنين بخطِّ يده لم يحضره إلا الله وملائكته.

ثم أمر أن يكتب كتاب هرثمة إلى عليّ بن عيسى في معاونته وتقوية أمره والشدّ على يديه؛ فكتب وظهر الأمر بها؛ وكانت كتب حَمَوَيْهْ وردت على هارون: إنّ رافعاً لم يخلع ولا نَزَع السَّواد ولا من شايعه ، وإنما غايتهم عزل عليّ بن عيسى الذي قد سامهم المكروه.

* * *

[خبر شخوص هرثمة بن أعين إلى خراسان والياً عليها][1]

ومن ذلك ما كان من شخوص هرثمة بن أعين إلى خراسان والياً عليها.

---

(١) المنتظم (٩/ ١٩٧).

*** ذكر الخبر عما كان من أمره في شخوصه إليها وأمر عليّ بن عيسى وولده:**

ذُكر أن هرثمة مضى في اليوم السادس من اليوم الذي كتب له عهده الرشيد وشيَّعه الرشيد، وأوصاه بما يحتاج إليه، فلم يعرّج هرثمة على شيء، ووجّه إلى عليّ بن عيسى في الظاهر أموالاً وسلاحاً، وخِلَعاً وطيباً، حتى إذا نزل نيسابور جَمَعَ جماعة من ثقات أصحابه وأولي السنّ والتجربة منهم؛ فدعا كلَّ رجل منهم سراً، وخلا به، ثم أخذ عليهم العهود والمواثيقَ أن يكتموا أمره، ويطوُوا سرّه، وولّى كلَّ رجل منهم كُورة، على نحو ما كانت حاله عنده؛ فولّى جُرجان ونيسابور والطبَسين ونَسا وسَرَخْس، وأمّر كلَّ واحد منهم، بعد أن دفع إليه عهدَه بالمسير إلى عمله الذي ولاّه على أخفى الحالات وأسترها، والتشبُّه بالمجتازين في وُرودهم الكُور ومقامهم فيها إلى الوقت الذي سمّاه لهم، وولّى إسماعيل بن حفص بن مصعب جُرجان بأمر الرشيد، ثم مضى حتى إذا صار من مَرْو على مرحلة، دعا جماعة من ثقات أصحابه، وكتب لهم أسماء ولد عليّ بن عيسى وأهل بيته وكُتَّابه وغيرهم في رقَاع، ودفع إلى كلِّ رجل منهم رقعة باسم مَنْ وَكّله بحفظه إذا هو دخل مَرْو، خوفاً من أن يهربوا إذا ظهر أمره. ثم وجّه إلى عليّ بن عيسى: إن أحبَّ الأميرُ أكرمه الله أن يوجِّه ثقاته لقبض ما معي من أموال فَعَل؛ فإنه إذا تقدّم المال أمامي كان أقوَى للأمير، وأفتّ في عضد أعدائه. وأيضاً فإني لا آمنُ عليه إن خلَّفته وراء ظهري؛ أن يطمع فيه بعض من تَسمُو إليه نفسه إلى أن يقتطع بعضه، ويفترض غفلتنا عند دخول المدينة. فوجَّه عليّ بن عيسى جهابذَته وقَهارمته لقبض المال، وقال هرثمة لخُزّانِه: اشغلوهم هذه الليلة، واعتلّوا عليهم في حَمْل المال بعلّة تقرب من أطماعهم، وتزيل الشكَّ عن قلوبهم، ففعلوا. وقال لهم الخُزّان: حتى تؤامروا أبا حاتم في دوابّ المال والبغال. ثمّ ارتحل نحو مدينة مَرْو، فلما صار منها على ميلين تلقَّاه عليّ بن عيسى في ولده وأهل بيته وقوّاده بأحسن لقاء وآنَسهِ؛ فلمَّا وقعت عَين هرثمة عليه، ثنَى رجله لينزل عن دابته فصاح به عليّ: والله لئن نزلتَ لأنزلنّ، فثبت على سَرْجه، دنا كلٌّ منهما من صاحبه فاعتنقا، وسارا، وعليّ يسأل هرثمة عن أمْر الرشيد وحاله وهيئته وحال خاصّته وقوّاده وأنصار دولته؛ وهرثمة يُجيبه؛ حتى صار إلى قنطرة لا يجوزها إلاّ فارس، فحبس هرثمة لجام دابته، وقال

لعليّ: سر على بركة الله ، فقال عليّ: لا والله لا أفعل حتى تمضي أنت ، فقال: إذاً والله لا أمضي ، فأنت الأمير وأنا الوزير؛ فمضى وتبعه هرثمة حتى دخلاَ مَرْو ، وصارا إلى منزل عليّ ، ورجاء الخادم لا يفارق هرثمة في ليل ولا نهار ، ولا ركوب ولا جلوس؛ فدعا عليّ بالغداء فطعما ، وأكلَ معهما رجاء الخادم ، وكان عازماً على ألاّ يأكل معهما ، فغمزه هرثمة وقال: كُل فإنك جائع ، ولا رأْيَ لجائعٍ ولا حاقن؛ فلما رُفع الطعام قال له عليّ: قد أمرت أن يفرغ لك قصر على المَاشَان؛ فإن رأيتَ أن تصير إليه فعلت. فقال له هرثمة: إن معي من الأمور ما لا يتحمَّل تأخير المناظرة فيها؛ ثم دفع رجاء الخادم كتاب الرشيد إلى عليّ ، وأبلغه رسالته. فلما فضّ الكتاب فنظر إلى أوّل حرف منه سُقط في يده ، وعلم أنه قد حلّ به ما يخافُه ويتوقعه ، ثم أمر هرثمة بتقييده وتقييد ولده وكتابه وعماله ـ وكان رحل ومعه وقْر من قيود وأغلال ـ فلما استوسق منه صار إلى المسجد الجامع ، فخطب وبسط من آمال الناس ، وأخبر أن أمير المؤمنين ولاّه ثغورَهم لما انتهى إليه من سوء سيرة الفاسق عليّ بن عيسى ، وما أمره به فيه وفي عمّاله وأعوانه ، وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصّة ، والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحقّ. وأمر بقراءة عهده عليهم. فأظهروا السرور بذلك ، وانفسحت آمالهم ، وعظم رجاؤهم ، وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم ، وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء.

ثم انصرف ، فدعا بعليّ بن عيسى وولدِه وعماله وكُتَّابه ، فقال: اكفوني مؤنتَكم ، واعفوني من الإقدام بالمكروه عليكم. ونادى في أصحاب ودائعهم ببراءة الذّمة من رجل كانت لعليّ عنده وديعة أو لأحد من ولده أو كتابه أو عماله وأخفاها ولم يظهر عليها؛ فأحضر الناس ما كانوا أودِعوا إلاّ رجلاً من أهل مَرْو ـ وكان من أبناء المجوس ـ فإنه لم يزل يتلطف للوصول إلى عليّ بن عيسى حتى صار إليه ، فقال له سرّاً: لك عندي مال ، فإن احتجتَ إليه حملتُه إليك أوّلاً فأوّلاً ، وصبرت للقتل فيك؛ إيثاراً للوفاء وطلباً لجميل الثناء ، وإن استغنيْت عنه حبستُه عليك حتى ترى فيه رأيك. فعجب عليّ منه ، وقال: لو اصطنعتُ مثلك ألف رجل ما طمِع فيَّ السلطان ولا الشيطان أبداً. ثم سأله عن قيمة ما عنده ، فذكر له أنه أودعه مالاً وثياباً ومسْكاً ، وأنه لا يدري ما قدر ذلك؛ غير أنه أودعه

بخطِّه ، وأنه محفوظ لم يشذّ منه شيء ، فقال له : دعه؛ فإن ظُهر عليه سلّمته ونجوت بنفسك ، وإن سلِمت به رأيت فيه رأيي . وجزاه الخير ، وشكر له فعله ذلك أحسن شكر ، وكافأه عليه وبرّه . وكان يُضرب به المثل بوفائه؛ فذكر أنه لم يتستر عن هَرْثمة من مالِ عليّ إلا ما كان أودعه هذا الرجلِ ـ وكان يقال له : العلاء بن ماهان ـ فاستنظف هرثمة ما وراء ظهورهم حتى حَلْي نسائهم ؛ فكان الرجل يدخل إلى المنزل فيأخذ جميع ما فيه؛ حتى إذا لم يبق فيه إلاّ صوف أو خشب أو ما لا قيمة له قال للمرأة : هاتي ما عليك من الحَلي ، فتقول للرجل إذا دنا منها لينزع ما عليها : يا هذا ، إن كنتَ محسناً فاصرف بصرَك عنِّي ، فو الله لا تركتُ شيئاً من بغيتك عليّ إلاّ دفعتُه إليك؛ فإن كان الرجل يتحوّب من الدّنوّ إليها أجابها إلى ذلك حتى ربما نبذت إليه بالخاتم والخلخال وما قيمته عشرة دراهم ، ومَنْ كان بخلاف هذه الصفة ، قال : لا أرضى حتى أفتشّك؛ لا تكونين قد خبأت ذهباً أو دُرّاً أو ياقوتاً؛ فيضرب يده إلى مغابِنها وأرفاغها؛ فيطلب فيها ما يظنّ أنها قد سترته عنه؛ حتى إذا ظنّ أنه قد أحكم هذا كلّه وجّهه على بعير بلا وطاء تحته ، وفي عنقه سلسلة ، وفي رجله قيود ثقال ما يقدر معها على نهوض واعتماد .

فذُكِر عمّن شهد أمر هرثمة وأمره؛ أن هرثمة لما فرغ من مطالبة عليّ بن عيسى وولده وكتّابه وعمّاله بأموال أمير المؤمنين ، أقامهم لمظالم الناس ، فكان إذا بَرز للرجل عليه أو على أحد من أصحابه حق ، قال : اخرج للرجل من حَقِّه ، وإلا بسطت عليك ، فيقول عليّ : أصلح الله الأمير! أجِّلني يوماً أو يومين ، فيقول : ذلك إلى صاحب الحقّ ، فإن شاء فعل . ثم يُقبل على الرجل ، فيقول : أتَرَى أن تَدَعه؟ فإن قال : نعم ، قال : فانصرف وعُدْ إليه ، فيبعث عليّ إلى العلاء بن ماهان ، فيقول له : صالحْ فلانا عنّي من كذا وكذا على كذا وكذا ، أو على ما رأيت ، فيصالحه ويُصلح أمره .

وذُكر أنه قام إلى هرثمة رجل ، فقال له : أصلح الله الأمير! إن هذا الفاجر أخذ مني درَقة ثمينة لم يملك أحد مثلها ، فاشتراها على كُرْه مني ولم أرِدْ بيعها بثلاثة آلاف درهم؛ فأتيت قهرمانه أطلب ثمنَها ، فلم يعْطِني شيئاً ، فأقمت حَوْلاً أنتظر ركوب هذا الفاجر؛ فلما ركب عرضتُ له وصحْت به : أيها الأمير ، أنا صاحب

الدَّرَقة ، ولم آخذ لها ثمناً إلى هذه الغاية ، فقذَف أمّي ولم يعطني حقي ، فخذ لي بحقي من مالِي وقَذْفِه أمي ، فقال : لك بيّنة؟ قال : نعم ، جماعة حضروا كلامه ؛ فأحضرهم فأشهدهم على دعواه ، فقال هرثمة : وجب عليك الحدّ ، قال : ولمَ؟ قال : لقذفِك أمّ هذا ، قال : مَنْ فَقّهك وعلّمك هذا؟ قال : هذا دِين المسلمين ، قال : فأشهد أن أمير المؤمنين قد قذَفك غير مرّة ولا مرتين ؛ وأشهد أنك قد قذفت بنِيك ما لا أحصِي ، مرةً حاتماً ومرة أعين ؛ فمن يأخذ لهؤلاء بحدودهم منك؟ ومن يأخذ لك من مولاك! فالتفت هرثمة إلى صاحب الدَّرَقة ، فقال : أرى لك أن تطالب هذا الشيطان بَدرَقتك أو ثمنها ، وتترك مطالبته بقذفه أمّك .

* * *

[كتاب هرثمة إلى الرشيد في أمر عليّ بن عيسى]

ولما حمل هرثمة عليّاً إلى الرّشيد ، كتب إليه كتاباً يخبره ما صنع ؛ نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ؛ فإن الله عزَّ وجلَّ لم يزل يبلي أمير المؤمنين في كلّ ما قلده من خلافته ، واسترعاه من أمور عباده وبلاده أجملَ البلاء وأكملَه ، ويعرّفه في كلّ ما حضره ونأى عنه من خاصّ أموره وعامّها ، ولطيفها وجليلها أتمّ الكفاية وأحسن الولاية ، ويعطيه في ذلك كلِّه أفضل الأمنيَّة ، ويبلغه فيه أقصى غاية الهمة ، امتناناً منه عليه ، وحفظاً لما جعل إليه ، مما تكفّل بإعزازه وإعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته ؛ فيستتم الله أحسن ما عوّده وعوّدنا من الكفاية في كلّ ما يؤدّينا إليه ، ونسأله توفيقنا لما نقضي به المفترَض من حقِّه في الوقوف عند أمره ، والاقتصار على رأيه .

ولم أزل أعزّ الله أمير المؤمنين ، مذ فصَلت عن معسكر أمير المؤمنين ممتثلاً ما أمرني به فيما أنهضني له ؛ لا أجاوز ذلك ولا أتعدّاه إلى غيره ، ولا أتعرّف اليُمْن والبركة إلا في امتثاله ؛ إلى أن حللتُ أوائل خُراسان ؛ صائناً للأمر الذي أمرني أمير المؤمنين بصيانته وستره ؛ لا أفضي ذلك إلى خاصتي ولا إلى عامتي ، ودبّرتُ في مكاتبة أهل الشاش وفَرْغَانة وخزْلهما عن الخائن ، وقطع طمعه وطمع مَنْ قِبَله عنهما ، ومكاتبة مَنْ ببلْخ بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين وفسّرت له ، فلما نزلت نيسابور عملتُ في أمر الكُور التي اجتزت عليها بتولية مَنْ ولّيت

إليها ، قبل مجاوزتي إياها ؛ كجرجان ونَيْسَابور ونَسَا وَسَرَخْس ، ولم آلُ الاحتياط في ذلك ، واختيار الكفاءة وأهل الأمانة والصّحة من ثقات أصحابي ، وتقدّمت إليهم في ستر الأمر وكتمانه ، وأخذت عليهم بذلك أيمانَ البَيْعة ، ودفعت إلى كلِّ رجل منهم عهدَه بولايته ، وأمرتهم بالمسير إلى كوَر أعمالهم على أخفى الحالات وأسترها ، والتَشبّه بالمجتازين في وُرودهم الكُوَر ومقامهم بها إلى الوقت الذي سَمَّيتُ لهم ؛ وهو اليوم الذي قدّرت فيه دخولي إلى مَرْو ، والتقائي وعليّ بن عيسى ، وعملت في استكفائي إسماعيل بن حفص بن مصعب أمرَ جُرجان بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين ، فنفذ أولئك العمال لأمري ، وقام كلُّ رجل منهم في الوقت الذي وُقِّتَ له بضبط عمله وإحكام ناحيته ، وكفى الله أميرَ المؤمنين المؤنةَ في ذلك ، بلطيف صنعه .

ولما صرت من مدينة مَرْو على منزل ، اخترت عِدّةً من ثقات أصحابي ، وكتبت بتسمية ولد عليّ بن عيسى وكتّابه وأهل بيته وغيرهم رقاعاً ، ودفعت إلى كلِّ رجل منهم رُقعة باسم مَنْ وكّلتُه بحفظه في دخولي ، ولم آمن لو قصّرت في ذلك وأخّرته أن يصيروا عند ظهور الخبر وانتشاره إلى التغيب والانتشار ، فعملوا بذلك ، ورحلت عن موضعي إلى مدينة مَرْو ، فلما صرت منها على ميلين تلقّاني عليّ بن عيسى في وَلدِه وأهل بيته وقوّاده ، فلقيته بأحسن لقاء ، وآنسته ، وبلغتُ من توقيره وتعظيمه والتماس النزول إليه أوّل ما بصرت به ما ازداد به أنساً وثقة ، إلى ما كان رَكن إليه قبل ذلك ؛ مما كان يأتيه من كتبي ؛ فإنها لم تنقطع عنه بالتعظيم والإجلال منّي له والالتماس ، لإلقاء سوء الظنّ عنه ؛ لئلا يسبق إلى قلبه أمرٌ ينتقض به ما دبر أمير المؤمنين في أمره ، وأمرني به في ذلك . وكان الله تبارك وتعالى هو المنفرد بكفاية أمير المؤمنين الأمرَ فيه إلى أن ضمني وإياه مجلسه ، وصرت إلى الأكل معه ، فلمّا فرغنا من ذلك بدأني يسألني المصيرَ إلى منزل كان ارتاده لي ؛ فأعلمته ما معي من الأمور التي لاتحتمل تأخير المناظرة فيها . ثم دفع إليه رجاء الخادم كتابَ أمير المؤمنين وأبلغه رسالتَه ، فعلم عند ذلك أن قد حلّ به الأمر الذي جناه على نفسه ، وكسبته يداه ؛ من سخط أمير المؤمنين ، وتغيّر رأيه بخلافِه أمره وتعدّيه سيرته .

ثم صرت إلى التوكيل به ، ومضيت إلى المسجد الجامع ، فبسطت آمال

الناس ممن حضر ، وافتتحت القول بما حمّلني أمير المؤمنين إليهم ، وأعلمتهم إعظامَ أمير المؤمنين ما أتاه ، ووضح عنده من سوء سيرة عليّ ، وما أمرني به فيه وفي عمّاله وأعوانه ؛ وإني بالغٌ من ذلك ومن إنصاف العامّة والخاصّة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم. وأمرت بقراءة عهدي عليهم ، وأعلمتهم أنّ ذلك مثالي وإمامي ؛ وأنّي به أقتدي ، وعليه أحتذي ؛ فمتى زلتُ عن باب واحد فقد ظلمتُ نفسي ، وأحللت بها ما يحلّ بمن خالف رأي أمير المؤمنين وأمرَه ؛ فأظهروا السرور بذلك والاستبشار ، وعلتْ بالتكبير والتهليل أصواتُهم ، وكثر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء.

ثم انكفأت إلى المجلس الذي كان عليّ بن عيسى فيه ، فصرت إلى تقييده وتقييد ولده وأهل بيته وكتّابه وعماله والاستيثاق منهم جميعاً ، وأمرتهم بالخروج إليّ من الأموال التي احتجنوها من أموال أمير المؤمنين وفيء المسلمين ، وإعفائي بذلك من الإقدام عليهم بالمكروه والضرب ، وناديت في أصحاب ودائعهم بإخراج ما كان عندهم. فحملوا إلى أن كتبت إلى أمير المؤمنين صدراً صالحاً من الوَرِق والعيْن ، وأرجو أن يعين الله على استيفاء ما قِبلهم ، واستنظاف ما وراء ظهورهم ، ويسهّل الله من ذلك أفضلَ ما لم يزل يعوّده أمير المؤمنين من الصّنع في مثله من الأمور التي يعنى بها إن شاء الله تعالى.

ولم أدّع عند قدومي مَرْو التقدّم في توجيه الرسل وإنفاذ الكتب البالغة في الإعذار والإنذار ، والتبصير والإرشاد ، إلى رافع ومَنْ قِبَلْه من أهل سَمَرْقَند ، وإلى مَنْ ببلْخ ، على حسن ظنّي بهم في الإجابة ، ولزوم الطاعة والاستقامة ؛ ومهما تنصرفْ به رسلي إليّ يا أمير المؤمنين من أخبار القوم في إجابتهم وامتناعهم ، أعملْ على حسبه من أمرهم ، وأكتب بذلك إلى أمير المؤمنين على حقِّه وصدقه. وأرجو أن يعرّف الله أميرَ المؤمنين في ذلك من جميل صنعه ولطيف كفايته ؛ ما لم تزل عادته جاريةً به عنده ، بمنِّه وطوله وقوّته والسلام.

الجواب من الرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك بقدومك مَرْو في اليوم الذي سمّيت ، وعلى الحال التي وصفت وما فسّرت ، وما كنت

قدّمت من الحِيَل قبل ورودك إياها ، وعملت به في أمر الكُور التي سمّيت وتولية مَنْ وليت عليها قبل نفوذك عنها ، ولطّفت له من الأمر الذي استجمع لك به ما أردت من أمر الخائن علي بن عيسى وولده وأهل بيته ، ومن صار في يدك من عمّاله وأصحاب أعماله واحتذائك في ذلك كلّه ما كان أمير المؤمنين مثّل لك ووقفَك عليه ، وفهم أمير المؤمنين كلّ ما كتبتَ به ، وحمد الله على ذلك كثيراً وعلى تسديده إياك وما أعانك به من توفيقه ، حتى بلغتَ إرادة المؤمنين ، وأدركت طلبتَه ، وأحسنت ما كان يُحبّ بك وعلى يديك إحكامَه ، مما كان اشتدّ به اعتناؤه ، ولجّ به اهتمامه ، وجزاك الخير على نصيحتك وكفايتك ، فلا أعدم الله أمير المؤمنين أحسنَ ما عرّفه منك في كلّ ما أهاب بك إليه ، واعتمد بك عليه .

وأمير المؤمنين يأمُرك أن تزداد جدّاً واجتهاداً فيما أمرك به من تتبّع أموال الخائن عليّ بن عيسى وولده وكتّابه وعماله ووكلائه وجهابذته والنظر فيما اختانوا به أميرَ المؤمنين في أمواله ، وظلموا به الرّعية في أموالهم ، وتتبُّع ذلك واستخراجه من مظانّه ومواضعه ، التي صارت إليه ، ومن أيدي أصحاب الودائع التي استودعوها إياهم؛ واستعمال اللين والشدة في ذلك كله؛ حتى تصير إلى استنظاف ما وراء ظهورهم؛ ولا تبقى من نفسك في ذلك بقية ، وفي إنصاف الناس منهم في حقوقهم ومظالمهم؛ حتى لا تبقى لمتظلم منهم قِبَلهم ظُلامة إلا استقضيت ذلك له ، وحملته وإياهم على الحقّ والعدل فيها ، فإذا بلغتَ أقصى غاية الإحكام والمبالغة في ذلك ، فأشخِص الخائن وولدَه وأهلَ بيته وكتّابَه وعمّاله إلى أمير المؤمنين في وثاق ، وعلى الحال التي استحقُّوها من التعيير والتنكيل بما كسبت أيديهم؛ وما الله بظلام للعبيد .

ثم اعمل بما أمرك به أمير المؤمنين من الشخوص إلى سَمْرقند ، ومحاولة ما قبل خامل ، ومَنْ كان على رأيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كُور ما وراء النهر وطُخارستان بالدّعاء إلى الفيئة والمراجعة ، وبسط أمانات أمير المؤمنين التي حمّلكها إليهم؛ فإن قبلوا وأنابوا وراجعوا ما هو أمْلَكَ بهم ، وفرّقوا جموعَهم ، فهو ما يحبّ أمير المؤمنين أن يعاملَهم به من العفو عنهم والإقالة لهم؛ إذ كانوا رعيّته؛ وهو الواجب على أمير المؤمنين لهم إذ أجابهم إلى

طَلِبتهم ، وآمن رَوْعهم ، وكفاهم ولاية من كرهوا ولايتَه ، وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلاماتهم ـ وإن خالفوا ما ظنّ أمير المؤمنين ، فحاكمهم إلى الله إذ طَغَوْا وبغَوْا ، وكرهوا العافية وردّوها؛ فإنّ أمير المؤمنين قد قضى ما عليه ، فغيّر ونكّل ، وعزَل واستبدَل ، وعفا عمّن أحدث ، وصفح عمن اجترم؛ وهو يشهد الله عليهم بعد ذلك في خلاف إن آثروه ، وعنودٍ إن أظهروه. وكفى بالله شهيداً ولا حَوْل ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم ، عليه يتوكل وإليه ينيب. والسلام.

وكتب إسماعيل بن صبيح بين يدي أمير المؤمنين.

* * *

ولم يكن للمسلمين بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كان الفداء بين المسلمين والرّوم على يديْ ثابت بن نصر بن مالك[1].

وذُكر عن ذي الرياستيْن أنه قال: قلتُ للمأمون لما أراد الرشيد الشخوص إلى خُراسان لحرب رافع: لستَ تدرِي ما يحدث بالرّشيد وهو خارج إلى خُراسان ، وهي ولايتك ، ومحمّد المقدم عليك! وإنّ أحسَن ما يصنع بك أن يخلعك؛ وهو ابن زُبيدة ، وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها ، فاطلبْ إليه أن يُشخصك معه. فسأله الإذن فأبى عليه ، فقلت له: قل له: أنت عليل؛ وإنما أردتُ أن أخدمك ، ولست أكلفك شيئاً. فأذن له وسار.

فذكر محمد بن الصبّاح الطبريّ أن أباه شيّع الرشيد حين خرج إلى خُراسان ، فمضى معه إلى النَّهروان ، فجعل يحادثه في الطريق إلى أن قال له: يا صبّاح ، لا أحسبك تراني أبداً. قال: فقلت: بل يردّك الله سالماً؛ قد فتح الله عليك وأراك في عدوِّك أملك. قال: يا صبّاح ، ولا أحسبك تدري ما أجد! قلت: لا والله ، قال: فتعال حتّى أريك ، قال: فانحرف عن الطريق قَدْر مائة ذراع ، فاستظلّ

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ١٢٤].

بشجرة ، وأومأ إلى خدمه الخاصّة فتنحّوْا ، ثم قال : أمانة الله يا صبّاح أن تكتم عليّ ، فقلت : يا سيّدي ، عبدك الذليل تخاطبه مخاطبة الولد! قال : فكشف عن بطنِه؛ فإذا عصابة حرير حواليْ بطنه ، فقال : هذه علّة أكتمها الناس كلَّهم؛ ولكلّ واحد من ولدي عليّ رقيب؛ فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين ـ وسمّي الثالث فذهب عني اسمه ـ وما منهم أحد إلا وهو يحصي أنفاسي ، ويعدّ أيامي ، ويستطيل عمري ، فإن أردت أن تعرف ذلك فالساعة أدعو بدابّة ، فيجيئونني ببرذَوْن أعجف قَطوف، ليزيد في علتي، فقلت : يا سيدي ما عندي في الكلام جوابٌ، ولا في ولاة العهود؛ غير أني أقول : جعل الله من يَشْنؤك من الجنّ والإنس والقريب والبعيد فداك؛ وقدّمهم إلى تلك قبلك، ولا أرانا فيك مكروهاً أبداً ، وعمّر بك الله الإسلام، ودعم ببقائك أركانَه ، وشدّ بك أرجاءه ، وردّك الله مظفراً مفلحاً ، على أفضل أمَلِك في عدوّك، وما رجوت من ربك . قال : أمّا أنت فقد تخلّصت من الفريقين .

قال : ثم دعا ببرذون ، فجاءوا به كما وصف ، فنظر إليّ فركبه ، وقال : انصرف غير مودَّع ؛ فإن لك أشغالاً ، فودّعته وكان آخر العهد به .

وفيها قدم يحيى بن معاذ بأبي النداء على الرشيد وهو بالرقة فقتله .

وفيها فارق عُجيف بن عنبسة والأحوص بن مهاجر في عدّة من أبناء الشّيعة رافع بن ليث ، وصاروا إلى هرثمة .

وفيها قُدِم بابن عائشة وبعدّة من أهل أحواف مصر .

وفيها ولّى ثابت بن نصر بن مالك الثّغور وغزا ، فافتتح مطمورة .

وفيها كان الفداء بالبُدَنْدون[1] .

وفيها قُدِم بعليّ بن عيسى بغداد ، فحبس في داره .

وفيها قتَل الرشيد الهيصم اليمانيّ

* * *

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٢٤).

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة الفضل بن يحيى]

وكان بدء علّته ـ فيما ذكر ـ من ثقل أصابه في لسانه وشقّه؛ وكان يقول: ما أحبّ أن يموت الرشيد، فيقال له: أما تحب أن يفرّج الله عنك! فيقول: إن أمري قريب من أمره. ومكث يعالَج أشهراً، ثم صلح، فجعل يتحدّث، ثم اشتدّ عليه فعُقد لسانه وطرفه، ووقع لمآبه، فمكث في تلك الحال يوم الخميس ويوم الجمعة، وتُوفِّي مع أذان الغداة، قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر؛ وهو في خمس وأربعين سنة، وجزع الناس عليه، وصلّى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيه قبل إخراجه، ثم أخرِج فصلّى الناس على جنازته(١).

* * *

وفيها مات سعيد الطبريّ المعروف بالجوهريّ(٢).

* * *

وفيها وافى هارون جرجان في صَفر، فوافاه بها خزائن عليّ بن عيسى على ألف بعير وخمسمائة بعير، ثم رحل من جُرجان ـ فيما ذكر ـ في صفر، وهو عليل، إلى طُوس؛ فلم يزل بها إلى أن تُوفِّيَ ـ واتّهم هرثمة، فوجّه ابنه المأمون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة إلى مَرْو، ومعه عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وأسد بن يزيد بن مزيد والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث والسنديّ بن الحَرَشيّ ونعيم بن حازم؛ وعلى كتابته ووزارته أيّوب بن أبي سُمَيْر، ثم اشتدّ بهارون الوجع حتى ضعف عن السير(٣).

---

(١) أما أصل الخبر فقد ذكرناه في قسم الصحيح ولم نجد لهذه التفاصيل أيّ تأييد في مصدر موثوق متقدم انظر تاريخ بغداد (١٢/ ٢٣٤) والمنتظم (٩/ ٢٠٨).

(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٢٧).

(٣) انظر: البداية والنهاية [٨/ ١٢٧].

وكانت بين هرثمة وأصحاب رافع فيها وقعة ، فَتح فيها بخارى ، وأسر أخا رافع بشير بن الليث ، فبعث به إلى الرشيد وهو بطوس؛ فذُكِر عن ابن جامع المروزيِّ ، عن أبيه ، قال: كنت فيمن جاء إلى الرشيد بأخي رافع. قال: فدخل عليه وهو على سرير مرتفع عن الأرض بقدر عظم الذّراع ، وعليه فرْش بقدر ذلك ـ أو قال أكثر ـ وفي يده مرآة ينظر إلى وجهه. قال: فسمعته يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! ونظر إلى أخي رافع ، فقال: أما الله يا بن اللَّخناء؛ إني لأرجو ألاَّ يفوتني خامل ـ يريد رافعاً ـ كما لم تَفُتْنِي. فقال له: يا أمير المؤمنين ، قد كنت لك حرباً ، وقد أظفرك اللهبي فافْعَلْ ما يحبُّ الله ، أكن لك سلماً؛ ولعل الله أن يلين لك قلب رافع إذا علم أنك قد مننت عليَّ! فغضب وقال: والله لو لم يبق من أَجَلي إلاَّ أن أحرِّك شفتيَّ بكلمة لقلت: اقتلوه. ثم دعا بقصَّاب ، فقال: لا تشحذ مُداك ، اتركها على حالها ، وفصِّل هذا الفاسق ابن الفاسق ، وعجِّل؛ لا يحضرنَّ أجلي وعضوان من أعضائه في جسمه. ففصَّله حتى جعله أشلاء. فقال: عُدَّ أعضاءه ، فعددت له أعضاءه ، فإذا هي أربعة عشر عضواً، فرفع يديه إلى السماء، فقال: اللهمَّ كما مكَّنْتَني من ثأرك وعدُّوك، فبلغت فيه رضاك ، فمكِّني من أخيه. ثم أغْمِيَ عليه ، وتفرَّق مَن حضره[١].

* * *

[ذكر الخبر عن موت الرشيد]

وفيها مات هارون الرشيد.

* ذكر الخبر عن سبب وفاته والموضع الذي توفِّيَ فيه[٢]

ذُكر عن جبريل بن بختيشوع أنه قال: كنت مع الرَّشيد بالرَّقة ، وكنت أوَّل من يدخل عليه في كلِّ غداة ، فأتعرَّف حاله في ليلته؛ فإن كان أنكر شيئاً وصفه ، ثم ينبسط فيحدّثني بحديث جواريه وما عمل في مجلسه ، ومقدار شربه ، وساعات

---

(١) انظر: المنتظم [٩/ ٢١٦].

(٢) أنظر تعليقنا [٨/ ٣٤٤/ ١].

جلوسه، ثم يسألني عن أخبار العامَّة وأحوالها؛ فدخلتُ عليه في غداة يوم، فسلَّمت فلم يكد يرفع طرفه، ورأيته عابساً مفكِّراً مهموماً، فوقفت بين يديه مليَّاً من النهار، وهو على تلك الحال؛ فلما طال ذلك أقدمتُ عليه، فقلت: يا سيدي، جعلني الله فداك! ما حالك هكذا، أعلَّة فأخبرني بها؛ فلعله يكون عندي دواؤها، أو حادثة في بعض من تحبُّ فذاك ما لا يُدفع ولا حيلة فيه إلا التسليم والغمّ، لا درك فيه، أو فَتْق ورد عليك في مُلْكك، فلم تخلُ الملوك من ذلك؛ وأنا أولى من أفضْيتَ إليه بالخبر، وتروَّحت إليه بالمشورة. فقال: ويحك يا جبريل! ليس غمي وكربي لشيء مما ذكرت، ولكن لرؤيا رأيتُها في ليلتي هذه، وقد أفزَعَتْني وملأت صدري، وأقرْحت قلبي، قلت: فرَّجتَ عني يا أمير المؤمنين؛ فدنوتُ منه، فقبَّلت رجله، وقلت أهذا الغمُّ كله لرؤيا! الرؤيا إنما تكون من خاطر أو بخارات رديئة أو من تهاويل السوداء؛ وإنما هي أضغاث أحلام بعد هذا كله. قال: فأقصُّها عليك، رأيت كأني جالس على سريري هذا؛ إذ بدتْ من تحتي ذراع أعرفها وكفٌّ أعرفها، لا أفهم اسم صاحبها، وفي الكفِّ تربة حمراء، فقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التي تُدفن فيها، فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: بطوس. وغابت اليد وانقطع الكلام، وانتبهت. فقلت: يا سيِّدي، هذه والله رؤيا بعيدة ملتبسة، أحسبك أخذت مضجعكَ، ففكَّرت في خُراسان وحروبها وما قد ورد عليك من انتقاض بعضها. قال: قد كان ذاك، قال: قلت: فلذلك الفكر خالطَك في منامك ما خالطك، فولَّد هذه الرؤيا، فلا تحْفِل بها جعلني الله فداك! وأتبع هذا الغمَّ سروراً، يخرجه من قلبك لا يولد علة. قال: فما برحت أطيِّب نفسه بضروب من الحيل، حتى سلا وانبسط، وأمر بإعداد ما يشتهيه، ويزيد في ذلك اليوم في لهوه. ومرَّت الأيام فنَسي، ونسينا تلك الرؤيا، فما خطرت لأحد منا ببال، ثم قدَّر مسيره إلى خُراسان حين خرج رافع، فلما صار في بعض الطريق، ابتدأت به العلَّة فلم تزل تتزايد حتى دخلنا طُوس، فنزلنا في منزل الجنيد بن عبد الرحمن في ضَيْعة له تعرف بسنَاباذ، فبينا هو يمرض في بستان له في ذلك القصر إذ ذكر تلك الرؤيا، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط؛ فاجتمعنا إليه؛ كلٌّ يقول: يا سيِّدي ما حالك؟ وما دهاك؟ فقال: يا جبريل، تذكر رؤياي بالرَّقة في طُوس؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور، فقال: جئني من تربة هذا البستان، فمضى مسرور، فأتى بالتربة في

كفه حاسراً عن ذراعه ، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذِّراع التي رأيتُها في منامي ، وهذه والله الكفُّ بعينها ، وهذه والله التربة الحمراء ما خرمت شيئاً؛ وأقبل على البكاء والنحيب. ثم مات بها والله بعد ثلاثة ، ودفن في ذلك البستان(١).

وذكر بعضهم أن جبريل بن بختيشوع كان غلط على الرشيد في علته في علاج عالجه به ، كان سبب منيَّته؛ فكان الرَّشيد همَّ ليلة مات بقتله ، وأن يفصّله كما فصَّل أخا رافع ، ودعا بجبريل ليفعل ذلك به ، فقال له جبريل: أنظرني إلى غدٍ يا أمير المؤمنين ، فإنك ستصبح في عافية. فمات في ذلك اليوم(٢).

وذكر الحسن بن عليٍّ الرَّبَعي أنَّ أباه حدَّثه عن أبيه ـ وكان جمالاً معه مائة جمل ، قال: هو حمل الرشيد إلى طُوس ـ قال: قال الرشيد: احفروا لي قبراً قبل أن أموت ، فحفروا له ، قال: فحملتُه في قبَّة أقود به؛ حتى نظر إليه. قال ، فقال: يابن آدم تصير إلى هذا!

وذكر بعضهم لما اشتدَّت به العلَّة أمر بقبره فحفر في موضع من الدار التي كان فيها نازلاً ، بموضع يسمى المثقَّب ، في دار حميد بن أبي غانم الطائيِّ ، فلما فرغ من حفر القبر ، أنزل فيه قوماً فقرءوا فيه القرآن حتى ختموا ، وهو في محفَّة على شفير القبر(٣).

وذكر محمد بن زياد بن محمد بن حاتم بن عبيد الله بن أبي بكرة ، أنَّ سهل بن صاعد حدَّثه ، قال: كنت عند الرَّشيد في بيتِه الذي قبض فيه ، وهو يجود بنفسه ، فدعا بِملْحفة غليظة فاحتبى بها ، وجعل يقاسي ما يقاسي؛ فنهضت فقال لي: اقعد يا سهل ، فقَعدت وطال جلوسي لا يكلِّمني ولا أكلمه ، والمِلْحفة تنحلُّ فيعيد الاحتباء بها ، فلما طال ذلك نهضت ، فقال لي: إلى أين يا سهل؟ قلت: يا أمير المؤمنين ، ما يسع قلبي أن أرى أميرَ المؤمنين يعاني من العلَّة ما يعاني؛ فلو اضطجعتَ يا أمير المؤمنين كان أروَح لكَ! قال: فضحك

---

(١) كيف نعتمد على خبر انفرد بروايته نصراني زعم أن هذا الحوار دار بينه وبين الخليفة الرشيد.

(٢) هذا غير مستبعد وللأسف الشديد فإن الخليفة الرشيد اعتمد على طبيب غير مسلم وفتح على نفسه والخلافة باباً مغلقاً سامحه الله وإيانا.

(٣) انظر: البداية والنهاية [٨/ ١٢٨].

ضحْك صحيح ، ثم قال: يا سهل إني أذكر في هذه الحال قول الشاعر:

وَإِنِّـيَ مِـنْ قَـوْمٍ كِـرامٍ يَـزيـدُهُـمْ شِمـاسـاً وَصَبْـراً شـدةُ الحَـدَثـانِ

وذُكر عن مسرور الكبير ، قال: لما حضرت الرشيد الوفاة ، وأحسَّ بالموت ، أمرني أن أنشر[1] الوشْيَ فآتيَه بأجود ثوب أقدر عليه وأغلاه قيمة ، فلم أجد ذلك في ثوب واحد ، ووجدت ثوبيْن أغلَى شيء قيمة ، وجدتهما متقاربين في أثمانهما ، إلاَّ أنَّ أحدهما أغلَى من الآخر شيئاً ، وأحدهما أحمر والآخر أخضر ، فجئته بهما ، فنظر إليهما وخبَّرته قيمتهما ، فقال: اجعل أحسنَهما كفني ، وردَّ الآخر إلى موضعه.

وقيل: كان سنُّه يوم توفِّيَ سبعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام ، أولها لثلاث بقين من ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة ، وآخرها يومان مضيا من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة.

وكان جميلاً وسيماً أبيض جَعْداً، وقد وَخطَه الشيب[2].

* * *

ذكر بعض سيَر الرشيد

ذكر العباس بن محمد عن أبيه ، عن العباس ، قال: كان الرَّشيد يصلِّي في كلِّ يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا؛ إلا أن تعرض له علَّة ، وكان يتصدَّق من صُلْب ماله في كلِّ يوم بألف درهم بعد زكاته ، وكان إذا حجَّ حجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحجَّ أحجَّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة ، وكان يقتفي آثار المنصور ، ويطلب العمل بها إلاَّ في بذل المال؛ فإنه لم يُرَ خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، ثم المأمون من بعده. وكان لا يضيع عنده إحسان محسنٍ ، ولا يؤخِّر ذلك في أوَّل ما يجب ثوابه. وكان يحبُّ الشعراء والشعر ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويكره المراء في الدين ، ويقول: هو شيء لا نتيجة له ، وبالحري ألا يكون فيه ثواب ، وكان يحب المديح؛ ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالي.

---

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ٥) سير أعلام (٨/ ٢٨٦).

(٢) تأريخ بغداد [١٤/ ٥]، وسير أعلام [٨/ ٢٨٦].

وذكر ابن أبي حفصة أنَّ مروان بن أبي حفصة دخل عليه في سنة إحدى وثمانين ومائة يوم الأحد لثلاث خلوْن من شهر رمضان ، فأنشده شعره الذي يقول فيه :

وَسُدَّتْ بِهارونَ الثُّغورُ فأُحكِمَتْ ... بـه مِـنْ أُمـورِ المُسْلِميـنَ المَـرائِـرُ
ومـا انفَـكَّ مَعْقـوداً بنَصْـرٍ لـواؤُه ... لـه عسكـرٌ عنْـهُ تُشَظَّـى العَسـاكِـرُ
وكـلُّ مُلـوك الـرومِ أَعطـاهُ جِـزْيَـةً ... على الرغم قسْراً عَنْ يَدٍ وهْوَ صاغرُ
لقد تَرَكَ الصَّفْصافَ هارونُ صَفْصَفاً ... كـأَنْ لـم يُـدَمِّنْـهُ مِـنَ الناسِ حـاضِـرُ
أَناخَ على الصَّفْصافِ حتى اسْتباحَهُ ... فكـابَـرَهُ فيهـا أَلَـجُّ مُكـابِـرُ
إلى وجْهه تسمو العُيُون ومَا سمَتْ ... إلـى مثـلِ هـارونَ العيـونُ النَّـواظـرِ
ترى حَوْلَهُ الأَملاكَ مِنْ آل هاشِمٍ ... كمـا حَفَّـتِ البَـدْرَ النجـومُ الزَّواهـرُ
يَسُـوقُ يَـدَيْـهِ مِـنَ قُـرَيْـش كِـرَامُهـا ... وكِلتـاهُمـا بَحْرٌ على النـاس زاخـرُ
إذا فقـدَ النـاسُ الغمـامَ تتـابَعَـتْ ... عليْهـمْ بكَفَّيْـكَ الغُيُـومُ المـواطِـرُ
علـى ثِقَـةٍ أَلقَـتْ إلَيْـكَ أُمـورَهـا ... قُرَيْش ، كما ألقى عَصاهُ المُسافِرُ
أُمـورٌ بِميـراثِ النبـيِّ وَلِيتَهـا ... فـأَنـتَ لهـا بـالْحَـزمِ طـاوٍ وَنـاشِـرُ
إليكُـم تنـاهَـتْ فـاستَقَـرَّتْ وَإنَّمـا ... إلـى أَهلـهِ صـارَتْ بِهِـنَّ المَصـايـرُ
خلَفْتَ لنا المَهْدِيَّ في العَدْلِ وَالنَّدى ... فلا العُرْفُ منزُورٌ ولا الحُكْمُ جائِرُ
وَأَبنـاءُ عَبَّـاسٍ نُجـومٌ مضيئَـة ... إذا غـابَ نجْـمٌ لاحَ آخَـرُ زاهـرُ
عليَّ بَنِي ساقي الحَجيج تتابعَتْ ... أَوائـلُ مِـنْ مَعْـروفكـمْ وأَواخِـرُ
فأَصْبحْتُ قد أَيْقَنْتُ أَنْ لَسْتُ بالغاً ... مَـدَى شُكْـر نُعْمـاكُـمْ وَإنـي لَشـاكِـرُ
ومـا النـاسُ إلا وَارِدٌ لحِيـاضكـم ... وَذُو نَهَـل بـالـرِّيِّ عنهـنَّ صـادرُ
حُصُونُ بَنِي العَباسِ في كلِّ مَأْزِقٍ ... صُـدور العوالـي والسُّيـوفُ البَـواتِـرُ
فَطَـوْراً يَهُـزُّونَ القَـواطِـعَ والقَنـا ... وَطَـوْراً بـأَيـدِيهـمْ تُهَـزُّ المَخَـاصِـرُ
بَـأَيْـدِي عظـام النَّفْـعِ والضَّـر لاتَنِـي ... بِهْـم للعَطـايـا والمَنـايـا بَـوادِرُ
لِيَهنِكُمُ المُلْكُ الذي أَصبحَتْ بِكمْ ... أَسِـرَّتُـهُ مُخْتـالَـةً والمَنـابِـرُ
أَبـوكَ وَلِـيُّ المُصْطَفـى دونَ هـاشِـمٍ ... وَإنْ رَغَمتْ مِنْ حاسِدِيك المَناخِرُ

فأعطاه خمسة آلاف دينار ، فقبضها بين يديه وكساه خلعته ، وأمر له بعشرة من رقيق الروم ، وحمله على برْذون من خاصِّ مراكبه .

وذُكر أنه كان مع الرشيد ابن أبي مريم المدنيُّ ، وكان مضحاكاً له محداثاً فكيهاً ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يملُّ محادثته ، وكان ممَّن قد جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجّان ، فبلغ من خاصَّته بالرَّشيد أن بوَّأه منزلاً في قصره ، وخلطه بحُرَمه بطانته ومواليه وغلمانه؛ فجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر، وقام الرشيد إلى الصلاة فألفاه نائماً ، فكشف اللحاف عن ظهره ، ثم قال له : كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحت بعد ، اذهب إلى عملك ، قال: ويلك! قم إلى الصلاة ، قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود ، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي. فمضى وتركه نائماً ، وتأهَّب الرشيد للصلاة ، فجاء غلامه فقال: أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة ، فقام فألقى عليه ثيابه ، ومضى نحوه ، فإذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح ، فانتهى إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقال ابن أبي مريم : لا أدري والله! فما تمالك الرَّشيد أن ضحك في صلاته ، ثم التفت إليه وهو كالمغضب ، فقال: يابن أبي مريم ، في الصلاة أيضاً! قال: يا هذا وما صنعتُ؟ قال: قطعتَ عليَّ صلاتي ، قال: والله ما فعلتُ؛ إنما سمعت منك كلاماً غمَّني حين قلت: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلت: لا أدري والله! فعاد فضحك ، وقال: إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما[1].

وذكر بعضُ خدم الرَّشيد أن العباس بن محمد أهدى غاليةً إلى الرشيد ، فدخل عليه وقد حملها معه ، فقال: يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك! قد جئتك بغالية ليس لأحد مثلها ، أما مِسْكها فمن سُرَر الكلاب التَّبَّتية العتيقة ، وأما عَنْبرها فمن عنبر بحر عَدَن ، وأما بانُها فمن فلان المدنيَّ المعروف بجودة عَمِلِه ، وأما مركِّبها فإنسان بالبصرة عالم بتأليفها ، حاذق بتركيبها ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يمنَّ عليَّ بقبولها فعل ، فقال الرشيد لخاقان الخادم وهو على رأسه : يا خاقانُ ، أدخلْ هذه الغالية؛ فأدخلها خاقان، فإذا هي في بَرْنيَّة عظيمة من فضة، وفيها مِلعقة، فكشف عنها وابن أبي مريم حاضر ، فقال: يا أمير المؤمنين ، هَبْها لي ، قال: خذها إليك. فاغتاظ العباس ، وطار أسفاً ، وقال:

(١) هذا خبر منكر وكيف نعتمد على خبر هذا إسناده (وذُكِرَ)؟!! وما كان أصحاب الرشيد وسمّاره يجرؤون على هذا وقد عرف بتقواه وخشيته وبكائه مع هيبته في صدور الناس.

ويلك! عمَدت إلى شيء منعتُه نفسي ، وآثرتُ به سيدي فأخذتَه! فقال: أمَّه فاعلة إن دهن بها إلا استه! قال: فضحك الرشيد ، ثم وثب ابن أبي مريم ، فألقى طرف قميصه على رأسه ، وأدخل يده في البَرْنيَّة ، فجعل يخرج منها ما حملت يده ، فيضعه في استه مرَّة وفي أرفاغه ومغابنه أخرى ، ثم سوَّد بها وجهَه ورأسه وأطرافه ، حتى أتى على جميع جوارحه ، وقال لخاقان: أدخل إليَّ غلامي ، فقال الرشيد وما يعقل مما هو فيه من الضحك ، ادعُ غلامه ، فدعاه ، فقال له: اذهب بهذه الباقية ، إلى فلانة ، امرأته ، فقل لها: ادهني بهذا حِرَك إلى أن أنصرف فأنيكك. فأخذها الغلام ومضى ، والرَّشيد يضحك ، فذهب به الضحك. ثم أقبل على العبَّاس فقال: والله أنت شيخ أحمق ، تجيء إلى خليفة الله فتمدح عنده غالية! أما تعلم أنَّ كلَّ شيء تمطر السماء وكلَّ شيء تخرج الأرض له ، وكلَّ شيء هو في الدُّنيا فملك يده ، وتحت خاتمه وفي قبضته! وأعجبُ من هذا أنه قيل لملك الموت: انظر كلَّ شيء يقول لك هذا فأنفذه ، فمثل هذا تُمْدح عنده الغالية ، ويخطب في ذكرها ، كأنه بقَّال أو عطار أو تمَّار! قال: فضحك الرشيد حتى كاد ينقطع نَفَسهُ ، ووصل ابن أبي مريم في ذلك اليوم بمائة ألف درهم[(١)].

وذكر عن زيد بن عليّ بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، قال: أراد الرشيد أن يشرب الدَّواء يوماً ، فقال له ابن أبي مريم: هل لك أن تجْعلَني حاجبك غداً عند أخذك الدواء؛ وكل شيء أكسبه فهو بيني وبينك؟ قال: أفعلُ ، فبعث إلى الحاجب: الزمْ غداً منزلك؛ فإني قد ولَّيت ابن أبي مريم الحجابة. وبكَرَ بن أبي مريم ، فوضع له الكرسيَّ ، وأخذ الرَّشيد دواءه ، وبلغ الخبر بِطانتَه ، فجاء رسول أم جعفر يسأل عن أمير المؤمنين وعن دوائه ، فأوصله إليه ، وتعرَّف حالَه وانصرف بالجواب ، وقال للرسول: أعلِمِ السيدة ما فعلتُ في الإذن لك قبل الناس؛ فاعلمَها ، فبعثت إليه بمال كثير ، ثم جاء رسول يحيى بن خالد ، ففعل به مثل ذلك ، ثم جاء رسول جعفر والفضل ، ففعل كذلك ، فبعث إليه كلَّ واحد من البرامكة بصلَة جزيلة ، ثم جاء رسول الفضل بن الربيع فردَّه ولم يأذن له ، وجاءت رسلُ القواد والعظماء؛ فما أحد سهَّل إذنه إلا بعث إليه بصلة

---

(١) كيف نعتمد على هذا الإسناد (ذكر بعض الخدم) في إثبات هذا الحوار الخاص. . . ؟.

جزيلة؛ فما صار العصر حتى صار إليه ستون ألف دينار، فلما خرج الرشيد من العلَّة، ونقيَ بدنه من الدواء دعاه، فقال له: ما صنعت في يومك هذا؟ قال: يا سيدي، كسبت ستين ألف دينار، فاستكثرها وقال: وأين حاصلي؟ قال: معزول، قال: قد سوَّغناك حاصلنا؛ فأهد إلينا عشرة آلاف تفاحة، ففعل، فكان أربح مَن تاجره الرشيد[١].

وذكر عن إسماعيل بن صَبيح، قال: دخلتُ على الرشيد، فإذا جارية على رأسه، وفي يدها صحيفة ومِلْعقة في يدها الأخرى، وهي تلعقه أولاً فأولاً، قال: فنظرت إلى شيء أبيض رقيق فلم أدر ما هو! قال: وعلم أنِّي أحبُّ أن أعرفَه، فقال: يا إسماعيل بن صَبيح، قلت: لبيك يا سيدي، قال: تدري ما هذا؟ قلت: لا، قال: هذا جشيش الأرز والحنطة وماء نُخالة السميد؛ وهو نافع للأطراف المعوجَّة وتشنيج الأعصاب ويصفِّي البشرة، ويذهب بالكلَف، ويسمِّن البدن، ويجلُو الأوساخ. قال: فلم تكن لي همَّة حين انصرفت إلا أن دعوت الطباخ؛ فقلت: بكِّرْ عليَّ كلَّ غداة بالجشيش، قال: وما هو؟ فوصفت له الصِّفة التي سمعتها. قال: تضجر من هذا في اليوم الثالث، فعمِله في اليوم الأول فاستطبتُه، وعمله في اليوم الثاني فصار دونه، وجاء به في اليوم الثالث، فقلت: لا تُقدِّمه.

وذُكر أنَّ الرشيد اعتلَّ علة، فعالجه الأطباء، فلم يجد من عِلَّته إفاقة، فقال له أبو عمر الأعجميُّ: بالهند طبيب يقال له مَنْكَه، رأيتهم يقدِّمونه على كلِّ من بالهند؛ وهو أحد عُبَّادهم وفلاسفتهم، فلو بعث إليه أمير المؤمنين لعلَّ الله أن يبعث له الشفاء على يده! قال: فوجَّه الرَّشيد من حمله، ووجَّه إليه بصلة تعينه على سفره. قال: فقدم فعالج الرشيد فبرئَ من علته بعلاجه، فأجرى له رزقاً واسعاً وأموالاً كافية، فبينا مَنْكَه ماراً بالخُلْد؛ إذا هو برجل من المانيِّين قد بسط كساءه، وألقى عليه عقاقير كثيرة، وقام يصف دواء عنده معجوناً، فقال في صفته: هذا دواء للحمَّى الدائمة وحمَّى الغِبِّ وحمَّى الربع، والمثلثة؛ ولوجع الظهر والركبتين والبواسير والرياح، ولوجع المفاصل ووجع العينين، ولوجع

(١) خبر لا يصح كسابقاته.

البَطْن والصُّداع والشقيقة ولتقطير البول والفالج والارتعاش؛ فلم يدَعْ عِلة في البَدَن إلا ذكر أن ذلك الدواء شفاء منها، فقال مَنْكَهَ لترجمانه: ما يقول هذا؟ فترجم له ما سمع، فتبسَّم مَنْكَه، وقال: على كلِّ حال ملك العرب جاهل؛ وذاك أنه إنْ كان الأمر على ما قال هذا، فلمَ حملني من بلادي، وقطعني عن أهلي، وتكلَّف الغليظَ من مؤنتي، وهو يجد هذا نصب عينيه وبإزائه! وإن كان الأمر ليس كما يقول هذا فلم لا يقتله! فإن الشريعة قد أباحت دمه ودم مَنْ أشبهه؛ لأنه إن قُتل، فإنما هي نفس يحيا بقتلها خلْق كثير؛ وإن ترك هذا الجاهل قَتلَ في كلِّ يوم نفساً، وبالحَري أن يقتل اثنتين وثلاثاً وأربعاً في كلِّ يوم؛ وهذا فساد في التدبير، ووهن في المملكة.

وذُكر أنَّ يحيى بن خالد بن برمك ولَّى رجلاً بعض أعمال الخراج بالسَّوَاد، فدخل إلى الرشيد يودِّعه؛ وعنده يحيى وجعفر بن يحيى، فقال الرشيد ليحيى وجعفر: أوصياه، فقال له يحيى: وَفِّرْ واعمرْ، وقال له جعفر: أنصِفْ وانتصف، فقال له الرشيد: اعدْل وأحسنْ.

وذكر عن الرشيد أنه غضب على يزيد بن مزيد الشيبانيِّ، ثم رضي عنه، وأذن له، فدخل عليه، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ الحمد لله الذي سهَّل لنا سبيل الكرامة، وحلَّ لنا النِّعمة بوجه لقائك، وكشف عنا صُبابة الكرب بإفضالك، فجزاك الله في حالِ سخطك رضا المنيبين، وفي حال رضاك جزاء المنعمين الممتنِّين المتطوِّلين؛ فقد جعلك الله وله الحمد، تتثبَّتُ تحرُّجاً عند الغضب، وتتطوَّل ممتناً بالنعم، وتعفو عن المسيء تفضُّلاً بالعفو.

وذكر مصعب بن عبد الله الزبيري أن أباه عبد الله بن مصعب أخبره أنَّ الرشيد قال له: ما تقول في الذين طعنوا على عثمان؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين، طعن عليه ناس؛ وكان معه ناس؛ فأما الذين طعنوا عليه فتفرَّقوا عنه؛ فهم أنواع الشِّيَع، وأهل البِدعَ، وأنواع الخوارج؛ وأما الذين كانوا معه فهم أهلُ الجماعة إلى اليوم. فقال لي: ما أحتاج أن أسأل بعد هذا اليوم عن هذا.

قال مصعب: وقال أبي ـ وسألني عن منزلة أبي بكر وعمر كانت من رسول الله ﷺ؛ فقلت له: كانت منزلتهما في حياته منه منزلتَهما في ممَاته، فقال: كفيتني ما أحتاج إليه.

قال: وُوُلِّيَ سلاَم ، أو رشيد الخادم ـ بعض خدَّام الخاصة ـ ضياعَ الرَّشيد بالثغور والشأمات ، فتواترت الكتب بحسن سيرته وتوفيره وحمد الناس له ، فأمر الرَّشيد بتقديمه والإحسان إليه ، وضمٍّ ما أحب أن يضمَّ إليه من ضياع الجزيرة ومصر. قال: فقدم فدخل عليه وهو يأكل سَفَرْجلاً قد أتى به من بلْخ؛ وهو يقشِّرهُ ويأكل منه ، فقال له: يا فلان ، ما أحسن ما انتهى إلى مولاك عنك ، ولك عنده ما تحبُّ ، وقد أمرت لك بكذا وكذا ، ووليتك كذا وكذا ، فسل حاجَتك ، قال: فتكلَّم وذكر حسنَ سيرته ، وقال: أنسَيْتُهم والله يا أمير المؤمنين سيرةَ العُمرين ، قال: فغضب واستشاط ، وأخذ سفرجلة فرماه بها ، وقال: يابن اللخناء ، العمريْن ، العمريْن ، العمرين! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز ، نحتملها لعمر بن الخطاب!

وذكر عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أن أبا بكر بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حدَّثه ، عن الضَّحاك بن عبد الله ، وأثنى عليه خيراً؛ قال: أخبرني بعضُ ولد عبد الله بن عبد العزيز ، قال: قال الرَّشيد: والله ما أدري ما آمُر في هذا العُمَريِّ! أكره أن أقدم عليه وله خلَف أكرههم؛ وإني لأحبُّ أن أعرف طريقَه ومذهبه ، وما أثق بأحد أبعثه إليه ، فقال عمر بن بزيع والفضل بن الربيع: فنحن يا أمير المؤمنين ، قال: فأنتما ، فخرجا من العَرْج إلى موضع من البادية يقال له خلْص ، وأخذا معهما أدلاء من أهل العرْج؛ حتى إذا ورد عليه في منزله أتَيَاه مع الضحى؛ فإذا هو في المسجد ، فأناخا راحلتيهما ومَنْ كان معهما من أصحابهما ، ثم أتياه على زيِّ الملوك من الريح والثياب والطِّيب؛ فجلسا إليه وهو في مسجد له ، فقالا له؛ يا أبا عبد الرحمن ، نحن رسل مَنْ خلْفنا من أهل المشرق ، يقولون لك: اتقِّ الله ربك؛ فإذا شئت فقم. فأقبل عليهما ، وقال: ويحكما! فيمن ولمن! قالا: أنت ، فقال: والله ما أحبُّ أني لقيت الله بمحجمة دم امرئ مسلم ، وأنَّ لي ما طلعت عليه الشمس؛ فلما أيسا منه قالا: فإن معنا شيئاً تستعين به على دهرك ، قال: لا حاجة لي فيه ، أنا عنه في غنىً ، فقالا له: إنها عشرون ألف دينار ، قال: لا حاجة لي فيها ، قالا: فأعطها مَنْ شئت ، قال: أنتما ، فأعطياها مَنْ رأيتما ، ما أنا لكما بخادم ولا عَوْن. قال: فلما يئسا منه ركبا

راحلتيهما حتى أصبحا مع الخليفة بالسُّقيا في المنزل الثاني ، فوجدا الخليفة ينتظرهما؛ فلما دخلا عليه حدثاه بما كان بينهما وبينه ، فقال: ما أبالي ما أصنع بعد هذا فحجَّ عبدُ الله في تلك السنة ، فبينا هو واقف على بعض أولئك البَاعة يشتري لصبيانه؛ إذا هارون يسعَى بين الصَّفا والمروة على دابّة ، إذ عرض له عبد الله وترك ما يريد ، فأتاه حتى أخذ بلجام دابته ، فأهوتْ إليه الأجناد والأحراس ، فكفَّهم عنه هارون فكلمه. قال: فرأيتُ دموعَ هارون؛ وإنها لتسيل على مَعْرَفة دابته ، ثم انصرف.

وذكر محمد بن أحمد مولَى بني سليم قال: حدثني الليث بن عبد العزيز الجوزجانيَّ ـ وكان مجاوراً بمكة أربعين سنة ـ أن بعض الحَجبَة حدَّثه أنَّ الرشيد لما حجَّ دخل الكعبة ، وقام على أصابعه ، وقال: يا مَنْ يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين ، فإنَّ لكل مسألة منك ردّاً حاضراً ، وجواباً عتيداً ، ولكلِّ صامت منك علمٌ محيط ناطق بمواعيدك الصادقة ، وأياديك الفاضلة ، ورحمتك الواسعة. صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، واغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا. يا مَنْ لا تضرُّه الذنوب ، ولا تخفَى عليه العيوب ، ولا تنقصه مغفرة الخطايا. يا من كبس الأرض على الماء ، وسدَّ الهواء بالسَّماء ، واختار لنفسه الأسماء ، صلِّ على محمد ، وخِرْ لي في جميع أمري. يا من خشعت له الأصوات بألوان اللغات يسألونك الحاجات؛ إنَّ من حاجتي إليك أن تغفر لي إذا توفَّيتني ، وصرتُ في لحدي ، وتفرَّق عني أهلي وولدي. اللهمَّ لك الحمد حمداً يفضلُ على كلِّ حمد كفضلك على جميع الخلق. اللهم صلِّ على محمد صلاة تكون له رضاً ، وصلِّ على محمد صلاةً تكون له حرزاً ، واجْزه عنَّا خيرَ الجزاء في الآخرة والأولى. اللهمَّ أحينا سُعداء وتوفَّنا شُهداء ، واجعلنا سعداء مرزوقين ، ولا تجعلنا أشقياء محرومين!

وذكر عليُّ بن محمد عن عبد الله ، قال: أخبرني القاسم بن يحيى ، قال: بعث الرشيد إلى ابن أبي داود والذين يخدمون قبر الحسين بن عليٍّ في الحَيْر ، قال: فأُتيَ بهم ، فنظر إليه الحسن بن راشد ، وقال: مالك؟ قال: بعث إليَّ هذا الرجل ـ يعني الرشيد ـ فأحضرني ، ولست آمنه على نفسي ، قال له: فإذا دخلتَ عليه فسألك ، فقل له: الحسن بن راشد وضعَني في ذلك الموضع. فلمَّا دخل

عليه قال هذا القول ، قال: ما أخلق أن يكون هذا من تخليط الحسن! أحضروه ، قال: فلما حَضَر قال: ما حمَلك على أن صيَّرت هذا الرجل في الحَيْر؟ قال: رحم الله مَنْ صيَّره في الحَيْر ، أمرتني أم موسى أن أصيِّره فيه ، وأن أجري عليه في كل شهر ثلاثين ردهماً. فقال: ردُّوه إلى الحَيْر، وأجروا عليه ما أجْرَتْه أم موسى، ـ وأم موسى هي أمُّ المهدي ابنة يزيد بن منصور.

وذكر علي بن محمد أن أباه حدَّثه قال: دخلت على الرشيد في عوْن العِبادي فإذا هو في هيئة الصيف ، في بيت مكشوف؛ وليس فيه فرش على مقعد عند باب في الشق الأيمن من البيت ، وعليه غُلالة رقيقة ، وإزار رشيديٌّ عريض الأعلام ، شديد التَّضْريج؛ وكان لا يخيِّش البيت الذي هو فيه ، لأنه كان يؤذيه؛ ولكنه كان يدخل عليه برد الخَيش؛ ولا يجلس فيه. وكان أوَّل من اتخذ في بيت مقيله في الصيف سقفاً دون سقف ، وذلك أنه لمَّا بلغه أن الأكاسرة كانوا يطيِّنون ظهورَ بيوتهم في كلِّ يوم من خارج ليكفَّ عنهم حرَّ الشمس؛ فاتخذ هو سقفاً يلي سقف البيت الذي يقيل فيه.

وقال عليٌّ عن أبيه: خُبرت أنه كان في كل يوم القيظ تغار من فِضَّة يعمل فيها العطار الطَّيب والزعفران والأفاويه وماء الورد ، ثم يدخل إلى بيت مقيله ، ويدخل معه سبع غَلائل قصب رشيدية تقطيع النساء ، ثم تغمس الغلال في ذلك الطِّيب ، ويؤتَى في كل يوم بسبع جوار ، فتخلع عن كل جارية ثيابها ثم تخلع عليها غُلالة ، وتجلس على كرسيٍّ مثقب ، وترسل الغُلالة على الكرسي فتجلله ، ثم تبخَّر من تحت الكرسي بالعود المدرج في العنبر أمداً حتى يجف القميص عليها ، يفعل ذلك بهنَّ ، ويكون ذلك في بيت مقيله ، فيعبق ذلك البيت بالبخور والطيب.

وذكر عليٌّ بن حمزة أن عبد الله بن عباس بن الحسن بن عبيد الله بن عليِّ بن أبي طالب قال: قال لي العباس بن الحسن: قال لي الرَّشيد: أراك تكثر من ذكر يَنْبُع وصفتها ، فصفها لي وأوجز ، قال: قلت: بكلام أو بشعر؟ قال: بكلام وشعر ، قال: قلت: جِدَتُها في أصل عِذْقها ، وعِذْقها مسرَّح شأنها ، قال: فتبسَّم ، فقلت له:

يا واديَ القصرِ نِعم القصرُ والوادي مِن مَنزِلٍ حاضِرٍ إن شئت أَو بادِي

تـــرى قـــراقيـــره والعِيـــسَ وَاقفـــةً وَالضـبَّ وَالنـونَ والمـلاّح والحـادِي

وذكر محمد بن هارون ، عن أبيه ، قال : حضرت الرشيد ، وقال له الفضل بن الربيع : يا أمير المؤمنين ، قد أحضرتُ ابنَ السَّماك كما أمرتني ، قال : أدخله ، فدخل ، فقال له : عظني ، قال : يا أميرَ المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما ؛ جنة أو نار . قال : فبكى هارون حتى اخضلت لحيته ، فأقبل الفضلُ على ابن السَّماك ، فقال : سبحان الله! وهل يتخالَج أحداً شكٌّ في أنَّ أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله! لقيامه بحق الله وعدله في عباده ، وفضله! قال : فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه ، وأقبل على أمير المؤمنين ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن هذا ـ يعني الفضل بن الربيع ـ ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتَّق الله وانظر لنفسك . قال : فبكى هارون حتى أشفقنا عليه . وأفحِم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرْف حتى خرجنا[1] .

قال : ودخل ابن السَّماك على الرَّشيد يوماً ؛ فبينا هو عنده إذ استسقى ماء ، فأُتيَ بقلَّة من ماء ؛ فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على رِسْلك يا أميرَ المؤمنين ؛ بقرابتك من رسول الله ﷺ ، لو مُنعتَ هذه الشَّرْبة فبكم كنت تشتريها؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هنأك الله ، فلما شربها ، قال له أسالك بقرابتك من رسول الله ﷺ ، لو مُنِعتَ خروجها من بدنك فبماذا كنت تشتريها؟ قال : بجميع ملكي ؛ قال ابن السَّماك إن ملكاً قيمته شربة ماء ، لجدير ألا ينافَس فيه . فبكى هارون ؛ فأشار الفضلُ بن الربيع إلى ابن السَّماك بالانصراف فانصرف .

قال : ووعظ الرشيد عبدُ الله بن عبد العزيز العمريُّ ، فتلقَّى قوله بنعمْ ياعم ، فلما ولَّى لينصرف ؛ بعث إليه بألفي دينار في كيس مع الأمين والمأمون فاعترضاه بها ، وقالا : ياعمّ ؛ يقول لك أمير المؤمنين : خذها وانتفع بها أو فرِّقها ، فقال : هو أعلم بمَنْ يفرقها عليه ، ثم أخذ من الكيس ديناراً ، وقال : كرهت أن أجمع

(١) مختصر تأريخ دمشق / ابن منظور [٢٧/ ٢٠] .

سوء القول وسوء الفعل وشخص إليه إلى بغداد بعد ذلك ، فكره الرشيد مصيرَه إلى بغداد ، وجمع العُمَرِيين ، فقال: مالي ولابن عمِّكم! احتملتُه بالحجاز ، فشخص إلى دار مملكتي؛ يريد أن يفسد عليَّ أوليائي! ردُّوه عني ، فقالوا: لا يقبل منا؛ فكتب إلى موسى بن عيسى أن يرفق به حتى يردَّه ، فدعا له عيسى ببُنيٍّ عشر سنين ، قد حفظ الخطب والمواعظ ، فكلَّمه كثيراً ، ووعظه بما لم يسمع العمريُّ بمثله ، ونهاه عن التعرُّض لأمير المؤمنين ، فأخذ نعله ، وقام وهو يقول: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ .

وذكر بعضهم أنه كان مع الرشيد بالرَّقة بعد أن شخص من بغداد ، فخرج يوماً مع الرشيد إلى الصَّيْد ، فعرض له رجل من النساك ، فقال: يا هارون ، اتق الله ، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك: خذ هذا الرجل إليك حتى أنصرف، فلما رجع دعا بغذائه، ثم أمر أن يطعم الرجل من خاصِّ طعامه ، فلما أكل وشرب دعا به ، فقال: يا هذا ، أَنْصفني في المخاطبة والمسألة ، قال: ذاك أقلُّ ما يجب لك ، قال: فأخبِرْني: أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون؟ قال: بل فرعون ، قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ ، قال: صدقت؛ فأخبِرني فمن؟ خير أنت أم موسى بن عمران؟ قال: موسى كليم الله وصفيَّه ، اصطنعه لنفسه ، وأتمنه على وحيه ، وكلَّمه من بين خلقه ، قال: صدقت؛ أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه إلى فرعون قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ، ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يَكْنِيَاه؛ وهذا وهو في عُتوِّه وجبَريّته؛ على ما قد علمتَ ، وأنت جئتني وأنا بهذه الحالة التي تعلم ، أؤدي أكثر فرائض الله عليَّ ، ولا أعبد أحداً سواه ، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه؛ فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام ، وأفظعه؛ فلا بأدب الله تأدَّبْتَ ، ولا بأخلاق الصالحين أخذْت ، فما كان يؤمنك أن أسطوَ بك! فإذاً أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنيًّا. قال الزاهد: أخطأتُ يا أمير المؤمنين؛ وأنا أستغفرك؛ قال: قد غفر لك الله؛ وأمر له بعشرين ألف درهم ، فأبى أن يأخذها ، وقال: لا حاجة لي في المال؛ أنا رجل سائح. فقال هرثمة ـ وخزَره ـ: تردُّ على أمير المؤمنين يا جاهل صِلتَه! فقال الرَّشيد: أمسك عنه ، ثم قال له: لم نعطك هذا المال لحاجَتِك إليه؛ ولكن مِنْ عادتنا أنه لا يخاطب الخليفة أحدٌ ليس من أوليائه

ولا أعدائه إلا وصله ومنحه؛ فاقبل من صِلتنا ما شئت؛ وضعها حيث أحببت. فأخذ من المال ألفَيْ درهم ، وفرَّقها على الحجَّاب ومَنْ حضر الباب.

* * *

ذكر مَنْ كان عند الرَّشيد من النساء المهائر

قيل: إنه تزوَّج زبيدة؛ وهي أمُّ جعفر بنت جعفر بن المنصور ، وأعرس بها في سنة خمس وستين ومائة في خلافة المهديِّ ببغداد ، في دار محمد سليمان - التي صارت بعد للعباسة ، ثم صارت للمعتصم بالله - فولدت له محمداً الأمين ، وماتت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين.

وتزوَّج أمَةَ العزيز أمَّ ولد موسى ، فولدت له عليَّ بن الرشيد.

وتزوج أمَّ محمد ابنة صالح المسكين ، وأعرس بها بالرَّقة في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ومائة ، وأمُّها أم عبد الله ابنة عيسى بن عليّ صاحبة دار أمِّ عبد الله بالكرْخ التي فيها أصحاب الدبس؛ كانت أملكت من إبراهيم بن المهديِّ ، ثم خلعت منه فتزوَّجها الرشيد.

وتزوَّج العباسة ابنة سليمان بن أبي جعفر ، وأعرس بها في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ومائة ، حُملت هي وأمُّ محمد ابنة صالح إليه.

وتزوج عزيزة ابنة الغطريف؛ وكانت قبله عند سليمان بن أبي جعفر فطلقها ، فخلَف عليها الرشيد ، وهي ابنة أخي الخيزران.

وتزوج الجُرَشيَّة العثمانية ، وهي ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وسُميت الجُرَشيَّة لأنها ولدت بجُرَش باليمن ، وجدَّة أبيها فاطمة بنت الحسين بن عليِّ بن أبي طالب ، وعمُّ أبيها عبد الله بن حسن بن حسن بن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ومات الرشيد عن أربع مهائِر: أم جعفر ، وأم محمد ابنة صالح ، وعباسة ابنة سليمان ، والعثمانية.

* * *

[ذكر ولد الرشيد]

وولد للرشيد من الرِّجال:

محمد الأكبر وأمُّه زبيدة، وعبد الله المأمون وأمه أم ولد يقال لها مراجل، والقاسم المؤتمن وأمُّه أمُّ ولد يقال لها قصف، ومحمد أبو إسحاق المعتصم وأمه أم ولد يقال لها ماردة، وعليٌّ وأمه أمَة العزيز، وصالح وأمه أمٌّ ولد يقال لها رثم، ومحمد أبو عيسى وأمه أم ولد يقال لها عرابة، ومحمد أبو يعقوب وأمه أم ولد يقال لها شذرة، ومحمد أبو العباس وأمه أم ولد يقال لها خُبْث، ومحمد أبو سليمان وأمه أم ولد يقال لها رَواح، ومحمد أبو عليٍّ وأمُّه أمٌّ ولد يقال لها دواج، ومحمد أبو أحمد وأمُّه أم ولد يقال لها كِتْمان.

ومن النساء: سكينة وأمها قِصف وهي أخت القاسم، وأم حبيب وأمها ماردة وهي أخت أبي إسحاق المعتصم، وأروى أمها حَلوب، وأم الحسن وأمُّها عِرَابة، وأم محمد وهي حَمْدونة، وفاطمة وأمها غُصص واسمها مصفًّى، وأم أبيها وأمها سكَّر، وأم سلمة وأمها رحيق، وخديجة وأمها شَجَر، وهي أخت كريب، وأم القاسم وأمها خزق، ورملة أم جعفر وأمها حَلْي، وأمُّ علي أمها أنيق، وأم الغالية أمُّها سمندل، وريْطة وأمها زينة.

[بقية ذكر بعض سير الرشيد]

ذكر يعقوب بن إسحاق الأصفهانيِّ، قال: قال المفضل بن محمد الضبيَّ: وجَّه إليَّ الرشيد؛ فما علمت إلاَّ وقد جاءتني الرُّسل ليلاً، فقالوا: أجب أمير المؤمنين؛ فخرجت حتى صرت إليه؛ وذلك في يوم خميس؛ وإذا هو متَّكئ ومحمد بن زبيدة عن يساره، والمأمون عن يمينه؛ فسلَّمت، فأومأ إليَّ فجلست، فقال لي: يا مفضَّل، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال كم اسماً في: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾؟ قلت: ثلاثة أسماء يا أميرَ المؤمنين، قال: وما هي؟ قلت: الكاف لرسول الله ﷺ، والهاء والميم، وهي للكفار، والياء وهي لله عزَّ وجلَّ. قال: صدقت؛ هكذا أفادنا هذا الشيخ ـ يعني الكسائيَّ ـ ثم التفت إلى

محمد ، فقال له : أفهمت يا محمد؟ قال : نعم ، قال : أَعِدْ عليَّ المسألة كما قال المفضَّل ، فأعادها ، ثم التفت إليَّ فقال : يا مفضَّل ، عندك مسألة تسألنا عنها بحضرة هذا الشيخ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين؛ قال : وما هي؟ قلت : قول الفرزدق :

أَخَذْنا بآفاقِ السماءِ عليكُم   لنا قَمَراها والنُّجومُ الطَّوالِعُ

قال : هيهات أفادناها متقدِّماً قبلك هذا الشيخ؛ لنا قمراها ، يعني الشمس والقمر كما قالوا سنَّة العمريْن : سنة أبي بكر وعمر ، قال : قلت : فأزيد في السؤال؟ قال : زِدْ ، قلت : فلِمَ استحسنوا هذا؟ قال : لأنه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد ، وكان أحدهما أخفَّ على أفواه القائلين غلَّبوه وسَمَّوا به الآخر؛ فلما كانت أيام عمر أكثر من أيام أبي بكر وفتوحُه أكثر ، واسمه أخف غلبُّوه ، وسموا أبا بكر باسمه ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ وهو المشرق والمغرب. قلت : قد بقيت زيادة في المسألة! [فالتفت إلى الكسائي] فقال : يقال في هذا غير ما قلنا؟ قال : هذا أوفى ما قالوا، وتمام المعنى عند العرب. قال : ثم التفت إليَّ فقال : ما الذي بقي؟ قلت : بقيت الغاية التي إليها أجرى الشاعر المفتخر في شعره ، قال : وما هي؟ قلت : أراد بالشمس إبراهيم ، وبالقمر محمداً ﷺ ، وبالنجوم الخلفاء الراشدين من آبائك الصالحين. قال : فاشرأبَّ أمير المؤمنين؛ وقال : يا فضل بن الربيع؛ احمل إليه مائة ألف درهم لقضاء دَيْنه ، وانظر مَن بالباب من الشعراء فيؤذنَ لهم ، فإذا العُمَانيُّ ومنصور النَّمَريُّ ، فأذن لهما ، فقال : أدنِ مني الشيخ ، فدنا منه وهو يقول :

قُل للإمامِ المقتدي بأمِّهِ   ما قاسِمٌ دون مَدَى ابن أمِّهِ

* فقد رَضيناه فقم فَسَمِّهِ *

فقال الرشيد : ما ترضى أن تدعوَ إلى عقد البيعة له وأنا جالس حتى تنهضني قائماً! قال : قيام عَزْم يا أمير المؤمنين ، لا قيام حَتْم ، فقال : يؤتى بالقاسم ، فأتي به ، وطبطب في أرجوزته ، فقال الرشيد للقاسم : إنَّ هذا الشيخ قد دعا إلى عَقْد البيعة لك ، فأجزِل! له العطية، فقال : حكم أمير المؤمنين، قال : وما أنا وذاك! هات النَمريَّ ، فدنا منه ، وأنشده :

* ما تَنقضِي حسرةٌ مِنِّي ولا جَزَعُ *

ـ حتى بلغ ـ

مـا كـان أَحسـن أيـامَ الشبـابِ ومـا　　أبقـى حـلاوةَ ذِكـرَاهُ التـي تَـدَعُ
مـا كنـتُ أُوفِـي شَبـابـي كُنـهَ غُـرَّتِـه　　حتـى مضـى فـإذا الـدنيـا لـه تَبَـعُ

قال الرشيد: لا خير في دنيا لا يُخطَر فيها ببُرْد الشباب.

وذكر أن سعيد بن سلم الباهليَّ دخل على الرشيد، فسلَّم عليه، فأومأ إليه الرشيد فجلس، فقال: يا أمير المؤمنين، أعرابيٌّ من باهلة واقفٌ على باب أمير المؤمنين؛ ما رأيت قطّ أشعرَ منه، قال: أما أنك استبحت هذين ـ يعني العمَاني ومنصور النَّمري، وكانا حاضريه ـ نُهبىٰ لهما أحجارك، وقال: هما يا أمير المؤمنين يهباني لك؛ فيؤذن للأعرابيِّ؟ فأذن له، فإذا أعرابيٌّ في جُبَّة خَزٍّ، ورداء يمان، قد شدَّ وسطه ثم ثناه على عاتقه، وعمامة قد عَصَبها على خدَّيه، وأرخى لها عَذبَة، فمثل بين يدي أمير المؤمنين، وألقيت الكراسي، فجلس الكسائي والمفضَّل وابن سلْم والفضل بن الربيع، فقال ابنُ سلْم للأعرابيُّ: خذ في شرف أمير المؤمنين، فاندفع الأعرابيَّ في شعره، فقال أمير المؤمنين: أسمعُك مستحسناً، وأنكرك متهماً عليك؛ فإنْ يكن هذا الشعر لك وأنت قلته من نفسك، فقل لنا في هذين بيتين ـ يعني محمداً والمأمون ـ وهما حفافاه فقال: يا أميرَ المؤمنين حمَّلتني على القدر في غير الحذر روعةَ الخلافة، وبهَر البديهة ونفور القوافي عن الرَّويّة، فيمهلني أمير المؤمنين؛ يتألف إليَّ نافراتها، ويسكن رَوْعي. قال: قد أمهلتك يا أعرابيُّ، وجعلت اعتذارك بدلاً من امتحانك، فقال: يا أميرَ المؤمنين نفَّست الخناق، وسهَّلت ميدان النفاق، ثم أنشأ يقول:

هُمـا طُنُبـاهـا بـارَكَ الله فيهمـا　　وأَنـتَ أميـرَ المـؤمنيـنَ عمـودُهـا
بَنَيْـت بِعَبْـدِ الله بَعـدَ مُحمَّـدٍ　　ذرا قبَّـةِ الإِسـلامِ فـاهتـزَّ عُـودُهـا

فقال: وأنت يا أعرابيُّ بارك الله فيك؛ فسَلْنا، ولا تكن مسألتك دون إحسانِك، قال: الهُنيدة يا أمير المؤمنين، قال: فتبسَّم أمير المؤمنين، وأمر له بمائة ألف درهم وسبع خلَع.

وذُكر أنَّ الرشيد قال لابنه القاسم ـ وقد دخل عليه قبل أن يبايع له: أنت للمأمون ببعض لحمك هذا، قال: ببعض حظِّه.

وقال للقاسم يوماً قبل البيعة له: قد أوصيتُ الأمين والمأمون بكَ، قال أمَّا

أنت يا أمير المؤمنين فقد توليتَ النَّظر لهما ، ووكلتَ النظر لي إلى غيرك .

وقال مصعب بن عبد الله الزَّبيريُّ : قدم الرَّشيد مدينة الرسول الله ﷺ ومعه ابناه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، فأعطى فيها العطايا وقسَّم في تلك السنة في رجالهم ونسائهم ثلاثة أعطية ؛ فكانت الثلاثة الأعطية التي قسَمها فيهم ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وفرض في تلك السنة لخمسمائة من وجوه موالي المدينة ، ففرَض لبعضهم في الشَّرف منهم يحيى بن مسكين وابن عثمان ، ومخراق مولى بني تميم ، وكان يقرئ القرآن بالمدينة .

وقال إسحاق الموصلي : لما بايع الرشيد لولده ، كان فيمَن بايع عبدُ الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، فلمَّا قدم ليبايع ، قال :

لا قصَّرَا عنها ولا بَلَغَتْهُما حتى يطولَ على يديكَ طِوَالُها

فاستحسن الرشيد ما تمثَّل ، وأجزل له صلته . قال : والشعر لطُريح بن إسماعيل ، قاله في الوليد بن يزيد وفي ابنيه .

وقال أبو الشيص يرثي هارون الرشيد :

غَرَبَتْ في الشَّرقِ شمسٌ فلها عَيْنَانِ تَدْمَعْ
ما رأينا قطُّ شَمساً غربت مِن حيثُ تَطْلُعْ[1]

وقال أبو نواس الحسن بن هانى :

جَرَت جَوارٍ بالسَّعدِ والنحس فنحنُ في مأْتمٍ وفي عُرْسِ
القلبُ يَبكي والسِّنُّ ضاحكَةٌ فنحن في وحْشَةٍ وفي أُنْسِ
يُضحكُنا القائمُ الأَمينُ ويبـ ـكينا وَفاةُ الإمام بالأَمْس
بَدْرانِ : بدر أَضْحَى ببَغدادَ بالـ ـخُلدِ ، وبَدرٌ بطوسَ في رَمْسِ

وقيل : مات هارون الرشيد ، وفي بيت الرشيد ، وفي بيت المال تسعمائة ألف ألف ونيِّف[2] .

* * *

(١) المنتظم [٩/ ٢٣٢] .
(٢) البداية والنهاية [٨/ ١٣٣] .

فهرس الموضوعات

* * *